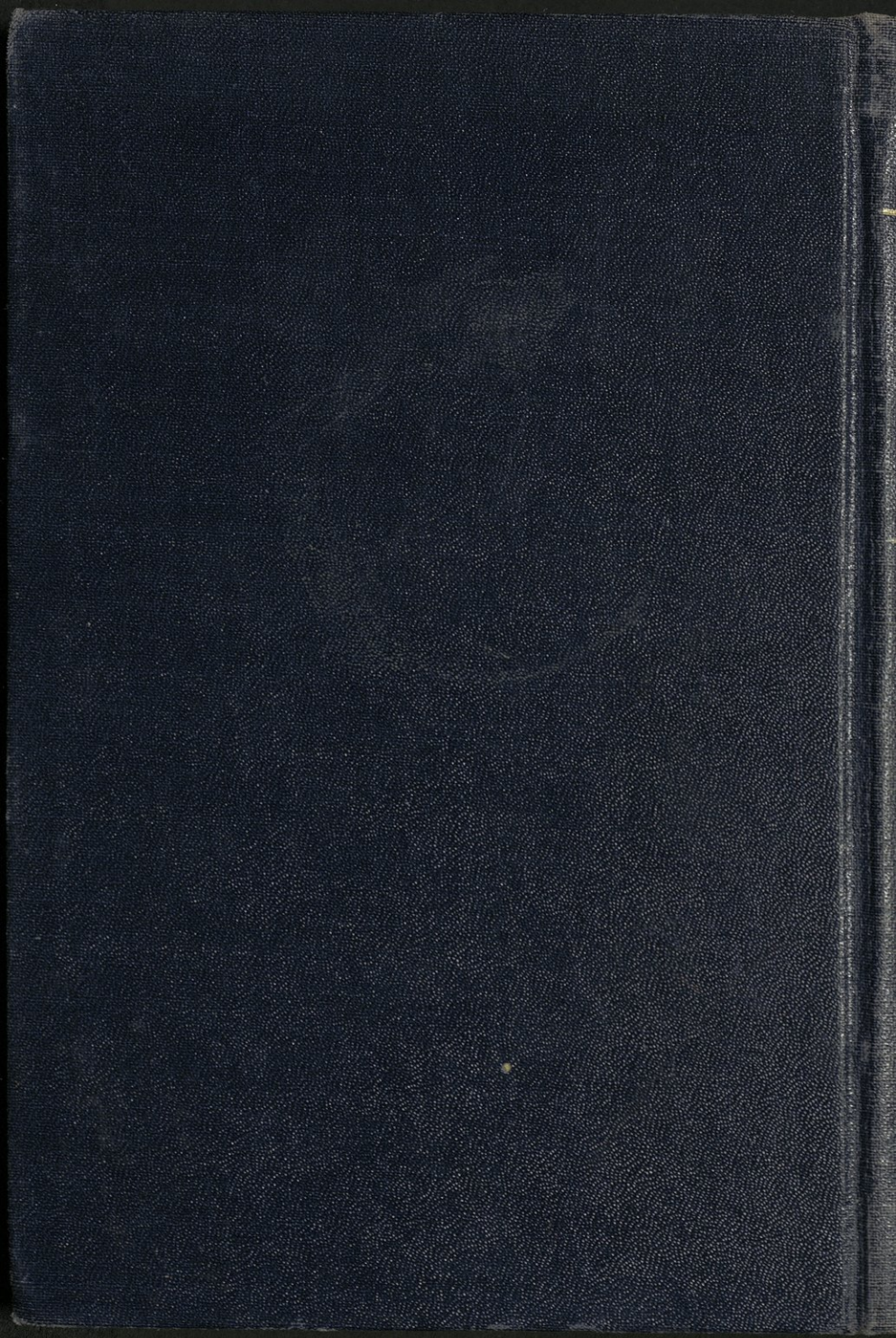
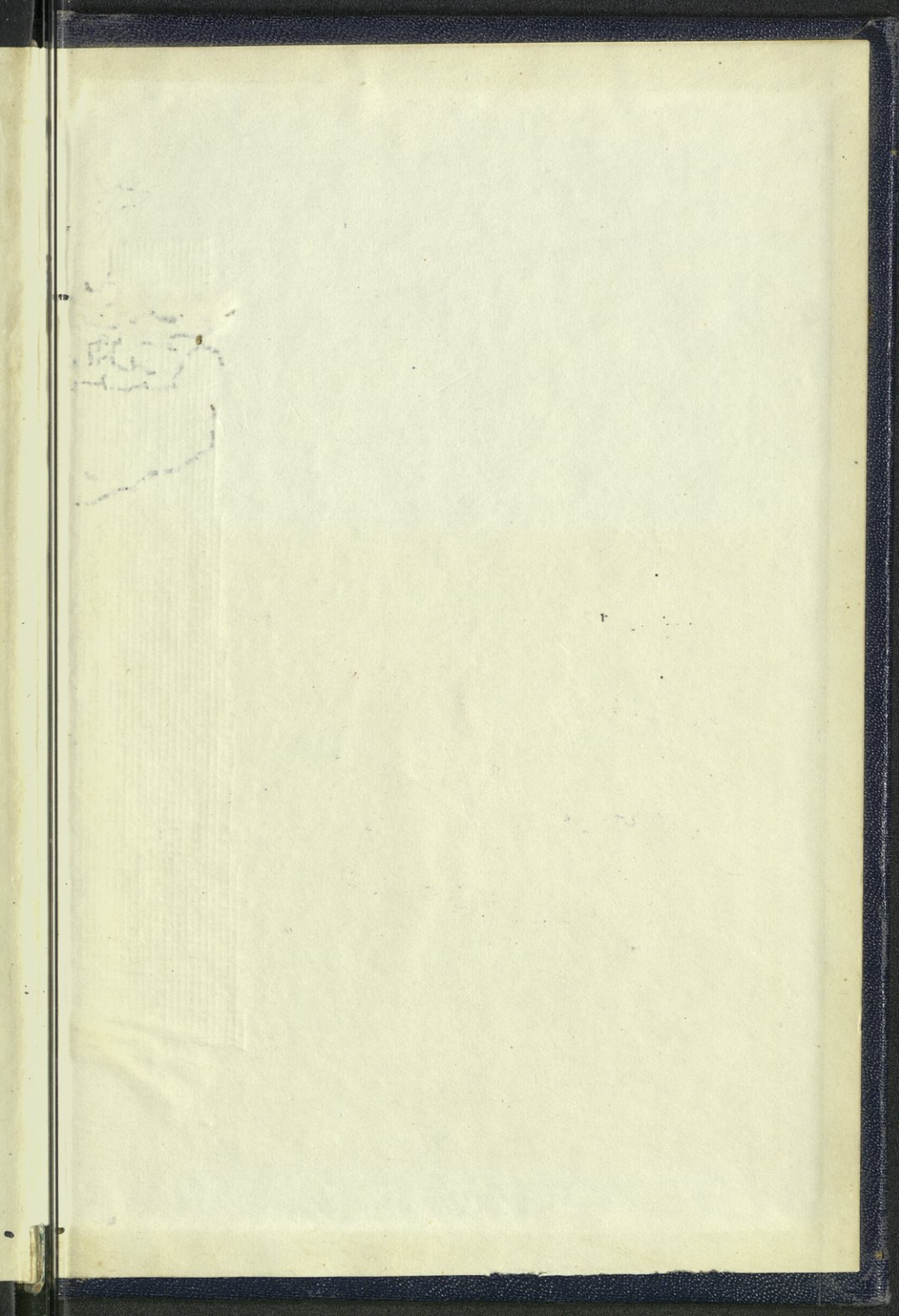






297.15
W142A
V.1

~~12 MAY 59~~

~~13 FEB 1974~~

~~J. LIB.~~

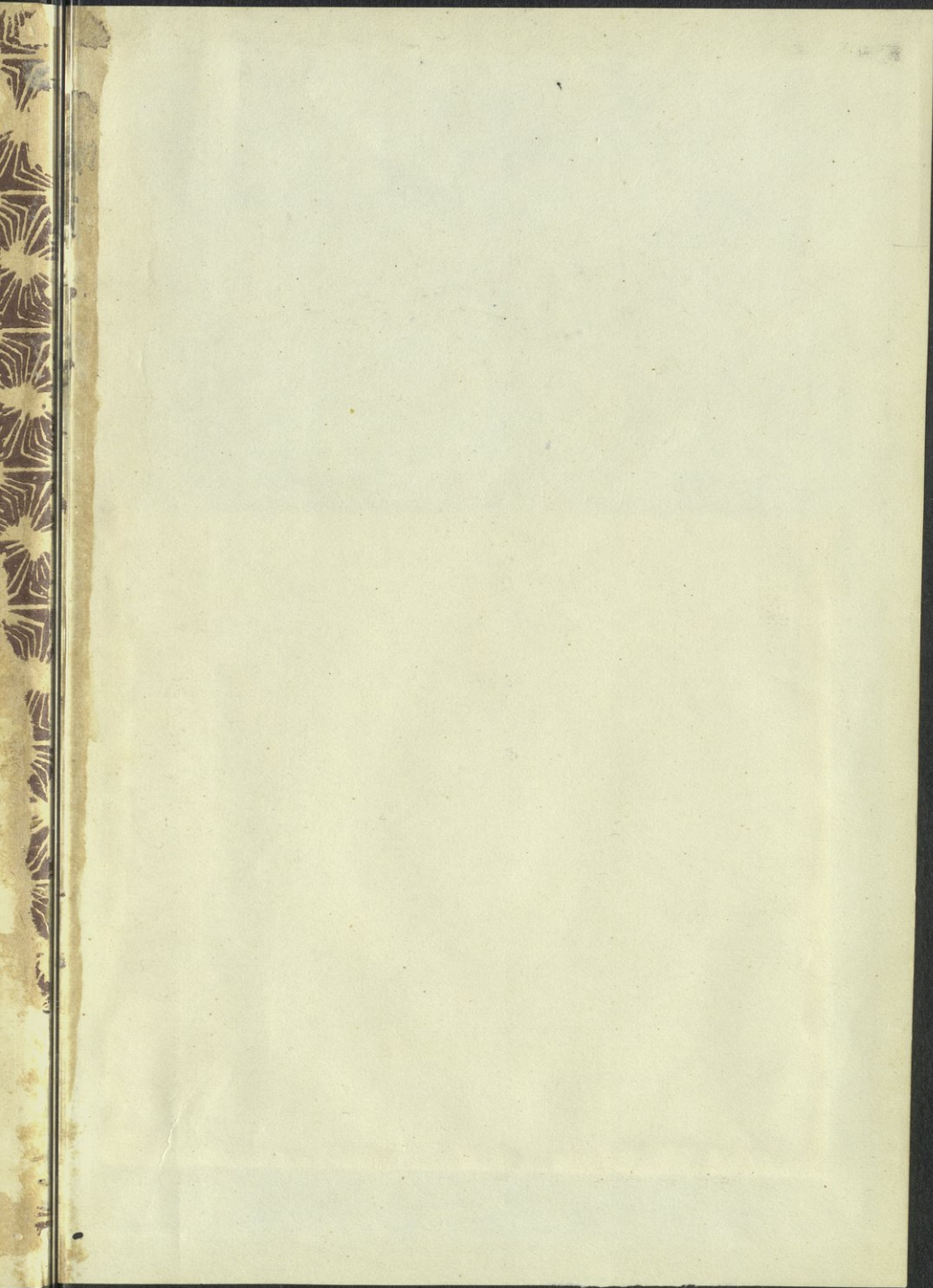
~~23 AUG 1960~~

~~21 JUN 1974~~

~~JAFET LIB.~~
~~11 SEP 1980~~

~~JAFET LIB.~~
~~18 FEB 1991~~

~~12 FEB 1974~~



٥٠
A
مداد

الإسلام وعصر العلماء

تأليف

فريد الدين
عبد القادر

مقدمة الطبعة الثانية

﴿ حقوق الطبع محفوظة للمؤلف ﴾

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي بمصر

إصدارها مصطفى محمد

١٣٥٠ هـ — ١٩٣٢ م

58293

مطبعة المعاهد بجوار قسم الجمالية بمصر

عاش. جدي ١٩٤٤

مقدمة الطبعة الثانية

من كتاب الاسلام في عصر العلم

ألفت هذا الكتاب وأنا في منعة السن قريب عهد بدور التحصيل والدرس ، فهو أصدق كتاب يمثلني مناضلاً عن الفلسفة الروحانية والدين باعتبار أنهما الركنان القويان من أركان الاجتماع والترقي ، في أول أدوارى وأنا أدفع بالدليل تلو الدليل اكتساباً للانصار حول هذا الأصل ، وهو أن الجماعة التي أقامها الاسلام في أول عهدها بالوجود يجب أن يكون هو الذى ينعشها من كبوتها .

على هذا الأصل سرت في تأليف كتابى هذا ، رامياً الى لفت نظر المتعلمين الذين فتنتهم فواتن الفلسفة الحديثة فتيخلوا أنها الطريق الوحيد لبلوغ الغاية القصوى من الرقى الانسانى ، واذا قلت الفلسفة الحديثة عنيت بها الفلسفة المادية التى تفرض أن الانسان حيوان راق وأن الغاية التى أمامه هى وصوله الى آخر ماتنيله اياه العلوم الكونية ، وما يعده استعدادده لقبوله منها .

كنت فى ذلك العهد أى منذ ثلاثين سنة قد أتممت جولة شاقة متعبة قد جلتها وأنا فى السن وحيداً فى متاهات خالية من الهداة والادلة ، وفى وسط جماعات علمية لا تمت الى هذه المباحث بسبب ، فكنت

أرطم في الشبهة العلمية وأصلى بنارها وحدى لأجد من يهديني الى حلها ، ولا من يدلني على مقابلها ، فما كدت أخرج منها ، سليم الأيمان ، قوياً على النضال ، حتى ألقيت بنفسي من هذا الكتاب في مجال لا يجسر أن يقفه المقرمون الفحول ، فما ظنك بناشي . لا يزال من هو أسن منه في دور التعلم والتحصيل ؟

خضت من البحث في نفسية الانسان بحراً خضماً ، فألقيت بنفسي بين أواذيه وليس لي من وسائل النجاة من طغيانها الا عزمة قوية للوصول الى ساحله ، فلم أدع من عوامله الذاتية وعوامله الخارجية وروح العصر باباً للبحث الا ولجته ، ولا كلاماً عن الدين والعقل والروح العلمية وما طوحت بي اليه من درس أول منشأها وما أثر عن اليونانيين الأقدمين عنها . وما أتى به فلاسفتهم وحكماؤهم فيها ، وما أنتجت الحروب بين الفرس وبينهم من الآثار على العلم والفلسفة ، وما أحدثته جامعة الاسكندرية من النوض العلى في العالم ، وما اقتضاه هذا الخوض من دراسة مذاهب الفلاسفة اليونانيين الخ الخ ، ثم الخروج من ذلك كله الى دراسة الروح الاسلامية ، والمثل الأعلى الذي أوجده رسول الله صلى الله عليه وسلم للانسان ، وما استدعاه ذلك من البحوث في ماهية الدين الفطرى ، وعرض الأدوار التى تنتاب العقائد ، وكنه الفضيلة والرذيلة ، وغاية المدنية الاسلامية ، وما استتبعه هذا الدرس العميق من النظر فى المادة وماوراءها ، والامام بالبحوث التجريبية التى يقوم علماء اوروبا فى هذا العصر بها لإثبات العالم الروحانى الخ الخ ،

إلا درستها درس تعمق ، فخرجت منها وأنا أشد إيماناً بصحة النتائج التي وصلت إليها مني بها قبل أن أخوضها ، فلم أشأ أن أختص بها فأخذت ادونها وأنشرها بين الناس حتى ملأت مجلدين ضخمين ، نالا من إعجاب القارئ قسطاً كبيراً ، فلم يمر عليهما غير زمن يسير حتى نفذت طبعتهما الأولى ، وانصرفت لخوض غمرات أخرى فأهملت إعادة طبعهما سنين رغماً عن كثرة طلبهما ومضت مدة كانت تكفي للتغذية على رسومه ، وبحو اسمه من الأذهان ، غير أن الذين وعوا ذكره كانوا لا يفتأون يباحون في إعادة نشره ، فأمكننا الله من ذلك ويسره وها نحن نقدمه للقراء مطبوعاً أجمل طبع ، راجين من الله التوفيق فيما نتوخى من نشر الحقيقة ، وبث الفضيلة ، وتغذية الروح ، انه ولي الكفاية وهو المستعان ؟

محمد فريد وجدي

الإسلام في العراق

تأليف

محمد قنديل

الجزء الاول

مجمعة الانسان

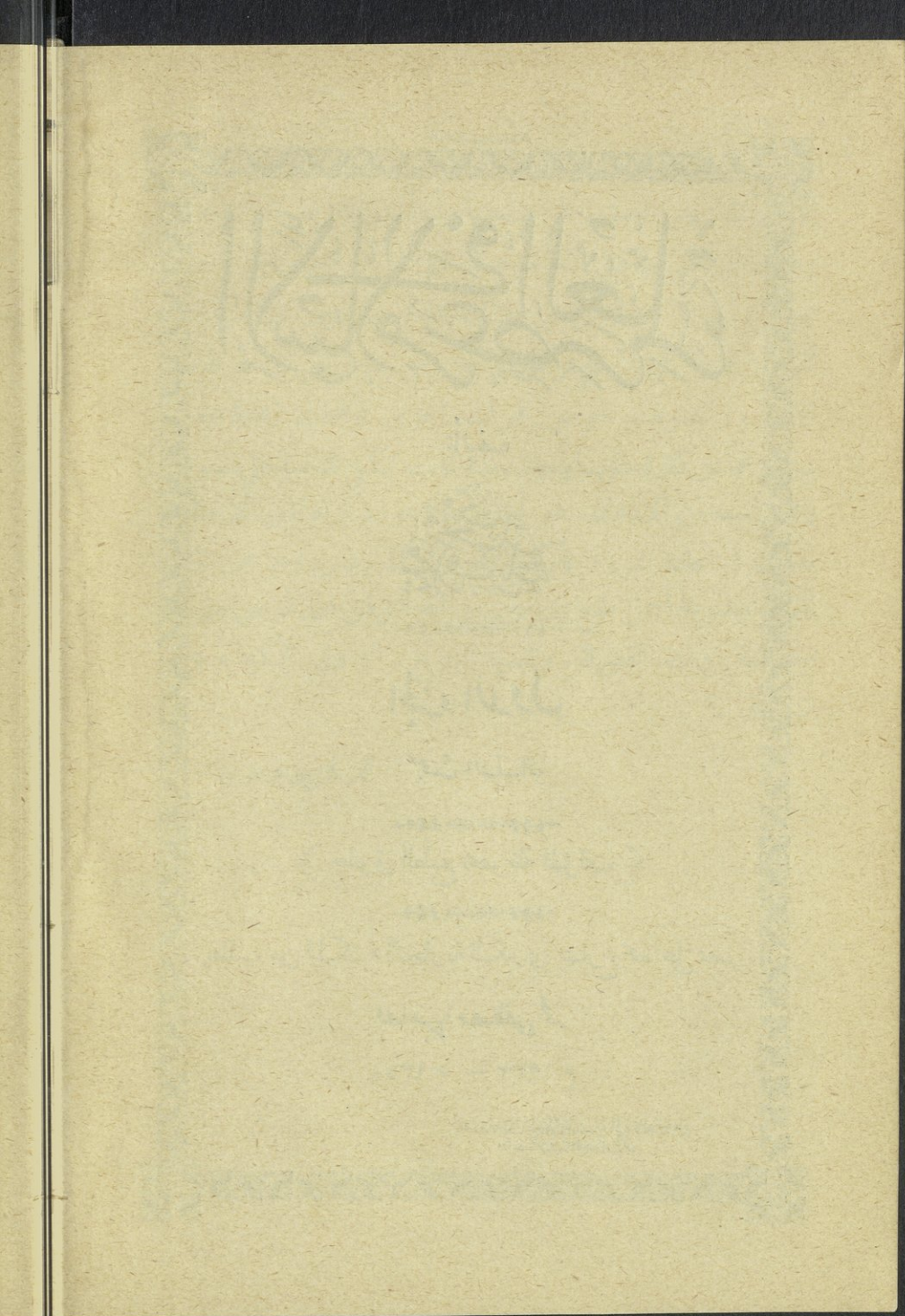
(حقوق الطبع محفوظة للمؤلف)

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي بمصر

إعارة مصطفى محمد

١٣٥٠ هـ - ١٩٣٢ م

مطبعة المآخذ بخاروق صم الجالية بالمشاهرة
ادارة بمنزلة لطيف بن مازي



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمدك اللهم على أن هديتنا لدينك القويم، وأقتنا بكلامك القديم، على صراطك المستقيم، حمد عبد معترف بالقصور عن حصر آلائك، مقر بالعجز عن توفيتك الشكر على جزيل نعمائك؛ وصل اللهم وسلم على الانسان الكامل الذى بعثته بالنور الشامل والبرهان الفاصل، فنصرت به الحق على الباطل، وأثمت به وبأتباعه الأمثال، ميزان حكمك العادل سيد الوجود محمد عبدك ورسولك خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين آمين.

(أما بعد) فإني استخرت الله تعالى فى وضع كتاب كبير الحجم أضمنه موجز أبحاثى فى المواضع الفلسفية التى لها علاقة بالاسلام خصوصا وبالدين المطلق عموماً، وأريد من هذا العمل الشاق إقامة صرح مشيد للدين الاسلامى فى هذا العصر الذى اشتهر بزعة أركان الأديان وهدم صروحها وتقويض أساطين المعتقدات ونسف قصورها وسأتوخى ان شاء الله فى بناء هذا الصرح تسخير ذلك العلم الهادم للعقائد غير ذاهب بمدركاته مذاهب التعسف والتأويل، ولا ناهج بمقرراته مخالجات التكلف والتحريف. ولكنى سأسير معها سيرها الطبيعى

وأسلكت بها مسلكها التحليلي ولم لا يتفق العلم والدين ويكون الأول مؤيد الثاني وناصره ، وحاميه من شائبات الشكوك وموازره ، مادام العلم منتزعا من أشياء الكون والدين وحى من خالقه ؟ وهل يعقل أن يكون وحى سماوى مخالفا لوضع طبيعى وكلاهما مستمد وجوده من خالق واحد تنزهه أفعاله عن التناقض وتتعالى أفاضاته عن التعارض ؟ بل الذى يخشى صولة العلم ويتهيب سطواته ، رجل يريد أن يعطف حقائق الكون على خيالاته ، وأن يرى نواميس الوجود مطابقة لوهمياته ، هذا هو الذى يرى العلم عدوا لدوداً ، فيصد عنه صدوداً ، ويكون أمامه حيوداً شروداً ، هذا هو الذى ان ذكر العلم بحضرته عبس وبسر ، وأدبر واستكبر ، وقال ان هذا الا قول البشر . أما المسلم فتى عهدناه أحجم عن العلم أو تهيب ورده ؟ وانى رأينا صدق عنه وخاف بطشه ؟ العلم فى كل عصر ظهير الاسلام ومؤيده ، وناصر تعاليمه ومعضده . لم يسقط المسلمون الى ما هم عليه الآن الا بلويهم عن العلم كشحا ، وضربهم عن الخوض فى مناحيه صفحا ، ألم تر أن فى كل دور من أدوار العلم كتبنا للمسلمين اتخذت أرقى مدركاته سلاحاً للدفاع عن الاسلام وتأيينه ، وجعلت أعضل مسائله آلة لتشديد صرحه وتوطيده ؟ فما الاشعرى وابن تيمية والغزالى وغيرهم الا من فرسان تلك الحلبة ، وأعلام ذلك الميدان ، وقد فازوا وفاز من اقتدى بهم فى كل عصر على اعداءه فوزا ليس بعده مطلب للمزيد . فلماذا لا يكون هذا العلم نفسه فى هذا العصر الانور جارياً على سنته الطبيعية التى سارها مع الاسلام

في كل عصر سابق ؟

أكبر سبب نراه لتراخي روابط الدين من قلوب بعض المتعلمين اليوم هو لاشك عدم استخدام القوام عليه العلم لتقرير حقائقه كما كانت هذه عادة آبائنا الأولين ، وستهم في نشر الدين لهذا الإهمال ظن أولئك المتعلمون أن أسلحة الاسلام أقل مضاء من أسلحة علومهم الكونية، فانتبدوا لأنفسهم مكاناً بعيداً عن أخوانهم في المدرجات والعقائد . نرى كثيراً من المتكلمين في الدين لا يسلكون في تأييد دعاويه إلا مسلك القضايا المنطقية ، والفلسفة العقلية ، بينما يرى هؤلاء المتعلمون أنفسهم في عصر الفلسفة الحسية ، والبراهين الطبيعية التحليلية فكيف يقر هؤلاء لأولئك بزعامة ويعترفون لهم برئاسة وهم يريدون أن يلبسوا ما يعتقدونه أو يدركوه بصفة تقرب من ذلك .

يقرأ هؤلاء المتعلمون من كتب الغرب ما يستدلون به على أن الإنسان مترق من سلسلة حيوانية ، وأن بينه وبين القردة والكلاب قرابة أصلية فتنكشف من أذهانهم بسبب هذه الشبهة الواحدة كثيراً من المدرجات الدينية في أصل الخليفة ومنابع الأخلاق ووجود النفس وخلودها وحقيقة الفضيلة وليسوا من العلم بمكانة يستطيعون معها النظر في أدلة أولئك القائمين ومحاكماتها فتلتأت أفكارهم بشبه لا يجدون أمامهم من أكثر القوام على العقائد رجالاً نصبوا أنفسهم لتحليل أمثال هذه المسائل التي طم بها العلم العصري وصار بذلك جائحة على ما يسمونه الدين : فلا يرى أولئك الشبان إلا السكوت على مضض

والجود على هواجس تجيش في صدورهم وترغمهم على عدم التعلق بالدين لتوهمهم أنه أضعف من أن يقاوم هذا التيار الجارف الذي لم يترك أمامه سدا أثريا الإهدمه ، ولا بناء قديما الا اكتسحه ، فيحسبون أنه في حركته هذه قد نسف صرح الاسلام أيضا قياساً على غيره ويفوتهم ان صرح الاسلام ليس مبنيا من أجر الخزعبلات متماسكة بطين الأوهام ، حتى يعدو عليه تيار أو يقابله في جريه اعصار « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »

هذا هو السبب الأكبر في عدم تمسك أكثر المتعلمين من بالدين ، وهروبهم من كل ما يشم منه رائحة الدين ، وهم أنفسهم لو رأوا من المدافعين عنه قوة حقيقية في حمايتهم لبيضته لكانوا أعز أبناء وأقوى اعضاء . بناء على هذه الاعتبارات كلها رأينا أن نشرع في هذا العمل الشاق اقتداء بأسلافنا الاولين الذين استخدموا علوم عصورهم للدين وسنجعل ان شاء الله عمداً في الدفاع عنه المقررات العلمية ، والمدرجات الفلسفية الثابتة ، سالكين بها أقصد المسالك الاستقرائية والتحليلية ، غير تاركين فيما نظن هاجسهم جسد بالضمير بسبب أى مسألة من المسائل العلمية الحديثة التي لها ارتباط بالعقائد الا أتينا على تحليلها وبيان الحقيقة منها مع البرهنة على أنها أقوى مؤيد لمدرجات الاسلام وأشد ناصر لحقائقه ، حتى أن القارئ سوف يرى ان شاء الله ان ما كان يخاله في العلم الطبيعي ناسفاً لأصول الدين ومبدداً لفروعه أحسن مقرر لها وأمن مثبت لبنائها وليس ذلك بعجيب ، فقد قال الله تعالى : « سنريه

آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد » « ولتعلن نبأه بعد حين » وعندئذ يليق بنا أن نتمثل بقول الشاعر :

(أفلت شمس الأولين وشمسنا * أبدا على أفق العلا لا تغرب)
وقد رأينا أن نقسم كتابنا هذه الى أربعة أجزاء كل منها يشتمل على بحث قائم بنفسه ولكنها كلها ترمى الى غاية واحدة هي اقامة أقوى الأدلة العلمية لتقرير « ان الدين عند الله الاسلام »

سنتكلم ان شاء الله في الجزء الأول على (الانسان) ثم في الثاني على (المدنية) ثم في الثالث على (ما وراء المادة) ثم في الرابع على (حياة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم) أما مبحث (الانسان) فسندرس فيه ان شاء الله الانسان من كل جهاته التي لها ارتباط بالدين والفلسفة . ولا يعجبن قارئ من تخصيص كتاب ضخم في موضوع الانسان وحده فان حقيقة الانسان أعوص مسائل الانسان ، وقد سهل عليه أن يدرس الكون ويستخدم كثيراً من نواميسه ، ولكن صعب عليه جدا درس نفسه والوقوف على سرها

نحن لانعنى بدرس الانسان درس جثمانه فانا لا نعد ذلك الهيكل اللحمي على ادهاشه للعقل وتحيرهِ للفكر الا جزءاً من الكون المادى الذى تغلغل الانسان فى اكتشافه ، ولا نعنى به أيضاً اكتناه سر روحه والوقوف على جوهرها ؛ هيات ذلك مما لانطمع فيه ولا نسمح لعقولنا بالتطفل عليه ؛ ولكننا نريد به درس علاقاتنا بالوجود

المحسوس وبوجود آخر نشعر به ونذوب شوقاً لمعرفة .
لو كان الانسان مدفوعاً بالفطرة الى انتهاج سبيل خاص في أمور حياته كما هو الشأن عند سائر الحيوانات لما كان ثمت حاجة الى درس علاقته بالوجود الا من جهة محدودة ، ولكانت سعادته تبعاً لذلك محصورة بحدود الدائرة التي حجر عليه تعديها ولكنه خلق مطلق القوى مرخي العنان لا يدرك لسعادته حداً ، ولا يتخيل لكماله تخماً ؛ كلما ارتقى في معارج احدى سعادته درجة لاحت له درجات ، وكلما جاز باحة تراءت له باحات ، وهو مع ذلك يجد من كنز فطرته مادة تمكنه من مداومة الجد والتعب ، ومن فيض مبدعه عوناً على معاناة النصب ، حتى سمح لنفسه أن يقول وقد جال في مواجى المطالب وجاب ، وجاس في انحاء الكون فأخطأ وأصاب :

(ولكن قلباً بين جنبي ماله * مدى ينتهى بي في مراداجده)

الانسان في كل جولة من جولات معناه ، وفي كل جوبة من جوبات فكره ، حتى في كل همسة من همسات ضميره ، أو حركة من حركات وجدانه يحاول أن يستجلي جمال ذاته ، ويستكشف محاسره ، ويستديم مع ذلك وجوده الشخصي على أكمل صفة يدركها في نفسه ، فهو لا يأكل أو يشرب ، ولا يلبس أو يتزين ، ولا يفكر أو يتدبر وبالاختصار لا يتحرك حركة مهما كانت بسيطة الا وهو مدفوع بدافع مبهم لتسجيل ذاته وشخصيته في سجل الوجود ، ونقش معناه في صفحاته نقشاً يأمن عليه العاديات من كل نوع .

مضى على الانسان زمن كان فيه قريب العهد بهذا المشهد المدهش (الدنيا) فكان شغله بنفسه واهتمامه بدفع الطوارئ عنه . مانعاً له من التفكير في كنه القوى التي تصرفه ولكن حدثت عليه أزمان بعد ذلك تم له فيها التغلب على المييدات الفجائية فما شعر الا وضميره يطالبه بأمر جلل وخطب عظيم ، وإذا بصائح في فؤاده يصيح : ماذا أنا ؟ ما هذا العالم ؟ ماهي هذه المحسوسات التي تحتفبني من كل جانب ؟ ماهي علاقتي بها ؟ أين أنا ذاهب بعد فناء هذا الجسد ؟ أأتلاشى كما تتلاشى الأشياء أم أدوم في عالم غير هذا العالم وعلى شكل غير هذا الشكل ؟ الوجود قديم أم حديث ؟ إن كان قديماً فكيف وجد وان كان حديثاً فمتى وجد ولماذا وجد ؟ أهو أبدي لا يزول أم فان لا بد له من أفول ؟ ان كان أبدياً فماذا يكون في المستقبل وبأى شكل يتشكل ؟ وان كان فانياً فالى أين يذهب وما الذي يحل مكانه حين يعطب ؟ أيحل مكانه لاشيء أم الفضاء ؟ ما معنى لا شيء وما معنى الفضاء ؟

دعنا من هذا كله : فما هي المادة في ذاتها وما هي أسباب وجودها ودوامها وما هي عوامل رقيها وتدرجها ؟ كيف استحالت من تراب الى انسان ؟ وما هي الحياة وكيف نشأت في الجماد وما هو هذا العقل المكرم وكيف تولد في هذا الطين الأصم الأبهم ؟ ثم دعنا من هذا أيضاً وهلم تفكر كيف نشأ الحيوان ووجد الانسان وتدرج في مراقب العرم فان ؟ كيف اهتدى وتصرف وكيف نما وتطور

ثم دعنا من هذا فما هذه النباتات ولم وجدت بهذه الاختلافات ؟

وما سبب تلوين أزهارها وتطييب أنوارها وتحلية ثمارها؟ هل خلقت للانسان والحيوان، أو هي عوالم مستقلة خلقت لذاتها ولها أغراض وقوانين؟ كيف اهتدت الى ما فيه حياتها وتمتعت بما به بقاءها واستمرارها؟ ثم ماهذه الحيوانات ولم يختلف في الصور والهيئات وتنوعت في الأقدار والأحجام وتباينت في التراكيب والأجسام؟ كيف نشأ فيها ذلك الالهام العجيب الذي يهديها لبناء مساكنها وتغذية صغارها والهيمنة على أحوالها وأمورها وإني اهتدت الى معاشها ووفقت لسبل غذائها وما يقيم أمر حياتها؟ وما الانسان من بينها؟ كل هذه المسائل جاشت في صدر الانسان وتراءت له على مالا يعد من الصور على حسب المؤثرات التي أثرت على ذهنه، والمناسبات التي أحاطت به في مكانه وزمنه، واشتغل بها قديما وحديثا وبني عليها علومه وصناعاته وأخلاقه وسجاياه، وقاس عليها فضائله ومزاياه، وشرع على موجبها قوانينه، ونظم على مقتضاها عقائده ودينه، وعلى قدر تمكنه من درسها وتدر به على فحصها والقرب من أسرارها فاز من وجوده بقسط من السعادة محدودا، ونال من حياته جزءا مقدورا فمنهم من حكم على وجوده بالحدوث والعدم، ومنهم من قضى له بالبقاء والقدم. فجرى الأولون فيه على سمت شكلوا على مقتضاه علومهم وعقائدهم؛ وسار الآخرون على طريق خالفوا فيه مناظيرهم على الجملة وبنوا عليه علومهم وعقائدهم أيضا وجرى الاثنان من قديم الزمن في حلبة واحدة كان السبق بينهما سجالا فكان حكم العقل عليهما

فى كل زمن يختلف عن سابقه ولاحقه مما لا يجوز أن نخفيه عن قرائنا اليوم
قال الأولون بأن للوجود الها لا نهاية لحوله وقوته ، وللإنسان
روحا خالدة بعد موته ، وله فضائل مستمدة من دينه وعقيدته ، ولأعماله
فى هذه الدار صور تنتظره فى آخرته ، وأن الوجود وما فيه مسخر
لسيطرته ، يحول فى ضمائرهم بما تقتضيه أمور مصلحته ، وتستدعيه
مطالب سعادته ، جعلوا هذه العقائد تسلياً للإنسان فى دار محتته ،
وروحاً ينتسبها فى كربتته ، وأملاً يدفع به اليأس فى شدته

أما الآخرون فانغضوا رءوسهم سخريه وهزوا ، وهزوا أعطافهم
زهوا وعجبا ، ثم رفعوا عقيرتهم كبراً و صلفاً وقالوا : هذه آثار الماضين
وبقية من بقايا الأقدمين . فقد حكم العلم (معاذ الله) بأن نواميس
الكون كافية فى تعليل كل ظواهره وقوانينه قد فسرت أكثر غوامضه ،
فلا داعى لفرض وجود قوى وراء الطبيعية ، ولا موجب لتوهم عالم
علوى وراء هذه المرائى المحسوسة . أما الوجود فقديم إن لم يكن بصورته
فبمادته الأولية وأما القوى التى تصرفه فلا استقلال لها فى ذاتها بل هى
صفة هيولاه الأصلية . فلا مادة بلا قوة ولا قوة بلا مادة ، بل المادة
نفسها مظهر من مظاهر القوة المتحركة فى الأثير من الأزل . أما الإنسان
وما نسبتموه اليه من نفس مستقلة عن الجسد ، وما منحتموهام من مزية
الخلود بعد فناءه وتبعثر ذراته ، فما تبطله الشواهد العلمية وتحيله البدائة
الشريحية فقد قرر العلم (معاذ الله) أنه لا فرق بينه وبين غيره من
الكائنات السفلية ، ولا ميزة له على سواه من الأنواع الحيوانية بل ليس

هو في ذاته الا حيوانا فاق في قوة التعقل غيره من بنى نوعه ؛ على أن بنى نوعه (الحيوانات) ليست محرومة من قسط مناسب من العقل والفطنة ، واذا أردت الدليل فدونك كتب حياة الحيوان تر من آثار الفكر وتأنج العقل مايدلك تمام الدلالة على أن العقل ليس وصف الإنسان المميز ولا حد الانفصال بين العالمين الحيوانى والانسانى . فاذا نسبت للانسان روحا مستقلة عن الجسد ومنحتها مزية الخلود والبقاء ، فلم لاتحكم هذا الحكم نفسه بالنسبة للحيوانات . اليس هذان آثار المعلومات السابقة الناقصة حينما كان الناس لا يميزون بين ما يؤيده الحس والعيان وبين ماهو من قبيل الخيالات التى تنشأ فى الوجدان بلا رواية ولا معان ؟

أما الفضائل التى تفرعون الأذان بها ، وتضربون وجوه مناظريكم بسلاحها ، مدعين أنكم قادتها وزعماءوها ، وأن ييدكم حلها وعقدها ، وأن لكم حق السيطرة على الناس بها ، فليست فى الحقيقة تبعاً لتعليم من التعليم ولا حقاً لناس دون ناس ، بل هى تابعة لنواميس طبيعية تظهر فى الأمم الحية ظهور آثار سائر النواميس الأخرى ولا علاقة لها بدين البتة ؛ بل الدين مشتق منها ومتفرع عنها . الا ترى أن أكثر المتدينين بعداء عن الفضيلة مغمورين فى غمرات الرذيلة ؟ دونك الاحصائيات المدققة التى يستقصيها علماء الجرائم مثل (لومبروزو) و (فيريزو) و (سيرجى) وغيرهم ترى بعينك ان أكثر الجرائم صادرة من المتدينين الذين يزعمون أن لهم ارتباطاً

بالدين ، وغيره على تعاليمه ثم انظر بعد ذلك للأمم التي تركت الأديان ، وجعلتها خبراً لـ كان والتفتت للمدنية والعلوم الطبيعية ، ترأفها قد دبرت أمورها ، ونظمت شؤونها ، فقامت على قطب الاستقامة والاستقلال ونحت منحى الكرم والجلال ، وكشفت لها المدنية عن وجهها الباسم ، وتجلت لها الحضارة فى شكلها الفاتن ، فسيطرت على الأمم الأخرى بعلومها وصنائعها ، وقهرتهم بقوتها وسطوتها ، كما أنها صارت بالنسبة اليهم علماء فى فضائلها وآدابها ؟

إذا كان لافضيلة بغير الدين ، وأنها مطابقة لذات التعاريف التى تكلفون أنفسكم باثباتها فى كتب الأخلاق ، فما سبب هذه الآثار المدهشة للعقول المضلة للهدارك ؟ إذا كان الانسان كما تقولون خالق مستقلاً وأنه من طبيعة علوية ، وأنه مستعد لأن يسمو بروحه إلى أرقى منصة للحياة الملكية ، فلماذا هبطتم وعلا عليكم أولئك الذين يزعمون ان الانسان من سلالة القرده وان بينه وبين الحيوانات أواصر من القربى ، ووشائج من الرحم ؟ إذا كانت الفضيلة كما تقولون لا تثبت للانسان بغير دين ولا تلتصق بضميره بأى عامل غيره ، فلماذا حرمتهم من أصغر أنواعها ، وسبقكم فى باحاتها أولئك الذين يقولون إن الفضيلة صفة من صفات الحياة الانسانية والرديلة كذلك ، تنشأ الأولى عند ما تكون شؤون تلك الحياة جارية على سمى طبيعى ملائمة لسنن الكون ، وتبرز الثانية فى ضد تلك الحالة ؟

أماما تزعمونه من أن لا قيام للأمم بغير الدين ، ولا نظام لهم سوى

جبله المتين ، فمالا تحتاج معكم فيه إلى كبير جدال ، ولا كثير قيل وقال ، فدونكم الأمم الغربية الكبرى قد بنت عظمها بملاشاته ، وأقامت وحدتها بمناظرة أشياعه ، وتشيتت شمل أتباعه ، ومع ذلك فلها كل يوم في سجل المعالي أثر جديد ، وفي حداثق الفخار والمجد صرح مشيد ؛ فان كان الأمر كما تزعمون فما هذا الأثر المنعكس ، وما تفسير هذا الأمر الملتبس ؟ أليست كل هذا البراهين المحسوسة تدل على أنكم متمسكون بأقوال لا يقوم عليها من عالم الشهود شاهد ، ولا ينهض لها من واقع الحوادث مدافع ! لاجرم أنكم تتأخرون وتتقدم ، وتخضعون وتتحكم ، ولا غرو إن علونا وسفلتم ، وعززنا وذلتم ، كما لا عجب ان استخدمنا نواميس الكون وأسرتكم ، واستدررنا خيرات الطبيعة وحرمتكم .

كل هذه الشبه المتعاصية قد نشأت في وسط هذا العلم الأوربي ، ونبع سمها من بين ذرات دسم هذه المدنية العجيبة . فالتاثت أكثر العقول بأقذارها ، وتسممت بسمومها ، فدارت على محاورها ، وجرت على مخالجها ، فتأدت إلى حال سندرسه هنا إن شاء الله درساً مدققاً . هذه السموم بعينها سرت إلى أكثر أفراد شبيبتنا الاسلامية ، التي نهلت من دن العلوم الأجنبية ، فخلعت عنها مجموعها وذبحت بها مذهباً لا يجعلها مع هؤلاء ولا هؤلاء . وكفى أمة عجزاً أن لا يكون لشبيبتها وجهة

حلت هذه الشكوك والشبه من قادة النشأة وزعماء التقدم في

البلاد الأجنبية محلاً علياً ، جعلتهم يندون معتقداتهم ظهرياً ، ويجعلونها
 نسبياً منسياً ، وأمرأ فرياً ، ولكن قام مقامها موقتاً لديهم غيرة قومية ،
 وحمية جنسية أولغوية ، لمت شعهم ، وضمت أجزاءهم ، ولأمت بين
 أميالهم حيناً ظنوا فيه امكان قيامهم بدون الدين ؛ بل زعموا أن مصدر
 رقيهم ، ومنبع نظامهم والتسامهم ومنشأ ألقهم ووائهم ، هدم تعاليمه
 وتذريتها في الهواء . ثم لما استقاموا على هذه المفازة الخطرة حيناً من
 الزمان ورآى قادتهم ورؤساء معارفهم أن هذه خطة عوجاء ، وسراب
 ليس وراءه ماء ، وأنهم بالادمان على متابعة خطتهم هذه الهلاك الملاشى
 والبلاء والمستأصل والحاجة الكبرى التى تهدم عروش مدينتهم ،
 وتطفىء نور حضارتهم ، وساعد هذا الأثر عندهم ما أحسسته نفوسهم
 من الفراغ الموحش لفقد العقيدة بمستقبل أرواحهم ، ومصير حياتهم ،
 حنت فطرهم إلى الدين الصحيح حينئذ البأس ينتظر فرجة ، ويتنسم
 من روح الخلاص نسمة ، ولكن أين الدين ؟

كانت الفلسفة الحسية فلسفة الفيلسوف (اجوست كونت)
 واتباعه القائلين بأن كل معقول لا يؤيده شاهد من الحس جاز
 أن يكون ضلالاً آخذة من الأفكار مكانة لا يمكن قلعها منها ، ولما
 كانت أسس الدين من عقيدة وجود الروح وخلودها فى دار غير هذه
 الدار مما لا يمكن الاستدلال عليه بمحسوس جازت أن تكون ضلالاً
 لا حقيقة له فى الواقع ، فهى على حسب أسلوب هذا المذهب الكثير
 الأشياء من قليل مالا يمكن إثباته ، ومالا بدمن عدم الخوض فيه .

وما معنى دين بدون روح وخلود ونعيم وشقاء في دار بعد هذه الدار؟
 اذن كيف يمكن الاعتقاد بدين في عصر هذه فلسفة بنيه وتلك مبادئها؟
 لكن الله أكرم من أن يخيب سائلا ، وارحم من أن يطرد عن بابه
 طارقا . ارسل عليهم من جهة فلسفتهم هذه آيات تأخذ بالأعناق
 خضوعا ، وبالأبصار والبصائر دهشة وخشوعا ، فنشأت أبحاث سموها
 (ابنوتزم وما نيتيزم) التنزييم المغناطيسي و (اسبرتزم) استحضار
 الارواح وغير ذلك استدل منها عليتهم على أن الإنسان روحا
 فأنشؤا مئات من المجلات والمجامع . وعقدوا لها المؤتمرات والمحافل .
 وألفوا فيها الكتب والرسائل . وبلغ عددهم من العلماء الاعلام ،
 وقادة المعارف العظام . والمحامين الأماثل . والكتاب الفطاحل . ما
 لا يقل عن عشرين مليوناً وكل يوم يزيدون على هذا فهم لم يقفوا
 حتى نهضوا . ولم يضلوا حتى كادوا يهتدون ، ولكن شيبتنا التي شربت
 من حوض علمهم . وتشبعت في أذهانها صور معلوماتهم ، لم يشاؤوا
 ان يوسعوا دائرة معارفهم وكانهم لم يعلموا أن ما يدرس في المدارس
 من العلوم الطبيعية والرياضة ليس الا قطرة من بحر لا تتسع صدى ،
 ولا تروى غلة ؛ بل كأنهم يعتقدون أن العلم واقف حيث هو عن عهد
 (اقرازير) و (تورسلي) و (ماريوط) و (قولتا) وان باب الرحمة
 الالهية اغلق في وجه بني آدم والعاياذ بالله ، فلا مرمى بعد مرماهم
 ولا مذهب بعد مذهبهم ! ثم نسوا ما تعلبوه أيضا ولم تحفظ ذاكرتهم
 منه الا شكلا مشوها ليس له أصل يعتمد عليه ولا ركن يرتكن

اليه. فهم على مذهب (اجوست كونت) و (داروين) بدون أن يكلفوا أنفسهم معرفة ماهية مذهبيهما ولا أصول نظريتهما، وكأنهم كفاهم أن يكونوا (اجوستيين) و (داروينيين) أن يروا شيئاً من فلسفتيها في بعض الكتب ليس آتياً على أسلوب صحيح، ولا سلك فيه كاتبه مسلك التحليل والاستقراء. ثم أنهم على فرض تعمقهم في مبادئ فلسفة هذا العصر وتغلغلهم في مناحيها تدقيقاً وتمحيصاً، لم يكلفوا أنفسهم النظر في ماهية الاسلام ليروا إن كانت مبانيه مما يهدمها مثل هذه النظريات أو بالعكس تقويها وتسندها.

نحن لسنا من أعداء المعارف الحقّة، ولا من أضداد فرع من فروع العلوم الأجنبية الصحيحة، لان الاسلام دين غايته العليا الحقيقة، وغرضه الأسمى تخليص الانسانية مما ران على فطرتها من خبت الأوهام، وقدر المعتقدات الباطلة، فغايتها وله المثل الأعلى كغاية مذاهب (اجوست كونت) و (باكون) وغيرها في تنقية المدارك من أدران الباطل، وأسلوبه أدق من أسلوبيهما واجمع لشرائط الموصلة للكمال الانساني من كل وجوهه كما سيتضح لك ذلك عند إيراد تلك المذاهب ومقارنتها بالاسلام إن شاء الله

سيشمل الجزء الأول من مؤلفنا هذا عدا عما سبق على كلام مشبع على حياة الانسان وتطوراته وأسباب شقائه ومناشيء بلائه وماهية سعادته وطريق الوصول اليها.

خلق الحيوان على حال لا يستطيع عنها محيصاً، ولا يرتقي فوقها

درجة ، وحصرت قواه العقلية والفكرية في دوائر لا يستطيع تعديها من تلقاء نفسه ولا بواسطة غيره ؛ ولكنه وهب في مقابل هذا سوقاً طبيعياً يهديه إلى مصالح وجوده جملة وتفصيلاً ؛ حتى أنه ليأتى في تربية صغاره والعناية بها أهوراً يعجز أكثر أفراد النوع الانساني عن معرفتها وإدراك أسرارها . فبينما ترى مثلاً أن أكثر الأمهات والآباء من نوعنا الآدمي يقتلون أفلاداً أكبادهم باتهامهم بالأغذية الدسمة قبل وصولهم إلى السن المناسب لتعاطيها، ترى الهرة بجانبهم لا تعطى صغارها شيئاً من المأكولات الدهنية إلا لما يبلغون سناً معلوماً فتراها قائمة بتربيتهم على سنة قديمة صالحة حتى يشبوا صحاح الأجسام سليمة البنية مستعدين لمكافحة العوارض من كل نوع . لا تجد فيهم عمياً ولا عمشاً ولا مهزولين ولا ولا مما يكثُر في صغار عالمنا الانساني وكباره ، وما ذلك إلا لأن الخالق جل شأنه فطرهم على قوانين حكيمة لا يتعدونها فهم يقضون حياتهم في سعادة مناسبة لهم تمام المناسبة . أما الانسان المفطور على غير هذه الفطرة فتراه جارياً على غير هذه السنة : تتناوله الجباله من جميع جهاته ، من يوم ميلاده إلى يوم وفاته ، فتتقاسمه الأمراض والأوصاب ، وتتنازع الأعراض والمعاطب ، حتى أن كثيراً من أفرادهم يموت على أتعس حالة بعد أن يكون قد عاش حياة كلها نكد وكدر ، ومضى عمره كان عبئاً ثقيلاً على البشر . لم هذا ؟ هل خلق الانسان أخط من الحيوان ؟ هل متع الحيوان للجهاد الحيوى في العالم بأسلحة أمضى وانسب لنوال غايته من أسلحة الانسان ؟ هل

كتب على الانسان الشقاء والبلاء وقضى عليه أن يمضى أيامه بين
 مزعجات الكون ومبيداته يقذفه تيار من المصائب ، ويتناوله آخر
 من النوائب ، وهو بينهما لا يكاد يستفيق حتى يغشى عليه ، ولا يتخلص
 حتى يوثق من رجليه ويديه ! فهل سألنا أنفسنا يوماً قائلين ماهو
 الانسان ، وماهى الحياة ، وماهى المصائب ، وما علاقتها بالانسان ،
 وما حكمتها ولم صبت عليه صبادون غيره من الكائنات الأرضية وكيف
 التخلص منها إن كان يمكن منها الخلاص ، وهل الخلاص معقود بما
 هداى العلوم أو مرتبط بعلائق الدين ، ماهو الدين وماهى الدنيا ،
 كيف يتحدان وكيف يتنافيان وكيف هما ضروران لحياة الانسان ،
 ماهى الفضيلة وماهى الرذيلة وماهو كنه ارتباطهما بالانسان ، هل
 الانسان مقصور على هذه الحياة فقط أم له عالم آخر بعد هذا الشكل
 المحسوس ، ماهو ذلك العالم وماهى نسبة الانسان اليه وعلاقته به ؟

هذه كلها أسئلة يرى كل إنسان نفسه شيقة إلى حلها ، مغرمة
 برفع الحجب عن حقيقتها ، وشوقه وغرامه هذان دليان حسيان على
 أنه مفطور على البحث عليها ومتمتع من القوة بما يمكنه من الوصول
 الى معرفتها ؛ لأنه لو لم يكن مستعداً ومتأهلاً لما خلق الله تعالى فيه
 الميل اليها . فماله اذن مقصر عنها وواقف على ساحلها خائفاً من الخوض
 فيها ؟ ماله يئن ويتألم ، ويذوب طول حياته بين نيران المعاطب
 والجوائح ، ويموت فى اليوم ألف موة بما يحتف من شؤون الحياة
 ومصاعبها ، ولا تتحرك فيه عاطفة همة تسوقه الى كشف المستور عنه

من الحقائق التي ترتبط بها سعادته تمام الارتباط ؟ قلنا الحيوان سعيد لكونه فطر على حال خاص وله وظيفة محدودة ولقواه الادراكية دوائر محصورة وتخوم معلومة ، وسعادته كلها مقصورة على أكل وشرب وسفاد وتناسل فما للانسان وهو الانسان يريد أن تكون سعادته حيوانية واحط ؟ فانه يريد أن (يسرف) في الأكل ولا يتخم ، وفي الشرب ولا يمتلئ ، وفي السفاد ولا يضعف ، وإن يعتدى ولا يعاقب ، ويجهل ولا يضل ، مع أنه لم يخلق حيوانا ولكن إنسانا ، لهذهن يحمله في ضمائر الكون ، وقوى يتسلط بها على النواميس فيأسرها ومواهبه تستخدم الجن والملائكة ، وله مستقبل لا يمكن لعقله مهما اتسع نطاقه تصوره ولا تحديده ؟ .

أليست هذه هي السعادة الموهومة التي تتطلبها صباح مساء وهي التي نستخدم لها قوانا ومدار كنا ، ونستهلك في تمنيتها عواطفنا واحساساتنا ، وننقشها في أذهان أبنائنا ونبنى عليها أشعارنا ودعواتنا وصلواتنا ؟ أليست هذه هي السعادة الحيوانية بعينها المبنية على الالتذاز بالطاعم ، والاكثار من المشارب ، والتفاخر بالملابس ، وعدم الشعور بالحياة ، بتمضية الوقت بين الدنان والحدايق ، والغزلان والكواعب ؟ هذه هي السعادة التي يطلبها أكثر النوع الانساني وليست هي سعادته المكتوبة له ، ولا المحلوقة مطابقة لاستعداده ومواهبه ، فهما طلبها فلا يجدها لأنها لا تليق لسمو ملكاته ولا تتناسب مع علو عنصره . لذلك يموت أكثر الناس وفي قلبهم من الحياة حسرة ، وفي أحشاءهم من

لو اعجبنا نار . ولهذا يسب أكثرهم حظه وبخته ، ويمقت نفسه وجسمه ،
ويدعى أن السعادة اسم لامسمى له ، ولفظ لا يعنى شيئاً . وليس ذلك
فيما نعلم الاجوراً بينا في الحكم ، وشططا ظاهراً في العقل ، فان الخالق
الحكيم قرن بكل قابلية ما يناسبها من الكمال واللذة ، فكيف يعقل أو
يتصور أنه يخلق الانسان وهو أكمل الموجودات وأجملها مجرداً من
غاية في الحياة يسكن اليها ؛ ويستتب أمره عليها ؟ اذن لابد من ان يكون
للإنسان سعادة عالية ؛ قطوفها دانية ؛ وحدائقها مزهرة زاهية ؛ وانه
منح كل الأسباب التي تؤهله لها ، ومتع بكل الأسلحة التي تسهل له
الجهاد لنوالها ، من أقرب الطرق وأمثلها ، فاذا لم يحصلها بعد ذلك فلا
يكون ذلك دليلاً على عدمها ، ولكن حجة ناطقة على أنه سائر على
غير صراطها وناهج غير سبيلها ، وتائه عن مطلوبه ، وموجه فكره
لما ليس له أي أنه يريد أن تكون سعادته على ما وصفناه سابقاً على
نسق حيواني ولم يخلق استعداداً مناسباً لذلك . فما هي اذن السعادة
الانسانية ، وما هي شرائطها وكيف يسلك الانسان منهاجها ليصل اليها ؟
هذا مما يحتاج الى شرح طويل ، وتفسير كبير ، وتقدير مقدمات ،
واستنتاج نتائج ليست من الفلسفة العويصة ، ولا من العبارات
الضخمة ذات الألفاظ التي يذهب فيها الفكر مذهب الحيرة .

إذا انتهى معنا القارئ الى هنا تحقق أن الجزء الأول من مؤلفنا هذا
لن يدع ان شاء الله تعالى شاردة من شوارد أحوال الانسان الاقيدها ،
ولا مدركاً من مدركات الفلاسفة والعلماء فيه الا عقلاً ، ولا رأياً من

آراء أكثر الفرق المعروفة في كيفية نشوء الانسان وحياته وخلوده أو فناءه
 الا أثبتنا، ولا شبهة ولا شبهة مما يقيمه غلاة المذاهب المادية
 امام حماة الفضائل، وما يتدافع به الفريقان من البراهين والحجج
 الا سيجلها. ثم يتبع كل فصل من هذه الفصول تحليلات فلسفية،
 واستقراآت علمية، ومحاميات جدلية، يتضح منها للقارئ صالح الآراء
 من فاسدها، وصحيحها من سقيمها، ومشتبهاتها من صريحها، وتجلي له
 النفس الانسانية جوهره نقية صافية من كل درن، مشخصة في أكمل
 صورها، وأجلى مظاهرها، في النفس المحمدية العلية، التي هي النموذج
 الكامل لكل نفس بشرية تريد أن تتكامل وتهذب لتستقيم على جادة
 الحق الأذلى الأبدى وتصل بحركتها الذاتية الى ما أعد لها من مقاوم الرفة
 ومكانات الكمال الأقدس. هنالك يعرف الانسان معنى قوله تعالى
 « انا هديناه السبيل » وقوله تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلنا
 وان الله لمع المحسنين » وقوله تعالى « ان هذا القرآن يهدي للتي هي
 أقوم » وقوله تعالى « طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى » وقوله تعالى
 « ولتعلن نبأه بعد حين » وسيلي هذا الجزء جزء ثان هو تابع للأول
 في الحقيقة ولكننا فصلناه لأهمية موضوعه وسعة مجال بحثه وهو في
 مبحث المدنية.

المدنية لفظ شاع وذاع، وملاً كما يقولون الأسماع، وصالت
 به الأقلام في ميادين التعبير، وجات به القرائح في مجالات التحرير،
 وسرى الى العامة ودخل في مصطلحاتهم فطال معناه مرة وقصر، وقل

حصوله آونة وكثر ، وعسر فهمه طوراً ويسر ، حتى أصبح الناس والمدينة أقل الالفاظ مدلولاً ، وايسر الكلمات مفهوماً ، فما هي في عرف الكثيرين الا زخارف الصناعة الأوربية في الالبسة الجسمية ، والفرش البيتية ، والأواني الفضية والذهبية ، وما تقتضيه هذه المصنوعات من التهيؤ لاستعمالها ، والتظاهر بها من تعلم لغة القوم وتقليدهم في عاداتهم وطبائعهم ، وان شئت فقل وما تستدعيه من خفر ذمة الحشمة ، وخلع ازر التقية والجرى وراء ما تهواه النفس تمتعاً بقانون الحرية الشخصية . هذا كل أو جل ما يفهمه الكثيرون من معنى المدينة . أما المدينة بمعناها الحقيقي من أنها روح سامية تهبط على النفوس المهيئة لها فتزعجها الى الحركة والتقدم وتنتقل بها من اوج الى اوج حتى تجلسها على عرش الكمال الانسانى صورياً ومعنوياً فما لم نعتد في بلادنا هذه على الخوض فيه كأننا قنعنا من كل شيء بقشره الظاهري وغلافه الخارجى ، اللهم الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم . بناء على هذا رأينا ان الانسانية تطالبنا على عجزنا بتلافى هذا النقص بدرس هذا الموضوع الهائل درساً مناسباً لأهميته مبتدئين بايراد التعاريف الكثيرة التى حددوا بها المدينة ، مارين بالقارىء على معظم الاختلافات بين العلماء فى أمرها ، واقفين به على كل مرمى من مرامى مداركهم ، داليه على جهات قوة كل منهم وضعفه ثم مشهديه بعد ذلك محاكمة دقيقة بين مذاهبهم فيها ليكتنه بنفسه كنه الحقيقة النقية . هذا الدرس التحليلى الشاق يستلزم بالطبع الاستمداد من جملة

علوم مهمة مثل علوم العمران والنفس وأحوال الانسان وطبائعه والتشريع وأساليبه والسياسة وقوانينها والاقتصاد ودستوره ؛ هذا عدا عما يجيء عرضاً من مباحث التشريح أو الظواهر الجوية وطبائع البلدان والأمم المختلفة وما استدعيه الحال من المرور على كل مدينة قامت في العالم القديم وما كان فيها من علل وجراثيم أمراض وما كان من أمر هذه العلل من السريان في جسم الأمة وما كان من شأن تلك الجراثيم من الكمون في جسمها ثم ظهورها وتفشيها بالفواعل الاجتماعية المختلفة ؛ و يمر في أثناء ذلك طبعاً الباعث الحقيقي لكل من تلك المدينيات والدور الذي لعبته في الوجود والدائرة المحدودة التي حكم عليها بعدم تخطيها بسبب قصر نظر واضعياها ، ومقدار ما جاءت به كل منها من النفع للعالم ، وما جنته من جناية عليه وكيفية تسلسل تلك المنافع والجنايات بحكم الوراثة الى يومنا هذا . كل هذه الابحاث ستكون بطريقة سهلة يفهمها الخاص والعام بعيدة عن مصطلحات الفلسفة والتعبيرات العويصة .

هذا النوع من البحث التحليلي وان يكن شاقاً فائدته كبيرة وعائدته لا تقدر فان الانسان لا يستطيع أن يتحلل بما يجمله ، ولا أن يتسم بما لا يعرف حدوده اليك مثلاً لذلك بسيطاً ليس لدى الانسان أحب من المال بعد نفسه وولده ، وربما فاقهما عند بعض افراده ، لانه يعينه على كل رغبة سواء كانت أدبية أو مادية ؛ وليست أمم الشرق بأقل طلباً له وشرها فيه من أمم الغرب ؛ ولكنك مع ذلك

تراهم أقل من سواهم فيه قسطا ، وأهون من غيرهم منه نصيبا ! لماذا ؟ لأنهم يحبونه ولا يعرفون أساليب جلبه ، ويهوونه ولا يدرون طريق استدراجه . هذه حادثة اجتماعية محسوسة . كذلك الحال بالنسبة للمدينة فانهم يحبونها ويتمنونها وتنسبط نفوسهم الى رؤيا مجاليها ومعاهدها ولا يمكن أن يقال انهم لا يودون طلبها كما يطلبها غيرهم ، ولا أنهم مرتاحون من حالهم المخجل أمام مزاحمهم من أمم الغرب ، اذن ما المانع لهم عن الوصول اليها ، وما الآخذ بخناقهم دونها ؟ اليس ذلك المانع القاهر هو جهلهم سبيلها ، وعدم المامهم بحدودها وأصولها .

الإنسان مفطور على التكمل والترقى فهو ان تدنى وهبط فلا يكون ذلك لمحبه للهبوط ، فهو لا يهبط الا رغم أنفه ، ويكاد فواده في كل دركة من دركات هويته يتمزق حسرة ، وتسيل مهبته اسى وأسفا ، وأنه لورآى وهو في تلك الحالة شبعا ميل لجذبه بيده لا يأنف أن يضحى نفسه له ، تحمسابه وفرحا بمعوثته . ولكنه قد يعصى ناصحه الأمين ، ويستغش ذليله الخريت ، ويهجو طبيبه وربما ضربه ؛ ولا يقال ان هذا عكس ما نقول ، لأن الانسان في تلك الحالة المتناقضة يكون غير فاهم ما يراد به ، ولا عارف بنتيجة أمره فان رحمته وتركته حتى يفهم وصبرت عليه الى أن يؤوب الى رشده أذاك تأبنا ، وعانقك متحبا متقربا ، ورجاك أن تغفر له ما قد سلف .

هذه حالة الانسان في كل ما يجله . فان قال قائل بأن الشرقيين ميتون ، أو أنهم لهذا الشكل البديع من المدينة لا يصلحون ، أو أن دورهم انقضى

ونجمهم أفل ، فكل ذلك كلام يصح أن يكون شعرا لا علما ، وخيالا لا حقيقة ، ولا يجوز لمسلم دستور القرآن أن يصدقه فانه يحرم عليه ذلك ؛ بل ربما أداه اعتقاده ذلك الى الكفر ، فانه اليأس بعينه ، واليأس والاسلام لا يجتمعان في قلب رجل . كيف ييأس مسلم يعرف أن واضع مجده هذه الامة بأسرها وباني أسس عظمتها التي أدهشت بها العالم كله ولم تزل تدهشه حتى اليوم ، رسول قام بلا جند ولا مال ، ولا أعوان ولا أنصار ، في وسط أمة لم تعرف للهدنية اسما ولا معنى ولم تستأهل بسبب قحولة أرضها وحالة حياتها الى شيء من الرقي الاجتماعى مطلقا ، والدليل على ذلك انها لبثت فيما كانت فيه من يوم وجودها ليوم البعثة بدون اقل تغير في شؤونها ، ولا ترق في أمورها ، فلم يلبث فيها زمنا قصيرا حتى نهضت نهضة لورام الشاعر لها من عالم الخيال صورة تحاكيها ، لضاق به على سعة ارجائه ضيقا يرى معه أن الحقيقة لو تجلت في كمالها لأغنته عن تكلف الأكاذيب ولا اغنت هي بذاتها عن كل تفخيم وتجسيم .

فالمسلم اذا تدبر في هذه الحادثة التاريخية وحدها يصبح وفؤاده مملوء أملا ورجاء بأن حياته مرتبطة بذلك الاكسير الأعظم ، والدواء المسكرم ، الذى حمله الى العالم ذلك الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم ، وانه لو أدرك سره وتركيبه وتعاطاه كما تعاطاه من قبله آباؤه الأولون لم تضره المزاحمات التى تحيط به من كل جانب ، ولم تعجزه المقاومات التى تحتف به من كل وجهة كما لم تضرهم مدينة الرومان والأعجام ، ولم تعجزهم بمؤثراتها عن مزاحمتهم فى مضمار العلاء وميادين الرقى والتقدم ،

بل سبقوهم وسيطروا عليهم بعد ان جاروهم وبزوهم . فما هي تلك الروح العالية التي هبطت على هذه الأمة بواسطة نبيها وما هو ذلك السر العظيم الذي حمله اليهم فقرطوا في حفظه ؟ ذلك ما يجب ان يسأل عنه كل مسلم نفسه ؛ وهو ما سنجعله موضوع بحثنا في هذا المؤلف الضافي الذبول إن شاء الله .

اما الجزء الثالث من مؤلفنا هذا فقد أعدناه للبحث فيما وراء المادة وقصرناه على ذلك الا ما يمس الموضوع نفسه من المعارف المرتبطة به التي لا مندوحة للسير فيه من الاتيان عليها والالمام بها .

الانسان لما كان في دور الفطرة كان يعتقد أن له روحاً لها حياة أبدية في عالم غير هذا العالم ، وعلى حال غير هذه الحال لا يقرب به في هذه العقيدة شك ولا يخالج صدره ريب ، ولكنه لما خرج من هذا الدور الطفلي إلى دور أرقى منه ، ودارت فيه القوة العقلية على محور البحث والتنقيب ، وتيقظت فيه عوامل اكتناه المساتير والمجاهيل ، وأراد أن لا يصدق العقيدة الملتصقة بضميره الا بدليل ، جعل أهم مباحثه البحث عن ذاته للوصول إلى حقيقتها ، لاسيما وهي أحب شيء اليه ، وأعز عزيز عليه ، فظل يسأل نفسه : ما هي الروح في ذاتها : هل لها استقلال وتميز عن الجسد وقوام بدونه ؛ هل لها خلود في دار بعد هذه الدار ؛ ان كان نعم فبجسم أم بغير جسم ؛ ان كان بجسم فهل هو جسمها القديم أم بجسم آخر ينشأ لها جديداً ؟ ان كان بجسمها القديم ، فكيف يتأتى ذلك بعد ما تضع ذراته في أحشاء الأرض ، وربما

دخلت في تركيب الأشجار والحيوانات بل وربما في انسان آخر، وإن كان ينشأ لها جسم جديد فكيف يكون ذلك بدون خلق تدريجي وأدوار متتالية كما هي العادة المحسوسة؟ وإن كان ذلك الخلود بغير جسم فكيف يحصل ذلك وعلى أى صفة يكون وكيف يتأتى السمع والأبصار والذوق واللمس بدون الحواس الموضوعية لها؟

خلنا من كل ذلك الايتمل أن تكون الروح عبارة عن مجموع وظائف الجسم ولا استقلال لها في نفسها؟ ألا ترى الانسان لو حرم الغذاء أو الهواء أو اتزف دمه مات وبطل حرا كه كائن ما يسمى روحا متعلق بذلك كله؟ فما معنى وجود روح مستقلة في الجسم بعد هذه المشاهدات؟ إنا نرى الرجل مثلاً اذا قتر على نفسه في الغذاء، أو لو سكن في محل فاسد الهواء، أو ولو توالى عليه الأدوية. قل عقله وهبطت حركته وقرب من الزوال والتلاشي، ألا يدل هذا الارتباط بين وظائف الجسم والعقل أن ما يسمى روحا هو الخاصية العمومية الناتجة من كل هذه الوظائف والحاجات الجسمية؟ اذ لو كانت فيه روح مستقلة عن الجسد لدام عقله مؤديا وظيفته لآخر لحظة من حياته ولما وجد ذلك الارتباط التام بين مادة جسمه وقوى عقله. ثم دعنا من هذا أيضا ولنسأل: لماذا قلنا ان لناروحا لها كيت وكيت من الصفات والامتيازات، ولم نرض للحيوان ببعض شيء من ذلك، بل حكمنا عليه حكما قاسيا وشبهناه بالآلات الصناعية المحضة مع أنه يشاهد فيه ادراك وفكر واختيار؟ ألا يعد هذا من الجور في الحكم؟ ان كنا

نحكم لأنفسنا بكل تلك الامتيازات بناء على ما لدينا من الادراك والفكر ، فلماذا لانحكم بشئ من ذلك لتلك الحيوانات أيضا وفيها ما هو أعقل وأحكم من كثير من متوحشى النوع الانسانى ،

كل هذه الشبه ترددت فى نفس الانسان من زمن مديد فكان يحاربها بما لديه من الأسلحة العلمية النظرية ، والقضايا الكلامية المنطقية ، ولكننا اليوم فى عصر تشبعت الأفكار فيه بأن العقيدة اذا لم يسندها من جهة الحس دليل ملموس ، جاز أن تكون خرافة كما ثبت ويثبت مثله فى عقائد المتوحشين ، فما المخلص اليوم من هذه الشبه الهائلة والشكوك المتعاصية ،

اضطربت هذه المسائل فى عقول علماء الغرب اضطرابا شديدا استدعاه ، غلواء أبناء ملتهم فى التشدد فى العقيدة ، والجمود على خرافات الأقدمين ، وتهالكهم على تقليد أسلافهم ، ولونابذ العلم وجافى البديهة العلمية ، فملهم هذا التفريط الى افراط أشد منه ، فهضوا نهضة المنتقم ولم يدعوا صقعا من أصقاع الأرض الا وذرخوا فيه من هذه الشبه ما لا يدع العقيدة محلا فى النفس ، وتذرع حزبهم لذلك بكل وسيلة حتى زعموا أن العلم عدو العقيدة وعدو كل ما يشرمه الفكر المجرد ، وانه سينتهى أمر هذا التنازع بين العلم والعقائد الى تلاشى هذه الأخيرة مرة واحدة ، وطفقوا يفسرون كل مجاهيل الوجود بالنواميس الطبيعية المعروفة ، ويحلون جل المشكلات الكونية بالقوانين المكتشفة ، فوقعوا فى تفريط مخجل كانت غايته تشويه حياة الانسان وسلبه أعلا

مسلياته ، والهبوط به الى عالم الحيوانية السفلى ، وآل الأمر الى خلل في تركيب معناه السامى ، وفساد فى جوهره المكرم ، مما سنلم به ان شاء الله فى موضعه الماماً لا يدع للاستزادة مساغاً .

هذه الطائفة انكرت الروح والخلود والبعث والحشر والعقاب والثواب وزعمت أن ذلك كله من خيالات الافكار القديمة وبقية من بقايا السالفين ، سلاشها العلم والعرفان ، ويجعلها التمدن فى زوايا النسيان ، فانهم لكذلك يموجون فى قفص من الحيرة ، ويضطربون فى غيب من الوحشة ، واذا بأية عظمى ، وقارعة كبرى ، ظلت الأعناق لها خاضعة والرؤوس اليها منكسة والألباب أمامها حائرة ، والعقول بازاءها باهتة واذا هم بالتنويم المغناطيسى والاستهواء ثم تلاه فن استحضر الأرواح وتجسدها فهبوا ينبذون تلك الخوارق جرياً على سبيلهم السابقة مع كل ما يشم فيه عالم ما وراء المادة . ولكن هيهات ، لم تزل تلك الخوارق تحترق كل ماسد لوه أمامها من الحجب ، وتمزق ما وضعوه حيا لها من الأغشية ، حتى دخلت دور العلوم ، وغرف العلماء ، وقصور الملوك ، ومكاتب السياسيين ، وشكنات رجال الحرب ، ولم تدع مجالاً من مجالات الحياة الا وجالت فيه جولة استلفتت لها الانظار والبصائر ، فلم يمر ربح من الزمن الا وعشرون مليوناً من العلماء والرؤساء يعتقدون بها ويروجونها بواسطة مائتى مجلة تطبع وتشر فى العالم اجمع بجميع اللغات الحية . فماذا كان من نتيجة هذه القارعة العظمى ؟ كانت النتيجة انهزام الماديين هزيمة كبرى لا يقوم لهم بعدها علم ، ولا يرفع لهم صوت

ولكن اين الشريكون من هذه الانقلابات المدهشة ؟ اين شبانهم الذين تعلموا اللغات الاوربية وتشبعوا بفلسفتها الاحادية فينظروا كم في ضمائر الغيوب من آية وكم في رحمة الله من سعة ؟

يقول قائلهم اذا انتهى الى هذا الموضع : هذا تجسيم لوهم وتجسيد خيال قام ببعض العقول الساذجة في أوروبا فطنظنوا به كما هي عادتهم في كل أمر ، فقام صاحبنا هذا يردد صدامهم ، ويؤمن لدعاهم ، بدون تحكيم العقل ، ولا استقضاء العلم . هذا مما يمكن أن يقوله بعضهم ممن لم يطالعوا في هذا الأمر سطرا ، ولم يحيلوا فيه فكرا ، مع أن الحقيقة فوق ماصورناه ، وأهمية تلك المسائل اليوم بين العلماء أكبر مما ذكرناه ، وسيرى مطالع مؤلفنا هذا مما سنرويه عنهم ، ونسندنه الى علمائهم وفلاسفتهم خاصة من الذين كانوا بالأمس ماديين لا يصدقون بشيء ، ما يجعله يقول كما قال الاستاذ الأميريكى الشهير (هيزلوب) « العالم على وشك حصول انقلابات كبيرة » ويردد ما فاه به العلامة (لودج) الانجليزى : « إن الحائط الموجود بين العالمين المادى والروحانى أخذ يرق شيئا فشيئا وسينتهى أمره بالزوال مرة واحدة » ويرجع مقاله الاستاذ الألمانى (كارل دوبرل) « العلوم الطبيعية تجارت على التكذيب بعقيدة الآخرة فسيعاقبها الله بأن يجعلها تقيم على وجودها البرهان القاطع »

أما كتابنا الرابع فسيكون موضوعه حياة سيد الوجود صلى الله عليه وسلم .

لأنعلم بحثاً أدق موضوعاً ، وأدعى إلى العناية والاهتمام بالنسبة للعالم الاسلامى بل الانسانى من هذا الموضوع السامى . اذا كنا نعتقد أنه لاسبيل الى صلاح حال المسلمين ولا طريق الى استردادهم لمجدهم القديم ، وسؤددهم الأثيل ، الا بالرجوع الى دينهم الفطرى خالياً من درن البدع التى ألصقت به ، والقاهم بأنفسهم بين يديه ، فلا يتأتى ذلك البتة الا بالمأمهم بماهيته واسرارها ، ووقوفهم على حقيقته وأنواره ؛ ولا يمكن الوصول الى تلك الحقيقة النقية ، وذلك النور الناصع الا بدرس ذلك القلب السامى الذى أشرق فيه هذا الدين بادئ بدء ثم انعكس منه على غيره . بهذه الطريقة نستطيع أن نعرف ماهية الدين فى ذاته وندرك كنه تأثيره على المعنى الانسانى النقى من ران الوسائوس ، فنكون بهذه الصفة قد درسنا الشئ فى منبعه ، واستشرقنا البدر من مطلعته .

نعم إن درس هذا الفؤاد الكبير أمر عسير ، بل إدراكه على حقيقته مستحيل على من لم يبلغ مبلغه من السمو الروحانى ، ولم يضرب مثله بسهم من العلاء الملكوتى ، لأنه لا يعرف الفضل الاذو والفضل ، وهيات أن يحدد التصور درجة ذلك القلب العالى من عالم القدس ، أو أن يشرف على منزلته من حظائر الملاء الأعلا ؛ ولكن الخالق العليم إذ أراد أن يكون ذلك الرسول الكريم الواسطة العظمى بينه وبين عباده ، والناشر الأمين لكلمته العليا ونوره الفياض بين مخلوقاته ، أبدعه على صورة ينجذب اليها كل نوع من أنواع العواطف الشريفة ، ويتعرف اليها كل جنس من أجناس العقول الانسانية ، ليصح أن

يكون حجة الله على خلقته ، وسبباً لأفاضات الرحمة على عبده ، ولو كان على غير تلك الصفة لكان للناس عذر في عدم التصديق به لعلوه عن متناول عقولهم ، ولعدم وجود نسبة بينه وبين عواطفهم وأمالهم يتوصلون بها إلى ادراك وظيفته ، ولجاز أن يرسل الله اليهم رسلاً من الملائكة وهو مما تأباه الحكمة الالهية ولم تجربه سنته تعالى بين البشر الانسان مهاسفل في حضيض النقص والخسة ، وانحط الى دركات الغي والدناءة ، فلا يعدم خاصية التمييز بين القبيح والجميل ، ولا يفقد صفة الانجذاب الى الكمال حيث يراه . والنفوس وان كانت تتفاوت مراتبها في هذه الخاصية ، وتتفاضل احساساتها في تلك الصفة ؛ الا أن الجمال والكمال في ذاتهما قوتان جذابتان ؛ ولو تجلنا نفس من النفوس قاومتا كل ما يعترضهما من حجب الغفلة وإستار الحرمان ، وأثرتا على الفؤاد الانساني مهما كانت صفته تأثيراً لا يمكن محوه منه بوجه من الوجوه . ألا ترى أن أصحاب الدعارة واحلاس الخسة والدنايا من الناس لا يزالون يحترمون الفضلاء ويشعرون لهم في أنفسهم باعزاز وإجلال مع ما بين الفريقين من التباين في المشارب ، والتخالف في النزعات والمذاهب ، ولو جردنا النفس الانسانية من هذه الخاصية فماذا نبقى لها بعد ذلك .

السنة الحكيمة التي نشاهدها في بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام ان الله جل وعز يصطفيه في أمهم من أشرف معاصريهم نسباً ، وأعلامهم حسباً ، وأقواهم جسماً ، وأزكاهم عقلاً ، وأنداهم بالعرف كفاً ،
(م - ٣ - أول)

وأكرمهم خلقاً، وأكثرهم علماً، وأحكمهم سياسة، وأرجحهم كياسة؛ وأبسطهم بالمكارم يداً؛ وأوسعهم بالحلم صدراً، وأضوأهم بالبشر وجهاً، وأسمحهم بذلة العبودية نفساً وأتعيبهم في مرضاة الله جسماً، رأفة بالناس ورحمة بضعفهم، ليسهل الرضوخ لهم من الملك في سطوته، والشريف في علو عنصره وسمو محتده، ومن الشجاع في قوته ورباطة جاشه، ومن الفيلسوف في نفوذ فكرته وسعة حكمته، ومن السياسي في دقة أساليبه في سلوكه بين رعيته، ومن السخي في كثرة بذله وتكرمه، ومن الصالح في شدة تورعه ودقة تحرجه، ومن العابد في كثرة تهجده وحسن تعبده.

هذه سنة الله عز وجل في إرسال الرسل الى خلقه أخذاً للناس الى طريقه بأشد ما يؤثر على عواطفهم، وسوقاً لهم الى صراطه المستقيم بأكبر ما يطمأ من من كبريائهم، ويكسر من شرهم، ويدلنا الاستقراء التاريخي ان الله عز وجل راعى في بعثته كل رسول أن يحليه من الصفات بأرقى ما اصطلاح قومه عليه من مفاخرهم، وأسباب سؤددهم، حتى توجد النسبة بينهم وبين نبيهم؛ ثم يكون سموه في كل تلك المفاخر والمحامد، وزيادته عليها بما يكرمه به الله من اشراقات النبوة، وسبحات الوحي، مدعاة الى الخشوع له، والخضوع لما يجيء به من الأوامر الالهية والحكم التشريعية. على هذه السنة الكريمة أرسل الله سيد البشر محمداً صلى الله عليه وسلم في الحين الذي بلغ فيه الجوهر الانساني نموه، وتم فيه لعقله المكرم نضجه وكماله، وتبينت فيه أشخاص الفضائل

والكمالات؛ وتميزت فيه الحقائق من الخيالات، وعلم النوع الانساني بوقع الحوادث المتوالية بأن له من الحياة غاية عالية، ونتيجة شريفة سامية. قلنا أرسل الله في ذلك الحين رسوله المصطفى جامعاً لاشتات الفضائل والسجيا، شاملاً لمتفرقات المواهب والمزايا،

ان تخيلت الملوك في عروشها، والقيصر في أبتها، رأيت أنه صلى الله عليه وسلم أعلاهم في السيادة كعباً، وأعظفهم على رعيته قلباً، وأشدهم على أعدائه صولة، وأقواهم عليهم شوكة. وان تخيلت القواد وسط كتائبها، وخطاريف الحرب بين صفوفها، رأيت صلى الله عليه وسلم أشدهم لها مراساً، وأقواهم في هيجائها بأساً، وأسرعهم في إدارة رحاها يداً، وأرحمهم في اصلاء لظاها اسلوباً. وان تخيلت الفرسان في ثبات جاشها، والشجعان في جلد أفئدتها، رأيت صلى الله عليه وسلم أصبرهم في غمراتها؛ وأجلدهم في هياجها؛ وأطعنهم بالرمح في صفوفها واضربهم بالسيف في نحور فرسانها. وان تخيلت الفلاسفة في حكمتها، والمتشرعين في دقة نظرها؛ في ادواء الامم وعلاجها؛ رأيت صلى الله عليه وسلم احكم العالم قولاً وعملاً؛ وأنفذ في علل الامم وطبها نظراً. وان تخيلت الشعراء في سعة خيالها؛ وسجها في بحار الابتكارات وغوصها؛ رأيت صلى الله عليه وسلم أبعد منهم في مجال وصف الحقائق مرمى، وأكثر منهم لشوارد المعاني المتكررة اصابة. وان تخيلت الخطباء في منابرها؛ وهي تخب الاقئدة بسحرها؛ وتأسر الالباب ببيانها؛ رأيت صلى الله عليه وسلم أحسنهم بضروب الكلام علماً؛ وأكثرهم

لأئسدة سامعیه اسرا . وان تخيلت الزهاد فی صوامعها ؛ والعباد فی محاريبها ؛ رأیتہ صلی الله علیہ وسلم فی الزهد صاحب العلم الأرفع ؛ والمقام الاول ، وفی العبادة النموذج الاكمل ، والمثال الأجمل .

من أى جهة نظرت الى سيد العالمين صلی الله علیہ وسلم رأیتہ فیها نسیج وحده ، ووحيد عالمه فاق كل فائق فی صفته وبز كل سابق فی خاصيته ، وفات كل ذی کمال فی کماله مما يدلک بالحس انه النسخة الصحيحة الكاملة للابداع الالهی فی هذا العالم والنموذج الکمالی الذی وضعه الله للبشر نورا یعشون الیه . وعلماء یهتدون به الیه . سیکون موضوع هذا الجزء اذن درس حياة هذه الروح الکبری درسا مناسبا لدرجتها وستكون العلوم العصرية الجديدة أقوى وسائلنا فی تجلیة هذه الحياة الکريمة فی مظهرها الباهر ، ومجلاها الأسر . متعنا الله بنعمة اتباعه ، وحلانا من اشراقات روحه الکريمة بنفحة من تعطفاته . صل اللهم علیہ صلاة أبدية سرمدية ، وعلى آله وصحبه واتباعه الى يوم الدين . آمین .

(محمد فريد وجدی)

الباب الاول

معرفة الانسان نفسه

الفصل الاول

تمهيد

يشهد الوجود بتفصيله وجملته ، وينطق التاريخ الطبيعى بلسان حملته ، بل ويقر الانسان على نفسه بنفسه ، بأن الانسان أبدع الكائنات الأرضية من كل ناحية .

أما من جهة تركيب جسمه ، فهو الصناعة المدهشة للفكر ، الباهرة للبدارك ، قد ركبت جميع آلاته تركيباً متناسقاً ، ورتبت على بعضها ترتيباً متناسباً ، لا تجد فيها عوجاً ولا أمتاً ، ولا تصادف فيها خللاً ولا عيباً ، اللهم الا ما تلحقه به العوارض التى يجرها على نفسه أو تجرها عليه الطبيعة وفى ذلك حكمة ليس هنا موضعها .

تتحرك هذه الآلات كلها حركات منتظمة ، خاضعة لمحرك فرد ، وناموس واحد ، فيؤدى كل عضو وظيفته الخاصة به ويبلغ منها غاية خاصة ، فتجتمع كل تلك الغايات المختلفة الى بعضها ، وتألف اثتلافاً متناسباً مضبوطاً وتؤدى الجسم الى صراط العدل المستقيم ، وتفيض على جميع اجزائه روح الراحة والصحة الى حين

عجيب أمر هذا الهيكل الانساني : حركات دائمة ، ومجهودات من اجزائه متواصلة ، لا تهدأ مطرف عين ، ولا تقف لحظة من زمان : قلب يرتجف ، ومعدة تعمل وعصارات تفرز وسوائل تتحلل وتتركب وتترشح وتتصعد ، وغازات تتكون وتتصعد . وغدد تحتزن السوائل لحين الحاجة ، ودم دائب الجريان في اجزاء الجسد ، وخلايا بسيطة تتلاشى وتتكون وتتكاثر الى غير نهاية وكل هذا لا يهدأ لحظة ، ولا يسكن آونة من ليل أو نهار !

اليك من الجسم الانساني مثالا عجيبا وقس عليه غيره : للانسان عين ترسم الأشياء على شبكيتها ، كيف ترسمها بهذا الضبط ؟ وكيف تصغرها بكل اجزائها الدقيقة ؟

يعلم كل من رأى التصوير الفوتوجرافى أن المصور يظل يقرب عدسة آلته مرارا ويبعدها ، بعد ما يكون قد أعد لنفسه غرفة ذات أستار محكمة ونور كاف ، حتى يضبط البعد المناسب ثم يأمر من يريد أخذ صورته أمرا صارما بأن يلزم مكانه ويقف أمامه ووقفه التمثال لأن أى حركة منه تؤثر على الصورة فتفسدها حتى انه ليغشى على بعض العصيين من تلك الوقفة المضجرة ؛ وبعد هذه العملية الثقيلة كلها قد يقف المصور أمام الشخص حانيا ظهره قائلا : عفوا ياسيدى ، أرجوك أن تقف مرة ثانية فقد أطاررت الريح الستارة التى كنت أقمتها لحجز الأشعة فدخل منها أكثر مما يلزم فجاءت الصورة على غير ما يجب .

أما العين وما ادراك ما العين ؟ فانها قد ترسم لك فى الدقيقة الواحدة

ستين مرئيا منتظما مختلفة في القرب والبعد والطول والقصر ، والكبر والصغر ، بدون أن تتكلف لها مشقة ولا تعباً .

المصور ان لم يتعهد آله ولا سيما عدستها الزجاجية بالتنظيف والجلاء كل يوم فلا تؤدى وظيفتها الا على اسوأ حالة ؛ أما العين فقد يعمر الانسان مائة سنة حافظا لقوة الابصار وبلورية عينه لم تطالبه بشيء من ذلك . ولو أراد صاحبها تنظيفها لما استطاع الى ذلك سبيلا بل قد يعيش الانسان مائة وخمسين سنة ولا يدري من تركيب عينه شيئا ولا خطر ياله أن يسأل عنه غيره . هذا من حيث العين وهى من أصغر الاشياء فى الجسم . أما اللمس والذوق والمعدة والاعصاب والأوتار والأوردة والشرابين والقلب والرئتان وغيرها من اجزاء هذا الشكل الانسانى فما يحير الفكر ، ويبهز العقل ، ويقضى على الانسان بالدهشة والحيرة حقيقة . كيف لا وقد حيرت العلماء الذين قصروا أعمالهم وأعمارهم على تقصى عجائبها ووقفوا حياتهم لدرسها ، فسبحان « ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » القائل « انا خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » (١)

هذا حال الانسان من حيث جسمه وأنت تعلم أنه موضوع البحث والفحص من منذ ألوف من السنين ، ولم يزل أعجوبة العلم ، ومعجزة الخليفة ، وطلسم الكائنات الأرضية

(١) من أراد التوسع فى عجائب جسم الانسان فليطالع فى كتابنا (الفلسفة الحققة فى بدائع الالكوان)

أما حالته من حيث روحه ومعناه فيجر لا يدرك له ساحل ، ولا نهاية يتوه في أرجائها الفكر ، وينقطع عنها العقل ، وتتحل دونها عزومات الروية ، وتقف أمامها البصيرة حيرى ، والعقل كليلا .

إذا كانت منزلة الهيكل الانسانى من العالم المادى نهاية الابداع ، وغاية الاختراع ، وزهرة الخلق والدليل الظاهر على وجود الحق ، فكانت روحه من عالم الملكوت السرى الهى ، والنور الربانى ، وصورة الجمال الأقدس ، والكمال الأقدم ، سكنت وهى فى جمالها وكمالها أبدع أشكال المادة تركيبا وهو هذا الجسد الانسانى ، فناسب الخالق الحكيم بينهما مناسبة أوجدت هذه الوحدة المحيرة للعقل التى نراها بين الانسان وروحه ليؤدىا باتحادهما وظيفة شريفة فى عالم المادة تسمى لقانون الهى أبدى . وتكميلا لأبداع قدسى أزلى ، ان غاب عنا ادراك غاية كنهه ، فى درس بعضه تسليية فى دار الغربة ، ومعز فى قرار المحنة .

طبع الانسان على حب ادراك المجاهيل ، واكتشاف المساتير ، وهتك حجب المضمرات من الأشياء ، وتاريخه من أول وجوده لليوم أكبر شاهد على ما نقول .

يشاهد هذا الخالق منه طفلا ويافعا وشابا وهرما وفانيا كأن فى صميم معناه زاجرا لا يهدأ يحده للبحث والتنقيب ، ووازعا قويا يزعجه عن الوقوف فى معلوماته عند حد ، فهو من هذه الجهة كأنه خلق ليعلم ، ولو كان غير ذلك لقنع من العلم بقسط معلوم ، ولرضى بأمد منه محدود ، ثم انه من جهة أخرى منهوم بالادراك ، مشغوف بالفهم ، يزيد ادراكه للشيء

قوة على قوة فتضعف خاصية ادراكه على نسبة ما أدرك من معلوماته فيزيد نهمه ويشدد طلبه وينمو الى المدركات ولوعه وشغفه كأن خاصية ادراكه غير محصورة، ومداهها غير محدود ولو كان غير ذلك لكان كلما ازداد ادراكا للأشياء قرب من الشبع بما حصل، والرضاء بما اليه توصل.

اذا جاع الانسان طلبت معدته الغذاء لحاجة الجسم وكان ألم الطلب على قدر عظم الحاجة، ومبدأ الانسان بالأكل أخذ باعث الطلب يقل شيئاً فشيئاً على نسبة حصول الأكل حتى تكفي المعدة فيفنى عامل الطلب أما طلب الروح للعلم وحصولها عليه فليست على هذه السنة نراها طالبة للعلم دائماً وكلما نالت منه شيئاً فلا يكون نوالها له مقللاً من شدة الطلب بل منمياً لعامله. ويرى الانسان روحه تدرّك ولكن لا يقرب بها ذلك الإدراك من الرضاء بل يزيد لها طلباً للأدراك، وباعثاً عليه، على عكس ما يحصل في الأمور المحسوسة. كأن غاية الروح أن تدرّك علماً لا غاية له، وكما لها نوال كمال لها نهاية بعده.

* *

ما من انسان في الوجود الا وهاله أمر الحياة، وشق عليه شأنها واحتوشته من أول يوم من ميلاده لآخر لحظة من حياته، أحوال يرى نفسه بينها كالذرة الصغيرة سابحة بين أمواج بحر عجاج تدفعه موجة الى الامام، وترده أخرى الى الوراء، وتلقاه واحدة ذات اليمين، وتجذبه الثانية ذات الشمال، ثم تضغطه كلها بمجموع قواها

فتنازعه في موقف لا أجد له من لغة الانسان وصفا ، ولا يزال هكذا حتى تشتد عليه الأحوال فتضعف آلات جسمه ، وتهرم أجزءه أعضاءه فيودع الحياة ويذهب الى حيث أتى . الى أين ؟
هذا موقف الحيرة ، وموضع الدهشة ، ومضطرب الذهن ، ومزدلق الفكرة .

يولد الانسان فيقوم بتربيته أبوان أو أب واحد أو مرب فيشرب بين تكاليف ومشاعب يختلس منها اللهو اختلاسا ، وفي لهوه البلاء المحقق ، وهو يعلم ذلك من نفسه فيشرب في وسط يشكو أهله عين شكواه ويلاقى من حياته مثل ما يلاقون ، فيكبر وفي نفسه ميل الى النجاة مبهم ، وفي قلبه سوق الى الخلاص مضمر ، فيفكر في وجه الحيلة ، ويعمل قواه الكامنة في ابتكار الوسيلة فلا يجد أمامه الا ما يعطيه له ذلك الوسط الذي درج فيه فينساق بطبعه الى التقليد فيقع في مثل ما وقعوا ، ثم يقف حيث وقفوا ، ولا يسعه الا أن يضم صوته الى اصواتهم في الأنين فيكون تسليته الوحيدة في دنياه انه تعيس بين تعساء ، وصرع بين مصروعين .

هذا الموقف المدهش بعث الى قلب الانسان في الأجيال المتأخرة اليأس من الطمأنينة فجعله شعاره الحقيقى اللاصق بضميره ، أما الرجاء فجعله ثوبا عاريا يتظاهر به بين اخوانه كما يتظاهرون به أمامه . فتجده ان ضحكك فلا يضحك الارياء يتصنع الفرح وفي فؤاده نيران متقدة تحمشها أمور جلى ، وخطوب عظم ، يخفيا مضطرا لفقد الآسى وعدم

الطيب . وهو ان أكل وشرب أو تزين فلا يفعل ذلك الا وهو سادل على صوت ضميره الف غشاء حتى لا يسمع احتجاجة عليه ولا يعي ما يلقيه من القوارع والقوارص اليه ، فيغش على هذه الصورة نفسه غشا له في محكمة قلبه عقاب صارم يعرفه ولكنه يتحملة رغم أنفه لعدم امكانه العيش على غير هذه الصفة ، لأنه لو أصغى الى الصوت الجهوري المنبعث من معناه الانساني وعرف ماهية تكاليف الحياة لامتنع عن الأكل والشرب ولجد مكانه من شدة الاسى على عظم المسؤولية ، وعدم الحيلة المنجية .

ما التاجر في حانوته يقول ويبيع ، وما الزارع وسط مزرعته يحرق ويزرع ، وما الصانع في معمله يتفنن ويجهد ، وما الغني بين أملا كيهنحسب ويختزن ، وما العاقل وسط الطريق يتمنى في نفسه الاماني ، الا وهو حامل بين جنبيه خطوبا تضطرم اضطراما وأمورا تصطك ببعضها اصطكاكا لا علاقة لها بأمر جثمانه أصلا ولكنه لا يعرف لها تحديدا ولا يستطيع لها وصفا ، ولا يفهم لها مضمرا ، ولكنها من الهول بحيث تريه أن ماهو فيه من مال ومتاع ، وخدم ، وأتباع ، وقول مسموع وأمر مطاع ليس بشيء يذكر ، وما هو الا عرض حائل ، وظل زائل ويرى نفسه مفطورة على أن لا ترضى بشيء مهما عظم شأنه وكبر أمره ، مادام بين جنبيه تلك العلل المعنوية ، والأدواء القلبية .

ما هو هذا الداء الدفين الذي يحرم الانسان من التمتع بملذات حياته ولطائف معيشته ماهي هذه العلة السرية التي تنغص فؤاده ، وتبلبل

باله ، وتزعجه في اهداء أحواله ؟ هل يصح أن يكون هذا حال الانسان في الوجود مع أنه أرقى الكائنات جسماً ، وأعلى الحيوانات روحاً ، وأقدر من كل ماعداه من الأنواع الحية على استخدام أشياء الكون لمصلحه ؟ كيف يعقل أن يكون حال الانسان على ما وصفناه من الألم والحيرة وهو زهرة الابداع الالهى في عالم الشهادة ، وغاية الاختراع التكويني في الوجود المادى بأسره ؟

كيف يتصور أن يكون الانسان وهو جمال الدنيا وكمال الموجودات ، أحوج الى نادية تندب حظه ، ومعددة تعدد له مصائبه ، ونائحة تنوح على بخته ، من مهنئ يهنئه على أنه انسان لحيوان ، وذو روح تستخدم الملك والجان ، ووجدان يصور له الحكمة والعرفان ؟ كيف يصل الانسان من فقد التسلية واسوداد القلب لحد أن يعمد لترويح نفسه الى ازهاق عقله بشرب الاشربة المحرقة لكبدته ، المفقرة لأهله وولده ، المهلكة لأمته وبلده ، مع انه النسخة الكاملة للوجود كله ، والنقطة الجامعة لمتفرق جماله وكماله ؟

كيف تعلل تسفل الانسان في مطالبه ، واسفاهه في ملذات جسده ، وسلوكه اخس الطرق لنوال مآربه : فيخدع ويكذب ويسرق ويرأى ويقتل مع أنه مستأهل من العلاء العقلى والجسدانى لمنصة يقف أمامها الفكر كليلاً ، والبصر خاسئاً حسيراً ؟

لقد استعصى أمر الانسان على نفسه ، وعلى القايمين عليه من عقلاء بني جنسه ، حتى صار عقدة الاشكالات ، ومعضلة الرويات ، وموضع

الحيرة والريب ، واصبح هو نفسه بعد ان كان لا يخشى الا
مبيدات الوجود ومهلكات الطبيعة ، لا يرى لنفسه عدوا غير نفسه ،
ولا لذاته خصما غير من يحيط به من أهله وعشيرته ؟

كيف يصبح عدو نفسه وهي أحب الاشياء اليه . ووجودها أعز
الوجودات عليه ؟ وكيف يضحي لا يأمن بنى نوعه وهم الذين يجب أن
يكونوا كما كانوا قبل المكملين لوجوده ، والمتتمين بأرواحهم لانالته
غاية ما يتمناه من لذة الحياة وطيب العيش

نعم أصبح الانسان عدو نفسه على علم منه بما أوصل اليه حياته
الشخصية والاجتماعية من الارتباك والتناقض فظل لاهم له الا العمل
على ما يبيده ويبدده .

يشهد الانسان بأن الحق قوام كل أمر ، وروح كل موجود ،
والناموس الأعم السائد على كل حركة وسكون من أكبر الاشياء إلى
أصغرها ولكنه يرى نفسه مسوقا لمعاكسة هذه العقيدة ، فتراه مرغما
ليركب متن الباطل في كل محاولاته : يكذب في قوله ، ويختل في عمله ،
ويتظاهر بالصدق فيما يجمله ، وبالقوة أمام ما لا يطيقه .

وجعل التصنع ديدنه فاستعمله ، في مشيته وقعدته ونظره وتسليمه
وتكلمه وكتابه وغلا في هذا السبيل حتى كادت تكون حياته كلها
مبنية على رذائل اخلاق اصطلح عليها ، ودنايا صفات الفها ومال اليها ،
وانس بذلك لحد أن أصبح يعتقد أن الحياة المدنية تسلمها وتستوجبها
تراه يعلم علم اليقين أن للطبيعة قوانين يجب عليها ملاءمتها ، وتوفيق

مجهوداته على مقتضياتها، ولكنه يجد نفسه مسوقاً للسير على عكسها :
 فيأكل أكثر مما ينبغي ؛ ويتفنن في أشكال الاطعمة تفناً يسمه بدل أن
 يغذيه ؛ ولا يقنع بذلك كله بل يدخل الى جوفه من السوائل المحرقة ،
 والمخدرات المؤبقة ؛ ما يمتص قوى حياته امتصاصاً ؛ ويبدد روابط
 جسمانه تبديداً ؛ ولا يقنعه الرضاء بذلك على نفسه ؛ بل يعده بالتعود
 عليه احسن ما يكرم به صديقاً يزوره ؛ أو انساناً يود أن يتجرب اليه .

وأصبح الانسان عدو لبني نوعه لان الشكل الذي ورط فيه نفسه
 من اشكال الحياة صار يريه ويوحى اليه أن جميع أفراد جمعيته وبني
 جنسه مزاحمون له في الحياة لا مساعدون له على تذليل صعابها ؛
 وتيسير مطالبها ؛ فاضحى يكذ ذهنه ؛ ويجهد قواه العقلية في وضع
 العقبات الممكنة أمام من يعمل مثل عمله حتى أن الشركة اذا نجحت في
 ملاشاة جارتها من الوجود وبلغت الغاية من تبديد شكلها ؛ عدت ذلك
 فوزاً عظيماً تنهأ عليه وتجد من أجله . وصارت الحكومة من
 الحكومات اذا توصلت لتوريط جارتها في مشكلة من المشاكل
 الكبرى وهي اختها في العقيدة والمذهب تحسب ذلك فوزاً عظيماً
 ونصراً مؤزراً تحلى من أجله صدور رجالها بالوسامات المرصعة ؛
 وأجسامهم بالحلل المذهبية . وغلت في ذلك حتى استباححت في هذا
 السبيل الكذب ، والرياء ، والمراوغة ، والخيانة !

هذا ما آل اليه أمر الامم المتمدنه اليوم كما سندرسه درساً مدققاً
 ان شاء الله في موضعه مؤيداً بأقاويل عقلاء تلك الامم وفلاسفتها

ونخشى أن ينالنا ذلك الداء الدوى من طريق العدوى ان لم يقف عقلاؤنا أمامه وقفة حزم واخلاص .

انا لنعلم أن منا من يرى في كلامنا هذا شيئا من الغلواء لأنهم لم يروا بأعينهم ولم ييحثوا بعقولهم هذا الشكل الذى نحكى عنه . ولكنهم لو كلفوا أنفسهم مشقة البحث فى حالة القوم من جهات متعددة ولم توقفهم سواحر الصناعة وانوار الكهرباء لعلوا أن الامر اهل مما نصف بكثير ولأدركوا ان مسائل الفوضويين وغيرهم من الأحزاب المتطرفة اصبحت جراحا دامية فى جسم تلك المدنية يتوقع منها خطر لا يرأب له صدع ولا يرتق له فتق البتة ان لم يتداركهم الله تعالى بشئ من رحمته . نظام حالة القوم الاقتصادية هى التى تضلل عقولنا فى أكثر احكامنا بالنسبة لحال هذه المدنية فان المتحمسين منا بشكل هذه المدنية المادية يرون نظام حالة القوم الاقتصادية فيحكمون بنظامها على سائر أحوالهم الحيوية مع أن هذا النظام الاقتصادى نفسه أشد ما تشكو منه أمم الغرب ؛ لانه نظام يجعل الملايين اسراء أذلاء لرجل واحد يده اسعادهم واشقاؤهم ولو رأى الشرقيون بأعينهم أن السواد الاعظم من تلك الامم حيارى لا يملكون لحياتهم تصريفا ، ولا لأنفسهم من الحقوق الطيبة شيئا .

ولورأوا أن هذه المخلوقات رجالا ونساء وأطفالا اسراء مسخرين لرجال يعدون على الأصابع ولا ينالون قوت يومهم الا بشق الأنفس وبذل مهجة الفؤاد امام التناير المحرقة ، وفى باطن المناجم المظلمة

لا يعتقدوا كما يعتقد فلاسفة القوم (وسترى أقوالهم إن شاء الله) إن وصول الانسانية لهذا الحد من الاثرة وعدم رحمة الضعفاء ، ومن احتقار النساء والأطفال لا بدله قارعة عظمى ؛ وصاخة كبرى ولوبعد حين ! فهل حظ النوع الانسانى من الحياة أن توصله المدنية الى إحلال الرذائل محل الفضائل ؛ واستبدال الحق بالباطل ؟

هل يؤول أمر الانسان شيئا فشيئا لأن يكون قوام حياته المكر والخديعة والمداجاة والكذب والبهتان والمزاحمت .

هذا ماتنا فيه البداة وتدحضه المحسوسات ، إذن كيف وصل العالم المتمدن الى هذا الحد وماهى الأدوار التى دخل فيها فجرته عليه ؟ وكيف ينجو المسلمون من الوقوع فيه ؟

ومما يزيدنا قلقاً على حالة سجايانا الشريفة اننا أصبحنا نرى بأعيننا تسرب بعض تلك المكاريب الينا تسرباً غير محسوس ! ألا نشاهد تهالك كثير من شباننا على تعاطى المسكرات وتعمير أفنية الملاهى والمنتديات العامة وشغل ساعات فراغهم بالدنايا والسفاسف مما يدل على حرج فى الصدر وضيق فى النفس وهروب من وجه الحق !

فهل قضى علينا أن ندور فى تلك الدائرة مع الدائرين ، ونطوف أطوارها مع الطائفين حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً ، ألم يزل بين ثنيات قلوبنا محل لقبول النور المحمدى الملوكوتى تنشرها فتير علينا مسالك الحياة ، وتحى فى أرواحنا روح الأمل ، وتكشف لنا من مستور ضمائرنا سر البقاء وطلمس الوجود ؟

معرفة الانسان نفسه

الفصل الثاني

للانسان في باحات حياته مواقف مختلفة تقيمه فيها أسباب شتى وعوامل لا تحصى ، ولكل موقف منها لوازم كثيرة تستولى على فؤاده وتتسلط على عواطفه فتجبره على سلوك السبيل الملائم لها الموافق لمراميها رغم انفه وضد ارادته ، وربما كان وهو في موقف من تلك المواقف يرى نفسه على هاوية حتفه فيريد أن يأخذ بيد نفسه ليحيدها الى ما يعتقد أن فيه سلامته ومنجاته فتخور ارادته وتخونه عزيمته ، ويجده مرغما على الوقوف أو السير ، كأنه مسحوب من أنفه أو مقود من يده أو مدفوع من جميع جهاته .

الانسان كائن مفكر تقع عليه الحوادث فلا يدعها تمر بدون أن يتعقلها على وجه ما وقد يقع في تعقله وإدراكه الغلط والقصور ، وقد يخطئ في تحديد نسب النفع والضرر وعلاقتها بوجوده ، وهو يعرف ذلك من نفسه ، الا أنه مطبوع على أن يفكر في حوادثه ليدرك وجه العلاقة بينها وبينه .

العوامل التي تدفع الانسان بقواها ومؤثراتها فتقف به في ساحات وجوده المواقف المختلفة كثيرة متنوعة متداخلة في بعضها . منها ماهو طبيعي ومنها ماهو كسبي ومنها ما وجوده معلق على ازدواجهما ولكل هذه الفواعل سير خاص ، واتجاه خاص ، وتعرجات خاصة ، وتأثير

لا يشتهه غيره ، ثم لا تلبث أن تتلاقى هذه العوامل في نقط من سيرها فتتحد على وجوه وتشتبك في أفاعيل وتصير شبكة لا يعرف أولها من آخرها والانسان يعرف ذلك في نفسه لأنه يحس بآثارها على جسمه وعقله ؛ ولكنه مع اعترافه بعجز وسائله عن الالمام بها يجد نفسه محفوزاً الى تعاليل ماهو فيه من صلاح أو فساد بعلة يدركها ويفهمها ، فلا يرى بدا من عزوما هو فيه لسبب أو أسباب ، وتعليقه بفاعل واحد أو بفواعل عدة ، فيظل يقنع نفسه بصدق تعليله وكمال إحاطته بأسباب بلائه ولا يتجلى له قصوره الالماهم به الرغبة ، وتنفعل مشاعره للتخلص مما هو فيه ، مسوقاً بما ركب فيه من عاطفة الهرب من المبيدات ، والتفصى من أنياب العوادي ، حيث يرى نفسه مجذوباً الى مركزه بجواذب كثيرة ، هنالك يتحقق أن فلسفته في أسباب دائه غير كاملة لاحساسه بأن ثمة فواعل لم تدر في خلده قد سيطرت على إرادته ، وتسلطت على اختياره ، فالزمته مركزه وقهرته على عدم التحول منه . وربما لم يصادف في مبدإ همه ما يجذبه الى مكانه فيجرى تحت تصریف إرادته في المجال الذى تخيله أبقي لحياته ، وأحفظ لذاته ، ولكنه لا يكاد يفرح بانطلاقه حتى تصدمه في صدره دوافع ، وتقوم في وجهه حواجز ، لو قاواها قليلا سحقته مكانه ، وذرت أجزائه في ذبول العواصف ، نيرى نفسه مرغماً على الهزيمة مكرها على النكوص على عقبه . الا أنه مع هذا كله لا يرتاح الا اذا أدرك سبباً لما يؤلمه وينغصه ، فيعمل فكره ثانية وثالثة فان كان مسلماً حقاً لا يتطرق اليأس الى قلبه

بل يظل يلتمس العلة على مقتضى ما فطر عليه من طلب الخلاص وعدم الاستسلام للمهلكات حتى يجد العلة أو يموت باحثاً عنها ليودع الحياة وداع رجل أدى الواجب ليجد بعد أن يخلع هذا الرداء الجسدانى قوة فى معناه يتابع بها خطته فى العروج الى عالم السكال والجمال ، فى حياته الثانية وداره الباقية . وأما إن كان غير مسلم حقاً يئس من وجود المخلص ، وقط من رحمة ربه ، ورننا للوجود بعين اليأس القانط ، ونشر على حياته غواشى سوداء من أوهامه ، وكسفا مدلهمة من سودائه ، ويلتجئ لأن يداوى هو اجسه ووساوسه بغير دوائها الطبيعى ، فيعمد لازهاق عقله وفكره بالسوائل المخدرة ، ويركن فى الهاء نفسه الى الملهيات المادية من مأكل ومشرب ومسكن وملبس ، فيحتاج للمال الكثير ليستطيع أن يعطى اللهو حقه من العناية فيتكالب على إيجاده بكل ماتصل إليه قوته من الوسائل : بالغش ، بالتدليس ، بالتزوير ، بالسرقه ، بقتل النفس ، واذا يئس من ذلك كله قتل نفسه وأرسلها للعدم ، أو عاش على أسوأ حالة يمكن أن يتصورها خيال الشاعر !

اعتاد أكثر الخطباء أن يشكوا من أنهم لا يجدون لنصائحهم أثراً فى قلوب سامعيهم ، ولا نتيجة لها فى تحويل مجارى أعمالهم ، ويبالغون جداً فى الأسى والأسف على صلابة القلوب وخمود العواطف ، ويتعجبون جداً من رؤيتهم هذا الأثر السئ ، ويزيدهم تعجباً ما يعرفون من أن أمثال هذه المواعظ كانت تأخذ بقلوب سلفهم الصالح فتثير كامن قواهم ، وتبعثهم لأقوم السبل الواصلة بهم الى خيرى معاشهم ومعادهم . ولو سئلنا نحن عن

رأينا في هذه الظاهرة النفسية لقلنا إن هذا مما لا يستدعي العجب، بل يستلزم البحث لمعرفة السبب. لأن الانسان مفطور على الشغف بنفسه وبكاملها. ومطبوع على حفظها من المييدات وصونها، فان شوهده منه خلاف هذه الغرائز بالنسبة لحال من أحواله، فلا يصح أن يقال انه قد تغيرت فطرته فأصبح مدفوعا لاهلاك نفسه وولده وبنى نوعه، ولكن يجب أن يقال لابد من أن يكون هنالك عوامل تؤثر عليه فتقهره على لزوم مركزه، وتجبره على عدم التحول من مكانه. وما مثل خطيب يكثّر العجب من هذه الظواهر ولا يكلف نفسه البحث في مظاهرها ليعثر على أسبابها الا كمثل رجل يقوم بأزاء رجل مكتوف من يديه ورجليه وبجانبه نار تمتد اليه بلهبها فيصيح به أن أبعدها عن الرجل عن النار فانها قد وصلت اليك أو كادت، ولما لا يراه يستطيع الحراك يأخذ في تقريعه وتأنيبه وشتمه ويتهمة بالكسل... أو بالجبن... أو بعدم الشعور... ولا يكلف نفسه الذهاب اليه، وفحصه يديه ليرى ان كان الحق في عدم حراكه له أو عليه، ماهو الكسل والجبن وعدم الشعور الخ الخ من الألفاظ التي يعطل الناس بها ما يرونه من أمراض الأفراد والأمم؟ الكسل ضد النشاط وهو داء كما اصطاح عليه الناس يمنع الانسان من الاتيان بالحركات اللازمة للأمر المطالب الحصول عليه. والجبن ضد الشجاعة وهو داء يقعد بالانسان عن مدافعة ما يراه عاديا على ذاته أو ما يرتبط بها، وعدم الشعور داء يحل بالنفس فيمنع عنها نعمة الاحساس بما يلزم التأثير منه

هذه هي كبرى الأدواء التي اعتاد الناس على تعليل جمود العواطف الاجتماعية والذاتية بها ، ولكننا هل نرى الذين نصممهم بالكسل في الأمور النافعة العائدة عليهم بالفوائد الصورية والمعنوية كسالى عن التردد على الملاهى والمراقص . كسالى عن إعداد معدات الترف والسرف . كسالى عن موجبات الزينة والزخرف ؟ أترى الذين نصممهم بالجبن جنباء امام الخمر الذى يعرفون أنه مميتهم وملاشيهم ، عن القمار الذى يتحققون أنه مفلسهم ومفقرهم ، عن الافراطات التى يتأكدون أنها مسرعة بهم الى خمود حياتهم ؟ أترى فاقد الشعور بما يمس مصالحه الحقيقية فاقد الشعور كذلك بلذات خلاعته وقصفه ، بنعيم مأكله ومشربه بلطائف ملبسه ومسكنه ؟ اذا كان الذى يقعد بالانسان عن الالتفات لمصالح ذاته وبني نوعه هي هذه العلل الاصطلاحية لوجب أن يكون الكسلان كسلان فى كل اعماله ومحاولاته ، وعن جميع ما يرتبط بأمر حياته ، لا أنه يكون كذلك أمام ما يرجع عليه بالمنافع المادية والمعنوية ، ويكون مثال النشاط والحركة أمام ما يهلكه ويتلفه . ويلزم أن يكون الجبان جبان حيال كل ما فيه مظنة الضرر عليه ، لا انه يكون كذلك بازاء الاخطار التى فيها حياته وحياة ذويه واشجع الشجعان أمام ما فيه ثوره وعطبه مما يرتبط بملاذ بدنه . ولما كان المعقول ان يكون الفاقد للشعور فاقد به كل شيء ، لا انه يكون كذلك بالنسبة لما فيه تلف ذاته وذوات أهله وبني جلدته ، وأشعر الشاعرين بماله علاقة بلذات بدنه وسرف نفسه ان قيل ان تأثير الشهوات ، وفعل النزغات هي التى تذهب بالنفوس

مذاهب الخور والضعف أمام معالى الامور وشريف الاعمال ، وتميل
 بها نحو السفساف والدنيا ، قلنا : ما الشهوات ؟ ما النزغات ؟ ما الاهواء ؟
 هل هذه كلها الفاظ مجملة قنعنا بها فى تحليل أعمالنا التى نرى أنفسنا
 مدفوعين لها رغم انفسنا وضد ارادتنا ، وأنسنا بها حتى أخذت من
 خيالننا شكلا لا يجب أن يكون لها دفعنا هذا الشكل الذى تخيلناه عليها
 الى الخطأ فى تكييفها وتصويرها ، والشطط عن حدود سلطانها ،
 والبعد عن مداواتها وعلاجها ، حتى جرننا ذلك الى محاربتها بألفاظ
 مثلها فاستحالت ادواؤنا وعلاجاتها الى الفاظ تتفنن فيها تفنناً وتلاعب
 بها تلاعباً ، وهيات أن تنجلى هذه المعارك اللفظية عن حقيقة ، أو
 تقف بنا عند حد .

إذا كانت أمراضنا هي مدلولات هذه الالفاظ ، وعلاجاتها مانطالعه
 فى الكتب وما نسمعه من قراء الخطب على المنابر وفى المحافل ، فلماذا
 لم يظهر لها أثر فى تقويم الملسكات ، وتعديل الطباع ، والأخذ بأيدينا
 عن السفساف ، والصعود بأرواحنا الى مكانات الفضائل ، ومقامات
 المكارم ، مع علمك بأن هذا التشخيص وذاك العلاج مستعملان
 فينا من منذ قرون عديدة ؟ هل عهد فى طبيعة الانسان ان يأنس بمرضه
 ويعتاد آلامه ، فلا يلتفت الى علاجه وهو بين يديه ، ونصب عينيه ،
 لم يبق فينا رجل الا وأحس بشر منقلبه ، وضلال مذهبه ومرارة
 مشربه ، وتحقق انه مأخوذ به الى حتفه ، ومقود بأنفه الى تلفه ، وليس
 فينا رجل الا وهو يتنسم روح الخلاص بمجموع قوته ، ومذخور

وسائله وحيله ، فلماذا لم يصادف من تلك العلاجات المستعملة علاجا مرضيا ، ولا من القائمين بها طيبيا حفيا ؟ اذا كنت تستهجن فكر من يداوى السعال بمحض ذم السعال ، وتشهير ما يجر اليه من الأهوال ، ومجرد النصيحة بالاقلاع عنه بدون امهال ، فليس من يداوى شهوات النفوس وعلل القلوب بسبها وسرد مخازيها ومشائها ، والنصيحة اللفظية بالاقلاع عنها باقل استحقاق من الأول لاهمال قوله ، والاعضاء عن مضجرات نصائحه . أليس المصاب اكثر شعورا بالآلام دائمة ، واحس به من أفصح خطبائه ؟ فان كانت تلك الآلام لم تهدده الى وسائل النجاة منها ، فكيف تهديه اوصافها ونعوتها ؟ واذا كانت جميع جوارحه السنة طالبة الخلاص منها ، وارادته شرهة الى الفكاك عنها ، ومع ذلك فلم يستطع التفصى من حبالها ، ولا النجاة من اشراكها ، فكيف يكفيه أمر من الواعظ بتركها وعدم اتيانها ؟ اليس ذلك يدل اجلى دلالة على أن هنالك عوامل مؤثرة على الانسان تجره على لزوم الصراط الذى ترسمه له ثم تدفعه اليه بمؤثراتها المختلفة دفعا يسيطر على ارادته واختياره ، ويحكم على عزيمة واقتداره ؟ نعم هذا هو الذى يحس به كل انسان عني يبحث نفسه ، وهو ما يمكن أن يفسر به سائر الاختلافات الانسانية فى العوائد والطباع ، والفضائل والردائل ، وهو ما يجب علينا أن نبحث عنه بجدية وتحسس منه تحسسا ذريعا لانه طب الانسان والانسانية ، وطمس السعادة الذاتية والعمومية فنقول : ماهى تلك العوامل المؤثرة على الانسان ؟ ما طبيعتها ؟ ما حدودها

ما وظيفتها؟ ماهى وجوه اختلافها؟ هل هى من ضمن نوااميس الوجود الثابتة التى لا تبدل ولا تتحول ، أم هى تابعة لنوااميس أخرى متغيرة تظهر بظهورها وتعدم بعدمها؟ هل هى داخلية تحت ارادة الانسان ويمكن له تغييرها وتحويلها لتفعل عليه فعلا مناسباً لمصالحه ، أم هى خارجة عن ارادته لا يستطيع لها تحويل ولا تبديلا ، ولا يملك لها تحويرا ولا تعديلا؟ ان كان الأول فكيف يسلط عليها ارادته ليغير مجاريها على مقتضى مصالحه ، ويحول قوتها على حسب منفعتها؟ وان كان الثانى فهل هو متمتع بما يخرج من دائرة سلطانها ليدخل تحت نفوذ فواعل اليق منها بحياته؟ ان رمت رأينا فى هذه المسائل فاليك : إنانرى نوعين من العوامل سائدين على الانسان ، أحدهما عوامل ذاتية ، والآخر عوامل عمومية . أما الذاتية منها فليست الا ما يحس به الانسان فى تركيبه من المطالب المختلفة المتعلقة بحفظ ذاته وتكميلها . هذه العوامل الذاتية الكثيرة كان يمكن تقسيمها الى عاملين عامين فقط : عامل مادى جثمانى سلطانه على الامور الجسدانية ، وعامل معنوى روحانى سيطرته على الامور الروحانية ؛ ولكن لسنأ فى مقام التعميم ، بل نحن فى صدد التفصيل حتى لا يضيع علينا شىء من جزئيات البحث ولذلك نقول : الانسان يحس بأنه محتاج للأكل والشرب والمسكن والملبس ثم يحس مع هذا بعاطفة حب العلو على غيره فى كل ما يشترك فيه معه ، فيحب أن يكون أعلم وأفصح وأجمل وأغنى وأولد وأهل من كل من يقع تحت بصره من بنى جنسه ، وهو مع هذا كله

يشعر في بعض أوقاته عندما يرى الموتى أو يتذكر أنه لا محالة ميت ، إن كل مطالبه الأولى عرض حائل ، وظل زائل ، وإن الأجمل من ذلك كله والأكمل ، أن يكون بينه وبين السماء صلة وسببا ، وعنده من أحوالها علما وخبراً ، وأن ينال فيها بعدموته من الأرض جزاء وعوضاً . هذه أكثر عوامل الانسان الذاتية التي لها الأثر الظاهر في وجوده ، والطابع البين على حياته . فيندفع أولاً وراء الصق الحاجيات به من مأكل ومشرب فاذا نالها ذهب وراء الملبس والمسكن ، فاذا حصلها وارتاح باله من جهة مطالبه الوقتية ، عملت فيه العوامل الأخرى عملها ، وساقته إلى أشباعها ، فيجرب أشواطاً بعيدة في مواهبها ؛ وبما أنه غير محدود القوى ولا مقيد المواهب فيجرب وراء كل منها في المجال الذي يهديه إليه علمه ، ويرى أن في غايته نوال أربه فان عجز وجد من حيلته ما يساعده على اخفاء عجزه : فيمكر ويداجي ، ويتصنع ويرأى ، ويكذب ويدلس ، ويسرق ويغدر وإن اشتد به ألمه يقتل وقد ينتحر .

هذه العوامل الذاتية فطرية طبيعة لا يمكن تبديلها ولا تغييرها أى أنه ليس للإرادة الشخصية سلطان عليها من جهة الملاشاة أو التعطيل ، ولكنها مثل كل شيء في الانسان قابلة للتهدب والترقى ، ورقيا وتهذبها متعلق برقى الانسان في معارج العلم والمعرفة . فانها بصفتها الأصلية أى قبل أن تهذب وتعدل بإرادة الانسان قد تنقلب شر الشرور عليه ، وتكون أسرع في إهلاكه من كل ما يهرب منه من المييدات والعوادى الطبيعية . ذلك لأنها مغروزة في جبلته على حالة مطلقة غير مقيدة .

أودعها الخالق الحكيم على هذه الصفة ليكون أهلاً للنصبة العلية التي خصصها له في عالمي الملك والملوك وليستحق خلافته على الأرض ، فان وجودها مطلقة يجبره على الاحتكاك بكل ما يقع تحت حسه من أشياء الوجود ، وهذا الاحتكاك يعرفه من أسرارها ويكشف له من ضمائرها ، ما لا يمكن الوصول إليه الا من هذا السبيل .

هذه الدوافع الذاتية دوافع إلهية ، وبواعث ربانية ، طبعت في جبلة هذا الانسان لترفعه إلى المكنات العلا ، والمنصات السامية ، ولتنشر من سلطان روحه على الكائنات الأرضية ، وتمد من أيدي حوله وقوته عليها وعلى نواميسها ما لا يتخيله أكبر فـ فكر الآن ، ولكن ما أجمل الانسان بنفسه ، وما أهون ذاته في نظره ، وما أشد تغاضيه عن درس قواه ومواهبه ؛ هذه الغرائز والعوامل الذاتية صارت بجمل الانسان واغضائه عن تعديلها وتهذيبها ؛ وباهماله في درسها ومعرفة طبائعها . عوامل شرعية وعلى أهله وبني نوعه . أحس بضرورة المأكل والمشرب والسكن والملبس ولما حصلها وجد من نفسه ميلاً إلى شيء مبهم ، وشعر بما يدفعه عن الرضاء بحالته والوقوف عند حدها ، فلم يسكن حتى يعرف ماهية ذلك الميل إلى الشيء المبهم ، بل اعتراه داء العجلة فظن أن ذلك الشيء المبهم هو الافراط فيما حصله ، والغلو فيما ناله ، فوقف كل قواه على ذلك ، فتفنن في صنوف الطعام واشكال اللباس ، وفي بناء المساكن ورياشها ، وفي أنواع المشارب حتى صار كل ذلك وبالاعليه بعد أن كان مقوما لشخصه ، لما أدى إليه من أنواع الافراط .

والتفريط والأدواء النفسية القاتلة ، مع أن المسألة بسيطة في ذاتها لا تعوز منه كل تلك الحى الهائلة ، فان شعوره بعدم الرضاء بما حصل ليس سببه قلة ماوصل اليه ، وإنما هو باعث وجدانى يلفته إلى أنه لم يخلق ليأكل ويشرب فقط فان ذلك مما يشاركه البهائم فيه وربما كان منها ما هو أقل جهاداً فى نوال مقومات ذاته منه ، وإنما خلق لأمر عظيم يؤديه للعالم ، ولو وظيفة كبرى لا تتم إلا به فى عالم الشهادة فلم تذهب به هذه المذاهب المضللة للإهماله فى درس مواهبه وملكاته .

كذلك غلط الانسان من جهة تكميل ذاته فتاه فى متائه كلها خطر عاياه وعلى بنى نوعه : فانه لما أحس بعاطفة التكمل والاعتلاء حسب أنه يؤدى مطالب تلك العاطفة بالتفضل على غيره فى المزايا التى يشترك فيها معه سواه فبذل غاية جهد فى هذا السبيل ، ومال لأن يكون أغنى وأعلم وأفصح وأولد وأهل والخ الخ من مجاوريه ، فنشأ التحاقد والتحاسد والتباغض والتسافك ولو صبر قليلا أولو أصغى إلى الرسل الكرام الذين لم يحرمه الله منهم أو من تعاليمهم من أول وجوده لليوم ، لعلم أن اشباع تلك العاطفة العالية لا يتأتى بالتعالى على غيره بل بنوال مرا كز روحانية هو مستعد لنوالها بالفطرة ، وأن أمثاله من بنى نوعه ليسوا بمزاجيين له فى الحياة بل هم أعوانه وأنصاره فيها ، فكان يحل بينهم البؤام بدل الخصام والسلام بدل الحرب ، والتحاب بدل التباغض ، والترافد بدل التنهاب ، وكانت الحياة الانسانية أجمل أشكال الحياة لا أن تكون مجال صراع وقراع ؛ وميدان نضال وضراب ، ومضمار ألسفك الدماء وتيتم الأبناء

من يرد أن يعلم أن كل هذه العوامل بدل أن تكون كما هي الآن أسباب الافراطات والتفريطات المييدة للانسان ، كالتحاقد والتباغض بين الأفراد والشعوب ، يمكن أن تصير عوامل ملكوتية تبعث الانسان للرقى المادى والمعنوى ، والكمال الجسدانى والروحانى بمحض تعديلها وتهذيبها بالانصياع لأوامر خالقها وواضعها ، فليُنظر إلى ذلك التبدل السريع الذى حصل فى الأمة العربية فى بضع وعشرين سنة . ألا ترى كيف استحال ذلك التباغض والتنازع والافتراق إلى تحاب وتعاطف واجتماع ؟ كيف حصل هذا أتبذلت الفطر أم جاءها مالم يكن فيها من قبل ؟ لاشئ من ذلك .

وإنما هى روح التهذيب الالهى الذى أنزله الله على رسوله الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم سرت إلى تلك الأرواح فأزالت ما كان يحجب عنها نور الحق فدارت فى مجاربها الأصلية فتأدت إلى تلك النتيجة الطبيعية ، وهى نتيجة أدهشت المؤمن والجاحد على حد سواء ، فكيف لاتهتز العواطف شوقاً إلى معرفة أسرار ذلك التهذب الذى يجعل قلوبنا وأرواحنا مستعدة إلى مثل هذا الكمال المحبوب ؟ وكيف لا تلتهب الحمية غيرة للوصول إلى مثل ذلك النعيم المملوك فى الجدير بحياة الانسان ؟ وكيف لا يهيم الانسان لمعرفة تلك الفواعل القاهرة التى تصدنا عن الانتفاع بتعاليم خالقنا الحكيم (الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى) القائل (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) ؟ ذلك مالا يمكن الخوض فيه إلا بعد معرفة ماهية العوامل العمومية

العوامل العمومية

أو

روح الجيل العمومية

ماقلناه في الفصل الماضي عن العوامل الذاتية التي تتنازع الانسان فتوقعه من باحات وجوده المواقف المختلفة رغم أنه وضد إرادته لا يكتفي في تفسير ذلك التناقض الهائل الذي يشعر به الانسان في ذاته بين علمه وعمله وبين عقله وإحساسه ، وليس فيه ما ينقع غلة الباحث عن كمال نفسه ، المغرم بالاستقامة على صراط العدل المستقيم . وقد أشرنا نحن إلى ذلك في بحثنا عن عواملنا الذاتية وعلقنا بلوغ الغاية من هذا البحث على العوامل العمومية التي هي موضوع كلامنا اليوم .

أصدق العلوم أثرا في تحسين حال الانسان من جهة صورته ومعناه ، وأقواها عاملا في انالته ما يتمناه ، من سعادة دينه ودنياه ، ما كانت أصولها مستمدة من حقائق الكون ومشاهداته ، وفروعه منتزعة من حوادثه التي تشهد آثارها في كائناته ، لا بما يتصيد الفكر تصيداً من أرجاء الخيال وخطرات الأفكار المجردة . لهذا لامناص لنا ، مادما نرجى الوصول إلى نتيجة محسوسة ، من سرد كثير من الحوادث سرداً استقرائياً ، وجمع ما تشابه منها إلى رابطة واحدة ، والسعى في رد ما تخالف منها إلى أصولها الرئيسية ، واستنتاج القوانين

السائدة على كل نوع منها استنتاجا تحليليا محسوسا ، والاجتهاد في رد تلك القوانين إلى مبادئها الأولية ، لا يمكن تحديد روحها العمومية ، بطريقة يفهمها الخاص والعام فهما جليا ، وهو عمل شاق جدا يستدعي من الكاتب عدم الطيش أمام الحوادث ، وثبات الجأش حيال ما يصادفه من المتناقضات الكبيرة ، ويستلزم من القارئ كثيراً من الصبر والجلد حتى تشرق له الحقيقة اشراقا كاملا .

رأينا أن مجرد معرفة الانسان بطريق العلاج لا يكفيه في اقامته على منهاجه ، ولا يجديه في تمشيته فيه ، وضررنا لذلك الامثال العديدة في فصلنا المتقدم ، وقلنا لا بد من أن يكون هنالك عوامل عمومية تسيطر على ارادة الفرد الواحد فتوجهه كيف شاءت ، بل على الامة برمتها فتسوقها الى الطريق الذي ترسمه لها وتدفعها اليه دفعا فتسلكه مضطرة لا مختارة ! فما هي تلك العوامل العمومية ؟

(مناقشة في التعليقات المصطلح عليها)

يقولون ان سبب ما يقع فيه الواحد والامة باجمعها من الخبط في الأحوال ، والخلل في الاقوال والاعمال ، واللوث في الشؤون الخاصة والعامّة ، هو عدم الدين الهادي الى سوء السبيل ، أو ضعف الارادة ، أو الجبن ، أو عدم التربية ، أو الجهل الخ .

نقول كل هذا صحيح ولكن كل هذه العلل لوازم لتلك العوامل لاهي بذاتها ، والمدار في مداواة المرض على معرفته بذاته لا مكان مكافحته مكافحة حقيقية ، أما مكافحة لوازمه واعراضه فلا يكون من ورائها

غير اضاعة الوقت فى مصادلة شىء لا يتلاشى حتى يتجدد ، ولا يسكن حتى يتهبج .

فما هو ذلك العامل القوى الكبير ، أو العوامل القوية الكبيرة التى انتزعت منا الدين انتزاعا ، وما هى تلك المؤثرات الخارجية الهائلة التى اخترقت اغشية افئدتنا وسرت فيها سريانا سحريا حتى وصلت الى مكانه من صميمها فأجلته منها اجلاء غير محسوس ؟ وماهى تلك الفواعل الشديدة التى عدت على الفطر ففسختها ، وعلى الوجدانات فغيرتها ، وعلى العواطف فحولتها ، وعلى المشاعر فقتلتها ، وعلى الاميال فحورتها ، وعلى المدارك فضللتها ، حتى صرنا ونحن أبناء الدين ، واساطين العقائد ، واراكين الايمان ، واحفاد بناء الحقائق ، نلتبس الدين فلا نجده ، وننشده فلا نهتدى اليه ؟ ماهى هذه العوامل المدهشة ؟ ما طبيعتها ؟ ما حقيقتها ؟ ما حدودها ؟ ما سلطانها ؟ ما آثارها ؟ كيف تنشأ وكيف تؤثر ؟ هل هى متعلقة بطبيعة الهيئة الاجتماعية ؟ هل مرتبطة بتطورات الافكار والمعارف ؟ هل هى نتيجة من نتائج العلم أو أثر من آثار الجهل أو هى لازم من لوازم الرقى المادى أو هى صفة من صفات طور مخصوص من أطوار الحياة ؟ هل هى فى ذاتنا وفيها مادتها ومنا روحها ، أو هى عارضة علينا من سوانا ؟ ان كانت منا فكيف نشأت ؟ وكيف تطورت وتدرجت ؟ وان كانت عارضة علينا من غيرنا فكيف جاءت ؟ وبأى وسيلة عملت فيها هذه الافاعيل ، وكيف واجهت معاهد عقائدنا فخلتها ، وصادمت صروح تقاليدنا فهدمتها ؟

لامشاحة في أن التنازع بين العقائد الراسخة والفواعل العارضة ،
 شديد عنيد فتي بدأ ذلك التنازع ، ومتى شعرت به الامة ، كيف كانت
 الحرب بينهما في أنفسنا وبأى وسيلة حصلت الغلبة للثانية دون الاولى ؟
 اعتدنا أن نقول أن سبب هبوطنا عدم الدين ، ولكننا لم نكلف
 أنفسنا بالبحث عن ماهية الدين ولا عن مكانه من أفئدتنا ولا عن
 مادة بقائه ونائه ، ولا عن جرثومة فناءه وتلاشيه ، هل هو روح تحل
 بالنفوس من الخارج فقيمها على طريق مخصوص ؟ أو عاطفة ذاتية
 من عواطف الفؤاد تتيقظ فيه بسبب من الأسباب ، وتنام وتتخدر
 بسبب آخر ؟ ان كان هو روحا تحل بالنفوس من الخارج فكيف يكون
 التيهو لقبولها ، وكيف يعد الانسان نفسه لتحل فيه ؟ وان كان عاطفة
 من العواطف المغروزة في جبلتنا فأين مكانها منا ؟ وما هي أسباب
 تيقظها وما هي علل نومها ؟

دعنا من كونه روحا خارجية ، أو عاطفة نفسية ، فهل
 هو ضرورى في ذاته ؟ هلا يمكن أن يقوم مقامه عامل غيره ؟ كيف
 قامت امم اوروبا بدونه ، وادعت أنها استغنت عنه ؟

هذه كلها مسائل يجب حلها حلا فلسفيا تحليليا محسوسا ليخرج
 الانسان من تلك المجاهيل المظلمة التي كوتتها حوله تلك الألفاظ
 الضخمة ، والتعبيرات المفخمة ، التي لا طائل تحتها ولتتجلى أمامه هذه
 المتناقضات الكثيرة بين ما يسمعه من مرشديه وما يراه بعينه من
 الحوادث الكونية ، ولتتجلى له جلاله وظيفه الأنبياء والرسل عليهم

الصلاة والسلام تجليا باهرا في مجلاها المعجز. فلقد ساء فهم الناس في أولئك الرجال الفخام الذين اصطفاهم الله من بين سائر الأنام فظن كثير منهم أنهم لم يعملوا الا أن دعوا الناس الى شيء فاتبعوهم وقادوهم في طريق فانقادوا فيه، ووجهوهم لغايات من الحياة فتوجهوا اليها، فكان من شأنهم ما يرويه لنا التاريخ من جلائل الأعمال، ومدهشات السير، ويغيب عن أفكارهم أن معالجة أدواء النفوس وتمريض الأفتدة الغرقى في دياجير الفتن، ومراس الطباع المتسمة بسموم المفاسد، أمور لا يقدرها قدرها الا الذين سبروا على النفس والاجتماع البشرى، خصوصا ما كان منها مختص بالعالم القديم أى فى الزمن الذى أرسل الله تعالى فيه أولئك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقد تخيل بعض الناس أن معالجة تهذيب المتوحشين أسهل وأيسر من معالجة المتورين، وهو ظن فاسد، فقد أثبت علماء الانسان، أن المتوحشين أشد الناس اباة لدعوة الدعاة، وأكثرهم استعصاء على هدايتهم، وقد لبث المبشرون المسيحيون فيهم آمادا طويلة ولم يلباغوا منهم ما يكافئ محاولاتهم، رغما عما يبذونه لهم من اللطف واللين، وما يبذلونه لهم من الرشا والهبات وحسن الملابس والمسكن، وقد أثبت الاستاذ (أرنوردوليا) فى كتابه (الانسان على حسب مذهب داروين) إن من المتوحشين الذين يخضعون للبشرى من يتظاهر بالدخول فى المسيحية ظاهرا لينال قسطه من الخبز والتبغ والشاى ولكنه فى الباطن على مذهبه الأول لم يتحول عنه قيد شبر

من هنأيرى ان حل المسائل التى أشرنا اليها كما يكون من ورائه نفع للشخص من حيثية تكمله وتهذيبه ، كذلك يكون من ورائه ادراكه لجلالة وظيفة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وتحققه بأن كل من لم يتبع نهجهم خطوة بخطوة فى سبيل ترقية الأمم لا يفلح فى دعوته ، ولا ينال سوى الخيبة الفاضحة من وراء جهاده .

واذا علق هذا الهبوط الذى نحن فيه على ضعف إرادتنا ، وقلة مادة هممتنا ، نقول لماذا ضعفت إرادتنا وقويت إرادة غيرنا ؟ وماهى الارادة فى ذاتها بالنسبة للفرد فى نفسه وبالنسبة للأمة فى مجموعها ؟ كيف تنشأ وكيف تنمو ؟ كيف تقوى وكيف تضعف ؟ هل هى تابعة للزاج ؟ هل هى مرتبطة بصحة الانسان ومرضه وبقوته وضعفه ؟ هل يمكن أن تقوى الارادة بعد أن تضعف ؟ وماهى الأسباب التى تقويها وتؤديها ؟ الا يكفى فى تقوية الارادة أن نرى أنفسنا مسوقين للتلاشى ؟ واذا كان هذا لا يكفى فى تقويتها فأى شئ أشد من ذلك تأثيراً عليها ؟ هل الأمم القوية الارادة قوت إرادتها بنفسها ، أم نشأت قوية الارادة ولم تفكر فى ذلك يوماً من أيام حياتها ؟ هل تقوية إرادة الأمة متعلق بالفرد على حدته أم بالمجموع ؟ وهل أسباب ضعف إرادة الأمم آتية اليها من ذاتها أم تأثيراً من الأمم المرتبطة بها ارتباطاً ما ؟

وهكذا يقال فى الأسباب الأخرى التى تتخيلها لتعليل ما نحن فيه من الضعف كعدم التربية والجهل والجبن وغير ذلك . ومهما ترقينا فى اتحال العلل والأسباب فلا نزال نرى فى أنفسنا داعياً الى اختراق

صفوف تلك العلل الى العلة الرئيسية التي تهدأ اليها النفس ، ويسكن بها اضطراب الفكر ، ويركد منها جيشان الروية .

قلنا مرارا ولم نزل نقول ان اكتفاءنا في تحليل مضان كتابنا بالالفاظ الضخمة ، والعبارات المفوقة ، هو الذى ضلنا فى مدركاتنا ، وصغر فى أعيننا وظيفة تربية الأمم ، وشجع كثيرين منا على التكلم فى علم الاجتماع البشرى ولم يقرأوا فيه كتابا بسيطا ، لاجرم يكون نتيجة هذا أن يصبح الناس هنا كلهم فلاسفة اجتماعيين ، يشخصون أدواء الأمم ويصفون علاجاتها وصف الطبيب النطاسى بغاية الجسارة والحرية . ولم يكونون كذلك وقد اختصروا العلل الاجتماعية فى كلمتين : (عدم الدين وعدم التربية) وجمعوا سائر علاجات الأمم فى نقطتين أخريين : (الدين والتربية) فصرت ترى أفكار الناس تتراوح بين وصف عدم التدين وعدم التربية ، وبين وصف مزايا الدين ومزايا التربية ، حتى اقتصرت أكثر الكتابات على ذلك وصار الكلام كله ترديدا فى ترديد لا يختلف عن سابقه شكلا ومعنى الاعلى قدر نسبة اقتدار الكتاب فى التصوير ، ومهارتهم فى ابتكار أساليب التعبير والتجوير ؛ واذا كان هذا كافيا فى معالجة أدواء الأمم وبعث الحياة اليها ، فالأمم الشرقية اليوم اعلم أمم الأرض بدائها ودوائها ، وأقدرهم على النهوض بنفسها من وهديتها . واذا كان الأمر كذلك فما الذى يأخذ على متفلسها فيكبجها عن العمل ، وما الذى يمسكها فى مركزها ويمنعها من التقدم خطوة الى الامام .

قول القائل ان تأخرنا سببه عدم الدين يشبه قوله ان سببه عدم

الفضائل الاجتماعية والذاتية . وهو صادق في كلا الزعمين ؛ ولكن ماهو الدين وماهى الفضائل ؟ اذا سهل عليه أن يسرد بعض قواعد الدين وبعض أمهات الفضائل ، ويقول هاهو الدين وماهى الفضائل فلا يدل ذلك على أنه فعل شيئاً غير ترديد عبارات قرأها فى بعض الكتب أو سمعها على ألسنة بعض الخطباء وهذه التعبيرات الضخمة كما ليس لها أدنى تأثير فى تحسين حالة القائل الشخصية ، تعديلاً لطبعه ، وتهذيباً لنفسه ، كما يقر هو بذلك ويعترف به ، كذلك ليس لها أقل أثر فى المجموع كما يرى ذلك بعينه . وقد اعتلى الجبل الأول من المسلمين الى ذروة من الفضائل الذاتية والاجتماعية يكاد الانسان يعد أخبارها من الشعر ، ولم يقرأ الفاضل منهم ولا كتاباً واحداً فى علم الأخلاق ، بل ولم يكن يستطيع أن يعد من أمهات الفضائل وحدودها وآثارها ما يستطيع اليوم أن يعده رجل من أحلاس الرذائل يكون قد قرأ فى علم الأخلاق كتاباً ؛ فماذا أغنتنا تلك الألفاظ الفارغة ، وماذا ضر آباءنا الاولين من عدم معرفتها .

يقولون : ان سبب تأخرنا عدم الدين ولا بد لنا من الرجوع اليه ، والتعويل عليه ، ونحن وكل صغير وكبير ، وعالم وجاهل من المسلمين يقول ذلك ، ولكن ليست هذه هى النقطة الصعبة من المسألة ، بل النقطة الصعبة التى يجب حلها هى ابتكار الوسيلة التى بهار جمع المسلمون الى الدين بقوة طبيعية دافعة مثل سائر القوى التى تدفع الافراد والامم الى أى موقف من مواقف الحياة . أقم نفسك متأملاً قليلاً فيما يدور حولك ، وتخيل أولئك القوم الذين يعمرن محلات الملاهى والمراقص والمواخير والحانات

من بعد غروب الشمس إلى مطلع الفجر ، وتدبر جيداً تلك الحركة الشيطنة والروح التي تديرها وتدبرها ، وتبصر في القوى ذات الأشكال الكثيرة التي تستهلك في تلك المجالات الابليسية الموبقة ، وصور لنفسك الناس وهم داخلون الى تلك المحلات أفواجاً أفواجاً يتدافعون بالمناكب ويتزاحمون إلى الصفوف الاولى تراحم العطاش على الماء ، أو الجياع إلى الغذاء ، ووجوههم تتألق بشراً وسروراً ؛ وجيوبهم تسيل لجيناً وتبراً . ثم تأملهم في خشوعهم وانصاتهم ، وسكون حركاتهم حينما يغنيهم المغنى أو تتمايل أمامهم الراقصة يميناً ويساراً .

دع هؤلاء جانباً ثم صور لذهنك أولئك القوم الذين يعمرن المساجد ! أنظرهم في قلة عددهم ، وقتور حركاتهم ، وانكماش كل منهم في نفسه ، حتى ليود الرجل منهم أن يصلى في صف وحده من شدة ما يحس في نفسه من الاستقلال وعدم الارتباط ، تأملهم في يوم الجمعة أثناء خطبة الخطيب ترى السامة والكلال قد ألقيا أستارهما على وجوه الكثيرين منهم وترى من القرائن ما يدلك على أن فكر كل منهم قد شطح في مجال من مجالات مصالحة الخارجية ، وان زدت في انتقاد الوجوه بدقة وجدت منهم من تتراوح رأسه نعاساً فلا يهيب حتى يقوم الناس للصلاة ، فاذا تمت هرعوا إلى الباب كأنهم خارجون من سجن مظلم ، لا يلوى أحد على صاحبه ، قد أخذ التقاطع منهم مأخذه ، وفعل التهاجر فيهم فعله . تخيل حال هذين القسمين ثم فسر لنا سر هذا المعنى المدهش ، وأوضح لنا طلسم هذا التناقض المستغرب ؟

الاولون من أصحاب الخلاعة يعلمون أن ما هم فيه سبب فسادهم وفساد بلادهم ويسمعون عن ذلك كل يوم في الجرائد والمجلات من أنواع الزجر والوعظ ، والنصح والارشاد ما يذيب الصخر لو يفهم ، ويسحق الحديد لو يدرك ، ومع ذلك لا يزدادون الاجريا وراء ما هم فيه من بذل ماء الوجه وماء الحياة ، وانضاب معين الثروة والخط من كرامات الأسر ، والقضاء المبرم على الشرف وحسن السيرة ، ويعرف الآخرون من أصحاب التدين أن ما هم فيه هو عين الفلاح والنجاح وبين أيديهم مئات من الكتب والجرائد تنشطهم في حركتهم ، وتصح بالناس للانضمام اليهم ولكنهم رغماً عن ذلك يحسون أنهم الاقلون عدداً ، والأضعفون جسداً ، ويأنسون من ذواتهم الضعف ومن أشخاصهم الضؤولة ، حتى يكاد بعضهم يتوارى عن الناس كيلا يرونه في تلك الزمرة .

إذا حضر أحدهم في مجلس اعضاؤه من القسم الأول وخشى فوت الصلاة فلا يجد من نفسه القوة الكافية لأن يقوم لتأدية مطلوب روحه ، وان وجدها فلا يقوم من بينهم الاتسلا ؛ وان دعوه الى الشراب فلا يجد من نفسه جسارة يصرح لهم بها أنها حرام في دينه ، بل يظل يبتكر لتركها لها الأسباب والعلل الصحية والمالية ويفيض فيما قاله عن ضررها علماء الأجانب واذا صادف أحدهم في الطريق أوفى بيت صديق تراه مع تشبع فكره بانه جرثومة من جراثيم الخراب والمحن ، وأرومة من أرومات الفتن ، هش إليه وبش ، ودلس على

ضميره وغش ، ومدله طنافس الحفاوة ، وبوأه مكانات السكرامة ورفعته على صديق بجانبه يشاطره حلو الحياة ومرها ، ويزامله في قطع مراحلها . وإذا نشأ له ولد سرت إليه مكاريب العدو من أصحاب القسم الاول فكلف باللهو والقصف ، وغرى بالشرب والرشف أمدته بالمال ، واسدل عليه استار الامهال ، وربما داخله الاعجاب به فوصف تفرنجيه في المجالس بلسان الشكوى وهو ينوى التفاخر لما يتخلل عباراته من الابتسامات والفكاهات .

ما سبب هذا التناقض المدهش ؟ ما الذى ينفخ فى أنوف أصحاب الخلاعة والاباحه هذه الروح فيجعلهم الاعلين الاغليين مع علمهم وعلم الناس بانهم احلاس الرذائل ، وزوامل الباطل ، وجرائم دائئا القاتل ، وما الذى يرغم من معاطس أصحاب التدين فيجعلهم الأخطيين الادين مع ظنهم أنهم على الهدى وبمعزل عن الردى ؟

ان قيل لأن الاكثرين من الأولين متعلمون مثرون وجلهم من أصحاب الكلمة النافذة والقول المسموع ، بخلاف الآخرين فسوادهم الاعظم جهلاء معدمون ، ومتى اجتمع العلم والغنى والمنصب مع شخص رجح فى ميزان الحياة الانسانية ولو كان من النقص بحيث يأنف من نفسه ، وفاز على خصمه الصالح المجرد من تلك المواهب الثلاث ولو كان من الفضائل بحيث يكسف نوره ضوء الشمس ، نقول هذا تمحل شعرى لا تعليل فلسفى ، ولو صدق هذا التعليل لما انتصر أبداً الحق على الباطل ولما قشعت أنوار الفضائل غياهب الرذائل ، مع أن تاريخ العالم

مشحون بما فعله الانبياء والشهداء والصالحون من كسر شوكة المبطلين والغض من أعين الضالين ، والتنكيس لاعلام الطغاة المتمردين مع فقرهم وضعف وسائلهم بمحض قوة الفضيلة الذاتية ، وصولها الروحانية . بل هذه صفة الفضلاء والصالحين في كل زمان ومكان ، وبها عرف فضلمهم في تاريخ الانسان .

الفضيلة قوة تحل بالنفس فتخلع عنها غاشيات الباطل فترى صاحبها الحق في اجلا مجاليه ، وأنور جهاته فلا يتأتى بل لم يسع في تاريخ العالم أن يستخذي الفاضل لعاطل ، ولا يتصور أبدا أن يذل الصالح لطالح . وان أردت أن تقيم الدليل على أنه قد يتأتى أن يخشع الكامل لناقص فأقم الدليل أولا على أنه قد يتغلب الضعف على القوة .

الفاضل لا يتصنع القوة ولا يتظاهر بها ، ولكنه يجد نفسه رغماً عنه متلاًلثة نابغة ، فتتأحم عليه العيون والظنون ، وهو لا يريد ذلك فيسعى في تبديل أشعة الأنظار والافكار المتوجهة اليه ، ولكنه لا يزداد الا إشراقاً ولألاء .

الفاضل يحس في نفسه نهاية العجز والضعف أمام الله وحده لا أمام أمثاله فتنفجر له من ذلك العجز والضعف قوة لا يعرف مستقرها من نفسه ، ولا يتخيل محلها من صميم سره . يراه الناس مهيباً قويا ، وهو لا يرى نفسه الا عاجزا ضعيفا . يهابه الناس ويتوقونه ، ويرون في وجهه سمات تدل على علو روحه ، وسمو صفاته ، وهو لا يرى ذلك في نفسه ، ولا يبحث عنه ، وإنما يحس أنه هادىء السر من كونه عبداً

ملك قوى تذلل لعزته الجباه والنواصي ، وتعنوا لجبروته الوجوه .
ومن يتصفح تاريخ الرسل وأتباعهم لاسيما تاريخ خاتم النبيين
صلى الله عليه وسلم وتاريخ أصحابه ير العجب العجائب من تأثير قوة
الفضيلة ، وتغلبها على الرذيلة تغلبا طبعيا ، كما تتغلب القوى الطبيعية
على بعضها في عالم المادة » فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس
فيمكث في الارض »

إذا تقرر ما قدمناه رجعنا نسأل عما سألنا عنه آنفاً قائلين : ما سبب
ظهور المبطلين على المحققين ، وما سر غلبة روح الشريرين على الخيرين
مع علمك بأن الناموس الطبيعي ينادى بلسان فصيح « ألا إن حزب
الله هم الغالبون »

هذه مسألة من أكبر المسائل الفلسفية ولا نريد أن نحلها بالأفاد
بجملة لا طائل تحتها كقولهم مثلا : سبب ذلك ان الناس أصبحوا كلهم
مبطلين ، أو قولهم سبب هذا قرب الساعة وهذا الحال من أشراتها -
لأن الزعم الأول لا يعد حلا للمسألة بل يعد تعقيدا لها اذ ينبنى عليه
مسائل أعوص من الأولى وهى : لم أصبح الناس كلهم مبطلين ، ولم
يصبحوا كلهم محققين ؟ وهل الانسان مفطور على الشر دون الخير ؟
واذا عدم الخير الآن فكيف قامت الانسانية بدونه ؟ وهل هذا يعد
دليلا للذين يحددون الفضيلة ويدعون امكان قيام الحياة بدونها ؟

هذا بعض ما ينبنى على الزعم الأول . أما قولهم إن هذا من أشرار
الساعة فليس يعد حلا للمسألة أيضاً ولا يفسر جبن انصار الحق أمام

انصار الباطل ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (بعثت انا والساعة كهاتين) ومع ذلك سعى في تحسين حال الانسانية سعياً لم يتفق قبله لنبي ولا بعده لمصلح ولاولى ، وأوصلها من السعادة الحقة الى ذروة لم تصل اليها أبداً . وهؤلاء الخلفاء الراشدون ، والأولياء الصالحون ، الذين عرفوا ذلك الحديث ونقلوه الينا لم يقصروا لحظة عن محاربة الباطل ودحضه حتى خلاص السلطان للفضيلة ، وتقوضت أركان الرذيلة .

يتضح من هنا أن هذين القولين ليسا من الحلول فى شيء وإنما هما من آثار الجبن الذى وقع فيه اليوم انصار الحق وغفلوا عن سببه . يصبح بعض الناس من حين لحين آخر قائلين : العلماء مقصرون عن الارشاد ، والرؤساء عائنون فى الأرض الفساد وعاسفون العباد والبلاد ، وأصحاب المهن غافلون عن علوم الاقتصاد ، وواقفون من مهنهم حيث وقف الآباء والأجداد ، ثم يسلقونهم بالسنة حديد ، ويقرعونهم بما يذيب الصم الشداد . ولكننا نغضى عن ذلك كله ونسأل بهدو وسكينة عن سبب هذا الخدر الذى نزل بالأعضاء فأضعفها ، وبالعقول فأتلها ، وبالأفكار فأوقفها ، وبالأبصار فغشاها ، وبالنفس فدساها ، وبالفنائل فأجلاها .

نسأل عن هذا السحر الذى حل بالأعيان فقلبها ، وبالأوهام ففسدها ، وبالسواوس ففسمها ، وبالأثار فغيرها ، وبالطباع فبدلها . ولا نزال نكرر السؤال عن منشأ هذا الخدر ، وعن مصدر هذا السحر

حتى نعرفه فنداويه ، أو نغم علينا فنترصده .

نبحث عنه أولا في ذاتنا فإن لم نجده ففي أهل بلدنا فإن لم نجده ففي عموم أقاليمنا فإن لم نجده ففي الأمم المجاورة لنا فإن لم نجده ففي العلم أجمع (داؤنا روح الجيل)

قد بحثنا جهدنا عن سبب هذا الخدر فوجدناه في العالم كله ، ولا عجب فلكل جيل روح خاصة تعم عموم الناس بأثر واحد ولكن لا يظهر تأثيرها في الأمم الاعلى حسب استعدادها وقابليتها وقد تتخالف تلك الآثار في الأمم المختلفة تخالفا لا يجعلك تتوهم وحدة الفاعل فيها ولكنك لودققت النظر ، واخترقت الحجب الظاهرية ، لرأيت ان السبب واحد في ذاته وإنما هي آثاره التي تباينت على حسب تباين الأمم في قوتها وضعفها ، أو علمها وجهلها الخ كما ينتشر شيء من الرطوبة في الجو فيصيب الأجسام البشرية اصابات مختلفة : يصيب هذا بصداع ، وهذا بغثيان ، وهذا بانقباض ، وهذا بنزلة شعبية الخ مع أن المؤثر واحد في ذاته .

هذه الروح العمومية التي تنتشر في كل جيل في آفاق العالم فتعم الأمم كلها بأثر واحد قد تكون روحا طيبة سامية أوردئة سافلة أو مركبة من خير وشر وتكون آثارها في الأمم على هذه النسبة بغاية الاحكام والضبط . هذه الروح لا تنتشر في الوجود من غير سبب ظاهر وإنما هي روح أقوى أمة في الجيل أو أقوى الأمم فيه . ففي القرون التي كانت فيها الأمة المصرية القديمة أقوى أمم الأرض كانت

الروح العمومية مصرية لاتدع أمة من الأمم الداخلة في دائرة الاتصال بها الاطبعها بطابع مصرى في صنائعها وأفكارها ومداركها . فكانت الفكرة الفلسفية التى ترن فى هيكـل (امون) يسمع لها صدى خاص فى معبد (جوبيتير) بأتينا وغيرها من العواصم وفى القرون التى كانت فيها العظمة للآشوريين والفراسيين واليونانيين والرومانيين والعرب والعثمانيين والفرنساويين كانت الروح العمومية آشورية أو فارسية أو يونانية الخ الخ .

هذه الروح العمومية التى تسيطر على أحوال الأمم فى كل جيل هى التى يجب معرفتها جيدا ليمكن مشايعتها ان كانت روحانية سامية أو منابذتها ومحاربتها ان كانت رديئة سافلة وما دمنا لا نعرفها فلا نصل من بحثنا فى أنفسنا وأمتنا الى شىء من الحقيقة ، ولا نزال نتخبط فى علل ثانوية ، ونرتطم فى اعراض تخيلها امراض حتى يكل المريض ويسأم الطبيب وينتهى الأمر الى مثل ما انتهى بنا اليوم من عدم الاهتمام بالارشاد والوعظ لقللة فعلهما على النفوس وعدم تأثيرهما فى تعديل القلوب ،

هذه الروح العمومية المنبعثة من أقوى أمة تشبه السيل المغناطيسى المنبعث من الذى ينوم رجلا أمامه نوما مغناطيسيا . يحس هذا فى مبدأ الأمر أن قوى أحاطت به من جميع جهاته وأن روحا من الخدر تتمشى فى سائر أعضائه ولكنه لا يزال حافظا ذا كرتة و ارادته وانما يحده ميالا للرضوخ لتلك القوى المحيطة به ومسوقا للاستئمان اليها .

ولا يزال به هذا الحال حتى تضحل ارادته الذاتية وتنفى في ارادة منومه فيكون تحت تأثيره مباشرة يوجهه كيف شاء حتى لو أمره بقتل ابنه بعد أن يوقفه لقتله .

كذلك روح الامة أو الامم القوية التي تنتشر في أفق العالم فتعم سائر الامم . تجده هذه الامم انها محاطة بقوى حولها غريبة عن ذاتها فتسكرها وتشمئز منها فان كانت قوية قاومتها وناذتها وبذلت وسعها في عدم الاستئامة اليها ، وأما ان كانت ضعيفة عديمة الوسائل الدفاعية هان أمرها على تلك القوة المحيطة بها فلا تزال تساورها حتى تخدرها وتتسلط على ارادتها فلا تنتفع بوجودها ، ولا تغتبط بحياتها ، وتكون كل حركاتها وسكناتها في صالح تلك الامة أو الامم التي اكتسفتها بروحها من جميع جهاتها .

تقع امثال هذه الامم المستضعفة من جراء هذا التأثير الخارجى في اللوث في شؤونها ، والخلل ، في أحوالها ، وهي ترى ذلك بعينها ، وتعرف طرق الخلاص مما هي فيه ، ولكنها لا تستفيد من ارادتها بشيء كمن غشيه الكابوس يريد أن يهيم فلا يستطيع النهوض ، ويتخيل انه ملاً الافق صياحاً وهو في الحقيقة لم يسمع من حوله الا انينا خافتاً وهنينا مشوشاً . يدعو الناس بعضهم بعضاً في امثال هذه الامم الى الاتحاد والوئام ، ويكثرون في ذكر أمراضهم الكلام حتى يكادون يلبسون داءهم بأصابعهم ، ثم يتواصفون الدواء فيرونه أمام أعينهم وبين أيديهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يمدوا أيديهم لتناوله كان أيديهم مغولة وماهي مغولة ،

فيرجعون الى بعضهم يتساءلون عن السبب ، ويقضون منه بالعجب ، وربما زاد بهم الخلل فاتهم بعضهم بعضا بتبعية هذا الاحجام ، وتبادلوا من أجل ذلك التقريع والملام ، بل ربما زاد بهم الحال وندرج من التلاوم الى التخاصم ، ومن التحاور الى التشاتم ، حتى يعلو بينهم صوت التلاحى ، ويشتد اوار التمارى ، فيكونون بفعلهم هذا اظهر مثال لما يعترى الامم الساقطة من التناقض فى أحوالها : يتهاجرون وهم يتداعون للاتحاد ، يتخاصمون وهم يتنادون للتحاب ، يتشائمون وهم يتناجون فى التسامح ؛ يتناهبون وهم يتصايحون بالتواهب ، وقد يشتد بهم الامر فيكون حالهم اعجب من هذا فى شدة التناقض : يأمر الأمر منهم بالمعروف وهو أول المستهكين لحماه ، وينهى التامهى منهم عن المنكر وهو أول من يغشاه ، يذم الخمر وهو فى ذنها غريق ، ويزرى بالميسر وهو له زعيم . يدعو الى الصلاة وهو هاجرها ، والى الزكاة وهو تاركها ، والى الصوم وهو متجاهر بالافطار . يعلم علم الاقتصاد وهو أول المسرفين ، وامام المبذرين ، يعرف الناس قوانين الحكمة وهو لمبادئها قائد المقوضين ونقيب الهادمين .

فى هذه الدرجة تكون ارادة الامة تدتلاشت وفيت فى ارادة الأمة أو الامم القوية المحيطة بها ويكون شأنها من بعض الجهات كشأن النائم نومامغنطيسيا لا استقلال له فى ذاته ، وحياته تبع حياة منومه .

وكما لا تنتفع الأمة بوجودها تحت تأثير هذه الروح الاجنبية

العمومية كذلك لا يتتبع بوجوده الفرد الواحد منها . فيرى في نفسه أنه حي ولكن لا كالأحياء ، وله ارادة ولكن لا كارادة المستقلين ، يحس أن هنالك شيئاً غير محسوس قد ران على فؤاده وأيقظ فيه عاملاً من الأرق والضجر لا يكاد يفارقه طريقة عين . يرى أن له عقلاً ولكنه غير سائد عليه ولا مهيمن على أفعاله ، لشدة ما يرى نفسه مسوقاً الى مناقضة احكامه ، ومنازدة تعاليه ، ويرى أن له فكراً ولكنه لا رابط له ولا نظام ، يحول في بيد الخيالات حتى اذا أعياه الجولان خمد خموداً ، فاذا هب هب طائشاً أخرج لا يدبره علم ولا ينظمه قانون . ويشعر أنه مسؤول عن أفعاله وإن فيه قوة تحوله عن القبيح وتميل به إلى الجليل ، ولكنه يرى نفسه مسوقاً رغم أنفه لعمل من يعتقد انه غير مسؤول وانه مجرد عن كل اختيار في أموره . يجد نفسه حراً رشيداً ذا عقل وعلم وبصيرة ، ولكنه يحس أنه مرغم لأن يعمل عمل الأسير القاصر المجرد من العقل والعلم والبصيرة . يرى التناقض الفاضح بين علمه وعمله ، وبين سيره وعقيدته فينسبه تارة لتقصير نفسه وطوراً لتقصير غيره ، ولا يزال يكثر من العلل والاسباب حتى يخيل له أن الوجود كله يحاربه ، فتعتريه رعدة من خوف يتمنى معها أن لو خالق بلا فكر ولا روية ، فيجتهد في أن ينسى نفسه ولو بازهاق عقله ، ثم يقنع من العيش بمجرد البقاء ولو كان اليأس قرين شخصه .

أمثال هذه الامم لا تعيش لنفسها ، ولكن للامم ذات الروح العمومية فتكون كل قواها وقفا على مصالح مغطسها وهي تعلم ذلك

وتمتلئ منه على السنة كتابها وخطبائها قراهم يذمون مظاهره كال تقليد
على أشكاله والسرف في ترويح زخارف صنائعها ومموهات زيناتها
وما يتبع ذلك من التزاحم على ما يقيمه آحادها من الملاحى والمراقص،
والتغاير على اجابة دعوة كل قزم منهم ، يذمون ذلك كله ولكنهم
يرون أنفسهم مسوقين اليه بقوة غير قوتهم الذاتية وكثيرا ما يكتب
الكاتب منهم تلك النصائح وهو في وسط ناد من تلك المنتديات
المحتاجة .

يبكى الناس على ما آل اليه أمرهم من التناقض وضعف الارادة
وانحلال الروابط وسوء المنقلب ويعرفون أسبابه القرية جيدا ،
ويكثررون الكلام فيها سرا وجهرا ، تلميحا وتصريحا بل وتراهم إذا
جمعهم ناد أو ضمهم مجلس سمر ، لا يكادون يجدون حديثا يقضون
به الوقت غير ذكر ما هم فيه والافاضة في أسبابه وعلله وطرق شفائهم
منه ، ثم لما يرفض مجلسهم ترى كلا منهم محفوزا بكليته لا الى الأخذ
بأسباب الشفاء ، بل الى تقوية الداء وامداد جراثيمه بما يجعلها أشد
فعلا وأنكى أثرا كأنهم لم يكونوا بالامس يتناجون في شيء . يحدث منهم
كل هذا التناقض ولا يجدون في أنفسهم ما يحيط من كرامتهم في نظرهم
بل ربما أتوا بما يعتبرونه أقتل أمراضهم وهم في ذات المجلس ، عقب
محاوراتهم في شؤونهم مباشرة ، ولا يؤاخذ بعضهم بعضا على هذا
التناقض الفاضح كأنهم رضوا بأن يكون لحياتهم حالتان متميزتان :
حالة كلامية وهمية وحالة عملية حقيقية ، ولا علاقة لهما ببعضها ، في

الأولى متمتعون بادراك وإرادة ، وفي الثانية مجردون منهما تماما .
وقد انفصل في نظرهم عالم القول عن عالم العمل انفصالا لم يعد من
العيب عندهم أن يقول الرجل ما لا يفعل أو يفعل ما لا يريد . حتى
انهم ليندهشون ممن يؤذى لاصراره على التوفيق بين قوله وعمله وبين
عمله وإرادته لشدة ما يحسونه في أنفسهم من صعوبة ذلك .

خلاصة ما تقدم ان لكل جيل روحا عمومية تنتشر في أفق العالم
وهي روح أقوى أمة أو أقوى الامم في ذلك الجيل فتحيط بالامم
الداخلية في دائرة المواصلات العامة إحاطة السوار بالمعصم وتزاحم
قواها كما يتزاحم الناس بالمناكب ، فان كانت قوية قاومتها وحفظت
استقلالها على نوع ما ، واما ان كانت ضعيفة خدرتها كما تخدر بعض
الحيوانات فريستها قبل صيدها ، وحينئذ تشعر تلك الامم الضعيفة
بأعراض وعلل يتوه فكر عقلائها في تحديدها وتصويرها ، ولا تزال
بها تلك القوة حتى تفقدها إرادتها وشخصيتها وهوما يعبر عنه بفناء أمة
في أمة أخرى .

الروح العمومية السائدة اليوم على البشر روح أوربية مركبة من
أرواح أمم قوية كثيرة لها على الأمم الضعيفة أفعال وآثار مختلفة
يطول شرحها في هذا الفصل وربما فصلناها في فرصة أخرى ان شاء الله .
وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين يرسلهم الله لتغيير
أحوال الأمم هي انشاء روح جديدة في أمة من الأمم يختارها الخالق
تعالى لذلك لتقاوم الروح العمومية الموجودة وتكسر من شرها وتحل

مكانها كما قال تعالى « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده »
 فترى الواحد منهم لا يدعو قومه الى التقليد لأنه لا معنى له الا الرضوخ
 لتلك الروح السائدة المراد ملاشاتها ، بل يواجهون الأمة من جهة
 حياتها الكامنة فينفخون فيها روحاً طيبة صالحة قهّب في الأمة عواطفها
 الذاتية بسرعة مدهشة وتسرى الحياة الى مجموعها سريانا غريباً ،
 فيصبح الرجل وكأنه خلق خلقاً جديداً أو سرت فيه روح لم تكن
 فيه ولا في آبائه ، فتتقظ في نفسه عوامل النشاط والحركة ويمجد
 نفسه مدفوعاً لجلال الاعمال وعظائم الامور دفعاً طبيعياً لانزقا
 تحمسياً . ومن يطالع سيرة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم يجد
 أصرح مثال لما نقول « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا
 ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي
 به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم » الآية

لما كنا في كتابنا على الانسان نريد أن نعرف أمثل الطرق
 للاستقامة على صراط الحق المستقيم فلا نجد بدا من افاضة الكلام
 في الروح العمومية السائدة في جيلنا هذا لان الفرد منا مرتبط
 بمجموعه ومن العبث البحث في سعادة الفرد قبل سعادة المجموع .
 فليس من العقل أن يسعى الرجل الضعيف في تقوية ساعده قبل
 أن يعرف سبب ضعفه العام فيداويه بعلاج عام مثله لتعم القوة
 ساعده وجميع أجزاء بدنه والا فيكون سعيه في تقوية عضو واحد
 منه من المستحيلات الواضحة .

انا نرى من خلال الحوادث ان الحرب التى أضرمتها الروح الأوربية على روح الأمة الاسلامية شديدة مزجة لم يسبق مثلاً في تاريخ الأرواح العمومية ، ولكنها ستجلى ولا شك عن هزيمة الروح الأوربية وفنائها في الروح الاسلامية فناء أبدياً . وأن ما الأمة الاسلامية فيه اليوم من الفتن والحن مهماعظمت وتفاقت ، فلا تعد شيئاً بجانب ما لقيته وتلقاه الأمم الضعيفة من تأثير أرواح الأمم القوية . فينما تتخيل الروح الأوربية أن السلطان قد خلص لها ترى الروح الاسلامية من وراء حجاب تكتسب عواطف الأفراد والأمم وينمو سلطانها على العقول يوماً بعد يوم وقد شعر بذلك كبار مديري الروح الأوربية فأخذوا يتساءلون عن السبب وبعضهم يحمد نفسه مدفوعاً لا يقاظ الروح الاسلامية بيده بواسطة كتاباته وإبحاثه على الاسلام والمسلمين مصداقاً للحديث الشريف (ان الله ليؤيد هذا الدين برجال ليسوا من أهله) .

قلنا ان البحث في هذا الكتاب خاص بالانسان ولكن طبيعة نظرتنا هذه تلجئنا الى الكلام على الروحين الاوربية والاسلامية لارتباط حال الفرد الواحد بشكل الحرب القائمة بينهما وتيجتها . لذلك سنجتهد ان شاء الله في تصوير تلك الروح الاوربية تصويراً حقيقياً ، وتحديد تيارات آثارها في الامم عموماً وفي المسلمين خصوصاً تحديداً استقرائياً ، وتوضيح أحوالها في تطورها من القرن الخامس عشر الى هذا اليوم ، وتبيين ادوار تدرجها من روح الحاد وعناد الى روح خضوع

واعتماد ، ثم سنختم ذلك كله ببيان كيف ان هذه الروح الاوربية سينتهى بها الامر الى مقابلة الروح الاسلامية في أفقها العالى ، وكيف انها ستفنى فيها وتدع لها السلطان المطلق على الارواح والاجساد معاً « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » « افغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون »

﴿ اصل الروح العمومية السائدة فى هذا الجيل ﴾

قلنا فى الفصل الماضى ان لكل جيل روحاً عمومية هى روح أقوى أمة أو أقوى الامم فيه واننا تحت تأثير روح عمومية مركبة من أرواح أمم قوية كثيرة ، وقلنا ان هذه الروح الاوربية سائرة بالناس سيراً طبيعياً الى مقابلة الروح الاسلامية والفناء فيها وترك السلطان لها . وسنزيد على ذلك ان شاء الله بان هذه الروح الاوربية هى حركة من الروح الاسلامية العامة كما يقر بذلك قادتهم ولو لم يعرف ذلك دهماء المسلمين اليوم .

هذا البحث الذى تصدينا له لا يتأتى حصوله ولا نتال به من قرائنا مانريد الا بالبسط الشافى ليكون القارىء من سلسلة هذه الحوادث الكبرى بمكان المشاهد لحركات الجنود من مرقب عال يلم بمجموعها لاول نظرة ولا يغيب عنه من دقائقها الامالا يخل بحكمه عليها . وهذا يستدعى منا قبل كل شئ امساك تلك السلسلة من طرفها الاقصى ولو كان ذلك يطوح بنا الى السريان فى صميم التاريخ سرياناً دقيقاً ، والسبح

في مناحيه سبجاً طويلاً ، فلا يحسبن القارئ اننا شردنا عن الموضوع إذا انس منا الذهاب به يمينا ويساراً ، فان ذلك لحرصنا على أن لا يخرج من هذه الجولة الطويلة قانعا من الغنيمة بالاياب ، وراضياً من البحث بعظم حجم الكتاب ، والله المسئول في هدايتنا الى الصواب

﴿ الدين قبل ظهور العلم ﴾

لا نريد من العلم مطلق ما يدل عليه اللفظ لانه لا يتصور أن يكون الانسان قد عاش يوماً واحداً بلا علم ولو على ابسط أحواله ، وانما نريد منه أخص معانيه ، وهو النظر في حوادث الوجود نظراً مجرداً عن الصبغة الدينية والبحث عن علاقاتها ببعضها وترتيب تلك العلاقات على كيفية تستخدمها اليد في تحسين الحالة المعيشية ، ويعتضد بها الفكر في سبجه في موامى المسائل العقلية . تخصيص العلم بهذا التحديد يسمح لنا أن نقول انه مر على الانسان حين من الدهر لم يكن يذكّر العلم بلسانه ، ولا يخطر بجمانه ، فلم يكن له غير الدين قائد ، ولم يكن يعرف مصدراً لحياته سواه ، ولا قائماً على أحواله غير كهانه وحملته أسرار . فكانت الهياكل كما تعلمه كيفية الاختبات لمعبوده . ، تعرفه ايضاً سبل المعيشة في جوده بل وتهيء له آلات تلك المعيشة .

في هذا الدور القديم كانت الامم منعزلة عن بعضها تقريباً وواقعة في أشد حالات تنازع البقاء ، حاجاتهم الجسدية مستوعبة مواهب عقولهم ، ومستولية بهولها على مشاعرهم ، ليس لافكارهم من الفراغ

مايسمح لها بأن تجول في فيافي النظر ، أو تحلق بهم في جو العبر . وكان القائمون عليهم عاملين على تكشيف الحجب عليهم كيلا ينفذ اليهم بصيص من نور الوجود فيخلعوا نير سلطتهم ، ويتخلصوا من قيد سيطرتهم وكان هؤلاء التابعون من الجهل بالسكون والعماية عن أسرارهِ بحيث لم يشكهم الشك في شيء من عقائدهم ، ولم ينلهم الريب في أمر من أمور دينهم ، ودام الناس في هذه الظلمات يخرجون من غيب ويدخلون الى غيب ، اللهم إلا في أزمنة النبوات ، حتى جاء القرن الرابع قبل ميلاد عيسى عليه السلام فجال الفكر على نفسه جولة كسر بها كثيرا من اصفاده ، وتفصى من حبال كانت آخذة بقياده ، فكان له بعد ذلك شأن لا تكفى في بيانه الاشارة فاليك التفصيل .

❖ بقية العقل ❖

كانت الامة اليونانية من حيث الدين مثلها كمثل سائر الامم الاخرى لاميّزة لها عليهم في شيء أخذت المدنية ومبادئ الصناعات والفنون عن المصريين الاقدمين فجرت على سمتها بما يناسب حالتها العقلية والاجتماعية وموقع بلادها ، وكان لها من صفاء جوها ، ورونق الطبيعة المحيطة بها أكبر منشط لافكار بنيتها على متابعة السير في باحات الرقي العقلي والروحاني معا مما صار له في تاريخ العالم الاثر الجميل الذي سيمر بك طرف منه ان شاء الله . قلنا انها كانت من جهة الدين على نفس الطريق الذي كان عليه غيرها من الاقدمين : تجسيم للقوى المدبرة

للكون وتعداد للآلهة المهيمنة عليه ، وأساطير خيالية ، تناسب حال تلك الآلهة الجسدانية . وكان ادراكهم للوجود لا يتعدى ماتتهى اليه مشاعرهم ، فكانوا يتخيلون أن السماء مقر الآلهة وهى موضوعة على جبال (أولامبيا) وهى سلسلة جبال فى ترقية أوروبا بعضها فى مقدونيا وبعضها فى تساليا . وكانوا يتوهمون أن الغيوم التى تحيط بأعلا نقطة منها البالغ ارتفاعها (٢٩٧٣ مترا) تستمدخل السماء عن أعين البشر . وكانت آلهتهم مقسمة الى أربع رتب : الرتبة الأولى (الآلهة العلويون) وهم المكونون لمجالس شورى السماء وعددهم اثنى عشر يجتمعون فيتداولون فى الشؤون العامة والخاصة ويصدرون بذلك الاوامر المناسبة . وكان من أعضاء هذا المجلس (جوييتير) رئيس الآلهة (ونبتون) اله البحر و (ابولون) اله المعجزات والطب والادبيات والصنائع الخ و (منيرف) ابنة جوييتير الهة الحرب والعقل . الخ الخ الرتبة الثانية (الآلهة التابعون) وهم من الكثرة بحيث لا يحصى لهم عدد فقد كان لامة الرومان وحدها منهم أكثر من ثلاثين الفا الرتبة الثالثة (الآلهة الطبيعية) وهم السماء والارض والقمر والنجوم الخ

(الرتبة الرابعة) الآلهة الحيوية وهم الرجال الذين ينبغون منهم فى الشؤون الكبرى فتمنحهم الآلهة رتبة الالهية بعد موتهم ومنهم (هيركرل) البطل الشهير . وقد كان هذا دأب الاولين فى تأليه كل من يسمو على غيره منهم حتى لا تكاد تعثر على أساطير ديانة قديمة

خالية من هذا الضرب من الجهل فقد كان الرومان يزعمون أن مؤسس مملكتهم (رومولوس) ابن الاله (مارس) وكان تلامذة أفلاطون المصريون يعتقدون أنه ابن الاله (أبولون) ولما فتح الاسكندر مصر وخلصها من جور الاعمام زعم سدة هيكل الاله (آمون) أن هذا الاله أخبرهم بأنه ابنه فكان المصريون والسوريون يقولون بذلك ويعتقدونه لدرجة لا يتصورها العقل (١)

كان إدراك اليونانيين لصفات الكمال اللائقة بهؤلاء الالهة لا تتعدى درجتهم في العلم فكان آلهتهم رجالا ونساء مثلهم لهم أعين واسماع وغير معصومين من الشهوات والجرأتم فقد زعموا أن الاله (أورانوس) كره أولاده وحبسهم في جهنم فجاء ابنه (ساتورن) فخلعه وحكم الكون بدله . أما ساتورن هذا فحدث منه أنه كل أولاده ساعة ولادتهم وفاء لوعده كان وعده (للتيان) وهم من القوى السفلية أولاد السماء والارض فاحتالت (سييل) امرأته فوضعت حجراً مكان أحد أولئك الاولاد وهو (جوبيتير) فابتلع (ساتورن) ذلك الحجر ظناً أنه ابنه فنجى الولد ثم ثار ضد أبيه وعزله وطرده من السماء وحكم الكون بدله . أما (ساتورن) هذا فبيط في (اللاتيوم) وهو قطر قديم من ايطاليا الوسطى وصرف زمنه في تعصيد السلم وهبة البركات وتعليم الناس فنون الزرع وأساليب الحراثة

هذا موجز يسير من أساطير اليونان الأقدمين جئنا به كنموذج

(١) كتاب (المنازعة بين العلم والدين) تأليف الاستاذ الامركى الشهير (درابر)

لما كانوا عليه من جهة العقائد ، أما تفصيله فيحتاج لأسفار كثيرة لان هذه الآلهة لما كانت لا تعلق في نظر اليونانيين عن الآدميين الا في كونهم خالدين وان لهم التصرف في الكون فلا جرم كان يصدر منهم كما يصدر من الناس أنواع من التحاسد والتحاقد والتنازع ولا عجب بعد ذلك إن كان لكل منهم سيرة طويلة وتاريخ مسهب صقله خيال اليونانيين بصقال التصورات ، وذهبوا من الابداع الشعري به كل مذهب فكان للشعب فكاهة ودينا في آن واحد .

(مبرأ انظر في السكون)

هذا كان حال اليونانيين من أول تكونهم الى القرن الرابع قبل الميلاد فماذا حدث بعد ذلك ؟ حدث ان طبيعة بلادهم القاحلة دفعتهم بوخزات الضرورة المعاشية لامتطاء صهوة البحر والاتجار في السواحل القريبة للاستعاضة عن الزائد من محصولات بلادهم بما تستدعيه حالة الحياة من مصنوعات الأمم الأخرى ومحصولاتها فارتقت لديهم مهنة الملاحة ونشأ لهم فيها غرام استحلال الملكة راسخة في نفوسهم فصاروا يتوغلون في البحر المتوسط شيئا فشيئا ويجوسون خلال الجزائر والثغور فوققوا على ما كانوا لا يحلمون بوجوده قبل ذلك ولا يتخيلونه تخيلا

كان نتيجة هذه المشاهدات وغيرها ان اتسع نطاق فكرهم عما كان عليه وصار إدراكهم للكون أوسع مما ورثوه من أساطير

آبائهم الأولين ، فنشأ تناقض بين ما وصلوا اليه من سعة الفكر وما عليه دينهم من حرج المدركات فسرى الشك إلى نفوسهم ولم يبق للدين في نظرهم مقامه السابق . وما زالت الريب تنتقل من فؤاد إلى فؤاد حتى توجس حملة تلك الأساطير خيفة على مستقبل العقائد ، فقرروا العقوبات المختلفة لأصحاب النزغات الالحادية بمصادرتهم في الأموال ونفيهم من البلاد أو بقتلهم بالسم أو النار أو الرجم ، فلم تنجع تلك الوسائل بل استمر العقل آخذاً مجراه في التخلص من نير الضغط والحجر وكان موقف العقائد القديمة بازاء هذه الحركة من أخرج المواقف حتى انتهى الأمر بتلاشيها بالمرّة ولكن بعد أن جازت ثلاثة أدوار متوالية يلزمنا أن نهيب شيئاً من التفصيل لأنها من القوانين الثابتة التي تتناوب العقائد الباطلة .

* (الدور التي تنقلب العقائد الباطلة) *

لما سرى بين اليونانيين الشك في عقائدهم من جراء اتساع نطاق فكرهم وقف السواد الأعظم بازائها ثلاث مواقف متوالية يعد كل منها دور من أدوار ثلاثة . (١) زعموا أولاً أن الأقدمين لا يجوز عليهم تصديق الأباطيل ولا يتصور أنهم ينخدعون لخراف الخرافات مع رجاحة عقولهم وسمو مداركهم . قالوا : فلو لم تكن هذه العقائد حقة لا غبار عليها لما تمسكوا باهدابها هذا التمسك الذي له في الكتب الأمثلة المدهشة . وضعوا هذه النقطة بأسلافهم نصب أعينهم وقاموا

يحاربون الشاكين بكل ما يصل اليه امكانهم . ولبثوا على هذا الحال أمداً حتى ازداد تيار الشك في الأذهان وكادت تكون له الأغلبية واعتادته الاسماع فاستحال التشدد السابق بحكم الضرورة إلى شيء من التساهل في الدور الثاني (٢) وذلك أنهم أخذوا يقررون بأن هذه العقائد لا يجوز أن تؤخذ على علاقتها بصورتها المادية فما هي إلا رموز لمدرجات عالية ليس المقصود منها مدلولاتها القرينية . فما الآلهة في تناسلهم وتنازعهم وتصرفاتهم ، وما السماء في عجائبها إلا إشارات لاسرار عظمى ، ورموز لمفاهيم جلي قرروا هذا الأصل ثم طفقوا يطبقونها على ما وصلت اليه أفكارهم من الرقي العلي والفلسفي وقنعوا بذلك أمداً مناسباً حتى نمي علمهم بالكون إلى درجة أصبح من العبث الجمود على الماضي وادعاء قدسيته فدخلوا في الدور الثالث (٣) وهو اعتقاد بطلانها بالمرة .

هذه سنة الأمم كافة من جهة التصديق بالعقائد الباطلة : يحل الشك أولاً محل الاحترام المطلق لها ، ثم يتطور الشك ويتدرج في أدمغة التحمسين إلى شرحها وتأويلها والسعي في تطبيقها على المدرجات الجديدة ، ثم يقع أصحاب البصر في الخلاف والتلاحي من جرائها حتى ينتهي الأمر بتركها بالمرة . وهذا بعينه ما حصل للأوروبيين بالنسبة لعقائدهم فان الحروب الصليبية التي شرعوا فيها في القرن الحادى عشر لكسر شوكة المسلمين وانتزاع بيت المقدس من يدهم سمحت لهم بالاشراف على تلك المدنية الباهرة التي أقامها المسلمون في سوريا أحدى ايلات

الملك الاسلامى الفخيم ، فأثرت فى أفعالهم تأثيرا كبيرا وحولت من مجراها بعض الشيء فحدث الشك فى العقائد وصار اللفظ به كبيرا فالتجأت رئاستهم الدينية لتأليف محكمة التفتيش لمعاينة المبتدعة بالقتل والحرق والتمثيل حتى عدت على حياة أكثر من ثلاثمائة الف نسمة من كبار الرجال وغيرهم ومع هذه الشدة والصرامة لم تستطع أن توقف تيار الشك بوجه من الوجوه قال الأستاذ (دراير) فى كتابه (المناظرة بين العلم والدين) « ان محكمة التفتيش لم تنجح فى عملها رغم اعن سلطتها الكبرى . ولما لم يستطع المبتدع النجاة من غوائلها كان يلجأ إلى كتمان شكوكه وعدم إظهارها فكانت نتيجة هذا أن انتشر الشك فى جميع أرجاء أوروبا » انتهى

ثم أعقب هذا الشك الذى عم الناس أن تحمس بعض المتدينين من ذوى البصر وتعصبوا للدين وقاموا فى طريق وسط بين الحزبين وسعوا فى إيجاد التوفيق بين العلم والعقائد ولكن انتهى الأمر باتساع مسافة الخلاف بين العلم ومقررات الدين ففشلوا فشلا لم يقوموا بعده قال الأستاذ (دراير) فى المتقدم : « لقد قام عدد عديد من رجال الخير ذوى النوايا الصالحة وسعوا فى التوفيق بين مقررات خلق الكون من الكتاب المقدس وبين مكتشفات العلم ، ولكن كان الخلاف بينهما قد وصل الى حد أن أصبح فى حكم المقرر انهجأ أحدهما بالمرءة » . انتهى

ثم انتهى هذا الدور فى القرن السابع عشر وحل محله اعتقاد المنافة

التامة بين العلم والدين ، وتقرر لديهم بأنها عدوان لدودان ، وضدان لا يجتمعان ، وسرت تلك العقيدة من العلماء إلى الأمراء ومنهم إلى الخاصة فالعامة ، فلم يسع الناس إلا الانحياز لجهة العلم مدفوعين بالضرورة ، ومحفوزين بحكم الحاجة لما يرون من خيرات العلم وبركاته وما يتنعمون فيه من اكتشافاته وابتكاراته وسينتهى الأمر كما يكتبون في كتابهم بزوال الدين بالمرّة ، ولا يريدون بالدين المطلق بل الدين بالمعنى الذى قام بحفظه سدنة اليهاكل ، وخدمة المعابد ؛ أما الدين المطلق فهم بازائه على أقسام شتى على حسب مذاهبهم مماسيجىء كلامنا عليه إن شاء الله تعالى .

﴿ نظرة على ما سبق ﴾

إذا تقرر هذا فهل نحن أيضاً على ذات الطريق الذى سارت الأمم عليه قبلنا وهل لا مناص لنا من التطواف على هذه الادوار الثلاثة حتى ينتهى بنا الأمر إلى المروق التام من الدين ؟ يقول قائل « نعم وقد اجتزتم منه عقبة وأنتم اليوم فى العقبة الثانية وليس بينكم وبين الدور الذى فيه أوروبا الاقارعة تنصب عليكم فتريكم أن سبب انحطاطكم هو عدم العلم لا عدم الدين ، وأن أوروبا لم تأخذ بمتنفسكم ولم تمسك بأعظامكم فى كل شأن من شؤون حياتكم إلا بوسائل العلوم الطبيعية ، والاكتشافات الفنية ، لا بالوسائل الاعتقادية ، والمقالات الجدلية »

ولئن سألت هذا القائل عن تفسير ما قاله من اننا اجتزنا الدور الاول من الادوار الثلاثة ونحن في الدور الثانى وعلى مقربة من الثالث لقال : « لا اذهب بكم بعيداً ، هاهو قطر كم المصرى لبث تلك الاجيال الطويلة من عهد فتح مصر بالجيوش الاسلامية الى آخر عهد المماليك وهو جاعل من العقيدة حصنه الحصين ، وركنه الركين ، وقد توالى عليه الغارات والفتوحات ، وتداولته الامم المختلفة وهو لم يتحول عن تلك الحالة حتى هل القرن الثانى عشر الهجرى ودهمته الجيوش الفرنسية وأعقب ذلك تكون حكومة منتظمة فى البلاد غيورة على صالح الأمة وترقيتها على مقتضى روح المدنية الأوربية ، فشيدت دور العلوم والصنائع وأقامت معالم المعارف والفنون ، وأرادت اعطاء هذه الحركة الممددة حقها فأرسلت عدداً كبيراً من أبناء البلاد إلى أوروبا للاشراف على أسرار المدنية من قرب ، فلم يكدهؤلاء الشبان يشرفون على تلك المعاهد الفخيمة وينفون على هاتيك المعالم الباهرة ويرتضعون ثدى العلم الجديد حتى أحسوا بالبون الشاسع بين ماورثوه عن آبائهم من العقائد وبين ما عليه الوجود من الفخامة والجلال فسرى الشك اليهم سريان النار فى الهشيم فجاءوا إلى بلادهم وفى نفوسهم من الهواجس والشبه ما فيها فتظاهروا بالتفرنج والتقليد ، وتركوا من العادات ما لا يتفق مع الفكر الجديد ، .

فماذا حدث من هذا الانقلاب السريع ؟ حدث أن حمى وطيس التحمس للدين فى بعض الأدمغة الحريصة على ذكرى الماضى فأخذت

تصبح بانطباق الدين على المدنية ، وعدم منافاة العقائد للعلوم الطبيعية .
وقد كتبتم في ذلك المجلات والكتب ، وواليتم فيه الابحاث
والخطب ولم يزل كتابكم يزاولون هذه المجاهدات الشاقة إلى اليوم .
فهل ينتظر بكم بعد هذا إلا الوقوع في الدور الثالث وهو تحقيقكم
أن العلم ينافي الدين ؛ وأن العلم منبع الحياة الحقيقية ؛ وملاك السعادة
الانسانية : وأن للأديان أزمنة خاصة في تاريخ الانسان تؤدي وظيفتها
ثم تنتهي بانتهاء دورها ؟ وهل مثلكم بالنسبة للأدوار التي قدرت
للإنسان إلا كمثل غيركم ، فإذا كان غيركم مر على هذه الادوار وانتهى
إلى ماترون فلماذا تزعمون أنكم لا تنتهون إلى حيث انتهى وتقفون من
الحياة حيث وقف . »

هذا ما يستطيع أن يقوله قائل تشبع فكره بأبحاث الماديين
من هدمه العقائد الباطلة في أوروبا أو تقليدا لمن تشبع فكره بها وانا
لنعلم ان القائلين بهذا القول في البلاد الشرقية قليل ولكنه في زعمنا
من الشبه التي وقع الناس فيها بالعمل قبل ان يدركها فكرهم بالتصور
وهي لفحة من لفحات المدنية المادية التي حكم علينا بالاحتكاك بها
والافتتان بمظاهرها .

هذا القائل لو درى ما هي الغاية التي خلق النوع الانساني مسوقا
اليها ، وما هي الدوافع التي تدفعه في خلال القرون والحوادث للتوجه
اليها ، وما هو سر الحياة الانسانية والعواطف القلبية ، ثم علم ما هو
الاسلام في ذاته ، وما علاقته بالنفس البشرية وباحساساتها الداخلية .

وما الغرض منه لتحقيق ان شبهته هذه التي هدمت العقائد الباطلة وجعلتها خبرا لكان هي بالنسبة للاسلام أو هي من بيت العناكب، وأضعف من أن تسمى شبهة بل لعلم علما يقينيا ان شبهته هذه هي ادل الادلة على أن الاسلام دين الله ، وان العالم مسير اليه بدوافع الطبيعة ، ونواميس الحياة ، لأنه دين الفطرة الأصلية المجردة من الأوهام والباطيل ومطلب الروح الاقصى المنزه عن الوسوس والأضاليل ، ولكن ماذا يغني هذا القول مجردا عن الدليل ، وعاريا عن الشرح والتفصيل ، بل ماذا يفعل في خصمنا ان لم نقف في حيزه الذي هو فيه ليعلم انا واياه في مستو واحد ثم نساوره من قرب بنفس علومه مقررات معارفه مما يتوهم انها أكبر هو ادم العقائد ، وأقوى معاول الخيالات ، ليعرف أننا لا ندافع عن حقائقنا من وراء حجب تحاميا من صولة العلم ، وتحاشيا من مواجهة اصوله وقوانينه .

هذا وظيفة كتاب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم فاقرأ حل هذه الشبهة هناك ولنرجع نحن الى متابعة الكلام على تاريخ نشأة الروح العلمية فنقول :

﴿ نشأة الروح العلمية التي يسيطر بها ﴾

(الغرب على الشرق)

قلنا ان الأمة اليونانية القديمة مصدر نشأة الروح العلمية التي أيقظت العقل من سباته وفكته من قيوده حينما ألقت بنفسها على أسنمة الامواج تجوب البلاد . وتحترق الآفاق ورأت ماراته من عظم الكون وجلالته مما شككها في دينها وأنزل من فؤادها مقام أساطيرها ، ولكننا وقفنا بالقارىء وقفة كان لا بد لنا منها صيدا لشاردة العبر ، وتأملا في سنة البشر ، ونريد اليوم تتميم الكلام فنقول :

ما زال اليونانيون يحوسون خلال الثغور والامم البحرية للتجارة حتى مروا على السياحات وصارت لهم الملاحة ملكة راسخة وتبع هذا اتساع في نطاق مداركهم ، وتهذب في عواطفهم ، ورقية في طبائعهم من كثرة اشرافهم على أجناس الشعوب في رحلهم واناقتهم على مختلفات القوانين ، ومتباينات النظمات ، واحتكاكهم بصنوف الامم المتخالفة في عوائدها وعقائدها وألوانها ولغاتها كل هذا وما وهبه اليونانيون من مضاء الفكر وحب النظر وحسن التأثر بالمشاهدات قذفت بهم الى باحات من الرقى العقلى فاقوا به سائر الامم المعاصرة لهم .

كان اليونانيون في ذلك الوقت أى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد منقسمين الى قسمين : قسم فى أوروبا وآخر فى آسيا . الثانى كان راضحا لير الفارسيين لا يحدث نفسه بالاستقلال ولا يمينها بتغيير

الحال أما الأول فكان نشوان من خمرة الحرية، عدوا للاستبداد والعبودية وكان منقسما الى ممالك عديدة لكل منها ملك خاص ونظام خاص وكان يقع بينهم النزاع كما يقع بين الامم المتخالفة الاجناس ولكن ذلك لم يكن لينعهم من الاتحاد على بلوغ غرض عام احيانا كما اتحدوا على مقارعة الفارسيين في القرن الخامس قبل الميلاد حينما أرادوا أن ينشروا عليهم سلطانهم . وكان هذا الانقسام داعيا لبعض ذوى الاطماع الواسعة من أولئك الملوك لمحاولة اخضاع اخوانه لسيطرته فكانت تقع بينهم الحروب من جراء هذا الامر وتضطلم كثيرا من زهرة نشأتهم وتصدعهم بعض الشئ عن بلوغ نهاية ما قدر لهم .

كان من أولئك الذين تاقوا الى توحيد اليونانيين فيليب المقدوني لما بينهم وبينه من صلة الرحم فبدأ في تتميم مشروعه بشن الغارة على المدائن المتاخمة لبلاده فلم يؤبه به اليونانيون رغماً عن نداء خطيبهم الشهير (ديموستين) ولم يدركوا الخطر المحقق بهم الا في سنة (٣٣٨ ق . م) فقاوموه بالقوة فزهم وأخضعهم لصولجانه وعين نفسه قائداً عاما للجيش اليونانية وعزم على الاغارة على بلاد الفرس فكن له يوناني فقتله خلفه ابنه (الاسكندر) الاكبر سنة (٣٣٦ ق . م) وعين نفسه في كورنت قائداً عاما لليونانيين وعزم على فتح بلاد الفرس وتتميم رغائب أبيه .

﴿ سبب توق اليونانيين إلى فتح فارس ﴾

كان ملك العجم في القرن الخامس ضريب ملك الرومان فكانت مساحته تبلغ نصف مساحة اوربا يمتد من سواحل البحر الأبيض الى سواحل البحر الأسود فبحر أيجيه فبحر قزوين فبحر الهند فالبحر الأحمر وكان به ستة من أكبر أنهار العالم وهي الدجلة والفرات والأندوس والأكسوس وجا كسارت والنيل تفيض كل عام بالخيرات والبركات على البلاد التي تمر بها فتغمر أهلها من نعيم العيش وخفض الحياة بما يسمح لهم باستثمار قوة العقل واستشارة كنوز الفكر واستنباط غرائب الصنائع وعجائب الفنون ، فلا جرم كانت بلاد الفرس حديقة العالم الأرضى ونموذجا لغاية ما يمكن الوصول اليه في تلك الاجيال من المدنية الصناعية والحضارة .

أمة هذا شأنها من العظمة وسعة السلطان وكثرة الجند والمال لم تكن تحسب لليونانيين حسابا في قلة عددهم ووهن وسائلهم فكانت من أمن جانبهم بحيث لا تتحامي أن تستخدمهم في جيوشها لمقارعة أعداء دولتها ومن هنا ادرك اليونانيون جهة الضعف في جندتها فصاروا تقوسهم لتحديثهم بامكان قلب سلطانها واكتساح كنوزها ، وكان فيليب ملك مقدونيا أكبر من حدث نفسه بذلك الأمر الجلل ولم يثنه عن عزمه الا طعنة ذلك اليونانى كما ذكره .

خلفه ابنه (الاسكندر) فلبث ريثما استتب له أمر الحكومة ثم

جال بخاطره ما كان يحول بخاطر والده من فتح بلاد الفرس فسار اليها بأربعة وثلاثين ألف راجل وأربعة آلاف فارس في سنة (٣٣٦ ق . م) ودخل آسيا الصغرى والتقى بجيش الفرس فكان النصر في جانبه في آسيا الصغرى ولبت بها ريثما نظم حكومتها ثم اتجه لفتح سوريا فصادف جيش (دارا) ملك الفرس يموج في ستائة ألف مقاتل فلم يغنه كثرة عدده شيئاً فولى الادبار فاتجه الاسكندر للجنوب خوفاً من ان يقطع الفرس عليه خط الرجعة ثم جمع أركان حربه وشاورهم في الأمر فاجمعوا على لزوم فتح صور تحاميا من أن يشن الفرس الغارة على بلاد اليونان فيحملون على النكوص على أعقابهم وترك مغائهم فحاصرها فقاومتها ستة أشهر ثم دخلها وسلمت له اورشليم فاتجه الى غزة ففتحها عنوة ثم اتجه للقطر المصري فطوعه ونظم حكومته ثم رجع الى سوريا بأربعين ألف محارب واجتاز نهر الفرات فصادف في الشاطئ الايسر جيشاً فارسياً مؤلفاً من مليون ومائة ألف مقاتل فالتقت الفئتان وانتهت الواقعة بهزيمة الفرس وحدث أن قتل (دارا) بعدها بقليل فصفا الامر للاسكندر فجاست خيله خلال ذلك الملك البازخ بلا مزاحم ولا مقاوم وأخذت من خزائن الفارسيين وكنوزهم ما لا يقبل الاحصاء ولا يدخل في حسابان .

✽ نتيجة هذا الفتح على اليونانيين ✽

﴿ وتأثير المدنية على العقائد الباطلة ﴾

نشأ لليونانيين من جراء هذا الفتح نمو سريع في ملكاتهم وفكرة

كبرى على عظمة السكون وجلالة الوجود ، وناهيك بقوم فيهم قابلية للحركة الفكرية والرقى العقلى مطبوعين على التأثر بالماظر والمشاهد يمرون فى ردى قليل من الزمن على معاهد المدنات القديمة ويجمعون فى وقت واحد بين الينوعين العظيمين للمدينة الانسانية أى النيل فى مصر والجانب فى الهند ويمرون بينها على تلك المدنات الصغيرة التى استمدت حياتها من ذينك الينوعين كأمم الاشوريين والميديين والليديين والبابليين وغيرها .

رأوا الاهرام القائمة تناغى السحاب وتسامر الكواكب ، وتلك النصب المنصوبة من منذ آلاف من السنين تخلد ذكر ملوك قادوا الكتائب ، وزانوا العروش والمواكب ، ثم شارفوا بعد ذلك منصات سلاطين الاشوريين المحفوفة بالاصنام ذوات الاجنحة ، وشاهدوا بقايا هيكل بل وهو من العلو بحيث تكنفه السحب من كل جانب . ورأوا فوقه مرصد الافلاك ، لذا تنزلت منه على تلك الامة أساطير دينها الذى باعت له أرواح بنيتها وصحت من أجله أفلاذاً كبادهم ، ثم أبصروا ذينك القصرين الشهيرين بحداثتها المعلقة فى الهواء على أعمدة متينة وفيها من ضخام الاشجار وعظام الدوح ما لا يقل عما على البسيطة منها . وبصروا ببقايا تلك الآلات الضخمة العجيبة التى كانت ترفع المياه الى تلك الحدائق الهوائية .

ثم استعرضوا بلاد العجم ورأوا من عجائب المدينة ما هو أحدث عهدا من كل ما سبق : لحظوا أو اوين (بيرسوپوليس) المعلقة على أعمدة

محلاة بالنقوش الغريبة وشهدوا تلك التماثيل الضخمة والأنصاب
الباذخة ومروا من هناك اكباتان مصيف الاكاسرة الفخام وهي
محاطة بسبعة أسوار مبنية بالأحجار المفصلة المصقولة ذات الألوان
المختلفة وهي ترتفع لجهة المركز لتعطي بذلك صورة مدارات
الكواكب السبعة. وأموا ذلك القصر الذي غشيت ثقفوه بالفضة
الناصعة وكسيت خشبه بطبقات من الذهب الوهاج وعانوا تلك
الأهلة المصنوعة من النفط التي كانت تضيء ذلك القصر بما يشبه
ضوء النهار.

نعم رأى اليونانيون كل هذا الملك الباذخ وتأملوه جيداً فكانوا
يشرفون في كل خطوة يخطونها على مشاهد لم يحلموا بوجودها ولم تتولد
في خيالهم صورتها ولما كانوا هم بطبعهم أميل الامم للنظر والتأثر
بعجائب المخلوقات فقد صادفوا في هذا الملك الواسع ما يبيل غليلهم
ويشفي صدورهم فبينما هم وسط صحراء رمالية لا يتصور الوهم
لها حدا اذا هم بسفح جبل ينقطع شعاع البصر دون بلوغ ذروته علوا
وشموخا، هذا عدا عما كانوا ييمرون به من التلال والظلال والوهاد
والنجد والحيوانات المختلفة الاشكال والالوان والاحجام والنباتات
المتباينة الاجناس والفصائل مما لم يكونوا يتوهمون له وجودا.

فماذا كان من نتيجة ذلك على عقائدهم؟ كان ولاشك الحكم البات
على بطلان أساطيرهم والجزم بأنها من مخترعات كهانهم، وبذلك أصبح
الشك الذي كان اعتراهم من جرى رحلاتهم السابقة حكماً جازماً

وعقيدة راسخة . وقد أثرت عليهم هذه المشاهد تأثيرا أنام عاطفة الدين من نفوسهم مرة واحدة وقذف بهم الى متاهات الالحاد المطلق فلم يعودوا بعدها يصدقون بشيء واعتبروا سائر العقائد صورا ولدها الخيال وجسمها الوهم وغلوا في الشك والتشكيك حتى شكوا في وجود المحسوسات ووجود أنفسهم .

﴿ نظرة على ماضي ﴾

﴿ لماذا تؤثر المدنية على العقائد ﴾

نحن بعد أن جلنا بالقارىء هذه الجولة التاريخية يحسن بنا أن نسأل أنفسنا قائلين : ما هذا التلازم بين الرقى المادى والشكوك فى الدين ؟ وما هذه العلاقة الاكيدة بين العلم بالكون والالحاد ؟ لو كان هذا شأن أمة من الأمم لقلنا ان له سببا عرضيا استدعته حالة من أحوالها الخاصة ولكنه يشاهد فى جميع الأمم على حد سواء (الا الأمة الاسلامية) وأظهر مثال لنا ما نشاهده بأعيننا من الأوربيين فانهم أصبحوا من ترك العقائد بحيث لا يستطيع أن تتخيل امكان رجوعهم اليها وقد علقوا رقيهم كله على تركها وكل حين تردنا كتبهم ومجلاتهم مفعمة بالمطاعن الشديدة على البقية الباقية منهم على عقائدها ، فهل فى هذا دليل على قول بعضهم من الملاحدة ان الدين باعته الجهل ومادته العماية عن حقائق الكون ؟ وهل فيه حجة للقائلين بأن الاديان الموجودة هى حوادث تاريخية استلزماتها أدوار خاصة وقد أدت وظيفتها وأخذت فى الانحلال ولن يقوم لها فى عصر العلم قائمة ؟

ان كان لا هذا ولا ذاك كما برهنا عليه في الفصل السابق وكما
سنعود اليه ان شاء الله بصور مختلفة ، فهل في الرقى المادى شىء من
السحر يعترى النفوس فيلقتها عن مطالب أرواحها ويعميها عن رؤية
كلماتها ؟

إن كان كذلك فما هو ذلك السحر في نفسه وما منشأه وكيف يؤثر
على العقول هذا التأثير المدهش ؟ وهل لا يمكن أن يوجد على سطح
الأرض مدنية مادية متحدة بكالات روحانية ويكون الانسان بينهما
مغمورا في نعيم روحه وجسده متمتعا بلذائذ مادته ومعناه ؟ ان كان
لا يمكن ذلك فهل شرع الدين ليكون مقصوراً على الفقراء والمساكين
وموقوفا على المحرومين والمستضعفين ؟

وإن كان من الممكن جمع مدنية مادية أو كالات روحية فما بال
بعض المسلمين الذين قضى عليهم بالاحتكاك في قشور هذه المدنية
الأوروبية قد خلعوا أئنة الدين ، وأملسوا من وشيجة العقيدة ؟

ليس من العدل أن نصممهم كلهم بالعماية والطيش فان منهم المتعلم
الذى يفخر به معلوه ، والسمح الذى هام به مجبوه ، والأريحي الذى
يحمده قاصدوه ، فما الذى أمال أعناق هؤلاء الى الهوى ودفعهم الى
الردى ؟ واذا كان لامناص من أن يكون الرقى المادى يقابله عدم
الدين وقد رأينا بوادره في اخواننا الأقربين فانتظر اذن حيناً من
الدهر لا تصادف فيه راكعاً فى محراب ، ولا داعياً الى غير شراب ،
لان المدنية الصناعية آخذة فى الانتشار ومتسربة الى سائر الأمصار ،

وانك ترى أنها تعدت من كبار الافراد الى من يليهم ومن يليهم الى من دونهم حتى دخلت الى قرى الفلاحين ، وكادت تطرق الباب على صغار الحراثين ، فان كان كما قلنا في المدينة شئ مما نسميه سحرا فقد قرب الوقت الذي ندعو فيه الى الدين فلا يجيبنا غير الصدى ، ويذهب كل ما كتبناه في الحث على التخلق به سدى ؟

أليست هذه مسألة يجب التعمق فيها لادراك سرها ، والوقوف على حقيقة أمرها ، لنعرف مكان الداء وحقيقة الدواء تفاديا من التعب في غير متعب ، وهربا من الذهاب في غير مذهب ؟

ماهى المدنية وما تأثيرها على الروح الانسانية ؟ ماهى الشهوات الجثمانية وماهى السمكالات النفسانية ؟ لماذا يفضل الانسان الشهوات الفانية على السمكالات الباقية ؟ هل السبب في ذلك عدم الإيمان ؟ فما هو الإيمان ؟ كيف يقوى وكيف يضعف ؟ هل فى العلوم المادية ما يقوم مقام الدين فى إيتاء الروح حاجتها وتهدة النفس فى جيشانها ؟ هل فيها ما يغذى عواطف الروح ويجعلها تقنع بنعيم الحياة الأرضية وتكتفى بملاذها الجسدية ؟ هل نمو القوة العقلية ينتهى بالانسان الى اعتقاد بطلان الأديان ، وادراك فساد ما بنيت عليه من الأركان ، فيكون الشأن تأخر الدين كلما تقدم العقل حتى يتم الأمر بزوال الدين وانتهاء سلطته ، وقيام العقل مقامه فى أداء وطيفته ؟ يمكن أن يقال نعم ، وان يقال لا . ان قيل نعم فما هو العقل وما هو الدين وما حدود ساطنهما على النفوس ؟ هل هما يتنازعا ان الانسان من جهة مشتركة فيكون هو للغالب

منهما دون الآخر ، أم لكل منهما دائرة نفوذ خاصة يؤثر على الانسان من قبلها ؟ ان كانا يتنازعا ان الانسان من جهة واحدة فهاى تلك الجهة منه ، وان كان لكل منهما جهة خاصة فهاى جهة سلطة العقل وماهى جهة سلطة الدين ؟

وان قيل لا . نقول : اذن ما هذا الاثر الذى نشاهده ؟ لما ذانرى كل من ازداد علما بالكون وبالأمم من أصحاب الاديان سواء الاقدمين أو المحدثين يشكون فى العقائد ويتهانون فى أمرها ، ولايزالون كذلك حتى يتركوها بالمرّة ؟

ان قيل : ذلك لما تسهله المدنية لهم من أسباب اللهو والترف ، وما يجلبه لهم من المغريات على الخلاعة والسرف . نقول : وكيف يقوم لأمثال هذه الامم قائمة وكل ما ذكر من صنوف اللهو محلل لروابط الهيئة الاجتماعية ، عاد على كيان حوافظها الاصلية ؟ هل ذلك لانا واهمون فى تحديد ماهية الفضيلة وماهى الرذيلة ؟ ماذا يكون جوابنا لو استشكل علينا خصم فقال :

« إنكم سميتم عاداتكم فضائل ودعوتم أضدادها رذائل وجعلتم ذلك قانونا تحكمون به على الامم والأفراد فيذهب كل يوم حكمكم أدراج الرياح . تطبقون عاداتكم على أمم الغرب فلا تنطبق عليها فتحكمون عليها بأنها بعيدة عن الفضيلة وترون فيها أضداد عاداتكم فتحسبونها رذائل فتسرعون بالقضاء عليها بقرب الزوال والتلاشى . والحقيقة غير ما تحكمون وما تظنون . »

« انكم تنظرون الى الربا فتظنونه رذيلة محتاجة (هذا قول
المعترض) مع أن عليه تدور دائرة التعامل في العالم المتمدن كله وبه
تتوطد الدعائم الاقتصادية فيه . وتلتفتون إلى الخمر فتعدونها رذيلة
حتى الاعتدال فيها مع أنها المورد الأكبر لمالية الأمم المتمدنة ،
وترنون الى مسألة تكشف النساء وحضورهن في مجالس الرجال
فتخالونه رذيلة مع أنه أهم الأسباب التي رقت الأوربيين وأخذت
بأيديهم الى مكانات العلاء والرفعة . وهكذا سميت كل ماخالفكم فيه
غيركم رذيلة وهي في الحقيقة فضيلة وصرتم تثرثرون بها كل يوم حتى
اعتادتها الأسماع ولم يعد لها تأثير .

« انكم تتعجبون من كونكم مسحوبين من أنوفكم الى تقليد
الأوربيين والأخذ بعاداتهم وتذهبون في تعليل هذا الأمر مذاهب
الخيال والشعر فتسمونه سحراً أو تسمونه روحاً . وقد جعلتم التفهيق
بأمثال هذه الكلمات مادة لكم في إبحاثكم وكتاباتكم . أتدرون
ما تجدونه في أنفسكم من الاندفاع للتقليد أثر أى قوة هو ؟ هو أثر قوة
الفضيلة في الأمم التي تحتكون بها لأن الفضيلة جذابة خلافة تؤثر تأثير
السحر على العواطف والأميال فهي تجذبكم كل يوم اليها بقوتها الذاتية
فترضخون لأحكامها بالفعل بينما تكون السننكم وأقلامكم لائكة
تلك العبارات الاستفهامية والجميل التعجبية اندهاشاً من كونكم
مسحورين بالردائل ومجبرين على ترك الفضائل . فعليكم أن تبصروا
وتجيدوا استعمال الروية ، قبل أن تقع على عاتق المهوورين من

كتابكم المسئولية ، مسئولية صد الشرى عن الاستفادة من خير المدنية «
 هذا ما يستطيع أن يقوله مجادل عنيد في مناسبة ماسقناه من
 النبذة التاريخية وماتساءلنا عنه من ذلك المؤثر الذى يؤثر على العقيدة
 الدينية فى عصور المدنية . وهو من الشبه الرائجة فى أيامنا هذه على
 ألسنة بعض الناس ممن يستطيعون التعبير . وفى ضمائر البعض الآخر
 ممن لا يحسنون القول والقليل . فلا مناص لنا من حلها حلأجلاً تفصيلياً
 إن شاء الله تعالى ، لأنهم من أحاييل شياطين الشرق اليوم التى وقع فيها
 كثير من أفراد النشأة الجديدة مسوقين إليها بتيارين : تيار سحر الزخرف
 الصناعى المنصب إلينا من أوروبا وتيار القوة والنفوذ اللذين هما
 فى جانب الغرب اليوم .

هذان التياران وإن كانا فى العادة دافعين هائلين للأمم المستضعفة
 إلى الانحلال ، إلا أنها لا يبلغان غاية قوتها إلا أمام الأمم الجاهلة
 الغافلة عن سر الحياة ، التى لا تسمح لها عمايتها بالتفكر فيما بعد يومها
 الذى هى فيه ، وتوهمها وساوسها بأن الحال لن يتغير عما هو عليه ،
 وإن العالم قد طبع بطابع نهائى أى إن القوى يبقى قويا إلى الأبد
 والضعيف لا يبرح ضعيفا إلى الأبد ، ولا معنى لهذا الاليأس بعينه
 وهو أشد درجات الكفر فى مذهبنا ،

فالعلم والحالة هذه يفتح للأرواح باب الأمل الواسع ويحلهم
 بساحة الرجاء المنعش فيطلبون الحياة بمالديهم من الوسائل فإن
 أكدت الوسائل إليها ولوبالتمنى ، واحتموا بذلك من اليأس الذى هو

طاعون الهمم ، وسرطان الشعوب والأمم ، ولولم يكن في حلولنا لهذه
 الشبه الا الامام بشيء من أسرار الحياة لكفى به نتيجة عظمى ولا
 محل لتلك الحلول غير كتاب خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم
 عسى أن يصادفنا من نوره الاقدس شعاع نستقيم بالألأئه على المنهاج
 السوى ، والصراط الآلهى ، والله مولانا فنعم المولى ونعم النصير .

﴿ تأثير فتح بلاد الفرس على اليونانيين ﴾ (من جهة العلم والفلسفة)

درسنا فى الفصل المتقدم الأثر الذى أحدثته على عقائد اليونانيين
 معالم المدنية المادية فى بلاد الفرس ومستعمراتها الواسعة ، ثم وقفنا
 بالقارىء وقفة اعتبار وتأمل وقلنا فى ذلك ماشاء الله أن نقول على
 مقتضى أسلوبنا فى هذه المباحث ، ونريد اليوم العود إلى موضوعنا
 الأصيل لاستيفاء درس ذلك التأثير من جميع وجوهه العلمية والفلسفية
 فنقول :

وجد اليونانيون بازاء تلك الكنوز الثمينة من اللجين والعقيان ،
 والجواهر والذهبان ، والأبنية التى كانت تناغى الكواكب ، وتسامى
 الدرارى الثواقب ، كنوزا أدبية أثمن قيمة ، وأغلا ثمنا ، وأصلح
 لإقامة الحياة الانسانية ، وأليق بعواطف الفطرة البشرية ، وهى نتائج
 أفكار تلك الأمم القديمة التى كان يتكون منها ذلك الملك الفارسى الضخم
 من الكلدانيين والبابليين وغيرهم من الشعوب العريقة فى القدم من

كانت مدنياتهم بين جدولى الدجلة والفرات تهر الأنظار، وتحير المدارك، وتدلنا نحن، ونحن أبناء القرن العشرين، على مقدار ما كان يبدله قادة أفكار تلك الامم من المجهودات الفكرية، والمحاولات النظرية، مما يليق أن نعجب به ونتعجب منه.

وجد اليونانيون في بلاد البابليين من ذخائر العلوم الفلكية جواهر لاتوازيها الجواهر، وكنوزا دونها الذهب الباهر، كأسباب الخسوف والكسوف وطرق معرفة أوقات حصولها بالضبط، وعثروا على جداول تبين مواقع النجوم من السماء، ومواضعها من الاجواء، مع بيان ثباتها، وحركة متحركها، ومنازلها بالنسبة إلى أخواتها، مع معرفة مقادير الابعاد الشاسعة التي تفصل بعضها عن بعض، ووقفوا على غير هذا من الآلات الفلكية، والمعدات الرصدية، والعدسات المكبرة، والمعادلات الرياضية النافعة مما لا يكفي في العثور عليه القرون المتطاولة، والاحقاب المترامية.

رأى اليونانيون كل هذا ولا تسلم عما أحدثه على عقولهم ونفوسهم وهم قوم لم يكونوا لذلك الحين اعتادوا من أعمال المواهب الادبية غير التأملات المطبوعة بطابع الاساطير الوهمية، المقيسة على خرافاتهم الاعتقادية.

كان هذا تأثير هذا الفتح العظيم على اليونانيين من جهة العلوم النظرية والتجريبية أما أثره عليهم من جهة الفلسفة والحكمة فما لا يستهان به. عاش اليونانيون تلك القرون كلها وهم يبدون كهماء الهياكل وسدنة

المعابد ، افكارهم أسرى تعاليمهم ، وعقولهم وقف على تصديقهم ، كأن رؤساءهم أرواحهم التي بها يتحركون ، ومشاعرهم التي بها يشعرون ويتأثرون ، كما هو شأن كل الامم الطفلة بين يدي قادتها المتغلبين ، وسادتها الروحانيين ، ولم يكونوا لذلك العهد قد وقفوا من أسرار الحكمة التي نزل بها الوحي على بعض الامم ، أو من الاساطير المؤنقة التي ولدتها وصقلتها قرائح الشعوب الراقية ، على شيء يصلح لان يحدث حركة في افكارهم ، أو يستجيش من غيابة ضائرهم مكنون ملكاتهم ، الا أنهم لما شارفوا هذه الامم التي ذاقت حلاوة الوحي الحق ، واستضاءت بنور الرسل والنبیین ، واجتازت دور الطفولية الاولى ، وان كانت عدت على حقائقها بالتحوير والتبديل ، رأوا أنهم حيال بحر من الحكمة زاخر ، وفي وسط باحة من ثمرات الفكر ليس لها أول ولا آخر .

رأوا تعاليم ديانة (ذورو واستر) الفارسي الذي ولد كما يدعى اليونانيون قبل زمن جاهليتهم بخمسة آلاف عام ، ولم يهتد العلم التاريخي الى تحديد زمن وجوده للآن ، أول تعاليم تلك الديانة فرض وجود الهمين مستقلين يحكمان الوجود ، إله للخير ، وله سبعة أعوان عظام يتلقون أوامره ويساعدونه في ادارة العالم ويصرفون القوى الخاضعة لهم الى الوجهة التي يريدونها ، وإله للشر ، وهو متسلط على عالم الظلمة وله أعضاء سبعة كالاول يوازرونه في تصريف شئون عالمه الظلماني . هذان الالهان في نزاع مستمر ، وتناظر دائم ، يتجاذبان بينهما هذا الانسان الضعيف ويود كل منهم ان يخضعه لسلطانه ، فهو اذن لمن

غلب منها . ولكن هذا النزاع ليس بأبدى لا آخر له ، بل له يوم ينقطع فيه بغلبة إله الخير على خصمه إله الشر ، هناك تنقطع مادة الشرور ويصل الانسان من نعيم الحياة ولذات الفضائل الى حالة ليس بعدها غاية لطموح . ثم رأى اليونانيون بجانب هذه الديانة العقيدة المجوسية التي ترى في النار أعظم مظهر للقوة الخالقة المحيية للكون ، وناهيك بها في هذه الاساطير من صور خيالية ، واشكال تصويرية ، وأحلام شعرية ، ومدارك فلسفية ، انتزعت من باحات المعنى الانسانية ، واصطيدت من شوارد العواطف القلبية ، فكان مثلها مثل الشعر في تلطيف العواطف ، وتلين الشكائم ، والتملق لاحساسات النفس وأميلها ، والتزلف لمراميا وآمالها .

سبح فكر اليونانيين من كل هذه الثمرات الفلسفية في بحار تتراوح أمواجها ، وتتقاذف تياراتها ، فذهبت بأفكارهم مذاهب شتى ، واتحت بمدركاتهم مناحى بعيدة ، وصارت لعقولهم صقلا جلت عنها غاشيات الجود ، وحجب العماة ، فخرت بهم في ساحات التصورات اشواط شاسعة نقلتهم من حالة الى حالات أخرى ، وقذفت بهم في اطوار عدة اعدتهم لأن يكونوا المكان المناسب لتكون جرثومة العلم التي انتقلت منهم الى العرب فأفرعت فيهم وبهم هذه الأفرع المثمرة التي من ثمراتها مدينة اليوم . هذه الأفرع الوارفة الظلال ، السابغة الأفياء ، وإن زاحم فيها الشوك ثمراتها البانعة حتى أصبح الجاني لا يصب ثمره حتى تصيبه شوكة ، فليس ذلك الامن غلطات القامئين بحفظ غياضها ،

وهو ما سنجعله إن شاء الله من بعض مباحثنا لتتجلى دوحة العلم طاهرة
ما يشينها ويعيبها *

﴿ وفاة الاسكندر وتجزؤ ملكه ﴾

توفي الاسكندر بعد اداء هذه الفتوحات الباهرة في سنة (٣٢٣) قبل الميلاد ولم يجاوز سنه اذذاك الثلاث والثلاثين سنة ، فأعقبت موته قن قامت لها دولته وقعدت أكثر من عشرين سنة ثم انتهت بتجزؤ ملكه الى ثلاثة أقسام : (١) مقدونيا (٢) آسيا الصغرى (٣) مصر * أما المملكتان الأوليان فليس لنا عليهما كلام لعدم تعلقهما بموضوعنا وأما الثالثة وهى مصر فهى مرمى غرضنا فى هذه العجالة لمساسها بما نحن فيه من كل وجهة .

وقعت مصر فى هذه القسمة نصيباً لبطليموس أخى الاسكندر من أبيه ، وهو وإن لم يكن فى مقام الاسكندر من حيث قيادة الجيوش ، وفض المعادل والحصون ، إلا أنه مؤسس دولة العلم وغارس علمه ، وهو أمر جعل اسمه مقروناً بالاعجاب والاكبار ، فى تاريخ الحكمة والعرفان .

اتخذ هذا الملك الكبير مقر ملكه مدينة الاسكندرية التى بناها أخوه الاسكندر . وكان قد علم من حسن موقعها أنها ستكون نقطة الاتصال بين الغرب والشرق وحشر إليها أمة كبيرة من اليهود رجاء تعميرها ، فلما اتخذها بطليموس هذا الملقب (سوتير) مقر ملكه ، وعش دولته بعث إليها مائة ألف من الاسرائيليين وأظلمهم هم وأهلها
(م - ٨ - أول)

الأصليين بأجنحة النظمات والقوانين العادلة ، والمساواة النادرة
 المثال ، وسهل لهم سبل المعاش والرغد . فلم يمضى عليهم طائفة من
 الزمن تهاطل اليونانيون اليها من كل حذب ، طمعاً في الحياة تحت ظل
 هذه الحكومة العادلة في خفض من العيش وأمان من الظلم وبهذا
 أصبحت الاسكندرية وأهلها من ثلاث طوائف مختلفة : المصريون
 الأصليون ، واليهود المستعمرون ، واليونانيون المهاجرون ، والكل
 عاشون في سلام ووئام ، لا يفكرون في غير حفظ النظام ، فلم تمر
 على تلك المدينة غير سنوات قليلة حتى حلاها صناع اليونانيين ومهندسيهم
 بما لا يقبل الوصف من المعاهد والبنيان ، والبساتين والجنان ، والآثار
 الحسان ، مما جعلها زهرة البلدان ، ودرة ثغور اليونان . ولكن كل
 هذا ليس بشيء يذكر في تاريخ بطليموس أخى الاسكندر اذا قيسته
 بأثره الخالد الذكر ألا وهو شروعه في تأسيس (دار الآثار) التي منها
 انبعثت أشعة العلوم والعرفان ، وتدفت جداول الحكمة والبيان ،
 وفيها حفظت ذخائر الأولين من الدثور والزوال ، فكانت منبتاً
 لشجرة العلم الوارقة الظلال ، التي من ثمراتها مانحن فيه اليوم من وسائل
 الصناعة ، وأساليب سهولة المعاش .

﴿ دار آثار الاسكندرية وكليتها العلية ﴾

وضع مشروع هذه الدار الخالدة الذكرى وأقام جدرانها
 (بطليموس سوتير) في أجود بقاع الاسكندرية هواء ، وأحسنها
 منظرأ ورواء . واتم بناءها ابنه (بطليموس فيلادلف) السالك على

قدم آييه ، ولا عجب بعد هذا في دار يتولى أمرها ملكان ، ويبدلا
 دونها خزائن العقيان ، ويقفان عليها قرائح المهندسين العظام ، والصناع
 الكبار ، أن تجيء من الرواء على أحسن الأشكال ، ومن الفخامة على
 أكمل حال ، فلا تسلم عما أودعته فيها يد الصناعة من الانصاب
 والتماثيل ، وما وشته بها أنامل الفنون الجميلة من النقوش والتلوين ، وما
 أودعته بها أدوات الابداع من التنسيق والتنظيم ، وما نشرته عليها
 راحات الغنى من رواء الفخامة المهيبة ، ورواق الظرف العجيب
 الغريب ، دع كل هذا جانباً فان ما حشر إليها من نفائس الكتب ،
 وذخائر مجهودات العقول ، وجواهر القرائح والأفكار لمما يدعش
 الواقف عليه ، والمطالع لأخباره ، وناهيك بما يستدعيه جمع سبعة
 ألف مجلد منسوخ من نوادر المؤلفات ، وشوارد المباحث في وقت
 لم تكن للطباعة فيه أثر ولا خبر ، ولان المصاريف الباهظة ، والكلف
 البالغة حد الكثرة . الا أنه لو عرف الغرض من هذا التبذير
 والاسراف لقليل التبذير في أشرف الأغراض قصد واعتدال .

كان الغرض من اقامة معالم هذه الدار ثلاث أمور مهمة : (أولاها)
 صيانة ثمرات العقول والأفكار الانسانية من أن تغتالها يد الضياع ،
 أو تلعب بها أنامل التبديل والمسح . (ثانياً) انماء تلك الثمرات واستثمار
 جراثيمها على مقتضى ناموس الترقى . (ثالثاً) نشرها بين العالم ،
 وإشراكها للعقول لتحسين حال الحياة الانسانية .

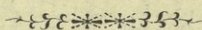
أما ما يختص بالأمر الأول فقد وكل إلى من كان يديرها من قادة

الأفكار ، ملوك العقول شراء كل ما يقع تحت أيديهم من الكتب
 مهما بلغ ثمنها ، وايداعها في محالها من المكتبة ، ولا تسئل عما كان يتبع
 ذلك من عدد النساخين والمصححين والمرتبين الخ مما لا قبل للقلم
 بوصفه كالجهودات التي كانت تبذل للحصول على المؤلفات النادرة من
 العواصم المتناثرة ، والبلدان البعيدة .

أما ما يختص بالأمر الثاني أى ببناء تلك العلوم واستثمارها فقد
 وكلت الى رجالها من أئمة الأفكار ، وسلاطين المدارك الذين اسكنهم
 الملك تلك الدار ، وأحلهم بها فى أمنع جوار ، وأعد لهم فيها ما يلزمهم
 من حجرات ومطاعم وأجرى عليهم الأجور والمرتبات ، وكان
 كثيراً ما يجيء الملك اليهم ويشاركهم فى غذائهم اكباراً لشأنهم ،
 وتفخيماً لأمرهم .

أما العلوم كلها فى هذه الجامعة فكانت تنقسم الى أربعة أقسام :
 (١) العلوم الأدبية (٢) العلوم الرياضية (٣) العلوم الفلكية
 (٤) العلوم الطبية وكانت الفروع العلمية الباقية تابعة لهذه الأصول الأربعة
 كان لهذه الدار حديقة كبرى غرس بها كل ما أمكن الاهتداء
 إليه من النباتات التي يقبلها الجو المصرى لتسهيل دراسة علم النباتات
 كما أنه كان بها محل خاص بالحيوانات حشر إليه كل ما وصلت إليه
 يد الثروة من أنواعها لتكميل درس التاريخ الطبيعى ، وزيادة عمامضى ،
 فقد أودع هذا الصرح العلمى الفخيم كل ما كان معروفاً من آلات
 الأرصاد وعدد الكيمياء ومعدات سائر الفنون المعروفة بما يستحيل

وجوده مجتمعاً في مكان واحد . أما فيما يتعلق بالأمر الثالث : أي نشر أنوار المعلومات الانسانية في سائر طبقات العالم فقد ساروا فيه باعداد محلات للمطالعة وسماع الخطب يحضره من شاء من كل صنف و جنس ، وزيادة عن ذلك فقد كان فيها من طلبة العلم ما يزيد عن الأربعة عشر ألفاً من أقاصى الارض وأدانيها .



دستور العلوم الطبيعية

(في هذه المدرسة الكلية)

بالنسبة لما كان بين الاسكندر وأخيه بطليموس وبين الفيلسوف الشهير أرسطو من المحبة الاكيدة ، ونظراً لما كان يحفظه هذا المكان في قلبيهما لهذا الرجل الكبير من الشعور بحقوق الترية والتعليم سادت تعاليمه وأفكاره في زمانيهما وكان لها السهم العالى من الاجلال والاعزاز ، حتى أنه لما تم بناء مدرسة الاسكندرية جعل دستور التعليم فيها مطابقاً لدستور أرسطو ، وأسلوب البحث تابع لأسلوبه .

أما دستور أرسطو هذا في مباحثه لاستكناه المجهولات ، واستطلاع خفايا المساتير الكونية ، فقد كان النظر في الحوادث الجزئية ، ثم التدرج منها الى الأمور الكلية على معراج الاستدلال والاستقراء ، ومن كان هذا أسلوبه في مباحثه احتاج الى مشاهدات كثيرة ، وأعوزه الدأب والسهور وراء اصطياد نوادها ، وتقيد شواردها

أول غرض وجه (ذينون) اليه سائر قواه ، ووضع نصب عينه هو ايجاد قاعدة قديمة حكيمة اذا سار عليها الانسان وأدمن عليها أدته الى كمال الفضيلة وأجلسته على كرسي السعادة والطمأنينة . الأساس الذى بنى عليه هذا الفيلسوف فلسفته فى تكميل الانسان هو التربية فقد سمع يقول : « اذا كنا نعرف الخير للمنا اليه ميلا فطرياً وعملنا به لا محالة . فيلزمنا أن نركن الى مشاعرنا فى تهيئة العلوم الأولية لنا وهدايتنا الى مبادئ المعارف الضرورية ، وأن نعتد بعد ذلك على عقلنا ليكون لنا من مجموعها ما يحسن بنا السير عليه فى اقامة أمر الحياة وتحسينها . فان الحسد والميل للشهوات والشره أدواء لم تنشأ فينا الا من نقص معارفنا . أما أجسامنا فانها وان كانت خلقت على نظام ومزاج لا دخل لنا فى كسبه ، الا أننا يجب علينا مع ذلك أن نتعلم كيف نحكم على شهواتنا ، وكيف نعيش أحراراً عقلاء فضلاء خاضعين لأحكام العقل فى كل حركاتنا وسكناتنا . أما حياتنا فيجب أن يسود فيها سلطان الفكر على سلطان الجسم . وبناء عليه فيلزمنا أن لا نخفل بالذات ولا بالآؤ وجامع البدنية ، ويجدر بنا أن نروض أنفسنا على استصغارها وعدم الخشية منها مهما تفاقمت وعظمت وان كان فى أعقابها الموت نفسه ؟ ويجب علينا أن لا نخفل عن هذه الحقيقة وهى أن الطبيعة مسوقة الى الكمال العام وأنها تضحى الجزئيات فى سبيل الكلليات فليس أماناً والحالة هذه الا الرضوخ لهذا القضاء والرضاء به ، فلنجعل كل همتنا موجهاً الى زيادة معارفنا وتقوية عاطفة الاعتدال والحكمة

فى نفوسنا ، فان المعارف هى العناصر الاولى للفضيلة اللازمة لنا التى هى رأس مالنا فى هذا العالم .

« انا لى ان كل ما حولنا من العالم يتناوبه التغير والتحول وإن الموت يعقب الحياة ، وإن الحياة تعقب الموت فمن الجهل اذن أن لا نريد الموت فى عالم كل ما فيه ضائر الى الزوال والتلاشى . وكما أن التيار الجارى يحفظ شكله وقوامه دائماً مهما تبدلت مياهه وتحددت فكذلك الطبيعة يمكن تشبيهها بتيار دائم الجريان تتبدل كائناته وتتغير وهو حافظ صورته الى الابد . (كذا) . وانك اذا نظرت للوجود فى مجموعته وجدته ثابتاً لا يتغير ولكن الخالد منه فى الحقيقة هو الفضاء والجوهر الفرد والقوة ، أما صور الكائنات فهى أشكال وقتية معرضة للزوال والتلاشى .

» يلزمنا أن نعلم أن أكثر الناس على فساد عظيم من حيث الترية ، وبناء عليه فيجب علينا أن لا ننسى عليهم ما هم فيه من العقائد والتعاليم الراهنة . أما نحن فيكفيانا من العقيدة أن نعرف بأنه وان كان يوجد فى الكون قوة أسمى من أن يحددها التصور الا أنه لا يوجد فيه ذات مشخصة ، أى أنه يوجد فى العالم أصل محبوب عن نواظرنا ولكن ليس هو الهاً مكيفاً إذا شخصية يوصف بصورة واحساسات وأهواء ، كما للانسان من ذلك . ذلك مستحيل بل كفر صراح . من هنا فلا وجه لتصديق ما يسميه الناس وحياء (كذا) . أما ما يدعوه الناس (صدقة) فليس الا نتيجة لسبب مجهول فان للصدقة نفسها قانوناً . ثم

ذكر كلاما دل على جحوده بالعبادة الالهية وعلى أن الكون سائر على مقتضى نوااميس طبيعية . ثم عزي اليه بعد ذلك قوله : « ان التغيرات التى تتتاب الكائنات تحصل بطريقة لازمة ضرورية ، حتى انه يمكن أن يقال ان العالم فى ترقيه وتدرجه مثله كمثلى الجرثومة التى لاتستطيع أن تنمو الا على صفة محدودة .

« أما الروح فى شعاع من الشمس الحيوية التى هى الأصل العام لجميع الكائنات ، وهى تتنقل كالحرارة من فرد الى فرد وتنتهى بأن ترجع ثانيا الى محددها العام التى جاءت منه . وبناء عليه فليس حظنا بعد الحياة العدم والزوال بل الاجتماع والانضمام . وكما أن الرجل اذا أعياه الكد بالنهار يلجأ الى النوم والسبات ، فكذلك الفيلسوف متى تعب من مجهودات الحياة وتكاليفها يتمنى الموت والراحة . على أنه ليس لدينا الا معلومات تافهة على هذه الأمور المجهولة لأن العقل لا يستطيع أن يدرك نفسه بنفسه . ومن الأمور المضادة للفلسفة الحققة أن يدأب الانسان للبحث عن أصول الأسباب ، فالواجب القنوع بدرس الحوادث فى ذاتها . ومما يجب علينا وضعه نصب أعيننا هو أن الانسان لا يستطيع أن يصل الى الحقيقة المطلقة مهما حاولها وتطلع اليها . وان الثمرة النهائية لمجهودات الانسان وراء اكتناه اسرار المادة هى تأكده بأنه لا يصلح للمام بكل شئ . وانا على فرض وصولنا الى حقيقة من الحقائق فلا نزال نشعر بالحاجة الى دليل على أنها حقيقة . اذن فاذنا بقى علينا بعد هذا من الواجبات ؟ بقى علينا العلم

بالكون على الطريقة التي يهيئها لنا البحث العميق والفضيلة والصدقة وحب الحقيقة وصدق النية وقبول تكاليف حياتنا بالصبر والثبات والمعيشة على صفة تلاءم قوانين العقل ونواميس الحكمة . »

هذا ملخص فلسفة (ذينون) . على أن تلك الجامعة لم تكن قاصرة على فلسفة ارسطو و ذينون بل كانت تتناول من سائر المذاهب حصصاً مناسبة بحيث انها كانت ملتقى لأشعة أفكار سائر الأعلياء من النوع الانساني .



نظرة على ماضي

نحن بايرادنا تاريخ العلم من أول نشأته وتنقيبنا عن أصول المذاهب الفلسفية والوصول الى جرائمها الأصلية ، لا نقصد بسط مجرد تاريخها ؟ بل نقصد بذلك أن نواتي مقتضيات نظريتنا التي بسطناها في كتاب (خاتم النبيين) صلى الله عليه وسلم وهي ان الألحاد حال من الاحوال الانسانية تقتضيها الفواعل الاجتماعية والأدبية والدينية التي تحتوش لأمة ، حتى ان تلك العلوم التي يقصد بها الألحاد والجحود (تأمل) هي نتيجة الحال لاسببها المولد لها .

قلنا ذلك ووعدنا ببذل الوسع في السلوك في هذا الموضوع المسالك التي تلاءمه وتوافقه من اختراق غلف الظواهر والنفوذ الى

سرائر المسائل وضمائرهما لنحصر ان شاء الله تلك الحال الاحادية التي لا توافق مطالب الروح الانسانية في دائرتها الضيقة ليمكن علاجها فيها واستئصال شأقتها . ذلك أولى من أن نتابع الخطئة المعروفة في محاولة حل مسألة الاحاد بالحجج والبراهين التي لا نصيب لها من التأثير على الأفعال الانسانية الا ما نراه من التناقض بين العمل والعقيدة .

وقد رأينا انا لانستطيع أن نوفى حق أسلوبنا هذا الا بدرس الأحوال الانسانية المختلفة من لدن تكونها ، ومشاركة العلوم والمعارف من أول نشأتها . وقد وفينا بعض ذلك بدرس أحوال اليونانيين وهى الأمة التي نشأ فيها العلم ثم طفنا بها في فتوحاتها حتى وصلنا الى تأسيسها لجامعة الاسكندرية التي جمعت فيها جرائم المعارف المنشورة في الآفاق ، ومن هنا نرجو أن نوفق لتتبع حركة نمو هذه الجرائم العلمية فى مدى القرون والأجيال مع درس الأحوال الانسانية التي اقتضته . مجلين فى كل دور من هذه الادوار مكان العاطفة الدينية من القلوب ، وكنهه ما تأثرت به من تلك الحال ، حتى نصل بهذا السير الى عصرنا الحالى ان شاء الله فنقف بالقارىء موقفا يطلع منه على حال الانسانية فى علومها وصنائعها وفلسفاتها ومكانة الدين لديها وعلى السبل التي تسير بمجموعها وعلى آثار مدينتها فى تعديل أو تعويج أمورها .

أما كتاب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم فسيكون من وظيفته فى كل دور من هذه الأدوار تتبع كل بحث من هذه الابحاث بما يحله

ويجليه من كتاب الله تعالى ، ليتجلى للقارىء بأوضح بيان قوله تعالى « ما فرطنا في الكتاب من شيء » « ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان أكثر شئ جدلا » وليسطع أمام عينيه البرهان المحسوس على أن لا حياة للعالم ولا قوام له ، على الحال التي تليق بالانسان الراقى ، ولا عدالة تسود على جميع أفرادهم بالفيض الالهى على السواء الا بالاعتقاد برسالة المصلح الأعظم خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم واتخاذ القرآن دستورا للنظام والمدنية فى كل الزمان . ومن الله نستمد العون والقوة .

— ٤٥٤ —

تاريخ الفلسفة

وصلنا بالقارىء من تاريخ ارتقاء الفكر الانسانى وتدرجه فى معارج الكمال الى ذكر تأسيس مدرسة الاسكندرية الجامعة التى بدأها بطليموس سوتير وتمم بناءها ابنه ووريثه فى الملك (بطليموس فيلادلف) ملك القطر المصرى . وقلنا عند ذاك : « ومن هنا نرجو أن نوفق لتتبع حركة نمو هذه الجراثيم العلمية فى مدى القرون والأجيال مع درس الأحوال الانسانية التى اقتضتها ، مجلين فى كل دور من هذه الأدوار مكان العاطفة الدينية من القلوب ، وكنه ما تأثرت به من تلك الحال ، حتى نصل بهذا السير الى عصرنا الحالى إن شاء الله

فقف بالقارىء موقفاً يطالع منه على حال الانسانية فى علومها وصنائعها وفلسفاتها ومكانة الدين لديها وعلى السبيل الذى تسيره بمجموعها وعلى آثار مدينتها فى تعديل أو تعويج أمورها . »

قلنا ذلك فى الفصل المتقدم ونود اليوم أن نسير على الطريق الذى رسمناه لأنفسنا سيراً يناسب موضوعنا من جميع وجوهه بحول الله تعالى وتوفيقه . ولذلك رأينا أن نأتى على مذاهب الفلاسفة اليونانيين الذين اتخذت أساليبهم فى البحث والنظر دساتير محترمة سار على مقتضاها من جاء بعدهم من كبار العقول وأئمة الفلسفة ، ولن نتقيد بمن سارت جامعة الاسكندرية على مذهبه رسمياً كأرسطو وأفلاطون وذيونون ولكن سيتناول كلامنا إن شاء الله غيرهم من فلاسفة اليونانيين السابقين والتالين ليتكون للقارىء من ذلك صورة محكمة التركيب من شكل الفكر الانسانى فى عهد خلافة الأمة اليونانية فى الأرض ، أيام كانت (أثينا) عاصمتها مثابة كبار الرجال ، ومحط رحال الأقيال من سائر آفاق الأرض يطلبون فيها العلم ويقابلون العلماء ويستشرفون منها شمس المعارف وأنوار المعلومات ليكون قارئنا على بينة من مبدأ تكون الجرثومة الأولية لدوحة العلم الوارفة الظلال ، وليستطيع أن يتتبع معنا سلسلة هذا التاريخ العلمى الحافل من أقرب الطرق وأيسرها وبالله التوفيق .

هنا ننبه للقارىء أننا لن ننقل من مذاهب الفلاسفة اليونانيين الاعداداً يعد على الأصابع ممن لهم أثر ظاهر فى حركة الفكر الانسانى ،

ولأَسَليم في البحث اعتبار إلى يومنا هذا . وقبل أن تتكلم على مذهب كل فيلسوف من هؤلاء يحسن بنا أن نقدم للقارئ طرفاً من ترجمته

مذہب فیٹاغورس - بیتاجور -

ولد فيثاغورس في سنة ٥٦٩ قبل الميلاد ومات سنة ٤٧٠ أي عاش تسعاً وتسعين سنة . ولد بجزيرة (ساموس) من جزائر الأرخيل اليوناني وكان أبوه نقاشاً اسمه (أمينزارك) وقيل أن موطنه (توسكان) . تعلم فيثاغورس صناعة أبيه وصنع بنفسه ثلاثة كؤوس من الفضة وأهداها لثلاثة من قسوس المصريين . معلمه الأول الفيلسوف (فيرسيد) وكان يجب أحدهما الآخر حباً جماً حتى أن استأذنه لما مرض المرض الذي مات فيه ونحل جسمه جداً خاف أن يكون مصاباً بمرض معد فيعدي تلميذه المخلص فيثاغورس . فلما جاء ليعوده على حسب عادته أغلق دونه الباب رغم أن حبه الشديد له وأخرج إليه أصابعه من شقوق الباب قائلاً تأمل نحول أصابعي تعلم منه حالي . ولما مات أستاذ فيرسيد لزم فيثاغورس الفيلسوف (هرمودامنط) بجزيرة ساموس مدة من الزمن . ثم هزه الشوق للسياحة وتعرف أخلاق الأمم والأخذ عن فلاسفتها وعلمائها . فتوجه إلى مصر بوصية من الملك (بوليكرات) ملك ساموس إلى الملك (امزيس) ملك مصر بشأنه ، فحكى في مصر مدة يتردد فيها على كهان المعابد المصرية ويلقف منهم أسرار

العلوم والمعارف التي يسمحون له بها . ثم سافر من مصر الى بلاد الكلدانيين ليتعلم علومهم ويقف على مساتيرهم . ثم اتجه من هنالك الى كثير من البلاد الشرقية الشهيرة بالآثار والفنون ثم آب من هناك الى مملكة (اكريطه) ولاذ بالفيلسوف (ايمينيديس) وتودد اليه ، ثم رجع من هناك الى وطنه الأصلي جزيرة (ساموس) فرأى أن الملك (بوليكرات) قد أحل قومه محلة البوار وأوغل فيهم عسفاً وظلماً ، فهاهنا ذلك الأمر ولم يطق الصبر على تلك الحالة المريعة فهاجر الى ايطاليا وسكن (باكروطون) وأخذ يعلم الناس الفلسفة والأخلاق . فنشأ من ذلك أن مذهبه سمي (ايطاليا) . فانتشر من صيته وذاع واشتهر اسمه وكثرت تلامذته وطلابه حتى صار من يلزمه منهم أكثر من ثلاثمائة كون بهم جمهورية صغيرة مرتبة ترتيباً جميلاً . وذهب بعض المؤلفين إلى أن (نوما) الذي تولى امبراطوراً على الرومان كان أحد أولئك التلامذة والحقيقة هي أن نوما كان سابقاً فيثاغورس بعده قرون ولم ينشأ هذا الغلط إلا من وجود تشابه كبير بين آراء نوما وفيثاغورس فظن بعض الناس أن ذلك جاء من كونه تلميذه وليس الامر لذلك .

كان فيثاغورث يقول ان أشياء المتحايين يجب أن تكون شيوعاً بينهم بحيث يكونون كلهم سواء في الانتفاع والمتاع بها . لذلك كان تلاميذه متبعين هذه القاعدة تمام الاتباع ولم يكن لأحدهم ملك خاص ولا مال ذاتي ، بل كان كل ما يملكونه عاماً بينهم على حد سواء . وكان

من القوانين التي وضعها للأخذ عنه أن الطالب الجديد يكلف بأن يصبر خمس سنوات متوالية في تلقى كل ما يلقي اليه بدون أن ينطق ببنت شفة طول تلك المدة ، حتى اذا وفي هذا الامتحان على ما يرام وينتظر أدخل الى فيثاغورس نفسه ليزوره ويحاوره في العلوم والمعارف .

أوصاف فيثاغورس الشخصية - كان معتدل القامة وسيم الطلعة تلوح عليها المهابة والوقار وكان من عادته أن يلبس ثوباً رقيقاً من الصوف الأبيض البالغ الحد في النظافة . وكان عفيف النفس حاكماً عليها لا يميل لأهوائها وخطوطها . يحافظ على السر اذا استودعه ويبالغ في كتمه . ويؤثر عنه ان لم ير ضاحكاً قط ولم يسمع أحد منه مزاحاً ولا هزلاً قط . وكان اذا غضب لا ينتقم ممن أغضبه حتى أنه كان متى أثم بعض عبيده ووقع منه ما يستحق التأديب يكبر عليه أن يضربه بيده . لهذا كان تلامذته تعتقد ألوهيته . ولا عجب فقد غلا القدماء في تأليه كل رجل يرون فيه فضل عقل وحكمة حتى أنه قد لا تخلو أمة من مثل هذه الكبوة المردية . وكان الناس يقصدونه من آفاق الأرض لسماع كلامه والحظوة بالتقرب إليه . حتى قيل انه كان يأتي الى (كروتون) في كل عام نحو من ستمائة من الناس لهذا القصد ليس غير . ولقد شاع ذكر فيثاغورس في البلاد بالعقل والحكمة حتى أن كثيراً من الأمم طلبت منه أن يسن لها قوانين تصلح به أمر حكومتها وتبني به هيئة اجتماعها ؟ وما أثر عنه من صفاته أنه كان يحرم الحلف بالآلهة والاستشهاد بها في جميع الأحوال تحريماً . وكان يقول يجب

على كل انسان أن يؤدب نفسه ويروضها على الكمالات حتى تتصف بها لكيلا يكون في حاجة إلى الحلف لأجل أن يصدقها الناس .

حياته السياسية ومذهبه — قلنا ان فيثاغورس نزل من إيطاليا بمدينة (كروتون) واتخذ بيت (ميلون) مدرسة له وحشر اليها مع نفر الذين كانوا معه من اليونانيين شزيمة من أهل تلك البلدة ممن التفوا حوله ولازموه رجاء الوصول الى لباب الحكمة على يديه . في عصر هذا الفيلسوف كان جنوب ايطاليا وهي القطعة التي

اخترها دار هجرة له شاملة لجملة حكومات (أريستوكراسية) أى إن الحكومة فيها بيد الأعيان والأشراف . ولكن فيثاغورس كان فكره متشعباً منذ صغره بأفكار الشعوب الشرقية المتبعة في الحكم المبدأ (التيوكراسى) وهو المبدأ الذى يستبد بالحكومة فيه نفر قبلون استبداداً كلياً بدون حق للشعب فى الملاحظة عليهم . بهذا السبب نشر فيثاغورس هذا المبدأ بين تلك الشعوب فاتبع نصائحه كثير منها وأكسب المبدأ الأريستوكراسى صبغة (تيوكراسية) جديدة تميزت به عن بقية تلك الحكومات . وكان قصده من كل ذلك حصر السلطة والحكم فى يد طائفة منتخبة من صفوة الأمة وقصر أسرار العلوم والمعارف عليها دون العامة لتعتبرهم الأمم ملوكاً معصومين من الخطأ كما عليه الحال فى بعض الفرق الدينية بالنسبة لرؤساء دينها . هذا المبدأ بعينه كان انشودة سائر فلاسفة اليونان فلقد كانوا لا يودون اعطاء السلطة لرجل واحد ولا لأمة بأجمعها ولكن للفلاسفة منها . هذه

كانت أمنيتهم وكثير ماسعوا في تحقيقها ولكن لم يتح لواحد منهم ما يتيح لفيثاغورس من النجاح في تقريرها .

نجاح فيثاغورس في مشروعه الاجتماعي هذا أكسبه شهرة فائقة فانتخب رئيساً للحزب (الأريستوكراسى) في مدينة كروتون . فاتفق في ذلك الحين أن الحزب (الديموكراسى) أى الجمهورى تغلب على الحزب (الأريستوكراسى) في مدينة (سيباريس) فقرر انصاره الى (كروتون) واستجاروا باخوانهم في المذهب ، فارسل الفيلسوف وفداً الى أهل تلك المدينة يدعوهم إلى مذهبه ، فغضبوا وقتلوا الوفد فلم يسع الفيلسوف غير شن الحرب عليهم . ثم جهز اليهم جيشاً من ساعته وهو وإن كان أقل عدداً من جيش الأعداء الا أنهم صبروا صبر الأبطال وهزموا عدوهم شر هزيمة واستولوا على المدينة فغربوها الا قليلا واستعبدوا أهلها وقسموا مافيها على المقاتلة فخص فيثاغورس حدائق زاهرة فابتنى فيها مدرسة جامعة على الشكل الذى رآه في مصر وبلاد الكلدانيين واشتهرت هذه المدرسة باسم مجمع فيثاغورس العلى وוכל الى تلامذته أن يجعلوها منبعاً لنشر مذهبه وتخرج خلاصة الناس عليه ليتكون منهم طائفة صالحة لأن تحكم الأمم والشعوب وقد نقل عنه كثير من الرواة أشياء خرافية ولكن ثبت الآن أنها موضوعات عليه وان كثيراً منها لم يعرف الا بعده بزمان طويل . والذى أجمع الرواة عليه أنه كان يصدر منه كثير من الخوارق للطبيعة أمام تلامذته ومريديه . أمام مذهبه فقد حفظ عنه ودونه تلامذته بالدقة

فيما يقال وهو أنه كان يعتقد بالتناسخ وإن النفس الفاضلة متى خرجت من جسم صاحبها تلبست بجسم شخص فاضل وبخلاف ذلك لو كانت شقية فأنها تتقمص جسم حيوان قدر . وكان يقول انه يتذكر الحالات التي كان فيها هو نفسه في أجساد مختلفة .

هذه العقيدة قديمة جداً ومبدأها فيما يرجح الهند . وبما يحسن ترجيحه جداً أن فيثاغورس كان له عقائد عالية في الحكمة الالهية والعناية الربانية والوحدة الذاتية وإن كانت تعليماته العامة مخلوطة بأشياء خرافية كثيرة فيما يقال . والذي يميز مذهب فيثاغورس عن كثير من المذاهب الأخرى هي صبغته العلمية ، فإن تلامذته كلهم كانوا يتعمقون في درس الرياضيات تعمقاً كلياً . ولقد كان فيثاغورس رياضياً من الطبقة الأولى وينسب إليه جملة نظريات هندسية وهو أول من قال بحركة الأجرام السماوية حول الشمس وهو الأمر الذي ثبت بالحس في القرن الخامس عشر بواسطة الفلكي (كوبرنيك)

ولكن رغمًا عن كون تعاليم فيثاغورس ومدرسته انتجت لل المدنية أعظم الآثار وطبعت تاريخ الرقي الانساني بطابع لا يزول أثره ، لم تبق زمنًا بعد تأسيسها . وذلك في العادة شأن كل جمعية تكون بقصد الاستيلاء والحكم . فإن محض رؤية شكل الترتيب الذي كان مسنوناً لتلك المدرسة كان يدعو للارتياح في أمرها . الا ترى أنه مما يريب الأمم والشعوب أن يروا جمعية من الشبان ملتئمين غاية الالتئام فيما بينهم ومنفصلين تمام الانفصال عن الهيئة الاجتماعية ومشغولين

الليل والنهار بالأشغال العقلية والعلوم الرياضية يعدون أنفسهم لمنصات الحكم وأرائك السياسة ؟ نعم كان ذاك سيداً لارتياب النفوس واضطرابها على مدرسة فيثاغورس حتى ثار ضدها الناس في ثورة عامة بمدينة (كروتون) وصاروا يقتلون من وصلت اليه أيديهم من تلامذة فيثاغورس وفي أي جهة صادفوه ونفوا كثيراً منهم أيضاً إلى البلاد الأخرى ولم يعفوا إلا عن فيثاغورس نفسه وقد كان وقتها بلغ الثمانين من عمره . فعرض على كثير من المدائن أن تقبله نزلاً فيها فلم تفعل وأخيراً قبلت منه ذلك مدينة (ترانت) فرحل إليها وأقام بها حتى توفي . وما بقي من تلامذته لم يناموا عن نشر مذهبه في كل جهة حلوا بها هذه الترجمة نقلناها عن علماء أوروبا والعهد عليهم في روايتها فربما كانت سيرة هؤلاء الرجال أرقى مما قالوه عنهم ولكنهم حرفوها وتصرفوا فيها كما فعلوا في سير أكابر الأنبياء صلوات الله عليهم

أفلاطون

ولد هذا الفيلسوف الشهير (باثينا) ويقال في جزيرة (أجين) سنة ٤٣٠ قبل الميلاد وتوفي سنة ٣٤٧ فيكون قد عاش ثلاثاً وثمانين سنة . وكان اسمه (اريسوكليس) ثم لقب بعد ذلك أفلاطون واشتهر به وهو من عائلة عريقة في النسب مال أولاً إلى الشعر ويقال وللتصوير أيضاً ثم لما تعرف إلى الفيلسوف (كراتيل) تلميذ (هيراكليت)

والى (سقراط) مال بكايته الى الفاسفة ووقف حياته عليها . فاتخذته سقراط تلميذه الأول لما تفرسه فيه من النجاة والفطنة ، ولكنه لم يعيش حتى يرى ماهى غاية استعداد تلك القريحة العالية . لازم استاذة ثمان سنوات ثم حدث بعدها أن فرقة السوفسطائية اتهمت سقراط بالاحاد فى صفات الآلهة فقام بالذب عنه أفلاطون حتى صعد على منبر مجلس النواب ، ابتداءً يخطب فى الدفاع عنه حتى اذا كاد يتغلب على الأميال ويغلب بسحره عقول الرجال أخذ أعداء سقراط يلغطون لكيلا يسمع الناس بلاغة الخطيب فيقررروا عدم قتله . فلما لم ينجح فى دفاعه ونفذ الحكم على أستاذة هجر وطنه غماً وكدرأً وذهب الى ميجار ، وحدثته همته بعدم ادخار شىء من حوله فى طلب العلم حتى لا يبقى منه شىء يند عنه . وكانت اذ ذاك المذاهب الفلسفية مشتتة فى أصقاع الأرض فقصداً ولا ايطاليا ولحق بتلامذة فيثاغورس فاشركوه فى أسرار مذهبهم ، ثم رجع منها الى سيرين لدرس هندسة (تيودور) ثم يم مصر ومكث مدة فى مدينة (هيليو بوليس) ويقال ان كاهناً مصرياً لقنه علم الفلك . ثم رجع الى أثينا وأسس بها دار العلوم فحازت شهرة فائقة وكان كثيراً ما يتركها ويسافر طلباً لتعرف أحوال الأمم والشعوب المختلفة . ذهب مرة الى جزيرة سيسايا فاستجاب سخط ملكها (دونيس) لحرية وجرأة فؤاده فأسره وباعه عبداً فأراه بعض أصحابه فاشترأه وأعتقه فأب الى وطنه . ثم ذهب اليها ثانياً وسافر مرة أخرى الى (سيرا كوز) . أما فلسفة أفلاطون فكانت هى بعينها فلسفة أستاذة سقراط الا أنه

بما اكتسب من العلوم الكونية والوجودية القاها على الناس بصفة جديدة وشكل لم يكن معهودا قبله وأضاف اليها أفكاره الخاصة فجاءت أكمل فلسفة وجدت لذلك العهد . وقد ذاع صيته في البلاد وانتشرت شهرته في المدائن وعرف بسمو العقل وبعد النظر في الشرائع والقوانين ولذلك كانت تطلب اليه كثير من الحكومات أن يسن لها من القوانين ما يستصلح أمرها وتطرد به عماريتها . وقد لقب بالالهى وكانت فلسفته وأفكاره محترمة معتبرة لدرجة أن كل العقلاء كانوا على أفكاره وآرائه . وكان كأستاذ سقراط لا يميل للمناصب : ولما توفى ترك مجمعه العلمى لزعامه حفيذة (سبوزيب)

كل كتابات هذا الفيلسوف وصلت الينا ولكنه كان يلقي دروسه شفويا وكان يقول :

« كل كتابة على الورق يجب أن تكون مذكرة فقط للذى تعلم وانتهى ، لا أن تتخذ واسطة للتعليم ؛ فانها لا تنطق ان سئلت ، ولا تدافع عن نفسها ان فندت . فكل موضوع مكتوب باليد هو بناء هذا عمل خفيف الوزن وتذكار غير كامل مخلوط بكثير من الغلواء . فليس للأفكار اذن من ثمرة جنية نافعة الاخطابة مرتجلة موضوعها العدل والجمال وتكون منقوشة فى صميم القواد »

ولقد كانت تروقه الخطابة لدرجة ان مؤلفاته شبيهة بالخطب وكل كتاباته ماعدار سائله عبارة عن محاورات فيها سقرط أحدم من محاوريه . وكثيرا ما تكون الافكار فيها أفكاره الذاتية ولكنه كان يضعها

فى المحاوره فى فم استاذهم ويجعله هو البادى بها .

لم يدون مذهب أفلاطون بصفة مضبوطة وخالصة من الخبط واللوث لان المشهور عنه أنه كان له مذهبان : مذهب عام ظاهر فيما بينه وبين الناس ، ومذهب خاص به لا يفتح به الا نفر من أهل خاصته ممن يثق بعقلهم وثباتهم

الفلسفة عنده هى معرفة العموميات والامام بالضروريات وكان يقسمها الى جدليات وطبيعيات وأخلاقيات . وكان يقرر أن للعقل ثلاث خصائص وهى الاحساس والمدركات والافكار . فالاحساسات تقابل الأشياء المتغيرة والمتشخصة ، والمدركات تقابل الأشياء المتغيرة أيضاً ، ولكن مع تجريد أشخاصها من الحس بها . أما الأفكار فتقابل الأشياء الثابتة والحقائق العامة . وعنده أن الأفكار فى ذاتها ليست مدركات بسيطة للعقل ولكنها أصول الأشياء وحقائقها بمعنى أنها كل ما فى الكائنات من حق وباق وعام . وكان يقول انها عالم قائم بذاته فوق عالم الكون والفساد وهى واصلة الينامن الله مباشرة ، وهى القوالب التى شأ الله تعالى على قوالبها جميع الاشياء . ولما كانت الافكار على رأى أفلاطون هى الأشكال الحقيقية السرمدية لكل ماهو موجود فقد سماها (بالنموجات) قال وأنه يوجد خارجا عن الله تعالى أصل متغير ناقص قابل للفناء موجود بذاته هو المادة العمياء الصماء التى لا شكل ولا صورة . فبأثر الله تعالى الذى أوقعه عليها ازدوجت النموجات التى هى الافكار المجردة بالمادة عديمة الصورة والشكل على درجات مناسبة فنشأ منها

جوهر متوسط مشترك بين خصائص كل من هاتين الطبيعتين . وهذا الجوهر روح العالم فروح العالم هذه بتشخصها وانقسامها الى ارواح مختلفة تكون الالهة التي يعبدها العامة وتولد الناس وهم الكائنات المتمتعة بعقل وادراك . وفي رأيه أن الكون المادى مكون من عنصرين متضادين : التراب وهو أصل لمجود العالم وجعله محسوساً ، والنار وهي سبب صيرورته مرئياً . هذان العنصران الترابى والنارى ملتزمان ببعضهما بواسطة عنصرين وسطين بينهما : هما الهواء والماء . وهما من جهة متشابهان فى صفة مشتركة هى السيالية ، ومن جهة أخرى كل منهما مشابه للطرفين الآخرين فالهواء يشبه النار والماء يشبه التراب

أما روح الانسان فى نظر الفيلسوف فهى حياة غير قابلة للفناء محصورة فى سجن فان هو جسد الانسان . وهى متمتعة بثلاث قوى مختلفة : الادراك أى العقل . والقلب أى الشجاعة ، والرغبة أى الشهوة فأما الجزء السامى من النفس التى هى حية بالافكار والمطالب التى توافقها وتلائمها فتحله الرأس . أما الشجاعة فوطنها القلب . وماسفل من قوى النفس فموضعه الامعاء

وكان يقول ان الفضيلة هى مطابقة عمل الانسان لأصل الخير المحض . والدستور العام للأخلاق هو التخلق بأخلاق الله تعالى . ولما أن الله تعالى يحب الافكار التى استخدمها قوالب لتكوين الأشياء بحقائقها فيجب على الانسان أن يغلب حبه للأفكار أى للخير المطلق على حبه للسفليات والذات الجسدية ، وأن لا يأتى بحركة الا فى

سبيل تحقيق الأفكار الالهية بقدر ماتسمح به قوته ، أما الجميل فى نظر أفلاطون فهو رونق الحقيقة وبهاء الأفكار التى جعلها نموذجات للأشياء . وقال عنها انها عالم قائم بذاته . والجمال المادى فى نظره ليس هو الا صورة مرئية آتية من الجمال السرمدى .

هذا موجز من فلسفة أفلاطون ومذهبه ومنها يتبين للقارىء مراميه الفكرية على الانسان والنفس والأخلاق . أما اقتداره فى التشريع والتقنين فما لا يستهان به أيضا . وكتبه فى ذلك كانت فى زمانه المورد الوحيد العذب لطلاب الشرائع ورواد القوانين ، وبقيت بعده قرونا كثيرة مثابة لعقول المشتغلين بقيادة الامم وزعامة الشعوب والممالك . وأحسن ماييل صدى الباحث فى تشريع أفلاطون هى كتبه التى بقيت الى اليوم ككتابه المسمى « الجمهورية الفاضلة » وكتابه « السياسة » وكتابه « القوانين » فانه بسط فيها أفكاره بسطا جليا واضحا . فكتابه « الجمهورية » عبارة عن محاوراة طويلة مقسمة الى اثنى عشر بابا جعل أكبر مخاطبيه فيها سقراط . وسواء كانت هذه المرامى التشريعية هى له أو لأستاذه فانها تكون نظمات جمهورية فاضلة اتخذها قادة الإصلاح وطلاب العدالة فى الحكومات مرجعا يرجعون اليه للاستقاء من حيائها فى تأييد مطالبهم وتدعيم نظرياتهم . وما لسننا فى حاجة الى التنبيه عليه هو أن كل ما فى تلك الكتب التشريعية ليس اختراعا لأفلاطون أو لأستاذه بحيث لم يسبقهما فيه أحد . فان المعلوم أن أفلاطون أخذ شيئا كثيرا عن نظمات ليكورج مشرع (اسبارطا) من

مالك اليونان القديمة ، وأخذ أيضا عن قوانين السفسطائية القدماء حصصا مناسبة . وقد نقل تلميذه (أرسطو) نفسه أن (هيبوداموس) هو أول من كتب كتابا في «الجمهورية الفاضلة»

كان مذهب أفلاطون في الحكومة مثل مذهب سائر الفلاسفة الاقدمين وهو أن يكون مبدأها سيادة الاعيان والاشراف وهو المبدأ الارستوكراسى بعينه الذى تكلمنا عنه في تاريخ (فيثاغورس) وهم لا يريدون من الاعيان كما قلنا هنالك أيضا الاغنياء وذوى الجاه والقوة، بل الفضلاء النبلاء أى الفلاسفة . فأين حوت بصرى فى كتب الشرائع الفلسفية القديمة وجدت هذا المبدأ واضحا جليا فيها بطريقة لا تسلم به الفلسفة الحققة فانهم يفرضون للطبقة الحاكمة وهى بالطبع منهم كل اكبار واجلال بما يشبه العبادة ، وبازاء ذلك لا ترى للعامة والمحكومين الا الازدراء والاحتقار . هذه صفة عامة لجميع كتب الفلاسفة الاقدمين الذين تكلموا فى الشرائع والجمهورية الفاضلة لأفلاطون غير مستثناة من هذه القاعدة العامة أيضا فقد حكم فيها على طوائف بخدافيرها أو على أنواع برمتها بالطاعة الدائمة والجهالة الخالدة . على أن (الجمهورية الفاضلة) لأفلاطون على ما بها من خلط بين المدركات العالية والمدركات الضيقة . وبين النظريات الفلسفية الجليلة والخياليات المحترقة ، وبين الحرية المعتدلة والاستبداد الجائر ، كانت رغما عن هذا كله فذلكه موجزة للحكمة القديمة وكانت المرجع الاصلى الذى ورده كل الفلاسفة الذين اشتغلوا بأمر الاجتماع الانسانى .

في الجمهورية الفاضلة يفضل أفلاطون الحكم الملكي أى حكم الفرد بالواحد على مبدأ حكم الأعيان أى (الارستوكراطى) وعلى المبدأ الجمهورى أى (الديموكراطى). قال لأن الملك الصالح يحكم أمته أحسن من أن يحكمها أى قانون كان، لأنه صالح لأن يلم بكل التغيرات الطارئة والعلاقات المتجددة ويقابلها بما تتطلبه من رأى أو عمل. بخلاف القانون فإنه ثابت لا يتغير وجامد لا يلين. ثم قال: ومع ذلك فالقانون لازم ينطبق على الجماهير، والملك لا يستطيع أن يعرف كل انسان بشخصه، ولكنه مع ذلك يجب أن يكون القانون تابعا للملك مباشرة دون غيره ويلى هذه الحكومة فى نظر أفلاطون الحكومة المتمسكة بالقانون التى لا تحيد عنه فى شىء. قال لأن القوانين لم تتقرر ولم تستتب الا بعد تجارب طويلة واختبارات عديدة فى أحوال شتى. وبناء عليه فيجب أن تكون محترمة مرعية ولا يجوز عصيانها بوجه من الوجوه ومن رأى أفلاطون فى الصنائع أن يحجر عليها فى قواعد ثابتة لا تتغير وهذا معناه تقييدها ووضع العقوبات الكؤود أمام رقيها.

قسم أفلاطون الناس فى جمهوريته الى ثلاثة أقسام: (١) المشرعون أى الفلاسفة (٢) المحاربون (٣) الصناع. أما الأولون فهم المخلوقون للحكم الصالحون له دون غيرهم، وأطلق عليهم الصنف الذهبى. وأما المحاربون فهم حراس المملكة وخفراؤها وأطلق عليهم الصنف الفضى. وأما الأخيرون أى الصناع فهم المخلوقون للطاعة العمياء للصنفين المتقدمين وأطلق عليهم الصنف الحديدى. أما العبيد فقال عنهم انهم

ماشية الأمة مثلهم فيها كمثل البهائم العاملة . وهذا رأى الأقدمين كظم
 فى الرقيق فان لهم عليه أحكاما جائرة لا تنطبق عل عقل ولا على عدل
 حتى جاء الاسلام بدستور المساواة والحرية فرفع عن عاتق العبيد
 آثاراً ثقيلة مما استراه مفصلا فى محله من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى
 الناظر لجمهورية أفلاطون هذه يرى أن حكومتها تشبه الحكومات
 الشرقية القديمة ذات المبدأ (التيوكراطى) أى التى يخول فيها حق الحكم
 لطائفة من رؤساء الدين ويفرض على العامة والخاصة اطاعتهم اطاعة
 عمياء بدون رقابة على أعمالهم ولا هيمنة على ارادتهم . وانما الفرق بين
 هذا المبدأ ومبدأ حكومة الجمهورية الافلاطونية أنه أبذل فيها الموبدان
 والبرهمى بالفيلسوف والمشرع . ومن نظمات جمهورية هذا الفيلسوف
 أن المحاربين يجب ان يكونوا دائماً على أهبة تامة متخفين اما لقمع
 فتنة داخلية أو صد غارة خارجية . وهؤلاء المحاربون لا يجوز لهم أن
 يمتلكوا عقاراً ولا أن يكتنزوا دينارا بل يجب عليهم أن يعيشوا
 أحرارا من كل التكاليف الشخصية والعائلية وعلى بيت المال أن
 يجرى عليهم ما يلزم من غذاء وملبس ومسكن وما تقضيه سائر
 الحاجات المعيشية . أما العلوم التى يجب عليهم تعلمها فهى كيفية تمرين
 أجسامهم على الألعاب الرياضية وفن حفظ الصحة والموسيقى
 والأخلاق ويلزمهم أن يتربوا ويتمرنوا على الخضوع والطاعة القواعد
 العسكرية الصارمة ليكونوا بذلك مثال النظام والأحكام أمام
 الناس أجمعين .

اما بالنسبة للنساء فقد فاه عنهم الفيلسوف بكلمات فاق بها في الشعور أهل زمانه بمراحل وان كان مقلدا في ذلك ما علمه من حالة النساء وحریتهن في جمهورية (اسبارطا) اليونانية وذلك أنه وهبهن حقوقاً لم تكن لهن من قبل واعترف لهن بمزايا كانت لذلك العهد ضائعة لا يسلم بها أحد فقد قال : « ان هذا الجنس (أى النساء) الذى نحجر عليه ولا نسمح له فى العادة إلا بالاشتغال بالاشياء التافهة والشؤون المنزلية أليس فيه استعداد لأمر أشرف ، ووظائف أرقى ؟ ألم يعطنا أمثلة كثيرة من الشجاعة والعقل والرقى فى كل ضرب من ضروب الفضيلة » ولكنه لم يغال فى السير فى تيار هذا الشعور الجميل الذى خالف فيه عموم أهل عصره بل رجع فاعترف بأنها أخط من الرجل منزلة وأقل منه درجة . ولم يقصر فى الاشارة والنصيحة باعطاء النساء ذات العلوم التى تدرس للرجال كما كان الشأن فى مدينة (لاسيديمونيا) اليونانية عاصمة جمهورية (اسبارطا) وقرر بأن يشارك الرجال فى الالاعيب الرياضية وفى التمرينات العسكرية أيضاً .

اما المشرعون فيجب ان ينتخبوا من صنف المحاربين فيرتقون من الصنف الفضى الى الصنف الذهبى . والنسل الحاصل من هذا الصنف الفضى يجب أن يؤخذ ويربى تربية خاصة تؤهلهم للانخراط فى سلك الطبقة الحاكمة ولا يجوز أن يربى هذه الترية ويها هذا التهىء الا الاطفال الذين تتوفر فيهم شرطى حسن الخلق والخلق ويكونون حاصلين على مواهب طبيعية جلية . وتلك الترية الخاصة هى تخريجهم

في كل العلوم والفنون المعروفة وادخالهم في قواعد شاقة وتحميلهم تكاليف صارمة ليشبوا متعودين على الخشونة والنظام وليصلحوا أن يكونوا بأفعالهم وأقوالهم أمثلة في الفضيلة والزهادة حتى اذا صبروا على كل هذه المشاق في التربية وخرجوا من كل دور منها لابسين تيجان النجاح ألحقوا بذلك الصنف الذهبي الحاكم على غيره وسلخوا مقاليد الحكومة عفواً بغير تعب .

أما العامة وهو الصنف الحديدي فلم يشر عنهم الفيلسوف أقل إشارة لانهم في نظره وفي نظر سائر الفلاسفة الاقدمين خلقوا للطاعة العمياء للأوليين ووجدوا لأن يحيا بحياتهم ويتحركوا بحركتهم .

— ٢٥٣ —

ارسطو

الفيلسوف ارسطو أشهر فلاسفة اليونان بل فلاسفة العالم كله . وهو أكبر قريحة ظهرت في العالم القديم ولذلك يلقب بأمرير الفلاسفة . ولد بمدينة (ستاجير) من مملكة مقدونيا في سنة ٣٨٤ وتوفي سنة ٣٢٢ وله من العمر ثلاث وستون سنة . كان أبوه طبيباً شهيراً اسمه (نيكوماك) عنى بتربية ابنه ارسطو وهياًه لدراسة الطب ، ولكنه لم يعيش حتى يرى المواهب العظمى التي وهبها الله لابنه وتركه ولم يناهز السابعة عشر من عمره : فكفله صديق لأبيه وقام له مقام الوالد وهو ما جعل ارسطو يذكّر طول حياته بر هذا الرجل بهويثني

عليه بما هو أهله .

روى ثلاثة من المؤرخين الأقدمين أنه لما مات كفيل أرسطو جمع هذا كل « ما آل اليه من ميراث آبائه وأقربائه ، وأطلق لنفسه عنان الهوى فى ميادين اللهو حتى أتى على آخر ما يمتلكه ولم يبق له ما يسد به حاجة الحياة ، فلها ضاقت به حلقات العيش الحق نفسه بخدمة الجنديّة ولبت بها مدة ولكنه لما لم يطق مشقاتها وصرامتها تركها وألقى بنفسه بين يدي الفلسفة .

يقول أنصار أرسطو ان هذه الرواية واهية السند لا استطاع اثباتها لا بقطاع اسنادها ، ومع ذلك فلو فرض أنها صحيحة فلا تؤثر كما يقولون على مقام الفيلسوف بشيء ولا تنزل من اعتباره ، فبالك وهي من الضعف حيث رأيت

الذى لا شك فيه من بدايات أرسطو أنه تعاطى فى أول أمره صناعة الطب طلبا لا إقامة أمور المعيشة ، ولقد حفظ لهذه الصناعة أثرا جميلا فى نفسه حتى أنه لما اتصل بالاسكندر بصفة مرب له نقش فى فؤاده حبها واكبارها فشب الاسكندر على ذلك . وقد ألف أرسطو فى الطب كتاباً نفيسا اسمه الصحة والأمراض

دعنا من هذا كله فكله قليل الخطر وأكثره واهى السند ، ضعيف الرواية ، أما الذى لا شك فيه ولا غبار عليه من ترجمة حياة ارسطو هو أنه حضر الى (أثينا) فى العصر الذى كانت تتلأأ فيه علما وفلسفة ، وتهادى مدينة وحضارة ، وكان عليها الخفاق فى العلم فى ذلك الحين

الفيلسوف (أفلاطون) فلم يكديضع أرسطو قدمه في أثينا ويرى ذلك ينبوع العلى الفياض حتى التحق به واكتب في مدرسة أفلاطون ولازم الفيلسوف مجدأ في الدرس دائماً في البحث والنظر حتى لحظ ذلك منه أستاذة وتحقق من مكاتته في توقد الذهن وبعد النظر وسعة مجال الفكر فقال عنه لبعض خواصه : انه ليس مثل (أكسينوكرات) محتاجاً الى مهماز يحشه ، بل الى الجام يوقفه . فلازم أفلاطون عشرين سنة يتلقى عنه العلم والفلسفة ويسمع منه الحكمة والخطابة ثم تركه فجأة ، فكان ذلك مساغا لاعدائه في الطعن عليه وتنقصه ووصمه بما هو براء منه من ذمائم الصفات ومشائن الخلال . قائلين ليس من الانسانية أن يلازم الرجل أستاذة عشرين سنة ثم يتركه غضبا عليه منكرا فضله وجاحداً اتعابه . والذي حققه المحققون ان الأمر بخلاف ذلك وان ارسطو لم يترك معلمه ومربيه على صفة غير جديرة بمثله من رجال الحكمة والعلم ، ولكن الذى أتاح لأعدائه أن يتظنوا هذا الظن السيئ الخلاف الذريع الذى بين فلسفة أرسطو وفلسفة استاذة وهو خلاف جوهرى لا يسمح للبطلع أن يحكم بأن أحدهما تليذ الآخر . ذلك لأن فلسفة أرسطو مبناها المشاهدات والمحسوسات وأسسها التجارب والمقارنات ، فهو فيلسوف حسى من الطبقة العليا لا تفترق فلسفته عن فلسفة الفرق المعاصرة لنا فى شىء . أما أستاذة أفلاطون ففلسفته على خلاف ذلك فان دعامتها التصورات وسنادها الأفكار والتأملات فهو فيلسوف عقلى من الطراز الأول .

هذا هو الذى حكم به العرفاء فى هذا الموضوع وزد عليه أن أرسطو لم يذكر قط أفلاطون فى كتبه الا بما يستحقه من الاعجاب والاحلال حتى أنه لما التجأ بحكم وظيفته أن يدحض مذهب أستاذه أمام تلامذته قال لهم : وانه وان كان قد قال هذا المذهب قوم نغزهم ونجاهم الا أن الحق أولى بالاتباع وأجدر بالاحترام والدفاع .

لبث أرسطو فى أثينا مدة حياة أستاذه أفلاطون ولما مات رحل عنها مدفوعا بما كان يلحق المقدونيين من الاذى والاضطهاد بسبب الحقد على مقدونيا وملكها فيليب أبى الاسكندر فلحق (بهرمياس) الظالم الغاشم ملك بلاد (اترنا) هرمياس هذا كان مملوكا سمت به همته الى أن ارتقى عرش الملك فى بلاد (اترنا) ولكنه كان مع همته هذه ظلما عتيا فلما لحق به أرسطو زوجه أخته وأكرمه غاية الاكرام ، فدحه أرسطو مدائح خلدت له اسمه فى التاريخ . وهذا من أكبر ما يتدرع به أعداؤه للحط من كرامته . ولم يزل الملك هرمياس هذا يسوم الناس الخسف ويذيقهم الحيف والعسف حتى حاقت به سيئاته وارتكست عليه نيأته فقتله الفرس شر قتلة . عند ذاك رحل الفيلسوف المقدونى الى جزيرة (لبسوس) وبينما هو بها اذ جاءه كتاب من الملك فيليب المقدونى يبلتدعيه لترية الاسكندر واعداده لحكم مملكة مقدونيا . فشنخص مليا طلب الملك الى مقدونيا وأقام بها اثنتى عشرة سنة ملازما للاسكندر يغذوه لبان الحكمة ويرشفه شذى الآداب والفلسفة ثم رجع بعد ذلك الى أثينا وأسس بهامدرسته

الشهيرة بمدرسة المشائين لان من عادة أرسطو التدريس ماشيا .

حل أرسطو بأثينا بعد هذه الغيبة الطويلة عنها وقد فاض صدره علما وتجارب فأراد أن يشرك العالم أجمع في ثمرات حياته فأكب على التأليف والتصنيف واختراع علومها جديدة لم تكن موجودة وساعده على هذا الجهد العالى تلميذه الملك اسكندر فانه أمر الالوف المؤلفة من جنوده وضباطه أن يلتقطوا له أينما حلوا ونزلوا أنواع النباتات وصنوف الحيوانات ويحملوها الى الفيلسوف المقدوني بأثينا لتساعده وتعينه على دراسة التاريخ الطبيعى والتعمق فى أسرارهِ ولبابه . هذا فضلا عما أعده له من المال الجهم لشراء الكتب وتأسيس المدرسة وما يستدعيه ذلك الشأن من الأمور . ولكن لم يدم تعصيدا لاسكندر له بل حدث مايكدر صفو الحب بينهما . وذلك انه كان لارسطو ابن عمه اسمه (كالثينوس) رباه واعتنى بتربيته حتى صار حكيما فلما انفصل أرسطو عن الاسكندر ورجع إلى أثينا استودعه ابن عمته هذا على أن يتبعه فى غزواته وغاراته وأوصاه عليه كثيرا ، فلم يحفظ (كالثينوس) هذه المنزلة على ما يروى عنه فانه كان لا يبالي بالملك ولا يقدم له الاحترام الواجب فغضب عليه الاسكندر وحدث بعد ذلك أنه قتله لجرم ارتكبه يستحق عليه القتل فى نظر الاسكندر ولكن أرسطو لم يقتنع بصحة ذلك . فكانت النتيجة أن تكدر الفيلسوف من هذا الأمر وقاطع الاسكندر .

حدث بعد ذلك أن هبت ثورة عامة فى أثينا ونزع أهلها الى

استرداد استقلالهم من المكدونيين واستدعى الأمر بعد ذلك بحكم
الضرورة أن يلحظوا المكدونيين الذين بين أظهرهم شزرا ويوسعهم
اضطهادا وعسفا . وبما أن أرسطو مقدوني الأصل وقوى كبرى من
قوى مقدونيا تذرعوا الى قتله تذرع السوفسطائية لقتل (سقراط)
وذلك أنهم اتخذوا مدح أرسطو للهلك (هرمياس) الظالم واسطة
لاتهامه بالالحاد . فلما رأى أرسطو هذا التآلب عليه خاف من أن
يصيبه ما أصاب (سقراط) فأوى الى جزيرة (أوبيه) وصدر عليه
الحكم بالقتل من محكمة أثينا ولم يكن بها . وعلل انسحابه من أثينا
وتجنبه لحكم القتل بقوله : « فعلت ذلك لأحول بين الاثينيين وبين
العود الى اهانة الفلسفة » يشير بذلك الى إهاتهم الأولى للفلسفة بقتل
سقراط . ولم يعيش بعد هذه الهجرة طويلا بل مات في تلك السنة .
وقيل انه انتحر سأمًا من الحياة . وروى بعض قسوس النصرانية أنه
لما يئس من تعليل ظاهرة المد والجزر ألقي بنفسه في اليم ، وليس من
مستند لهذه في الرواية والله أعلم .

كان أرسطو ضعيف الجسم نحيف الساقين ذا صحة مضطربة يشكو
من معدته كثير اولقد كان ضئيل الصحة لحد أن معاصريه كانوا يعجبون
من احتمال مثل بدنه لاعباء الحياء وتكاليفها ثلاثا وستين سنة .
من حكم أرسطوا الشهيرة التي تستحق الذكر قوله : « جذور العلم
مريرة ولكن ثمراته حلوة »

« الفرق بين العالم والجاهل ، كالفرق بين الحى والميت »

« لا شيء يهرم الانسان أسرع من الاحسان »

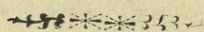
« الأمل حلم اليقظان »

« لنحفظ حب سقراط وافلاطون ، ولكن لنحب الحقيقة

أكثر منهم »

« رسائل الاخوان زينة في السراء وتعزية في الضراء »

« لا فضيلة الا في التوسط »



مذهب ارسطو

يمكن اختصار مبنى مذهب أرسطو في هذه القاعدة الاساسية وهي :
 « لا يصل الى العقل إلا ما يمر أولاً بالحواس الخمس » وهي قاعدة
 كالا يخفى تجعل الحواس أصلاً للأفكار ومنبعاً للمدركات . ومن
 هنا ترى أن أرسطو ألح في تمييز الواجب عن الممكن ، والمطلق عن
 المقيد ، وبما ان الممكن والمقيد تقابلها الحواس الخمس في الادراك
 الانساني ، فتكون المدركات التي تقابل الواجب والمطلق تشبه ما كان
 يسميه أفلاطون (افكاراً) . وكان ارسطو يريد من ذلك أن يؤسس
 فلسفة وسطاً بين المذهب الفكري والمذهب الحسي ، ولكن غاب عنا
 الآن ماهية ذلك التوسط وكيفيته حتى إنها عميت على بعض أتباعه
 فوقعوا في المذهب الحسي المطلق ، ونحن لاجل إيراد موجز من فلسفة
 ارسطو يحسن بنا ان نورد لها من أصدق مصادرها صارفين النظر عما

نالها من جدل المجادلين واءاء الممحصين ، فلسنا بصدد إيراد تاريخ الفلسفة على الطريقة التاريخية وإنما غرضنا الالمام بجوهرها وروحها على الطريقة الفلسفية المحضة .

يفرض مذهب ارسطو أن للعقل الانسانى جزأين متميزين عن بعضهما تمام التمايز ، وهما الاشكال العقلية والاصول التى تتأثر بها الحواس من الخارج . فالعقل بما وهب من تلك الاشكال الاصلية فيه يصدر أحكاماً عامة ضرورية يصبغ بها المتغير والشخصى بصبغة الضرورى العام ، كادرا كه استحالة المستحيلات وجواز الجائزات ولكن هذه الاشكال العقلية التى تصدر منها تحتاج لمادة تنطبق عليها هذه المادة يهيئها الاحساس والتجربة .

اذا تقرر هذا يعلم من أول وهلة أن مذهب ارسطو يوافق من بعض الجهات مذهب إفلاطون ويلائم مذهب (ابيقور) من جهات أخرى ، ولكن مع حفظه شخصيته وصونه استقلاله عن كليهما .

أما موافقته لمذهب (إفلاطون) فذهابه إلى وجود عنصر فى العقل الانسانى يتميز تمام التميز عن الاحساس ، وأما موافقته لمذهب (ابيقور) فلتسليمه بأنه لولا الاحساس لما أمكن الانسان أن يعلم عن الوجود شيئاً ولا أن يحصل عنه خبراً . أما كونه مع ذلك حافظاً لشخصيته صائناً لاستقلاله فلكونه يبتعد عن كلا هذين المذهبين بعدا شاسعاً فى بقية مستلزمات هذه المبادئ . فان إفلاطون يذهب الى أن (الافكار) التى هى منابع الأحكام المطلقة ، هى حقائق أبدية ، مستقلة

عن العقل وخاوجة عنه ومشرقة عليه فقط ، ويذهب (أبيقور) الى أن أحكام العقل ليست الا تعميما لاحساس الحواس ، أما في مذهب ارسطو فالامر بخلاف هذا فان الاشكال العقلية في فلسفته وان لم تستطع أن تنطبق الا على الحواس فقط ، إلا أنها تضيف اليها عنصرا خارجيا مستفادا من التجربة ليتم أمر الادراك والعلم .

من هنا يعلم سر تشدد اتباع افلاطون في الاستقلال عن فلسفتي (افلاطون) و (ابيقور) فانهم كانوا ينصبون أنفسهم منصب الموقفين بينهما ، الموجد بين خط الوسط بين تطرفيهما .

وقد اختلف بعض الفلاسفة في تقرير مبادئ ارسطو هذا اختلافاً ذريعاً فمنهم من جعله فكرياً محضاً ومنهم من صورته حسياً صرفاً وهو تناقض شديد تكبر عنه كما يقول بعض الفلاسفة فلسفة ارسطو وهي تلك الفلسفة التي كان لها المقام الأول في زمانها الى ما قبل أربعة قرون ، ولم تزل لليوم رائجة لدى بعض العقول التي تحب الأمور القديمة اذا تحقق ان ما أوردناه هنا عن ارسطو عن أئمة الفلسفة في

أوروبا هو حقيقة مذهبه فيكون مبناه اذن تحديد القوانين الداخلية السائدة على العقل الانساني ، أو بعبارة أخرى يكون معتمده الأول علم المنطق ، وهو أعظم عمل عمله ارسطو ، وبه يمكن معرفة سائر تأملاته ، ويستطاع التوفيق به بين جميع أجزاء مذهبه الكبير الواسع . ورغماً عما نال مدركات ارسطو فيما وراء الطبيعة من عدم الثبات بعد ظهور لألاء العلم العصري ، فان المنطق لم يزل حياً معمولاً به في

بعض المذاهب الفلسفية ، ولقد كان في القرون الوسطى الآلة الوحيدة في الجدليات وتقرير الدليل .

العلم في نظر (ارسطو) هو حركة العقل ، وهذه الحركة لها شكلان رئيسيان : وهما النظر والعمل . ومن هنا قسم العلم الى قسمين : علم نظري تأملي وعلم عملي . فالعلم الأول تدخل تحته العلوم النظرية (علوم ما وراء الطبيعة والعلوم الرياضية) والعلوم التجريبية (التاريخ الطبيعي وعلم النفس) والعلوم المختلطة (علم الطبيعة العمومية التي ليست في ذاتها الا تطبيق علوم ما وراء الطبيعة على الحوادث العامة للكون) أما القسم الثاني وهي العلوم العملية فعلم الأخلاق والسياسة والاقتصاد . هذا هو التقسيم الذي يمكن استنتاجه من فلسفة ارسطو وكتبه ، ومن يعتنى باستقصاء مرامى اتباع هذا المذهب على الاخلاق والفضيلة والسياسة والاقتصاد والعمران يرى أن مبدأهم في الاخلاق التوفيق بين أحكام العقل ومطالب الشهوة وتوخي الاعتدال في تلك المطالب حتى تكون خاضعة لأحكام العقل تمام الخضوع .

أما الفضيلة في نظرهم فقد خالفوا فيها (افلاطون) الذي جعلها في أداء الواجب المطلق وخالفوا (أبيقور) أيضاً في قوله انها اللذة المعتدلة ، وقالوا انها القيام على الخط الوسط بين الشهوات المتعكسة في النفس . والغرض من الأخلاق في نظرهم هي الراحة التي تنتج من الاعتدال في الشهوات الجسمية .

أما قاعدتهم في السياسة فكانت اجتلاب المنفعة من وجوها

المعتدلة ويعلم ذلك من قاعدتهم الأخلاقية وهى التوسط فى مطالب البدن لتحصيل السعادة الجسدية وهى الراحة والصحة ، ولما كان قاعدة سياستهم النفع فقد قرروا الاسترقاق فى قانونهم وعدوه أصلا من الأصول التى يقوم عليها بناء الهيئة الاجتماعية .

أما قاعدتهم الاقتصادية العائلية فكان قسط الحرية فيها ضعيفا ، وذلك أنهم كانوا يعتبرون العائلة مملكة مستقلة فيها الحكم بين الزوج والزوجة على الأسلوب الارستوكراسى أى الحكومة التى يكون فيها رجال قلائل مالكين زمام الاحكام ومخولين سيادة مطلقة على سائر أفراد الشعب ، وبهذه الصفة كانت الزوجة تحت سلطة الزوج مباشرة ولا يخفى أن تلك السلطة قد تكون استبدادية عسفية على حسب أخلاق الرجال وعادات الجيل ، وهذا ليس من العدل فى شىء . هذا بالنسبة للزوج والزوجة . أما بالنسبة للأب وأولاده فكانوا على سنة الحكومة المطلقة الاستبدادية ، أى أن الأب على أولاده سلطة غير محدودة وإرادة نافذة لا تقف عند حد . أما الأولاد فيما بينهم فكانوا على الدستور (الديموكراسى) أى المساواة المطلقة فى جميع الحقوق . وفى مذهبهم أنه لو كان يهزم الأب تربية أبنائه ، أو تقوية أجسام أرقائه فما ذلك الا لانهم مكونين لركنى مملكته

فلسفة ارسطو هذه دخلت الى أوروبا بواسطة ابن رشد الفيلسوف الاسلامى فقبولت من بعض الفرق النصرانية هنالك بالحماسة والحفاوة . فتردد علماء اللاهوت فى قبولها أولا ثم قبلوها نهائياً وتحمسوا لها تحمسا

غريبا وتعصبا وذلك الفيلسوف تعصبا مدهشا حتى أنهم كانوا يعتبرون أقل كلماته وأصغر أحكامه غير قابل للنقض . فلم يستطع أحد أن يجاهر بفلسفة غير فلسفة ارسطو مهما كانت صفته . ولما جاء أوان يقظة أوروبا حوالى القرن السادس عشر أخذت تلك الفلسفة فى السقوط شيئا فشيئا . فقام فيلسوف اسمه (راموس) فرنساوى الاصل ونقض أصول تلك الفلسفة بالدلائل والبراهين فقتل فى مقتلة (سان بر تلمى) التى حصلت فى فرنسا بين الكاتوليك والبروتسنت وقتل فيها من هؤلاء عدد عديد (١) . ثم ظهر بعده (باتريزى) فسار على خطه (راموس) ثم نبغ (كامبانيا) وشن على تعليم ارسطو غارة شعواء فحكم عليها بالحرق ، ولكن ما الحيلة ولكل شئ أجل ، ولكل نابغة جيل أو أجيال معدودة ، فلا يستطيع اIMATE شئ له فى الحياة نصيب كما لا يستطيع احياء شئ قضى عليه الله بالموت . فرغما عن هذه السلطة الهائلة التى أيد بها علماء اللاهوت فى أوروبا بفلسفة أرسطو حتى قتلوا وأحرقوا اضدادها تلاشت تلك الفلسفة تحت أنظارهم . بتوالى ظهور العقول المضادة لها تواليا عجيبا . فقد نبغ بعد الذين تقدم ذكرهم (باكون) الانجليزى و(ديكارت) فرنساوى وغيرهما من رجال العلم والفكر فقضوا على تلك الفلسفة قضاء نهائيا . ولكن كان لم يزل لها انصار متحمسون للدرجة القصوى .

(١) حصلت هذه المقتلة الهائلة فى فرنسا فى ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢ تحت حكم شارل التاسع

وسببها تحاد الطوائف الدينية فيما بينها فاستمرت مدة أيام متوالية فى سائر البلاد فرنساوية

وخصوصا فى باريس

من رجال الدين الأقوياء فقد تحصلوا على أمر من مجلس نواب باريس سنة ١٦٢٤ بقتل كل من تجاسر على تعليم فلسفة تناقض فلسفة ارسطو. ولكن هيئات . لكل نبأ مستقر . فلم تفعل تلك العقوبات شيئاً فان العقوبة لا تنصر ما قضى عليه الحق بالزوال فنبغ (مولير) بأسلوبه المضحك المروتلأه (بوالو) بطريقته الاستهزائية القاسية وأدخلوا ذلك من ضمن أضحاحك رواياتهم حتى جعلوا تلك الفلسفة التي كانت بتلك المنزلة من الاحترام مضغة في الأفواه وسخرية في السهرات والتياترات والنوادي . ذلك كله جزاء الغلو السابق في الانتصار لهذا المذهب فسيحان الملك الحق الذي لا يزول كلامه ولا يحول . ولا يعترى أحكامه الأفلول .

(مذهب ابيقور)

ولد هذا الفيلسوف الشير سنة ٣٤٢ وتوفي سنة ٢٧٠ قبل الميلاد وهو من عائلة عريقة في الشرف ، قديمة في النسب . وكان مولده في (جارجينوس) وهي قرية من قرى مقاطعة (اتيكا) اليونانية فلما بلغ الثمانية عشرة سنة شخص الى اتيينا ولم يطل مكثه بها ، فغادرها قاصداً (كلوفون) في آسيا الصغرى مع أبيه ، وهناك أسس مدرسة لتدريس اللغة والقواعد النحوية .

مال ابيقور منذ نعومة اظفاره لدراسة الفلسفة فاشتغل بها ولم يتجاوز عمره الأربعة عشر ربيعاً وظل مكباً عليها ست سنين ثم أخذ في

تدريسها ونشرها بين مواطنيه على قدم كبار الفلاسفة وعظماء المفكرين . يقال انه لم يترك علم البيان الذى كان يشتغل به فى مبدأ أمره الا احتقاراً له وازدراء به حيث لم يجد فيه ما يكشف له عن كنه هذا الفراغ الشاسع الشامل للكائنات كلها . وذلك أنه بينما كان يتلقى عن معلمه قول (هبزيود) : « أول ما حدث فى الكون هو الفضاء » سأل معلمه ومن أين نشأ الفضاء ؟ فلما لم يجد جواباً علم أن العلوم النحوية لن توصله الى شئ من المعلومات الضرورية لحياة الانسان فمال عنها الى دراسة الفلسفة . هذه رواية من روايات كثيرة بشأن تحوله من العلوم النحوية الى العلوم الفلسفية . وقد نسب كثير من الكتاب الأقدمين تعلقه بالعلوم الفلسفية الى الصدفة ، وذلك أنه وقع بين يديه يوماً من الأيام بعض كتب ألفها الفيلسوف (ديموكريت) فانعم النظر فيها . فارتاح اليها خاطره . وثلج عليها صدره ، ووجد من نفسه باعثاً شديداً اليها وحنيناً قوياً لها ، فانضم الى الفلاسفة ، وسواء صحت هذه الرواية الأخيرة أو لم تصح فان كتب (ديموكريت) أثرت على (ابيقور) تأثيراً ظاهراً جداً لاسيما مذهبه فى الجوهر الفرد .

لا يعلم بالضبط التاريخ الذى غادر فيه (ابيقور) كولوفون ورحل الى (ميتلين) ثم الى (لمسال) وهى تلك البلدة التى كانت معروفة بالثروة والرونق والعلم ، ولكن مما لا شبهة فيه انه عاد الى اثينا سنة ٣٠٦ قبل الميلاد وسنه اذ ذاك خمساً وثلاثين سنة ، فاشتري بها فى وسط الاحياء حديقة غناء بثمانين ألف مين (المين سكة قديمة الثمانون

ألفأمنها تساوى ٧٥٠٠ فرنك) عرفت هذه الحديقة بحديقة (ابيقور)
 صفات (ابيقور) . كان ابيقور حلوياً الصفات التى تحببه الى الناس
 وتأسره لم فقد كان هادى النفس ، سليم النية ، ثابت الجأش ، متواضعاً ،
 لا يقابل انساناً بالمعارضة والملاجة ، سمحاً هيناً ليناً ، ذاصحة ضعيفة ،
 كثير الأمراض ، لا يحب ولا يحور . مما حفظ عنه من الخلال
 النادرة أنه لما أصاب بلاده مجاعة صرف كل أمواله فى تقويت تلامذته
 حتى صار معدماً لا يملك شيئاً ، وهذا من السماحة التى لا تصادف فى
 الناس الا قليلا ، ولم يلبث على التدريس الاسنين قلائل حتى ذاعت
 شهرته فى جميع البلدان ، وتحدثت بسعة مداركه الركبان ، وجابت سمعته
 أوروبا وأسيا وأفريقيا ، ورغماً عما تقول الناس على هذا الفيلسوف
 ونسبوه اليه من الميل للملاذبة المدنية فانه كان على جانب كبير من
 البساطة فى المأكل ، فقد كان يأكل فى العادة خبز الشعير مغموساً فى
 الماء ومتى أراد فى بعض الأيام أن يأتدم كان لا يتعاطى الا قليلا من
 الجبن مع ذلك الخبز الخشن ، وكان يقول : « يجب أن يكون العيش
 الكفاف كافياً لا يسعد الرجل الحكيم ، وارى أن خبز الشعير والقليل
 من الماء يكفيان لا يتاء الانسان مثل سعادة جوبيتر »

هذا ما كان يرويه عنه تلامذته من صفات القناعة ، وخلال العفاف ،
 اما من لم يكونوا تلامذة له فقد نقلوا كثيرا من حوادث تمش شرفه
 وتزرى بمقام الفلاسفة من الافراطات والتفريطات الخلقية ، ولكن
 (ديوجين لايرس) المؤرخ الشهير نقل عنه انه حاصل على جميع الفضائل

النفسية التي تجعل الانسان محبواً محترماً .
 شيخوخة (أبيقور) كانت الئمة جدا فانه أصيب بالشلل فى آخر أيامه
 وأصابته قبل ذلك آلام أخرى ومات وعمره اثنان وسبعون سنة ،
 وخلفه فى رئاسة مذهبه تلميذه (ميتروودور دولساك) ولم يعيش بعده
 كثيرا فآلت رئاسة المدرسة الايقورية الى (أبولودور) أحد مشاهير
 تلامذته

﴿ فاسفة أبيقور ﴾

لا تعرف فلسفة فى العالم خرجها أعداؤها عن أصولها وبعدها
 بها عن حقيقة مرامها وصورها بصورة تخالف صورتها الحقيقية مثل
 فلسفة أبيقور فقد ادعوا أن الرجل شهوانى محض وفلسفته شهوانية
 صرفة لا هم لمتبعيها الا الانغماس فى لذائذ الشراب والطعام والانغمار
 فى لجاج اللهو والغرام ، والحقيقة فوق ما يتوهمون ، فان هذا الفيلسوف
 كما نقله عنه الثقات كان من الزهد فى الملاذ البدنية بحيث كان يكتفى
 بخبز الشعير غذاء اعتياديا ، وفلسفة توصل رئيسها الى هذه القناعة
 والزهد لا شك لا يكون من أصولها الدعوة الى الانهماك فى الملمات
 والاغراق فى الشهوات ، أن فلسفة زينون التى درسنا أصولها فى مقالة
 سابقة لم توصل ذويها الى مثل هذه الظلالة النفسية فكيف بما يدعون
 على ابيقور من المبادئ الشهوانية ، والأصول الافراطية ؟ لا شك فى
 أن هذه المزاعم اما نشأت من القول عليه بالباطل حسدا وحتما ،

واما من سوء فهم مراميه الفلسفية وكثيرا ما يؤدى سوء الفهم الى هذا الشطط في الحكم .

لسنا نقول هذا اطراء لفلسفة ابيقور وذهابا بها فوق ما تستأهله من الاجلال والاحترام فانا على بينة من النقص الذى فيها هي وسائر فلسفات الفلاسفة الأقدمين كما تراه فى فصل خاتم النيين ان شاء الله تعالى ، وانما نقول ما قلناه دفاعا عن الرجل فقد هضموا حقه ، وألبسوه غير ثوبه ، ووصموه بما هو منه براء ، ولقد كانت مبادئه الاخلاقية فى مذهبه مذبذبة لكثير من اتباعه فقد نبغ على يديه فضلاء كثيرون يحفظ التاريخ اسمهم للآن . على أن تلك الفلسفة ليست فلسفته الخاصة وانما هو نشرها وعممها ، ومن يطالع كتب (ديموكرىيت) و (لوسيب) يجد أن ابيقور قد استقى منها شيئا كثيرا ، ولكن فاقها فى نشر تلك المبادئ وإشراؤها فى العقول ولا يخفى أن هذه صفة أخرى من صفات الكمال البشرى تتفاضل النفوس فيها الى ما لا نهاية . فمن العلماء من لا يشق لهم غبار فى العلم والحكمة ولكنهم من موات العزيمة عن نشر علمهم بحيث يرحلون عن الدنيا وهم لا يفترقون عن عامة جيلهم فى شىء ويتلاشى اسمهم على طول الزمن ولا يبقى لهم فى الوجود الذى وردوا اليه أثر يذكر ، ومنهم من فتح الله لهم خزائن العلم وكنوز العزيمة أيضا فأخذوا من هذه وتلك فأصبحوا النجوم السوارى يهتدى بها الضال ويؤوب اليها التائه ، ولسنا نرى على سطح الكرة فى جميع أحوال التاريخ الانسانى إنسانا نال من هذه القوة ماناله خاتم النيين محمد صلى الله

عليه وسلم فقد نشر ديناً جديداً في أمة تعد بالملايين الكثيرة في مدة ثلاث وعشرين سنة ولا يخفى الفارق الجسم بين نشر دين ونشر فلسفة فان نشر الدين يستلزم أن يخلع الانسان عاداته الوراثية ، وفي ذلك مافيه من الصعوبات خصوصاً في الأمم الجاهلية الشديدة البأس كالامة العربية ، فنجاحه صلى الله عليه وسلم لم يكن إلا تأييداً الهيا ، وعونا ربانيا ، ومن ادعى غير ذلك فليرنا مستنده من نواميس الطبيعة أو قوانين النفس ، وهيات « لو أنفقت مافي الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم »

إذا نظرت لفلسفة (ايقور) نظرة اجمالية لم تجد فيها تلك الاصاله والجدة التي تصادف عادة في مؤلفات كبار فلاسفة اليونانيين ، هذا النقص يمكن عزوه إلى ما كانت عليه حالة البلاد اليونانية في ذلك العهد من القلاقل والاضطرابات الداخلية . يقول العارفون ان العصر الذي وجد فيه (ايقور) وهو العصر الذي كان يتنازع فيه السلطة خلفاء الاسكندر الأكبر بين قارتى آسيا وأوروبا وكانت الجيوش الرومانية تتقدم إلى الامام في كل جهة تبتلع الأمم والعواصم ، لم يكن أهله صالحين لظهور أفكار كبيرة بين ظهرانهم ولا لبوغ قرائح قوية يستضيئون بنبراسها ، ويحيون بحياتها العالية ، فالتجأ (ايقور) أن يسالم السنة الطبيعة ويسير كما شاء القدر .

كان مثل (ايقور) في هذا الجيل المشحون بالقلاقل والمشاغب الخالى من الفلاسفة والعقلاء كمثل قائد تفرقت عنه أجناده شذر مذر

فأراد أن يجمع شملهم ، وينظم عقدهم ، فلم ير أحسن وسيلة لأداء مهمته هذه من أن يجعل الفلسفة الى معناها الحقيقي ويوصلها الى غايتها الأصلية وهي تهذيب ملكات الانسان ، وترقية مواهبه الطبيعية بالرياضة والعمل بالنظريات والعبارات الفارغة كما كان يفعلها أكثر الفلاسفة . حيث ينبغ منهم فيكون مهمة ابتناء القصور والعلالي الفكرية الخيالية ، ثم يورثها لتلاميذه فيصقلونها شرحاً وتنقيحاً ثم يدعونها لأخلافهم مثلها كمثل العوبة عقلية ، او رياضة تصورية ليس إلا . فلاجل ان يصل (ابيقور) بالانسان الى هذه النقطة من الفلسفة العملية التطبيقية جعل همه الوحيد دراسة الانسان والطبيعة معاً .

نعم انا لو استعرضنا أفكاره على الطبيعة بعلمنا الحالي لرأينا أكثره حديث خرافة ولكن مثله في ذلك كمثل سائر الفلاسفة الأقدمين فلم يكونوا أقل منه غلطاً على مساتير الطبيعة وضلالا عن أسرارها . ولكن رغماً عن هذا فان طبيعيات (ابيقور) تحتوى على حقائق طبيعية من الطبقة العليا جداً ، ذلك كوجود انه ناموس الجاذبية العامة ، وناموس التجاذب بين الجواهر الفردة في الاجسام ولا يخفى أن على هذين الناموسين قامت صروح العلوم الطبيعية والكيمائية في هذا العصر . قبل أن يبدى فكره على شئ من أشياء الكون سأل (ابيقور) نفسه عن مصدر علمه وادراكه فلم يره في غير (الشعور) الذى بتشكله وتطوره على حسب الأحوال والمناسبات يسمى بأسماء مختلفة كاللذة والفرح والحزن وغير ذلك وليست كل هذه الاحساسات فى الحقيقة الا الشعور

بذاته مصبوغاً بصبغة مختلفة .

فذهب (ايقور) والحالة هذه هو المذهب الحسى الذى لا يعتمد إلا على الأمور المحسوسة والدلائل العيانية المشاهدة باحدى الحواس الخمس .

هذه قاعدة فلسفة (ايقور) وهو بعينه مذهب (لوك) و (كوندياك)

و (ديستوت) و (تراسى) من فلاسفة هذه العصور المتأخرة

أما عقائد (ايقور) فى أمور ماوراء الطبيعة فلا يعلم لانما شئى غير كن اليه والظاهر أنه كان لا يصدق بشئ منها ، ولكن لم يرو عنه أن نابذها وهم بدحضها علنا بل أثر عنه أنه كان يتكلم عن الآلهة باحترام وتبجيل ، ولكن قيل ان ذلك كان منه مشايعة للعامة فقط وقد عده الفلاسفة (الذينيون) أتباع ذينون من ضمن الفلاسفة الذين لا يعتقدون بالصانع وقد عجب بعض الفلاسفة من دعواه أن الروح الانسانية جوهر لطيف له خصائص عالية وأنه وجد فى هذا الجسد أمدا محدود واستخدمه حتى اذا ما صار البدن عديم الفائدة واختل خرج منه وتحلل هو أيضا (أى الروح) وتلاشى فى الوجود .

عجب بعض الفلاسفة من دعواه هذه لمخالفتها لأصول مذهبه فانه لم يرد ذلك الجوهر اللطيف ولم يحضر تحلله وفناءه . قالوا وما دام هو حسيّاً لا يعتقد بغير المادة أفما كان من السهل عليه أن يزيد المادة صفة فوق صفاتها التى عرفها بها ليستطع أن يفسر مسألة الحياة الانسانية ، بدل أن يفرض هذه الفروض الغريبة ؟

الغرض من فلسفة (ايقور) البحث عن ماهية الاخلاق الفاضلة

التي توصل الانسان الى الحياة الدنيوية السعيدة . فإهي تلك الاخلاق الفاضلة ؟ هي البحث عن السعادة . وما هي السعادة ؟ السعادة قد عرفها فلاسفة الأقدمين بحدود كثيرة اختلفوا بها اختلافات بعيدة . فقد قال (أفلاطون) هي التخلق بأخلاق الله تعالى . وقال (ذنون) هي ملائمة العمل لنظام الكون . وقال (أريستيب) هي اللذة . أما رأى (أبيقور) في السعادة فهي : سكينه النفس وسلوك جادة الفضيلة . روى عن (أبيقور) أربعة أصول خلقية تهذيبية بسببها كذب عليه الكاذبون واتهموه بأنه طالب للشهوات ليس غير وهي :

(١) أطلب اللذائذ التي لا يكون وراءها ألماً

(٢) إياك والالم الذي لا يجلب لذة

(٣) إياك واللذة التي تحرمك من لذة أكبر منها ، أو تكون عاقبتها ألماً أكبر منها

(٤) احتمل الالم الذي ينجيك من ألم أكبر منه . أو الذي يكون من وراءه لذة كبرى .

هذا ما يروونه عن (أبيقور) وينسبونه به الى الانهماك في الشهوات ويصمون مذهبه بما هو براء منه . ولكن (أبيقور) يزيد عن هذه الأصول الأربعة أصولاً أخرى وأفضل فان هذه الأصول الأربعة لا تشير الا الى فضيلة واحدة ، وهي الاعتدال ، ولكن لا تنس أن (أبيقور) كان يوصي باتباع ثلاث أصول أخرى بجانب هذا الاعتدال وهي : التبصر والحزم والعدل .

السبب في اعطاء (ايقور) هذه العناية للذات الانسانية هو أنه أطال بحثه في أحوال الانسان ومراميه البدنية والعقلية ، وأميله المادية والأدية ، فرأى أنه تحت سلطان كثير من مطالب جسدية ركبت فيه بالفطرة ، وسلطت عليه تسليطاً طبيعياً فلم يرد أن يغفل البحث عنها ولو فعل لما استطاع أن يصل بالانسان الى شيء مما يؤده له من السعادة النفسية فجعل درسها من بعض اشتغالاته ليصل الى حدود الاعتدال منها . وليكسر من سلطتها على هذا الانسان الضعيف . فاعتبر اللذات أموراً مشروعة حققة ولم يحرم على أحد من أتباعه شيئاً منها مادام الاعتدال رائدها .

قسم (أيقور) المطالب الجسدية الى أقسام : وهي طبيعية ، وضرورية ، وغلبة كالجوع والعطش . وهناك مطالب أخرى وان كانت طبيعية الا أنها شهوية كطلب صنوف الأطعمة ، وأنواع الحلوى والأشربة وغير ذلك ، وزاد عليها مطالب سماها صناعية تعودية خطيرة كطلب شرب الأشربة الروحية والحشائش المخدرة وغير ذلك . والاعتدال في نظره هو ايتاء النفس المطالب الطبيعية والضرورية والغلبة . والاحتراز من المطالب الشهوية ، ومكافحة المطالب الصناعية بكل سلاح . فغرضه الأول من الفلسفة اذن هي الحكم على الحواس لا الخضوع لها .

يظهر أن أيقور غالى جداً في بعض الأمور بحثاً عن الراحة والسعادة فقد حرم على نفسه الاشتغال بالأمور العامة وحرم ذلك على أتباعه ، وقد سلك هذا المسلك في هذه العصور المتأخرة الفيلسوف

الفرنسى (مونتى) حيث كتب فى ذلك فصولا بديعة سماها معاصروه قانون الأثرة الظريفة . ولكن مما لا يجب أن لا ينساه أحد أن كلا هذين الفيلسوفين اليونانى والفرنساوى عاش فى جيل مشحون بالقلق والفتن ، غاص بالاضطرابات والمحن بحيث يعذر من يعتزل الناس ويتركهم جانبا .

* (فلسفة بيرون) *

هو الفيلسوف اليونانى الطائر الصيت ولد بمدينة (اليس) من البلدان اليونانية سنة ٣٨٤ قبل الميلاد ولا تعلم بالتحقيق السنة التى مات فيها واختلف المؤرخون فى اسم أبيه . فقال (ديوجين لايرس) ان أباه اسمه (بليستارك) وقال (بوزانياس) ان اسمه (بيستوكرات) . ولد (بيرون) فقيراً لا يملك شيئاً واشتغل فى حداثة سنة بفن التصوير .

تقل معاصره وكاتب سيرته (أتيجون دوكاريست) أنه رسم فى شرف مسقط رأسه صورة شعبية (شمعدان) ذات جملة شعب فأعجب بها العارفون إعجاباً كبيراً

يقال ان الذى أثر على فكر (بيرون) وحوله عن الرسم الى الفلسفة هى كتب الفيلسوف ديمكريت فلقد كان مكباً على مطالعتها ، مشتغلاً بفك رموزها ، وكان قبل ذلك متبعاً لسير الفيلسوف (بريزون) تلميذ (سيتلپون) ثم اقتفى نهج الفيلسوف (أناكزارك) وهو تلميذ (ميترودور) وميتروودور هذا أحد قادة المذهب الديموكريتي . ويقال ان (بيرون) هذا لحق بجيوش الاسكندر فى غزوته

لآسيا ودرس الفلسفة الفارسية من مواذتها أنفسهم كما أخذ الأسرار الهندية عن ذات الهنديين في بلادهم . فكان مثال فلاسفة الهند في سكية أنفسهم وهذو خواطرهم لا يغيب عن ذا كرتة ، حتى إن أستاذة (انا كزارك) الذي كان يعلمه كيفية تسكين نفسه وتهديتها ، كان يوقظ في نفسه دائماً ذلك الحنين الى مذهب الهنود في السكية حتى قوى على تأسيس مذهبه الشهير كما ستراه بعد قليل إن شاء الله .

رجع (بيرون) الى مسقط رأسه (أليس) فاجتذب قلوب مواطنيه إليه واكتسب احترامهم وتبجيلهم بأخلاقه العالية وشمائله الطيبة وبقدره المدقع واستجماعه الصفات التي يعرف بها الفاضل في زمنه فلم يلبث غير قليل حتى عينه أهل بلده رئيساً للكهنة : ولأجل حبه اعفت تلك المدينة سائر فلاسفتها من سائر الضرائب .

معاصره وكاتب سيرته المؤرخ (اتيجون دو كاريست) نقل عنه حوادث مضحكة ونسب اليه خلافاً في القوة العقلية ولو كان كذلك لما انتخبه أهل بلده رئيساً للكهنة في زمن كان اليونانيون فيه شديداً التمسك بالدين . أما (انيسيديم) فقد فند كل التفنيد سائر ما نسب الى هذا الفيلسوف من خلل العقل ولكن لم يعفه من داء التشكك وعدم العقيدة . وكذب القائلين بأن من مبادئ مذهبه أن يترك الانسان نفسه للحوادث تقذفه حيث شاءت ، الأمر الذي يشير الى اغفال الارادة واهمال العزيمة

مات (بيرون) بالغاً من السن أكثر من تسعين سنة وهو حاصل

على احترام اليونانيين عموماً.

أخلاق بيرون — كان بيرون يحب العزلة والانفراد وهما للفيلسوف مهبط التأملات ومسقط الافاضات، ويهوى البساطة التامة في معيشته الداخلية حتى ضرب به المثل في ذلك. وكان يشتغل مع أخته في الشؤون البيتية، وروى أكثر من واحد من المؤرخين أنه كان يحمل إلى السوق الدجاجات والخنازير بنفسه.

يروى أنه روى يوماً غضباً أن يؤنب أخته على أمر فعلته، ف قيل له أيها الفيلسوف ألسنت القائل بأن العاقل يجب أن لا يحفل بشيء، وأن لا يهتم لحادث، فأجابه على الفور: «أتظن أن فلسفتي تنطبق على النساء» وكان يكره الاطعام في أى موضوع كانت، سواء في الثروة أو الجاه وعلى الخصوص في المدح والمجد، ولا يخفى أن هذه الصفة الأخيرة هي طلبة الفلاسفة وأنشودتهم الوحيدة، قنعوا بها عن سائر الصفات والمواهب المادية الأخرى.

وقد علل (بيرون) كراهته للمدح بعبارة يحسن إيرادها. قال: «إن الناس في أحوالهم وشؤونهم يشبهون أوراق الأشجار الدائرة مع الرياح تبقى خضراء هنية ثم يعتريها الجفاف واليبس فتصير هشياً، ومن كان هذا شأنه فأجدر به أن لا يؤبه بمدحه ولا لذمه»

(أيكتيت) الفيلسوف كان فيلسوفاً اعتقادياً متعصباً لمذهبه تعصباً شديداً، وكان بالطبع عدواً للهللدين واللاأدرين الذين يرأسهم (بيرون) ولكنه مع ذلك كان يعترف لخصمه بثبات الجأش ورباطة

الفؤاد وكان كثيراً ما يظهر إعجابه بذلك ،
يروى أنه كان يلقي على تلامذته يوماً قوله : « يستوى عند العاقل
الموت والحياة » فقال له أحد تلامذته ولماذا لم تفضل الموت أيها
الاستاذ ؟ قال « لأنهما يستويان »

ويروى أنه كان مسافراً على البحر فهب اعصار شديد انخلت له
الأفئدة ، وانخلت أمامه العزائم ، وأشرفت السفينة معه على التردى
في مهاوى التلف ، فصاح ييرون بمن في السفينة قائلاً انظروا إلى ذلك
الخنزير الذى يشتغل بالاً كل وسط هذا الخطر المزعج ، واعلموا أن
هذا ما يجب أن يكون عليه الفيلسوف من الهدوء والسكينة »

يظهر أن (ييرون) لم يكتب شيئاً غير قصيدة مدح بها الاسكندر
الأكبر كما رواه « سكتوس » و « بلوتارك » أما كتبه الحقيقية
فكانت تلامذته أمثال « أوريلوك » و « فيلون داتين »
و « هيكاثيه دابدير »

قلنا انه مال لمطالعة فلسفة « ديموكريت » والغوص في بحارها
ولكنه تركها واتبع فلسفة « ميچار » ثم تركها هى الأخرى واتبع
فلسفة « السوفسطائية » ثم يئس من الوصول الى الحقيقة بواسطة
كتب الفلاسفة فتركها جميعاً والتفت الى الطبيعة نفسها فهى كتاب
الكتب لمن يستطيع أن يفهم عنها . لذلك رحل مع الاسكندر الأكبر
إلى آسيا فى حملته على دارا وتكبد مشاق هذه الرحل الشاسعة فى سبيل
العلوم والمعارف . وقد كان « ليرون » الحق فى ما طرأ عليه من سوء

الظن بالنسبة للفلسفة فقد كانت في زمنه في اضطراب لم يسبق له مثيل في زمن من الأزمان .

وذلك أنه مات افلاطون فخلفته الجمعية العلمية التي أسسها فلم تستقم على آرائه ومبادئه بل مال بعضها إلى مذهب « فيثاغورس » وبعضها إلى مذهب اللاأدرية . وكان ارسطو في ذلك الوقت وهورئيس الحزب المضاد للحزب السابق ساقط الآراء والمبادئ لاستناد مذهبه على الحس والتجربة ومجافاة ذلك لميل اليونانيين لاسيما اتباع الفيلسوف سقراط . (والسينيكيون) رغم اعن احتقار الناس لهم كان لهم مستقبل كبير أمامهم . وقد كان هؤلاء الفلاسفة شأنهم عجيب جدا وذلك أنهم كانوا يعيشون حالة على الغير ، معفين أنفسهم من سائر التكاليف الاجتماعية وكانوا يهزأون بالحضارة والمدنية ، ويسخرون بالشرائع والقوانين الادارية ، ويتربصون للمارة يوسعونهم هجرا وشتما ، ولم يكن يجمعهم بيرون الا توافقهم على ذم الحياة المدنية وتسويء سمعتها .

وكان أتباع الفيلسوف دينون متبعين نهج « السينيكيين » في هجر العقل والمعقولات وزاعمين أن معتمدهم في الحياة اداء الواجب ليس غير ، ولم يكونوا كذلك بل كانوا رعا عما يقضى به عليهم مذهبهم من الخشونة المعيشية والظلاقة النفسية ، متبعين سيرة الايقوريين في ترف الحياة ولذات الحبس .

فكان « بيرون » بين هذه الزعازع الفكرية كلها في غاية التردد والذبذبة ، لا يدرى أى فيلسوف يتبع ، ولا أى فلسفة يدافع عنها ،

فلم يسعه الا أن جعل ذلك التردد مذهبا فلسفيا ودعاه تدعيما منطقيا
واتبعه فيه ناس كثيرون ممن هم على شاكلته في ذلك التردد بين المدركات
المختلفة. فكان في نظره الاعتقاد مستحيلا وكذلك الانكار ، ولم
يكن امامه الا خطة الحيادة بين الطرفين والتردد والشك
ليس يبرون هو أول شاك في العالم ولا أول من رأى الشك اسلم
الطرق له بل هو أول من جعله مذهبا فلسفيا ، وأسس على دعائم
علمية بقي قائما عليها لليوم .

اليك كيف وضع « يبرون » أول حجر لاقامة صرح مذهبه ، قال :
الانسان متى خرج من غيابة العدم الى نور الوجود وأراد أن
يسبر غور هذه المساتير المحيطة به من كل جانب فلا يجد أمامه الا أحد
أمرين : فاما أن يصدق كل ما يراه وما يستنتجه ويعدده حقائق غير قابلة
للقض ، واما ينكر كل ذلك ويدعى ان ليس هنالك شيء . ولا يخفى أن
كلا هذين الأمرين تطرف ينافي طبيعة الانسان ، ويعاكس فطرته الأصلية
إذن فليس للانسان الا خطة الاعتدال وهي الامتناع عن الحكم على الأشياء
هذا المبدأ يحسن كثير من الناس فهمه كما يريد « يبرون » نفسه
فظن خصومه ان يخصموه بأقل الحجج واصغر البراهين فقالوا له مثلا :
اما أن يكون شكك عاما وبذلك فأنت شاك في وجود نفسك
وكفالك بذلك تناقضا في مذهبك ، لانك بشكك في نفسك أقررت
على انك تفكر وتبحث ، وبناء عليه فأنت موجود . واما أن
يكون شكك ليس عاما وتقر بوجود نفسك فتكون قد أثبت شيئا

وناقضت مذهبك .

يقول العارفون ان أمثال هذه المقالات تدل على عدم معرفة قائلها بمذهب « بيرون » فانه لا يقول انا أثبت ، ولا يقول أنا انفي ، وانما يقول أنا اشك فقط ذلك لأنه كان يقول ان كل شيء امامه سر غامض ؟ ومسا تير مغلفة ، يقضى العقل والتبصر أن يكون الانسان بأزائها متبصراً حكماً ، فلا يصدر عليها حكماً ربما كان غلطاً وناقضاً هذا مارآه « بيرون » أليق بالمتبصر ، وأدعى لعدم الجور في الاحكام على الكون وما فيه .

هذا الشك الذى جعله « بيرون » مذهبا فلسفيا لا يقتضى أن يكون الانسان مترددا متذبذبا في سائر أحواله المعيشية ، وفي كل حركاته وسكناته ، فلقد كان من قواعد فلسفة هذا الفيلسوف الدعوة الى الاعتدال في المطالب الجسدية ، والشهوات البدنية . وانما جعل الشك فقط منظماً لسير الفكر امام البحث وفي اثناء التنقيب على مسا تير الكون . قالوا ان بيرون لم يكن عدواً للدين ، ولا خصماً للفضائل ، كما يريد أن يدعيه السوفسطائية الخياليون الذين جعلوا الفلسفة آلة لتضليل الأفكار ، وتغريب العقول ، وانما كان كل اهتمامه موجهاً لمنع الانسان من ترامييه بالاعتقاد ، وتهالكه بالتصديق ، على كل ما يقال له ويقدم اليه ، من قبل قوم لاحظ لهم من العلم الاجمل اتقنوا التفهيق بها ، وممنوا على حسن أدائها وتصويرها ليس الا . وهى بعيدة عن الحقائق الثابتة كل البعد . فلم يرد « بيرون » من هؤلاء الناس الا ارجاء الحكم

على تلك الاعتقادات والمرامى الفلسفية والوقوف بها موقف البحث والتقيب لا الذهاب مذهب الأثر والبطر ، زعماً أنها حقائق ، وهي ضلالات وأوهام .

يزعم بعض الناس أن (بيرون) ينكر وجود الحقيقة ، وهو زعم كما يقول بعض المحققين ، لا مستند له البتة ، فإن بيرون لم يقل ذلك وإنما قال أنه استعرض فلسفات سائر الفلاسفة فلم يجد الحقيقة في واحدة منها ولا في مجموعها فتركها كلها لعدم فائدتها واتبع طريق الشك فوجد فيه راحته ، وثلج عليه صدره .

بالنسبة لما كان عليه « بيرون » من المبادئ المتقدمة اتهمه أعداؤه بأنه مثل بعض السوفسطائية كان ينكر العدل والظلم ويدعى أن السك وهم في وهم . وهذا كله افتراء عليه كما تدل عليه فلسفته . والقول المعتمد أنه ما كان ينكر وجود الحقيقة ولكنه ما كان يسلم بها إلا للحوادث المشاهدة المحسوسة وكان لا يأنف من أى شيء يقال على شريطة أن يبدأه قائله بكلمة (يظهر لى) وكان يسلم بالموجودات ولا يدعى أنها خيالات أو أوهام كما يتهمة به خصومه ، وكان يعترف بالفطرة الانسانية والنواميس الأدبية العامة ويرى أنها منقوشة في صميم المعنى الانسانى . والذى يؤاخذ به (بيرون) هو أنه جعل الشك غاية لمذهبه ، ونهاية مطلبه ، لا وسيلة يتقدم بها نحو البحث ، ويسلك بهافى فيافى النظر .

أما ما يقوله عنه أضداده من أنه كان ينكر المحسوسات ولذلك فكان طول حياته محتاجاً لمن يمشى معه في الطرقات مخافة أن يتردى في

هاوية ، أو يصطدم بحائط ، من شدة ماعلق بفكره من أنها خيالات لاحقائق ، فهتان لاحقيقة له .

خلاصة مذهب (بيرون)

من مبادئ هذا المذهب التصديق بالشئ الواقع أى الحادثة . فإذا حدثت حادثة طبيعية وأحس بها الانسان ، فلا يجوز له أن يقول : انها شديدة أو هينة ، باردة أو حارة ؛ وإنما يقول : يظهر لى أنها شديدة أو هينة ، ويظهر لى أنها باردة أو حارة .

وقد أئى «بيرون» أن يضع لمذهبه قواعد بنفسه قائلاً مام . شئى الا ويمكن معارضته ودحضه . وقد أدهشه ماوصل اليه علم الجدل من الرقى الباهر ، حتى أنه كان يقول انه يخشى أن يبرهن علم الجدل للناس « ان مقطعا من الحروف الهجائية أكل جبنا » كما كان يفعله بعض السوفسطائية لأعدائهم المغلوب على أمرهم .

قالوا وليس من شأن مذهب «بيرون» أن ينكر شيئاً ولو فعل لسقط أساسه وانهار ركنه ولذلك متى قال « البيرونى » : أنا لا أفرض شيئاً . يعجل بقوله : بل ولا أقول انى لا أفرض شيئاً .

اليك الأسباب العشرة التى يستندون عليها فى عدم حكمهم على الاشياء :

(١) اختلاف الاحياء من حيث السن ، وتركيب الجسم ، وقوة

المشاعر ، ودرجة الاحساس امام الشئ الواحد

(٢) اختلاف الناس فى الصفات الادبية والفزيولوجية « التشريحية »

(٣) اختلاف الاعضاء الحساسة فى الانسان الواحد ، الامر الذى

ينتج منه أن كل حاسة من تلك الحواس تنتج له كمية محدودة من الشعور بالشيء الموجود ، فلا يدري الانسان أذلك القدر من الشعور خاص بعضوه الذي أحس أم طبيعي في الشيء المحسوس

(٤) اختلاف الشعور في الجسم الواحد بالنسبة للأحوال المختلفة ، كالمرض والنوم والحزن والهرم

(٥) الاختلاف في الحكم على حسب كمية الشيء المحسوس : فان زيادة البرودة وقلتها ، أو سرعة الحركة وبطؤها أو شرب قليل من الخمر يغير الحكم السابق عليها كل التغيير .

(٦) اختلاف الناس في أساليب التربية ، وفي الشرائع والعقائد

(٧) اختلاط الاشياء ببعضها بحيث يستحيل الحكم على كل شيء منها على حدته . كاستحالة وزن الحديد مجردا عن الهواء المحيط به ، أو ادراك الالوان الا تبعا لاختلاط العين التي يخترقها الشعاع أثناء سيره

(٨) استحالة مواجهة الاشياء مجردة ، فلا مناص من رؤيتها على مساند أو في أماكن أو أوضاع أو أحوال مختلفة

(٩) ندرة أو كثرة الحوادث التي تحدث لمستجلبها الجمود عن رؤيتها أو عدم العناية بها

(١٠) القيود التي لا يمكن الافتكاك عنها في حكم من الاحكام على الموجودات . فان الاشياء متعلقة ببعضها . والحكم على الشيء لا بد من أن يكون مقيدا بحالة الحاكم عليه .

هذه هي الأصول العشرة التي يستند عليها أتباع (بيرون) في عدم

حكمهم على الأشياء . ويؤيدون بها دعواهم من عدم إمكان الوصول إلى حقيقة ما . وهناك أصول أخرى خمسة نشأت بعد العشرة الأولى بقصد إسقاط فلسفة ارسطو وهى :

(١) إحساسات الناس تختلف بالنسبة لكل موجود من الموجودات
(٢) كل برهان يسوقه الانسان لاثبات شىء يحتاج إلى برهان يثبتته ، وإلا فعلى أى دعامة يستند فى كونه حقاً ؟ فإذا أقمت الدليل الثانى احتاج هو أيضاً لدلائل ثالث يثبتته كما احتاج الاول اليه ، ثم يحتاج الثالث إلى رابع وهكذا لما لا نهاية له .

(٣) الذى يبرهن على وجود المحسوس بالدليل المعقول يلزمه الدلالة على حقيقة برهانه الاخير ، ولكن لما كان لا يمكن الدلالة عليه ببرهان عقلى (بناء على الأصل المتقدم) وجب الدلالة عليه بالمحسوس وهذا أمر يقتضى الدور والتسلسل

(٤) الفرض الذى هو كما يقولون حقيقة يجب التسليم بها بدون دليل لتكون ركناً لدليل آخر لا تقبل ، ولا يمكن التسليم بها ، لأنه لا دليل لهم على أن ما يجب أن يكون أساساً للدليل لا يحتاج لدليل يثبتته
(٥) كل معقول تابع للعاقلين الذين يدركونه ، وكل محسوس تابع للكائنات المتمتعة بالحساسية ، وكل شىء تابع لما لا يمكن أن يعرف إلا به هذه الأصول الخمسة الأخرى التى يعتمد عليها اللا أدريّة فى حقيقة مذهبهم . نقلتها عن مواطنها الصحيحة المستخلصة عن شوائب الاقتراء والتعصب الذميمة

أشهر اتباع « بيرون » من أهل القرون المتأخرة « انيزيديم » اليوناني الذي كان عائشاً في القرن الأول الميلادي . فقد كتب هذا الفيلسوف كتاباً كبيراً في مذهب اللا أدريه سماه « حجج البيرونيين » قسمه إلى ثمانية أبواب :

الباب الاول عرض فيه الأصول العامة للمذهب اللا أدري . وبين الخلاف بينه وبين مبادئ الجمعية العلمية الجديدة التي تشكلت في البلاد اليونانية للمبادئ اللا أدريه . وكتب في الفصل الثاني تحليلات فلسفية على المدركات الآتية : الحقيقى والعلة والشهودة والحركة . والتوليد . وزعم انها غير قابلة للحل . في الفصل الثالث سرد وجود التناقضات الموجودة في مدركاتنا على الحركة وعلى الاحساس . في الفصل الرابع جادل ضد أفكارنا على العالم والعقائد . في الخامس درس العلة أى السبب من حيث هو وعرض الثمانية أشكال المعية . أما الثلاثة فصول الباقية فدرس نهاية الانسان ومصيره ، ولم يذكر عنه إلا أشياء سلبية محضة

كتب الفيلسوف « انيزيديم » غير هذه الكتب على مذهب « بيرون » كتباً مهمة أخرى منها « كتاب الفروض البيرونية » ، وكتاب ضد العلم ، وكتاب في البحث .

بعد موت « انيزيديم » انتشر مذهب « بيرون » بسرعة في الاقطار العالية من المملكة الرومانية ونشبت في أذهان أعياء القوم هنالك ، وقام بالدفاع عنها وحفظها عقول من الطبقة العليا توالى

بدون انقطاع مدة من الزمن مثل « زوكسيس دوتارس » و « انتيوكوس
 دولا أوديسييه » و « مينودوت » و « هيرودوت دوتارس »
 و « سكتوس » الذي كان في عصر الامبراطور الروماني الشهير
 « ستيتم سيفير » . وسكتوس هذا هو الذي جمع في المذهب اللاأدرى
 كتابا كبيرا حشر اليه ما وقف عليه من أقوال الفلاسفة البيرونيين .
 وليس لهذا الكتاب أثر الآن .

وما يحسن الالتفات اليه أكثر أشياع « بيرون » الاخيرين هم من
 الاطباء ، وكان في المذهب الذي اختاروه لأنفسهم فذلكه الفلسفة
 اليونانية القديمة القرية منهم .

لما تأسست جامعة الاسكندرية التي تكلمنا عنها في بعض فصولنا
 الماضية لم يستطع مؤسسو نظامها العلى ان يجدوا محلا فيها لفلسفة
 « بيرون » فتركوها لنفسها فوجدت انصارا كثيرين من الخارج في
 كل مكان وكل زمان حتى أنها دخلت الهياكل واتبعها بعض رجال
 الدين في أوروبا . وقريب منا « مونتني » و « بسكال » الفيلسوفين
 الفرنسيين كانا تابعين لهذه الفلسفة اللاأدرية وفي العالم لليوم
 كثيرون غيرهم

نظرة على ما تقدم

الى هنا انتهى بنا الكلام على موجز فلسفة الأقدمين ، فقد عمدنا
 الى أصولها الرئيسية فأتينابها معزوة الى قائلها من قادة الحكماء
 اليونانيين . ونظن أننا بهذا البسط قد استعرضنا أمام نظر القارئ

درجة رقى الفكر الانسانى فى تلك القرون البعيدة وأشرفنا به على مبلغ حظهم من العلم بالحياة الانسانية فى جميع أشكالها وأطوارها وبالكون فى جملته وكنيته ولكنا لن نكتفى بذلك فسنعقد فصلا مطولا نحشر اليه إن شاء الله خلاصة مجموع تلك الفلسفة القديمة على المسائل الفلسفية الكبرى فى فصول متعددة .

وذلك انا سنشرح مبلغ مداركهم فى اللاهوت ، ثم فى الروح والخلود ، ثم فى الانسان وأخلاقه وأطواره والفضيلة وماهيتها وعلاقتها به ، ثم فى الكون بجملته ثم فى أفرع العلوم الكونية الخ لنستطيع أن نحاكمهم على مدركاتهم تلك فى كتاب خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم على كل نوع من أنواع تلك المدركات ، ثم نخرج إن شاء الله من هذا البحث الى اتباع حركة سير العلم فى خلال القرون التى توالى بعد اليونانيين حتى نصل الى الأمة العربية فندرس مقامها فى العلم الطبيعى فى جميع فروعه وفى الفلسفة ، ومواهبها بالنسبة لكل فرع من أفرع المعارف الانسانية والخ الخ مما يعز عليه سرده الآن والله المستعان .

ثم نخرج من هذا البحث الى إيراد تاريخ العلم والفلسفة عند الأوربيين فنورد إن شاء الله أشهر مذاهبهم الفلسفية وآراءهم فى كل فن من الفنون الانسانية ، رادين عليهم بحول الله كل ما تطفوا به عن جادة العلم ، ونسبحهم وسلاحنا فى ذلك كله كلام الله العزيز الذى لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

❦ مبلغ حظ الفلاسفة الأقدمين ❦

من ادراك الحقائق الأولية

درسنا في فصولنا المتقدمة تاريخ ماوصل اليه النوع الانسانى من مبلغ الادراك فى العصور البعيدة وهى فلسفة اليونانيين ، وقصدنا من ذلك كله تتبع حركة رقى العقل الانسانى وتدرجه فى ادراك الحقيقة جيلا بعد جيل حتى يومنا هذا ليرى قارئنا بالبرهان المحسوس إن شاء الله أن الاسلام هو الحقيقة المطلقة التى ليس وراءها مرمى ولا بعدها مطلب بل هى عامات الغايات ، ونهاية النهايات ، ولانستطيع ذلك الا بالطريقة التى سلكناها هنا وهى استعراض معقولات النوع الانسانى كله أمام نظر مطالعنا جيلا بعد جيل ليكون على بينة من قوله تعالى « إن هذا القرآن يهتدى لى هى أقوم » وقد بدأنا بالعالم اليونانى لأن الفلسفة لم تتكون مستقلة عن تعليم الدين الافيه ، ولقد سردنا أمام نظر القارئ كثيرا من رؤساء المذاهب الفلسفية المختلفة من اعتقاديين ومأجدين ولا أدريين رجاء أن يكون لقارئنا فكرة عامة على مبلغ ما كان وصل إليه العقل الانسانى فى تلك القرون ولكننا نخشى أن يكون قد طال الكلام وصار تطاول الزمن على الموضوع وتشعب فصوله مانعين من وصول قارئنا الى النقطة التى ترمى إليها ، لذلك ، رأينا أن نعقد هنا فصلا كبيرا نحشر إليه نتائج مقالاتنا السابقة المبعثرة فى أطواء الصحف الكثيرة لتكون النقطة التى نود أن

يشرف قارئنا عليها مشخصة أمام نظره في حيز محدود . هذا لا يعد تكراراً لما سبق إيراده وإنما هو استخلاص لجوهره ، وتصفية للبابه ، وإيضاح لما غمض في أثناء العبارات ، واستتر في طي التقريرات ، وسنزيد عليه إن شاء الله ما لا بد منه للوصول الى هذه الخلاصة الجوهرية ، وسنقسم الكلام في هذه الخلاصة الى أقسام عدة سنبدأها بمبلغ مدارك الأقدمين على مسألة اللاهوت ثم تدرج منها الى مبلغ علمهم بمسألة النفس والخلود ، ثم بمسألة الكون المحسوس وما فيه ، ثم بمسألة ما وراء الطبيعة ، ثم بالاخلاق ، ثم بالسياسة ، ثم بالشرائع الخ وهو بحث كما يراه القارئ كما يحتاج من المؤلف لكلام جديد وتحليل جديد ، يستدعي من القارئ التفاتاً ونظراً .

﴿ مبلغ مدارك فلاسفة اليونانيين ﴾

« بالمسألة اللاهوتية »

الفلاسفة اليونانيون الذين أتينا على فدايكات من فلسفاتهم في فصولنا المتقدمة يشخصون مبلغ ما وصل اليه الأقدمون من المدارك الفلسفية على الأصول الأولية ، والحقائق العلية . ولقد كانوا ينقسمون الى ثلاثة أقسام : قسم يعتقدون بوجود الصانع جل وعز ، وقسم ينكرونه ويكفرون به ، وقسم شاكون لا يقررون نقياً ولا اثباتاً . القسم الأول أكثرهم عدداً ، وأقواهم جنداً لميل فطرة العالم الانساني الى العقيدة ، واحتياجها اليها كل الاحتياج .

أما الكافرون والشاكون فقد كان كفرهم سبباً لسقوط مبادئهم ،
وموجباً لانفراط القلوب عنهم ، وأى جناية يجنيها الرجل على العالم
الانساني أشد من حرمانه من نور الايمان الذي هو مصباحه المنير
في ظلمات هذه الحياة ، القصيرة الأمد ، وكيف لا يظهر الانسان أشد
الكرهية والمقت لمن يسعى في اطفاء ذلك المصباح الطبيعي المتلألئ
في ضمير هذا القلب الواجب ؟

لا يوجد برهان ولا شبه برهان على نفي العقيدة بالصانع جل وعز
وقد تتبعنا آثار أقوى العقول المألحة ، وأشد الأفكار جماحاً وعناداً
في هذه المسألة ، وأتينا على نزغاتهم واحدة بعد أخرى (١) فلم نجد
من بينها شيئاً يستحق العناية به ، فها هي الاظنون وهواجس تلم
بعض النفوس المظلمة لأسباب خالقية طبيعية ، أو عارضة اكتسابية ،
فتخرج صاحبها عن الطور المعتاد الى أطوار أخرى ظلمات بعضها فوق
بعض نعوذ بالله منها ، لذلك لانرى موجبا لايراد أقاويل ككفار
الفلاسفة الأقدمين في نفي عقيدة الصانع ، لاسيما وانهم لوجودهم في
عصر كان للدين فيه سلطة تامة ما كانوا يستطيعون أن يتكلموا بتمام
الصراحة في بسط عقائدهم الالحادية ؛ ولقد كان الملحد منهم يكتفم ما
به من الشكوك والهواجس ويتظاهر بالدين واحترام المعتقدات ،
كما كان شأن أبيقور على ما يقال ، فلقد كان كما قررنا يتكلم عن آلهة
اليونانيين بتبجيل واحترام وهو في الحقيقة على ما يدعيه أتباع ذينون

(١) انظر مؤلفنا الحديقة الفكرية في اثبات الله بالبراهين الطبيعية

ملحد لا يعتقد بوجود الصانع .

سنأتى هنا ان شاء الله . من بين أقوال سائر الفلاسفة اليونانيين على ثلاثة أقوال فى هذا الموضوع السامى وهى أقوال سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وهى تدل المطالع بأجلى بيان على مقدار ما بلغ اليه العقل الانسانى فى عصر الفلسفة اليونانية من الرقى فى ذات العقيدة والبرهان عليها .

﴿ مدارك سقراط فى المسألة اللاهوتية ﴾

سقراط كما يعلم قارئنا من فلاسفة القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو عصر كانت الشكوك قد كثرت فيه بواسطة السوفسطائية الذين استعملوا أسلحة الجدل فى التضليل والتغريب حتى زلزلوا عقائد بعض الناس ، فكان سقراط أقوى ناصر للعقائد فى زمنه ، أصلاهم حربا عوانا ذاقوا لواعجها سنين كثيرة ، ثم توصلوا الى الوقعة به فرموه بالاحاد وقتلوه بالسّم فى السجن وهو وسط بعض تلامذته وأصدقائه يقرر لهم خلود الروح وذها بها من هذا العالم الى عالم آخر بعد الموت ، وقد احتمل مضض السجن وآلام التسمم بصبر وجلد ضربا بهما المثل ، وعرف بهما كنهه نفسه العالية ، وهمته الكبيرة

سقراط لم يؤلف كتابا قط وانما كانت كتبه تلامذته وخيرهم (أفلاطون) فقد نقل عنه مذهبه كله وزاد عليه ، ونحن هنا نورد أقواله عن (أكسونوفوت) الفيلسوف اليونانى المعاصر له قال :

« سأقص عليكم المحادثة التى حصلت ذات يوم بين (سقراط) وبين

« أريستوديم الملقب بالصغير بشأن مسألة اللاهوت . فقد كان سقراط
 » علم عن (أريستوديم) هذا أنه لا يقرب للالهة القرايين (١)
 » ولا يتقرب اليهم بالصلاة والدعاء وأنه لا يستقسم (يستقسم
 » أى يعرف ما قسم له فى المستقبل) بل وأنه كان يهزأ بمن يمارس
 » تلك الأمور »

قال سقراط : « قل لى يا أريستوديم ! أترى أنه يوجد رجال
 يستحقون منك الإعجاب فى مهارتهم وحسن أعمالهم »

قال أريستوديم : « بلى »

قال سقراط : « ألا نخبرنا عن أسمائهم . »

قال أريستوديم : « انى فى نوع الشعر التاريخى أعجب (بهومير)
 » وفى الحماسة يطربنى (ميلاتييد) ، وفى المراثى يشجونى (سفوكل) ،
 » ويروقى فى التماثيل (پوليكليت) ويعجبنى (زوكسيس) فى فن ،
 » التصوير . »

قال سقراط : « قل لى ايهما أحقهم من إعجابك بالقسط الا كبر ،
 » آلهذين يعملون صوراً لاشعور بها ولا حراك ، ام الذين يخلقون
 » الكائنات الحية المتمتعة بالادراك ؟ »

قال اريستوديم : « وحق الاله ان الاحق بالقسط الا كبر من
 » الإعجاب هم الذين يخلقون الكائنات المتمتعة بالحياة ، اذا لم تكن

(١) كان اليونانيون معدين للالهة مثل كل الشعوب القديمة التى لم تقف عند حدود الوحي
 الالهى وسيجىء فى أقوال سقراط لفظ الهة كثيرا ، ولعله كان يجارى العامة فى تلك اللهجة
 أما هو فلا نظنه الاموحدا

« تلك الكائنات نتيجة الصدقة بل كانت نتيجة حكمة و ارادة »
 قال سقراط : « أرايت لو عرضت عليك مصنوعات مختلفة منها
 ما هو خفي المنفعة ومنها ماله منفعة ظاهرة وحكمة في الوجود باهرة ،
 فأيهما أولى بأن تظنه من نتائج الصدقة والاتفاق أو من نتائج العقل
 والحكمة ؟ »

قال اريستوديم : « تقضى علينا بداهة العقل أن نقول ان الذى
 له حكمة فى الوجود ظاهرة ، ومنفعة فى نظام العالم بينة ، هو من فعل
 العقل والحكمة »

قال سقراط : « ألا ترى معنا ان الذى خلق الانسان وسواه قد
 أعطاه كل عضو من أعضائه لمنفعة خاصة ، وفائدة بينه ، ومتعه من
 الأجزاء والأجهزة بما يحس ويشعر بواسطته . فمتى بعينين ليرى
 بهما المحسوسات : وبأذنين ليسمع بهما الأصوات . وبماذا كانت ،
 تفيدنا زكيات الروائح لو لم تكن لنا أنوف تدركها وتحس بها ؟
 أترى انا كنا تتمتع بأدراك الحلو والمر من الطعام وبالاتذاذ بمحوبات
 الفم لو لم يكن لنا ذلك اللسان الذى وضع لتمييزها والحس بها ؟ ألا
 ترى أن من دلائل التدبير والحكمة أن تمتع العين وهى ضعيفة
 بحفون تنفتح وتنغلق عند الحاجة ، وتنطبق عند انوم طول الليل
 وان توهب تلك العين غربالا من أهذاب لتقيها فعل الرياح الثائرة
 وأنت تمنح لها تلك الحواجب كميزاب يمنع عنها غوائل العرق
 المتساقط من الرأس ، وأن تصنع الأذن على صورة لا تكمل من سماع

« الأصوات ولا تعيا من الحس بها ، وان تعطى جميع الحيوانات أسنانا
 « امامية لقطع الأغذية وأضراساً جانبية لسحقها ، وأن يكون الفم
 « الذى تدخل الحيوانات منه الأغذية الصالحة لها الى أجوافها موضوعاً
 « قريباً من العينين والمناخير ، وأن المحل الذى يحصل منه الافراز
 « للمواد المستفدرة بعيد عن مرمى النظر ومعكوس الوضع وعلى أبعاد
 « ما يمكن من الأعضاء الرئيسة . أترى نفسك بازاء كل هذه الأعمال
 « التى تدل على تدبير وحكمة لاتزال متردداً بين عزوها الى الصدفة
 « والاتفاق وبين اسنادها للحكمة والعلم ؟ »

قال (اريستوديم) : « لاوالاله ، فان أقل نظر فى هذه الكائنات
 « الحية يدلنا على أن هنالك ذات عالم رحيم خلقها وعدلها .

قال سقراط : « زد على هذا الميل المودع فى الطبائع للتكاثر ، والرحمة
 « المودعة فى قلوب الأمهات لتغذية صغارها واعالتهم ، وما غرس فى
 « نفوس تلك الصغار من عواطف حب الحياة والهرب من الموت ؟ »
 قال اريستوديم : « لاشك أن كل هذا يدل على أنه اختراع موجود
 « حكيم أعد الأرض وهياها لسكنى الحيوانات »

قال سقراط : « أتظن بعد هذا أنك وحدك للكائن المتمتع بحكمة
 « وعلم وانه لا يوجد غيرك فى هذا الوجود كله عاقل ولا حكيم ، وأنت
 « تعلم ان جسمك هذا هو قطعة لا قدر لها من حجم هذه الأرض
 « ونظفة من مياه هذا المحيط الزاخر ، وان الذى أقام أودك وكون
 « شكلك هذا هو جزء لا يؤبه به من هذه المواد العظيمة الحجم ، الكبيرة

« المدد ؟ اتظن انك وحدك قد استأبنت من هذا الوجود حكمة
 « وادراكا ، ليس فيه ، وان كل هذه الكائنات التي لانهاية لها بالنسبة
 « لك في العدد والعظم قامت كلها في هذا النظام البديع بقوة ليست
 « متمتعة بحكمة وعلم . »

قال اريستوديم : « أنا أنكرها والاله لأنى لم أرصناعها كما أرى
 « الصناع للأعمال الأرضية . »

قال سقراط : « انك لا ترى روحك التي هي سلطنة جسمك
 « ومديرته وعلى هذا فيمكنك أن تقول قياساً على قولك السابق بأن
 « أفعالك كلها تصدر عنك عن غير حكمة ولا تدبير ، ولكن عن الصدفة
 « والاتفاق . »

يرى القارىء من هذه المحاوره بين اريستوديم وسقراط أن
 الفيلسوف قد أحال خصمه بقوة حجته للاقرار معه بوجود الصانع
 الحكيم ، ولكن بقيت لديه شبه أخرى فلم يرد سقراط أن يدعها
 تجول في فؤاده فاستأنف معه المحادثة مثبتاً له عناية الخالق بمخلوقاته : فقال :
 « كيف تزعم أن الالهة لا تعنى بمخلوقاتهما مع أنك « تعلم أنها
 « قد وهبت الانسان من بين سائر الحيوانات خاصية الوقوف على
 « قدميه ، وهى تلك الخاصية التي تسمح له ببقاء نظره الى أبعد ما يصل
 « اليه ، والتأمل في المرئيات التي فوقه ، وهى مع منحها للحيوانات
 « اللاصقة بالأرض تلك الأرجل التي لا تسمح لها الا بالتحرك وتغيير
 « أوضاعها فقط ، أعطت الانسان دونها أيديا بواسطتها تحدث أكثر

« الأعمال التي تجعلنا أسعد حالا من الحيوانات . انك ترى أن لجميع
 « الحيوانات ألسنة ولكن لسان الانسان من بينها كلها متمتع بخاصية
 « اظهار الأصوات المختلفة بانتقاله في مواضع مختلفة من الفم وبهذه
 « الوسطة نستطيع أن نعبر لغيرنا عما يضطرب في ضمائرنا من الأغراض
 « والأحاديث »

الى أن قال :

« لم يحدد الخالق عنايته بأمر الجثمان الانساني فقط بل « أنه أبدع
 « الروح الانسانية ! وهى المقصودة بالذات ، على أكمل الصفات ،
 « والا فأرنى أى حيوان من الحيوانات يستطيع أن يدرك وجود
 « تلك الآلهة التي فطرت هذه الأجسام العلوية العالية على هذا المثال
 « البديع والشكل الأسر ؟ قل لى أى حيوان آخر ما عدا الانسان
 « سما به عقله الى عبادة الآلهة والاخبارات لها ؟ اخبرنى أى روح
 « تضارع الروح الانسانية فى اتقاء غوائل الجوع والعطش والبرد
 « والحر ، ومداواة نوازل الأمراض والأعراض وملافاة فقد القوى
 « بأنواع الرياضات الجسمية ، والكد والكدح لنوال العلم ، وتذكر
 « مآثره وما سمعته وما علمته ، أليس من الجلى الواضح بعد هذا البيان
 « أن أفراد الانسان مثلهم بين أنواع الحيوانات كمثل الآلهة لعلومهم
 « عنها جسما وروحا ، أترى أنه لو وهب الانسان جسم ثور وعقل
 « رجل يستطيع أن يحدث من الأعمال ما تحدث به نفسه ، ومن جهة
 « أخرى فأى فائدة تعود على حيوانات متمتعة بأيدينا ؟ انكر لم

« توهب بازائها عقلا مناسباً لها ، وأنت أيها الكائن الذى وهب
 « المنحتمين وتمتع بالنعمتين الغاليتين تريد أن تظن أن الآلهة لا تعنى
 « بك ولا تهتم بشأنك . وأى شىء تركته تلك الآلهة من الدلائل
 « اللازمة لا قناعتك بذلك ؟ »

فأجابه عند ذاك اريستوديم بجواب حمل سقراط على محاولته من
 طريق آخر وألجأه الى محاربته بشهادة النوع الانسانى فى خلال القرون .
 قال اريستوديم :

« لترسل لى الآلهة خبراً بما يجب على عمله أو تركه كما تدعى
 « أنها أرسلت لك أنت . »
 فأجابه سقراط قائلاً :

« لما خاطبت الآلهة الآتينين بواسطة الاستقسام (١) أظن أنها لم
 « تخاطبك فى زمريهم ؟ أترى أنها لما أظهرت لليونانيين ولجميع العالم
 « مكنوتات ارادتها بواسطة المعجزات والآيات ، كنت أنت وحدك
 « الرجل الذى تركته نسياً منسياً ؛ أظن أن الآلهة وضعت فى أعماق
 « الفطرة الانسانية عقيدة الاقتدار على احداث الخير أو الشر ولم

(١) الاستقسام هو أن يطلب الانسان معرفة ما قسم له فى عالم الغيب بواسطة الآلهة وقد
 ولع بذلك الاقدمون واختلفوا فى كيفية ذلك على حسب عقائدهم وآلهتهم . أما العرب فكانوا
 يجيئون بثلاث قداح يكتبون على أحدها أمرنى ربى وعلى الآخر نهانى ربى ويتركون الثالث
 غفلاً بدون كتابة ثم يرمونها فان ظهر القدح المكتوب عليه نهانى ربى اقلع عن العمل وان
 ظهر الذى هو مكتوب عليه أمرنى ربى مضى فيه وان ظهر الخالى من الكتابة أعادوا الالتقاء حتى
 يظهر لهم شىء . هذا كان حال العرب أما اليونانيون فكان الاستقسام عندهم على غير هذه الصفة

« تهبها قوة تمكنها من احداثهما ، وان النوع الانسانى قد انخدع بذلك
 « كل هذه القرون ولم يشعر بانخداعه لليوم ؟ ألا ترى أن أقدم التأسيسات
 « الانسانية وأحكامها ، والممالك القائمة والأمم العظيمة هى أكثرها
 « تمسكا بالدين واعتقاداً بالآلهة ، وان أكثر العصور نورا ولألاء
 « هو أكثرها وأشدّها تعلقا بالتقوى والطاعة . أعلم يا صاح أن
 « روحك كما لها السلطة التامة على جسمك تديره وتدبره كما شاءت
 « كذلك الحكمة المحيطة بهذا الكون لها التصرف والارادة النافذين
 « فيه كله . ماهذا ! أيصح أن يكون مرمى نظرك يصل لجملة مراحل
 « ونظر الاله لا يلم بكل المخلوقات جملة واحدة ؟ وهل يتصور أن
 « روحك تستطيع أن تشتغل فى آن واحد بما يحصل هنا وفى مصر
 « وصقلية ، وان العلم الالهى لا يحيط بكل شئ فى لحظة واحدة ؟ نعم
 « انك متى أردت أن تصنع معروفا مع الناس لو عرفت من منهم
 « يريد أن يكافئك عليه ، ومتى أدت اليهم خدمة من الخدم لو علمت
 « من منهم يود أن يقابلك بجزائها ومتى استشرت الناس لو ميزت من
 « بينهم أهل البصيرة والتسديد ، وكذلك متى قدمت واجبات العبودية
 « للآلهة لو بحثت أن تدرك الى أى درجه تريد تلك الآلهة كشف
 « مكنونات العلم لك عند ذاك . تدرك ماهية صفات الاله العلية
 « وعظمته الحقيقية ، ذلك الآله السميع البصير المحيظ بكل شئ المهيمن
 « على كل شئ »

من هذه المحاوره يتضح لقارئنا مبلغ قوة الفيلسوف (سقراط)

فى اثبات الصانع ومنها يرى أنه لم يستند الا على (البرهان الطبيعى) و (البرهان التاريخى) وهما نوعان من البراهين المستعملة فى اثبات الصانع . أما البرهان الطبيعى فموضوعه بسط حوادث الكون وصنائه الباهرة امام نظر الخصم ومحاخته بها والاستدلال منها على لزوم وجود واضع لها ، ومهيمن عليها ، وأما البرهان التاريخى فموضوعه الاعتماد على شهادة النوع الانسانى وميله الفطرى الى الاعتقاد منذ خلق للآن ، واستبعاد اجتماع كل فطر النوع الانسانى على غير الحقيقة . كيف لا واجتماعهم على هذه العقيدة مع تخالفهم فى اللسن والصنور والألوان والاستعدادات والأزمان ودرجات المعلومات ، يدل تمام الدلالة على أن تلك العقيدة حاجة طبيعية من حاجات الروح الانسانية ، وميل غريزى فطرى منقوش فى أعماق الفؤاد الانسانى مثله فيه كمثل سائر الغرائز والعواطف البشرية .

هذان هما البرهانان اللذان استند عليهما (سقراط) فى محاورته لاريستوديم وهناك أنواع من براهين أخرى فى إثبات الصانع استعملها فلاسفة اليونانيين سيأتى كثير منها فى أثناء هذا الموضوع ان شاء الله

*** مدارك أفلاطون فى المسألة اللاهوتية ***

أفلاطون تلميذ سقراط الأول وكتابه الناطق الذى نقل عنه جميع مبادئه ونظرياته وهو أحد أرا كين الفلسفة فى العالم القديم . وقد سلك مذهباً فى تقرير فلسفته أعلا من المذهب الذى علمه أستاذه .

فان صح ما يقال من أن لسقراط مذهبين مذهبا بينه وبين العامة لا يعلموا به عن مداركهم في كبير شيء ليجعل لفلسفته خصيصة تنطبق بها على الناس أجمعين ، ومذهبا خاصا بينه وبين خاصته من أصحاب العقول القوية والأفكار البعيدة المرامي . ان صحت هذه الرواية كان فضل (افلاطون) في مذهبه مشتركة بينه وبين أستاذه وان لم تصح ، وهو الأرجح ، كان لأفلاطون الفضل وحده في مبلغ الرقي الفلسفي المشاهد في مذهبه .

رأينا من برهان سقراط أنه سلك بالذهن مسلك المحسوسات والملبوسات فلم يشق كلامه على أبسط المدارك وأخلاها من العلم وهذا لا ينافي كونها قوية سليمة من العيوب ولكن تليذه افلاطون لم يقف عند هذا الحد ، بل اكتشف نظرية (الأفكار) كما قررناه في ترجمته في بعض الفصول الماضية ، وعلل بهذه النحو وجود المحسوسات بتلك المعقولات ، وجعل محض الإدراك الانساني المجرد تابعا لعالم قائم بذاته غير متلبس بالمادة . هذه النظرية التجريدية هي أساس فلسفة افلاطون وركنها الركين ، وآثارها فيها لا يحتاج لكثير تأمل في جميع مبادئه وأقواله . حتى أن براهينه في اثبات الصانع مصبوغة بتلك الصبغة أيضاً كما سيتضح ان شاء الله للقارئ .

قد تدرج افلاطون في اثبات الصانع بتحليل درجات العلم . ولأجل ذلك قسم العلم الى قسمين عامين : علم بالمحسوس وعلم بالمعقول . أما العلم بالمعقول فينقسم الى نوعين : الفكر التعقلي (الذي لا يحدث

الا بالتعقل والنظر) والادراك ذاته . فالقسم الادنى أى الفكر التعلى يذهب فى الادراك مذهب الاستدلال والاستقراء ، ويعرف بتلك الطريقة حقائق ثابتة ، وأحكاماً ضرورية عامة ، ولكنه لا يصل بها الى حقيقتها الأولى ولا يصعد بها الى الله تعالى .

أما القسم الأعلى وهو الادراك ذاته فيسلك مسلك الجدول و يصعد بكل حقيقة الى أصلها الأولى ومصدرها الجوهرى . ومن هذا القسم العلم الذى ينير على الانسان حوالك الامور ويضيء عليه مشكلات المسائل . ولكن هل هذا القسم الأعلى من الجوهر الانسانى هو نهاية كل ما يمكن بلوغه من درجات الادراك البشرى . أم هنالك درجات أخرى يمكن الوصول اليها ؟ ألا يوجد مرمى وراء هذا العلم الذى ينير على الانسان دياجير أموره ، ويكشف له مكنونات المعارف ؟

يقول افلاطون ، بلى ! يوجد وراء ذلك كله الذات نفسها والحقيقة عينها وهما اللذان يعطيان الحقيقة للأشياء والقوة للعقول . فاذا كان العلم والحقيقة على ما يعهد الناس من جمال وكمال فصدرهما أجمل وأكمل . وكما يغلط من يظن أن الشمس هى النور والنظر ، كذلك يخطئ من يظن أن العلم والحقيقة هما الخير المطلق بذاته . ولكنهما صور وظلال للخير المطلق . فنهاية السكالم العقلى وأرقى مرمى لعلم الجدول هو أن يصل بالانسان الى رؤية ظلال العالم الالهى فيريانه بانها صور تقابلها شمس مضيئة

وقد مثل افلاطون العقول التى تعلو عن مداحض الحس الى

التمتع بمجالى عوالم المعانى المجردة بمثال عجيب وضعه فى مقدمة الفصل السابع من كتابه فى (الجمهورية) قال : ان الذى لم يعل به فكره عن عالم الحس بل ارتطم فيه وتورط فى أحواله ، كمثل رجال يؤساء نشؤوا فى غار مظلم وربطوا فيه بحيث لا يستطيعون فككا ووضعوا نار من خلفهم ففى قضى عليهم ضوءا ضئيلا تنعكس بسببه ظلالهم على الجدار المقابل لهم ، فيحسبون أن تلك الظلال كائنات حية متمتعة بعقل و ارادة وحركة وكلام ويظنون على ذلك الزعم ماداموا فى الغار ، ولكن أى دهشة تلم بهم وأى حيرة تأخذ بمتنفسهم متى أخرجوا من قاع ذلك الغار المعتم وعرضوا على أنوار الشمس الساطعة ورأوا الحياة بأعلى مظاهرها تحت هذا الجوابالباهر ؟ فأى فرح يحل بفؤادهم ويطفح من أفئدتهم متى قارنوا بين الحالة التى كانوا عليها وبين ما صاروا اليه من طيب الحياة ورؤية حقائق الأشياء ؟ قال افلاطون هذا مثل حالة الانسان فى هذا العالم الحسى . فان ذلك الغار المظلم هو العالم الحسى . وتلك النار الضئيلة التى كانت تضئ عليهم هى هذه الشمس ، وان الذى يصعد منهم على سطح الأرض ويتأملها هى الروح الانسانية التى تعلو عن عالم الحس وتتصل بعالم المعانى والمعقولات ، ومتى انتهى الانسان الى قمة ذلك العالم ادرك معنى الخير وهى قمة لا يصل اليها الانسان الا بشق النفس واجهاد القوى ، ولكنه لا يستطيع أن يدرك ذلك المعنى السامى الا اذا أدرك قبل ذلك أنه الأصل الاول لكل جمال وخير فى الوجود ، وأنه هو الذى فى هذا العالم الأرضى يعطينا النور المنبعث

من كوكب الشمس وأنه هو الذى فى العالم المعنوى يمنحنا الحقيقة والادراك مجرد النظر فى هذه المبادئ الافلاطونية يكفى المطالع فى فهم مرامى هذا الفيلسوف بالنسبة لهذه المسألة الهامة ، المسألة اللاهوتية . أما براهينه فى اثبات الصانع فقد كتب فى بعض كتبه مامعناه : « من الواضح الضرورى أن كل مايتولد يجب أن يكون له سبب » يولده . ومن المعلوم أن الدنيا قد تولدت ونشأت بعد أن لم تكن لأنها « مرئية ملموسة وجسمية : وكل هذه الأوصاف محسوسة فيها ، إذن « فكل محسوس يظهر أنه متولد وناتج ... وبما أن الكون أجمل الموجودات وأكملها فلا مناص من التسليم بأن موجودها أكمل الأسباب ، وهذا الكون لا بد من أن يكون مصنوعا على نموذج « بديع على مقتضى الحكمة والعلم »

هذا النموذج الذى يقول عنه افلاطون هى المعقولات الأصلية التى يسميها افكارا ويعزوها للعالم مستقل قائم بذاته متميز عن هذا العالم . ولئن سئل افلاطون عن حكمة إيجاد الخالق جل وعز للمخلوقات لأجابك كما كتبه فى بعض كتبه : « لظهار كماله الالهى ، ومن كان كاملا كان منزهاً عن الأغراض والشهوات ، وهو مع تنزهه عن النقائص كلها يود أن كل شئ يشبهه فى كماله على قدر الامكان . »

هذا هو (البرهان السببى) فى إثبات الصانع توصل به افلاطون لتقرير تلك الحقيقة الكلية كما ترى فأداه إلى وجود اله واحد حكيم عليم قادر منزه عن الأغراض والشهوات . مكون الكائنات ومدبرها

أما في كتابه في (القوانين) فقد جاء أفلاطون ببرهان جديد في إثبات الصانع وهو ضرورة وجود محرك أول للوجود متحرك بذاته . وقبل أن يقرر أفلاطون برهانه هذا أصلى الملاحظة حربا عوانا بكلمات خلدت له الذكر ولهم الحزى . قال : أى كدر وغيظ يلم بالنفس متى رأى الانسان أنه قد الجىء لاثبات وجود الآلهة (١) ؟ لا يستطيع الانسان أن يمنع نفسه عن مقت وازدراء هؤلاء الناس الذين هم الباعث اليوم لنساعلى الجدل في هذا الموضوع . الى أن قال « ولكن يجب علينا أن نكلمهم ونحن بغاية الهدوء والسكينة لكي لا يقال بأنه كما أسكرتهم حميا الشهوات ، قد ضللنا نحن مثلهم سورة الغضب . فلنوجه اذن لمن فسدت عقولهم بمثل هذه الأصول الملحدة معارفنا هادئة ثابتة ، ولناخذ أحد أولئك الاباحيين على جانب ، ولنقل له بهدوء بعد أن تغلب على سورة الغضب في نفوسنا : يا بنى انك شاب ، وكلما كبرت وطعنت في السن تغير فكرك على كثير من الأشياء ، وستذهب بفكرك عندما تذهب اليه الآن . فانتظر نماء عقلك وجمال سنك حتى تستطيع أن تحكم على عقيدة هي أمس شئ بحياتك ، وان ماتعهه الآن عديم الجدوى لدى البحث والنظر ، هو أفيد ما تنصرف اليه همتك وتتعلق به عزيمتك ، تلك المسألة الهامة هي أن يكون للانسان عقيدة نقية من البدع في ذات الله خالية من الخرافات فان

(١) رأى القارىء من البرهان السببى الذى قدمه لنا أفلاطون أنه مقرر بوحداية الخالق جل وعز ولا يتعجب القارىء من ذكره كلمة آلهة فاما اعتاد فلاسفة اليونان على مجازاة العامة في بعض الاحيان

عليها مدار السيرة الانسانية وبها يتعلق أمر الصلاح والهدى كما ينبى على ضدها الفساد والردى . وانى لا أخشى التكذيب لو قلت لك فى هذا الموضوع أمراً جديراً بالنظر وهو أنك لست أنت وحدك ولا أصدقاؤك معك أول من ألحد فى الآلهة ، فان فى كل زمان ومكان يوجد أقوام قليلون أو كثيرون يصابون بهذه العلة . ولا أدرى بأى يمين أقسم لك بأننى قد شاهدت كثيرين أصيبوا بهذه العلة فى شبوبيتهم وظنوا أن لا آلهة فى الوجود ، فلم تثبت معهم تلك العلة فى سن الشيخوخة »

إليك محاورة من محاورات افلاطون تريك كنه المناهج التى نهجها فى اثبات الصانع والى أى مدى بلغ به تصويره من ميدان هذه المسألة الهامة . فى هذه المحاورة الملقب بالآتينى هو افلاطون .

(الآتينى) الحركة نوعان : احدهما ، مواد فى امكانها اعطاء حركتها لسواها ولكنها هى نفسها لا قبل لها بتحريك نفسها ، والأخرى مواد متحركة على الدوام بنفسها وفى استطاعتها اعطاء حركتها لمواد أخرى بالتركيب أو التقسيم ، وبالإضافة أو التقليل ، وبالتوليد أو الافساد ، فأى هاتين الحركتين يجب علينا وضعها فوق اختها فى الدرجة ، وأيهما أقوى وأنشط من الأخرى بما لا يقدر ؟

(كليانس) لا شك أن النوع الذى حركته حركة ذاتية وغير مستعارة هو النوع الذى يفوق غيره بما لا حد له

(الآتينى) لنسأل سؤالاً آخر ولنسعى فى الاجابة عنه ، إذا سلمنا جدلاً

بما يحسر خصومنا على قوله من أن كل الأشياء الكونية أتت عليها حين من الدهر كانت في غاية السكون ، فمن أين نشأت فيها الحركة الاولى ؟ (كلينياس) يجب أن تكون الحركة ابتدأت من المواد التي تتحرك بذاتها ، لأنه من الواضح الجلي أن لاداعي للمواد الأخرى يجبرها على أن تغير من أوضاعها قبل تلك اللحظة ، فانه قبل تحرك تلك المواد المتحركة بذاتها لا يطرأ أى تغيير فى سائر المواد الأخرى .

(الآتينى) لنفرض ان أصل كل الحركات وكل التغييرات سرى فى كل ماهو ساكن وصار المحرك الراهن لما هو متحرك الآن ، وهذا الأصل متمتع كما قلنا بالحركة الذاتية فمتى رأينا مادة من المواد متحركة فكيف نستطيع أن نقول ان تلك الحركة مستقارة (كلينياس) أتريد أن تسألنى عما اذا كانت تلك المادة حية متى تحركت بذاتها ؟

(الآتينى) نعم ، هل هى حية ؟

(كلينياس) بلا شك

(الآتينى) ولكن متى رأينا مواد حية ، أليس من الضرورى الاعتراف بأن أصل حياتها هى الروح ؟ (كلينياس) لا يمكن أن يقال غير هذا

(الآتينى) فما هو تحديد الروح اذن ؟ هل هى شىء غير ماسبق لنا قوله وهو انها جوهر فيه خاصية التحرك من ذاته . اذا تقرر هذا أفلا تكون النتيجة الواضحة بأن الروح هى مبدأ كل توليد وحركة ، وكل

افساد وسكون في كل الكائنات الماضية والحالية والمستقبلية؟ ومن هنا أفلا يحق لنا أن نقول ان الروح قد وجدت قبل الجسم؟ .. او لا يجب على خصومنا التسليم أيضاً بأن الروح الساكنة في كل ما هو متحرك لتدير حركاته هي أيضاً المحركة والمديرة للسماء؟

(كليمناس) نعم

(الآتينى) فالروح اذن في الحالة والمديرة لكل ما هو في السماء وعلى الارض وفي البحر، كل بالحركات الملائمة له، وهو ما نسميه نحن ارادة، وامتحان، وعناية، وشورى، وحكم صادق أو كاذب، وفرح وحزن، واثمان، وخوف، وكراهة، وحب، كما أن الروح تحكم وتدبر بحركات أخرى مشابهة هي الأسباب الاصلية فتولد في الكائنات بواسطة أسباب ثانوية النمو أو الضمور، والتركيب أو الانقسام، والصفات التي تنتج منها: كالحر والبرد والثقيل والخفة والجود والرخاوة والأبيض والأسود والحامض والحلو والمر. ولكن مع هذا يمكن ان يفرض وجود نوعين من الروح: الاولى روح تعتضد بالعقل والحكمة في ادارة شؤون الحركات وتديرها فتحكم بذلك كل شيء على مقتضى العدالة والحكمة وتهينه لسعادته الحققة. والثانية روح لا تأتمر الا بما يصدرها لها عدم التبصر والجنون من الاحكام الجائرة. فأى روح من هاتين يظهر لنا انها الحاكمة على السماء والارض وجميع هذا الكون؟ هل الحاكمة فيه هي الروح المتصفة بالحكمة والكمال أو المجردة منهما؟ لأجل الاجابة على هذا السؤال يجب علينا أولاً معرفة

ما اذا كانت كل هذه الحركات الكونية والتغيرات العلوية فى الاجرام السماوية ، منطبقة على حركات العقل وتغيراته وتعقلاته ، فان كانت الروحان متشابهتين فى سيرهما ، كل فى عالمها ، وجب علينا ان نستنتج من ذلك ان الروح التى تحكم هذا الكون هى الروح الكاملة وانها سائرة به فى طريق الكمال .

(كلينياس) هو ذاك

(الآتينى) وبالعكس تكون هى الروح المضادة لها لو كان كل ما على الارض يدل على الخلل والفساد .

(كلينياس) هذا حق

(الآتينى) فما هى اذن طبيعة حركة العقل ؟ ... من بين كل الحركات المعروفة ، الحركة التى يكون لها محل وحاصلة حول مركز هى الحركة المشابهة كل الشبه لحركة العقل ، لأنها حاصلة على مقتضى قاعدة ثابتة متماثلة ، حافظة دائماً علاقات ثابتة بينها وبين مركزها وبين الأجزاء المحيطة بها على مقتضى نسبة وترتيب لا يتغيران .

(كلينياس) انك قلت الصواب

(الآتينى) وبالعكس ، الحركة التى لا تكون منتظمة ولا هى على مقتضى قواعد ثابتة وليس لها مركز ثابت ولا علاقة معلومة بينها وبين الاجزاء المحيطة بها ، وبالاختصار الحركة التى لا قاعدة لها ولا ترتيب ولا نظام تشبه تمام الشبه للحركة المنبعثة من عدم التبصر والجنون (كلينياس) لا شئ أصدق مما تقول

(الآتينى) الآن لا يصعب علينا أن نجيب على تلك المسألة بغاية الضبط والاحكام ، بقولنا انه لما كانت الروح السائدة على الكون قد طبعته بحركة مستديرة ، وجب بالضرورة أن تكون التغيرات الحاصلة فى الاجرام العلوية ناشئة من قبل الروح الكاملة لامحالة .

(كلينياس) ان ما قدمته كله لا يسمح لقائل أن يقول بغير تلك النتيجة ، وهو أن هنالك روحاً أو أرواحاً متصفة بكل صفات الكمال تدير حركات الأجسام العلوية .

(الآتينى) انك قد أدركت صميم ما أريد أن أقوله يا عزيزى كلينياس ، فأرجوك أن تعبرنى التفاتك لما يأتى
(كلينياس) وما هو ؟

(الآتينى) اذا كانت الروح كما قلنا هى المحركة لاجرام السماء ، أفلا تكون هى أصل حركات الشمس والقمر وكل كوكب على حدته
(كلينياس) لاشك فى ذلك

(الآتينى) لنبحث فى كنه الحركة الحاصلة فى أحد هذه الأجرام بحيث ينطبق حكمنا عليه على سائر الاجرام الأخرى
(كلينياس) أيهما تختار

(الآتينى) اختار الشمس فاسمع . كل انسان يشاهد جسم هذا الكوكب ولكن لا يرى أحد روحه التى تديره وتدبره ، كما لا يرى روح أى حيوان حى أو ميت . ولكن لنا أن نقول ان هذا الجوهر الروحانى هو من طبيعة لا تدركها مشاعرنا الجسمية ولا تتراآى الا

لعين العقل وحده ، فلنجهتد في ادراكه بالعقل والفكر .

(كلينياس) كيف ذلك

(الآتينى) اذا كانت هذه الشمس دائرة ومدارة بروح من الأرواح فلا يخلو الأمر من أن يكون حاصلًا بأحد الطرق الثلاث الآتية : فاما أن تكون تلك الروح في داخل ذلك الجرم الكروى فهى تحمله الى كل جهة كما تحمل الروح الانسانية الجسم ، واما أن تكون مكتسية بجسم آخر من النار أو الهواء كما يدعيه بعضهم فهى تتوصل بقوة ذلك الجسم الى دفع الشمس حيث تريد ، واما أن تكون منزهة عن الجسمية ومنفصلة عن الشمس تمام الانفصال ، وانما تديرها وتحركها بخاصية فيها لا يديرها العقل . ولكن هب أن تلك الروح تحمل الشمس فى عربة وتوزع بتلك الواسطة نورها على العباد ، أو أنها تؤثر عليها بقوة خارجية على صفة وأسلوب لا ندرىه ، فكل منا يجب أن يعلم أن تلك الروح لا بد من أن تكون من عالم عال ، وأنها تقرب من أن تكون (الهة) أليس ذلك صحيحا ؟

(كلينياس) هذا لا يشك فيه أحد

(الآتينى) وماذا نقول بالنسبة للقمر والكواكب ، وبالنسبة لتعاقب السنين والشهور والفصول ، أليس كل ذلك مصدره روح واحدة أو أرواح عدة بالغة نهايات الكمال وجميع صفات الجلال ، وان هذه الأرواح هى آلهة تارة تسكن الأجرام وتشكل بأشكال بعض الحيوانات فتتظم كل ما يحصل فى العالم العلوى من حركات وانتقالات ،

وتارة أخرى تؤدي أفعالها على غير تلك الصفة ، ؟ انى سائلك
الآن أستطيع الانسان أن يقر معنا بهذه الحقائق ولا يعتقد أن
العالم مملوء آلهة .

(كلينياس) لا الناس أعقل من ذلك

(الآتي) لنتم الآن بحثنا هذا الذى وجهناه الى الذين يزعمون
عدم وجود صانع للكون بعد أن نريهم الحدود التى يجب عليهم الوقوف
عندها فى الرد علينا

(كلينياس) أى الحدود

(الآتي) يجب عليهم أن يثبتوا لنا فساد ما قلناه من أن الروح
هى أصل التوليد وأصل كل شئ ، وأن يبرهنوا لنا بتلك الوساطة بطلان
كل ما استنتجناه من هذا الاصل ، أو فليقروا بأنهم لا يستطيعون هدم
ما قدمناه فيرجعوا الى ما قلناه وليعيشوا معتقدين بوجود (آلهة) .

— ٢٤٥ —

براهين ارسطو

أرسطو كما يعلم قراؤنا تلميذ (افلاطون) وكان ينتظر مع هذا
أن يكونا متحدين فى فلسفتيهما من بعض الوجوه ؟ ولكنهما من
العجيب مختلفان كل الاختلاف ؟ لأن كلا منهما رسم لنفسه مبادئ
لا تتفق مع مبادئ صاحبه . فان افلاطون جعل مدار نظره العموميات

والكليات ثم تنزل منها على الجزئيات ، ولكن ارسطو جعل وجهة بحثه الجزئيات والتدرج منها الى الكليات ليأمن من الخطأ في الحكم ، ومن اللبس في التصور . من هنا نشأ ذلك الخلاف الجوهرى بين افلاطون وتلميذه ارسطو حتى كأنهما خلقا ليتعارضا ولا يتحدان .

العالم فى مذهب ارسطو قديم أزلى أبدي ضرورى ، موجود من من القدم ولا يزال كذلك على الحالة المنتظمة المدبرة التى يرى عليها الآن حاصلا على جميع قواه ونواميسه ؟ وحاصل بطبعه على القوى التى تحركه وتدبره . ولكن يكون الكون فى حالة خدر وخنود لو لم يكن لتلك القوى المحركة له مدد يعطيها القوة ويهبها الحركة . اذن وجب أن يكون محرك أول للكون ، ويجب أن يكون ذلك المحرك الاول ثابتاً ساكناً ؟ لأنه لو كان متحركا لاحتاج الى قوة تحدث فيه تلك الحركة ، ولا تحتاج تلك الأسباب المحدثه للحركة الى أسباب أخرى ، وهكذا الى ما لا نهاية وهو محال .

من هنا يرى أن أرسطو توصل الى اثبات الصانع بنظرية الحركة ، وهى من المشاهدات العيانية كما لا يخفى ولكنه وضعها فى قالب يعلو عن فكر العامة فقال : لامناض من التسليم بأنه يوجد شىء متحرك حركة « دائمة ، وتلك الحركة دائرية . هذا ما اثبتته الحس لا الدليل العقلى وحده . »

« ينتج من هذا أن السماء الاولى يجب أن تكون أزلية . ثم لامناض »

« من التسليم بأنه يوجد شىء آخر يعطى تلك الحركة بطريقة مستمرة »

« وبما أنه لا يوجد الا ثلاثة أنواع من الكائنات وهى : الكائن الذى »

« يحركه محرك ، والكائن الذى يعطى الحركة للمتحرك ، والكائن
 « الوسط بين المتحرك والمحرك ، وهو كائن يجب أن يهب الحركة
 « ولا يتحرك هو ، فهو ابدى أزلى ، أصل لغيره ، منزه ، فعال مؤثر .
 « اليك كيف يهب الحركة للكائنات . لا يخفك أن الشيء
 « المرغوب والمعقول يهتان للراغب والعاقل الحركة بدون أن يتحركا .
 « وأول مرغوب مشابه لأول معقول لأن موضوع الرغبة والحامل
 « عليها هو الشيء الذى يظهر أنه جميل . وأول غرض للارادة والمؤثر
 « عليها هو ما يظهر أنه جميل ايضاً . وعليه فنحن لا نطلب الشيء الا
 « إذا تراى لنا جميلاً ، لا أنه جميل لأننا نطلبه . فأصل الموضوع
 « اذن الفكر . وهذا الفكر يتحرك لما هو معقول كما يتحرك لما
 « هو جميل ، فيكون كلاهما فى صف واحد من حيث أصليهما . ولا يخفى
 « أن أصل الشيء يجب أن يقدم على غيره من العلاقات والخصائص
 « الأخرى الملازمة لذلك الشيء ، كما لا يخفى أن اكمل الاصول هو
 « أبسطها وأفعلا . اذن فقد دخل الجميل فى ذاته والمعقول فى ذاته فى
 « دائرة المعقول . ولا يخفى أن ما كان أول كانا كلاً سواء كان مطلقاً
 « أو مقيداً . وبناء على هذا وجب أن يكون سبب الأسباب كلها
 « موجوداً ثابتاً لا يتحرك . وهذا هو الفرق بين هذا السبب الأول
 « والأسباب الأخرى . فان الاسباب نوعان نوع مطلق ونوع غير
 « مطلق . والكائن الثابت يهب الحركة للاشياء بالصفة التى يهبها
 « الشيء المحبوب وما يتحرك يهب الحركة للمجموع كله . من هنا

« ترى كل كائن متحرك جائز عليه التغير والتحول . فاذا كانت »
« أول حركة هي حركة الانتقال من مكان الى مكان ، فالكائن »
« المتحرك يحصل فيه تغير ان لم يكن في أصله ففي موضعه . ولكن »
« بما أنه من الضروري وجود كائن يحرك وهو ثابت ، وثباته لا يمنع »
« كونه فعالا مؤثرا فيكون هذا الكائن غير قابل للتغير ومنزها »
« عن التحول . ودليل ذلك اننا قلنا ان بسط التحولات وأولها هو »
« الانتقال من مكان الى آخر ؟ وقلنا ان أول الحركات الأولية هي »
« الحركات الدائرية . ينتج من ذلك أن الكائن الذي تصدر منه تلك »
« الحركة الاولى يجب أن يكون ثابتاً ، فالمحرك الثابت اذن ضرورى »
« الوجود . وبما أنه واجب الوجود ، فهو الكمال المحض . وبناء »
« عليه فهو أصل . ولأجل أن تدرك ذلك اليك أنواع الضرورى »
« وهى : ضرورة قاهرة وهى من نوع الضرورات التى تبعث اميالنا »
« الطبيعية نحو مطالبتها . وضرورة هى فى الحقيقة سبب لنيل الكمال . »
« ثم هناك ضرورة أخيرة وهى ما كانت ضرورة فى ذاتها ولا يمكن »
« أن تكون الا كذلك . »

(نظرة على ما تقدم)

نقلنا ثلاثة أقوال فى المسألة اللاهوتية عن ثلاثة فلاسفة هم دعائم
الفلسفة اليونانية وأركانها ليتضح للقارئ مبلغ مدرك الأقدمين فى تلك
المسألة الكبيرة ولا بد أن يكون قارئنا قد لاحظ معنا أن كل واحد
من هؤلاء الثلاثة ذهب مذهبا خاصا به فى تقرير تلك الحقيقة ، فتأدوا

الى نتائج وان اتحدت في الايجاب والاثبات الا أنها اختلفت من حيث النعوت والصفات .

أما سقراط فقد سلك في بحثه مسلك البساطة والوضوح ، فاستجلى أمام سامعه مشاهد الطبيعة ، ومعاهد آثارها البديعة ، وجال بفكره في مناحيها جولة المفكر الباحث ، فرأى أنه لا شك في وجود واضع لهذا النظام البديع ، موجد لهذا الكون الفخيم ، فأمن به ايمانا فطريا ، يستوى فيه سقراط الفيلسوف وأجهل الجاهلين من هذا النوع الانسانى . ثم انه قوى برهانه الطبيعى هذا بالبرهان التاريخى فاستعرض لذلك أحوال الأمم ، ودرس شيع تلك العقيدة بينها جيلا بعد جيل ، مع اختلافها في اللغات والأجناس ، وتفاوتها في الفكر والعلم ، فاتخذ سقراط هذا الاجماع دليلا قويا على ان العقيدة بوجود الصانع حاجة من حاجات الروح ، وغريزة من غرائز العقل ، لا يمكن الانسان أن يلفت نفسه عنها الا بعارض من النقص ، كما لا يستطيع أن يلفت نفسه عن خاصية من خصائص جسمه الا بعارض من الخلل فيه . هذه الحاجة العامة في النفوس عالمها أوجاهلها ، متمدنها ومتوحشها ، قديمها وحديثها ، دليل محسوس على أن موضوعها حق اذ لا يعقل ولا يتصور أن تحتاج النفوس الى وهم وترتاج الى خيال مجرد ، وهى مجمعة عليه هذا الاجماع المطبق .

هذان برهانا سقراط وهما من البساطة والوضوح بحيث لا يعز إدرا كهما على أى عقل ، ولا يعلو متناولهما عن أقصر فكر . أما

ماورد في أثناء عباداته مما يشعر بتعدد الآلهة فنعتذر عنه بأنه انما كان يتسامح في ذلك أحيانا مجازاة للعامة ، واحتراما لأميال الأمة ، وان كان ذلك يعد نقصا في كماله (ان صح ذلك عنه) ويرى رأي العين ذلك الفرق الشاسع بين النبي والفيلسوف . الفيلسوف كما ترى يسائر في العقيدة أحيانا ، فيكتم ايمانه ويخفيه ، ثم قد يذيعه ويفشيه ، وقد يكون بينه وبين العامة شأن يخالف شأنه بينه وبين الخاصة الخ من أمثال هذه الأحوال التي سببها ضعف القوة البشرية . أما النبي فيذيع ايمانه لا يخاف لومة لائم ، ولا يخشى صولة ظالم ، يواجه بها الملوك في أبتهتها ، والرؤساء في سطوتها ويصادم بها الأمم في عقائدها ، لا يتخيل بطشا ولا هضما ، ولا يخاف بغيا ولا صدما ، ولا يزال كذلك حتى يظهره الله على أعداء أنفسهم أو يحلوا عن الوجود وقد أحدث فيه أكبر الآثار وأعظم الحوادث ولسنا نرى من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام نبيا مرسلنا نال مثل ما ناله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من هذه الخصلة الكريمة كما ستراه ان شاء الله .

أما أفلاطون فبرهانه يحتاج الى شيء من العلم والحكمة فهو بعيد عن البرهان الفطرى على قدر بعده عن متناول العقل العادى وهذا كما لا يخفى عيب في الدليل لا يغيب على بصير . اذ لا يخفى أن الخالق جل وعز أكبر من كل كبير وأظهر من كل ظاهر ، فكيف يليق أن يكون البرهان على وجوده من الخفاء بحيث يدق على كثير من الأفهام ، ولا يهتدى اليه بعض العقول الا بوسائل من العلم غير متيسرة للعالم كله ؟

ان قيل ان ذلك البرهان خاص بأهل العلم ، أما العامة فأمرهم سهل وخطبهم هين . قلنا ان خفاء الدليل مهما كانت وسائل العلم المستعملة له لا يليق الا بالشئ الخفي الذي يعوز شيئاً من الجهد في ادراكه والحس به . أترك يوماً من الأيام في حاجة لاستنباط خفايا النظريات الفلسفية من باحات المجالى الفكرية لتقيم البرهان على وجود الشمس تتلألاً في رابعة النهار ، أم ترى من نفسك الا كتفاء بالاشارة اليها ، واستلفات النظر الى الضوء الذى حو اليها ؟

ان قلت انما اكتفى بالاشارة اليها لمن هم واياى في مستوى واحد من الشعور . أما بالنسبة للمحجوبين الذين لا يستطيعون ادراكها الا من تلك الطريق فالتجىء أمامهم للغوص في سرائر الفلسفة لاستنباط أدق البراهين ارغاما لهم ، وكبحاً من شرهم . قلنا ان اغماضك في الدليل على هؤلاء المحجوبين لا يزيدهم الامضياً في عشوائهم واسترسالا في ضلتهم ، ويكون اغماضك هذا عليهم مغرياً لهم على مقارنة دليلك بمثله ، وتوهم الظهور عليك فلا تزال بينهم في أخذ ورد ، ومحاجة وملاحة حتى تجدون أنفسكم قد خرجتم عن الموضوع الأصيل الى متاهات يحار فيها الفكر ، ويضل فيها العقل ، فترجعون من تلك الجولة المتعبة لا يمتاز أحدكم عن الآخر في الاعياء والعجز ، وتكون النتيجة غالباً تثبيت الضلال في ضلاله ، وفرحه بزخارف أقواله . وهلم جرا .

حياة خاتم المرسلين محمد

(صلى الله عليه وسلم)

عہد

نحن اليوم بازاء موضوع يحفى القلم دون توفيته بعض حقه ،
وتضييق مجالات التعبير عن تصوير شطر من حقيقته ، وتكمل عزمات
الروية عن خوض لجج باحاته ، وتقطع أفاس التصور عن السبح
في سحات أنواره .

إذا كانت النفس الانسانية في ذاتها معضلة العلم ، ومشكلة الفلسفة ، وعقدة الحكمة من القدم الى اليوم ؛ وإذا كانت المعارف الانسانية بأجمعها ، وقوانين علوم النفس برمتها ، لم تنزل قاصرة عن تتبع سير النفس في حركتها وسكناتها ، والاشراف على سر تطوراتها في صلاحها وفسادها ، وعاجزة عن الآلام بصفة عروجها في عالمها على أجنحة الفضائل ، أو هبوطها بدوافع شهوتها الى حضيض النقص والردائل ، فكيف يطمع باحث أن يقف على حقيقة روح نزلت من حظائر الملائ الأعلى ، وانفصلت من سرادقات العالم الأسمى ، واتصلت بابدع وأكمل صورة من صور المادة لتأخذ في الأرض بيدأرواح غرقى ،

وتنجى من الغم نفوسا هلكى ، وتشقى بسبحات جمالها عيوننا عميا ،
وتخلص من الأدران قلوبا غلغا ، وتفتح لسماع الحقيقة أصدخة جامدة
وآذاناصما ، وتنطق بفصاحتها ألسنة أصبحت عن غير المفاسد بكما ،
وتنقى بمطهرات حكمتها مدارك غدت بأوضار الوسوس رجسا ،
وتفك أصفاد عقول أوسعها رؤساء العقائد ضيقا وضغطا ، وتحل
أغلال أفكار قتلها حفظة الأباطل ذلا وأسرا ، وتدحض من حملة
الشرائع ضلالا وزيغا ، وتقيم من الفلسفة عوجا وأمتا ، وتتمم من
مكارم الأخلاق خداجا ونقصا ، وتذك عروش ملوك ساموا الأمم
خسفا ، وأحرقوا الضعفاء عسفا ، وتلصق بالأرض جباها ادعت أن
بينها وبين السماء صلة وودا ، وأن ييدها من أمور الناس حلا وعقدا ،
وتلحق بمصاف العامة أقبالا زعموا أن لهم من الربوبية قسطا ، ومن
التسلط على رقاب المخلوقين حقا ، وتنسف قصورا شيدت بمهج
الأرامل واليتامى جورا ، وترد حقوقا اغتصبها الرؤساء عدوانا وظلمًا ،
وتضع للعدل فى الأرض ميزانا فصلا ، وللقسط قسطاسا عدلا ، وتكشف
عن جوهر الانسانية خبثان عليه فجعله فخا . وتجلو عن أرواحها
غما سودا وعن ضمائرهما غياهب سحما ، وتهىء بذلك الأرض لقبول
نور يفىض عليها من سماء الرحمة فىضا ، ويعد النفوس لى كمال طالما
حننت اليه حيننا وبكت عليه الضمائر شوقا ، وتشرح الصدور لدين
ترتع فيه الأرواح رتعا وتسبح فى سبحاته القلوب سبحا ؟

درس هذه الروح يستلزم معارف جلى وعلمها جما ، ويستدعى من

الباحث بعلم النفس احاطة كبرى ، وبضماير المساتير معرفة عظمى .
 دعنا من قوم يظنون أن للشعريات في هذه الأقاويل حظا ،
 وللخيال في هذه العبارات سهما ، وهلم بنا نستجوب الحوادث فان لها
 بالحقائق السنة فصحي وأجوبة مثلى .

من ينكر علينا أن هذه الروح المحمدية الطاهرة الكريمة نشأت
 بين قوم كانوا من الدين في وثنية ، ومن الأخلاق في همجية ، ومن العادات
 في وحشية ، ومن الاجتماع في انقسامات قبيلية ، وتحزبات عصبية ،
 ومن المدارك في جهالة ، ومن الأفكار في ضلالة ، ومن الوجود في
 عماية ، ومن العقائد في غواية ، ومن النظمات في فاقة ، ومن القوانين
 في حاجة ، حروب متواصلة ، وأحقاد متوارثة ، ودماء مهدرة ، ومهيج
 مهراقة ، وعادات نشبت فيهم نشوبا ، وغرست فيهم عيوباً . وجرت
 عليهم خطوبا وطباع خلعتهم عن مقتضى الفطرة ، ونبت بهم عن مطالب
 الخلقة واصطلاحات بعدت بهم عن قوانين الطبيعة ، وألقت بهم الى
 مطارح الرذيلة ، وأشربت نفوسهم سموم القطيعة ، صناديد لا يفكرون
 في غير الغارات ، ولا يفاخرون الا بطعن الردينيات وضرب المشرفيات ،
 شعراء ولكن في الدعوة الى القتال ، وتيتيم الأطفال ، وافناء الأهل
 والمال ، أقوياء ولكن في نفس المعالم ، واكتساح المغانم ، نجداء
 ولكن ضد بعضهم ، شجعاء ولكن على أنفسهم . ولكنى مع هذا لا
 أنكر أنهم كانوا أقل من سائر الأمم عيوباً وأهون منهم فى الرذائل
 نشوبا ، وأولى بأن يؤدبهم الله بوحيه ويحملهم الى خلقه أنوار دينه .

ومن ينكر علينا أن هذه الروح المحمدية الشريفة قامت في مبدإ الأمر وحدها بدون مرشد ولا نصير ، وبغير مشير ولا وزير
ومن ينكر علينا أنها لاقت مما يحيط بها من الأرواح مقاومات
عنيفة ، ومخاصمات شديدة، وقتنا مظلمة ، وإحنا حالكه وصدور اوغرة ،
وأعداء فجرة ؟

ومن ينكر علينا أنها صبرت تجالد هذه الأرواح سنين متوالية ،
تأخذها بالنصيحة مرة ، وبالترغيب أخرى ، وبالترهيب حيناً . وبالجدال
أحياناً ، فكانت بذلك وحدها أمام أمة بأسرها ترمقها عن بكرة أبيها
شزراً وتوعدوها شراً ، وتمسدها سرا وجهراً ، وتتصب لها الحبايل ،
وترصد لها المخاتل ، وتغرى بها اللئام والرعا ، وتثير عليها الاحن
والأحقاد ؟

ومن ينكر علينا أنها فازت في النهاية على جميع مجاوراتها وأخضعت
لسلطانها جميع عدواتها ، وسائر حواسدها ، وأتمت كل وظائفها ، ثم
صعدت الى حيث أتت قريرة العين مرتاحة البال ينلها من تألب أعدائها
شيئاً ، ولم يلحقها في أداء وظيفتها فتور ولا وني ، ولم تصعد حتى نقشت
اسمها في صفحات الوجود نقشاً لا يمحي ، وأبقت فيه أثراً لا يبلى ،
واستخلفت فيه روحاً لا تزهق ، وحياة لا تضمحل أفاعيلها في تابعها
الى يومنا هذا .

من يرد أن ينكر علينا كل هذه الحوادث فلينكر الشمس طالعة
والنجوم ساطعة ، ونفسه الجاحدة .

اذن كيف نشأت هذه الروح على غير سنة الوسط الذى ولدت فيه وكيف احدثت من مؤثرات ما يحيط بها من العادات والأخلاق ، وكيف نجت من مشائن الغرائز التى كان يجب أن تنشأ فيها بطريق الوراثة ، ثم كيف سلكت وحدها هذه المسالك الوعرة ، وذلت كل هذه الصعوبات الهائلة ، واجتازت كل هاتيك العقبات الكثيرة
ثم كيف نجحت فى مشروعها ، واستطاعت أن تخضع تلك الملايين من الأرواح لسيطرتها ، وتجعل كل تلك الإرادات القوية تحت سلطان ارادتها ؟

ألا ترى معى الآن أن هذه الروح أكبر روح ظهرت فى العالم ، وأن ارادتها أقوى ارادة عرفت من بنى آدم . وأن عزمها لما تندك أمامه الجبال الشمخ ، وتهبط منه العرائن البذخ ، وأن عليها لما لا يدخل تحت نطاق فكر ، ولا ينحصر فى دائرة روية .

إذا كننا نحن أمام هذه الروح حيارى لا نستطيع كيف نذكرها مع اعتقادنا بأنها روح بنى مكرم ، ورسول معظم ، له من جانب القوة الإلهية عون جبروتى ، ومن الملائكة المقر بين عضد سماوى ، فكيف تكون حيرة جاحد لا يعتقد بنبوة صاحبها ، ولا يصدق بأن له من جهة العالم العلوى توفيقا يمدده ، ونصيراً يدفع عنه الفشل ويرده ؟

كيف يعلل الملحد هذا التأثير الهائل الذى لم يسبق مثله للأنبياء والتاريخ أصدق شاهد ، وحوادث الكون أعدل ناطق ؟
ألا يكون المكذب به أخير من تحت السماء فى تعليل هذه المدهشات ،

وتفسير هذه المعجزات؟

إذا كانت هذه الأعمال العظمى تتم لغير نبى وتمكن لمن ليس له عون ربانى، ومدد الهى، فما هو فضل النبوة على السياسة، وما هو امتيازها على حيل طلاب التسلط وعشاق السلطة؟ نعوذ بك اللهم من الجمود على احقاد الآباء، والتأثر بوراثة الأسلاف.

نحن لانكتب السيرة المحمدية الكريمة كتاريخ يقرأ لتمضية الوقت، ولانود أن نحمله تسليمة للنفوس فى أوقات فراغها، ولكننا نود درسها من وجهة فلسفية حيوية، نتعلم منها ماهية الانسان ومقدار ما وهب من ملكات ومواهب، وكيف نسلك بأرواحنا سبل المطالب، وكيف نأخذ نفوسنا بأداب الدنيا والدين ونجمع بينهما فى مسلك واحد. ومن ذا الذى لا يرضى بأن يكون تابع أشرف روح برهنت على حقيقتها وفضيلتها وسلكت فى الحياة كل السبل الممكنة، وكانت فى كل سبيل منها نوراً يعيش إلى ضوءها التائه، وعلمها يهتدى به الخابط، وبزت فى كل مجاله من مجالات المجهودات الانسانية كل مزاحم، ونالت من مسالمة الوجود لها، وموافقة مقتضياته لآمالها ما لم يبلغه حتى قبلها ولا بعدها ألقى بنفسه فى معمعان هذا العالم؛ ثم عرجت بعد ذلك كله إلى محتدها العلوى نقيه الحبيب طاهرة الذيل، لم ترتكب إثماً ولا شططاً، ولم تكتسب إلا ما يخلد لها حسن الأحدثه وجمال الأثر.

من ذا الذى لا يرضى بأن يكون تابع هذه الروح العالية فى حركاتها وسكناتها. وسلمها وحررها، ورضائها وغضبها، وانبساطها وانقباضها؟

لا جرم أن هذه الروح لا تتحرك الا لنوال كمال ومحامد خصال ،
ولا تسكن الا عن حرام وضلال ، ولا تسالم الا الفضيلة والجمال ، ولا تحارب
الا الرذائل وذميمة الخلال ولا ترضى الا الحق والاعتدال ، ولا تغضب
الا لله في جميع الأحوال ، ولا تنبسط إلا لمشاهدة سبحات الملك المتعال
ولا تنقبض إلا لمن لحظ سواه في الأقوال والأفعال .

من منا لم يؤلمه التناقض بين احساسه وعقله ، ولم ينغصه التعاكس
بين عقيدته وفعله ، ولم يسخط على نفسه التباين بين دينه وميله ؟
يرينا العقل أن وقفنا لأنفسنا على الفانيات غاية الغوايات ، وشر
البلبات ، فان همت بنا الرغبة الى الاصاخة لصوته ، والعمل بنصحه ،
جذبنا من الاحساسات الشهوية تيارات ، ولعبت بنا من نزغاتها
نزوات ، وحالت بين أنفسنا وبيننا حيلولة تدق عن أن يتصورها
الفكر بصورة أوقع منها التعبير على كيفية .

ترينا العقيدة ان ذلك الأمر رجس حرام ، وتبرهن لنا الحوادث
على أن فيه الآلام والأسقام ، بل الموت الزؤام فنرى أنفسنا مسوقين
لاتيانه ، مرغمين على غشيانه ، كأننا موجدون على اتلاف أنفسنا
وأموالنا ، ومرشون على اهلاك ذواتنا وأشخاصنا !

ليس هذا قامراً على من كان له دين وعقيدة فان كل الأمم حتى
في هذا العالم المتمدن يرى منها هذه الآثار المحزنة من التناقض والتباين
في كل حيثية . فلقد أرتها معارفها ضرر الخمر وويلاته ، وشروره
وموبقاته ، ومع ذلك فهي تعصره وتنشط العاملين عليه ، وتبيعه

وتستلفت الأنظار بكل الخيل إليه .

دلّتها معلوماتها وأرشدتها التجارب أن القمار سبب الدمار والخراب ، ومبيد الأسر العالية الاطئاب ، وملصق الجباه السماء بالتراب ، ومكثر الانتحار بين الشيب والشباب ، والرجال والكعاب ، ومع ذلك فهي تأتية جهرة ومن وراء حجاب ، وتعلن عنه في الجرائد اعلانها عن فوائد أعظم كتاب .

دلّتها المثالات أن تكشف النساء ودوراهم في الطرقات ، ورقصهن مع غير أزواجهن في المنتديات ؛ مجلبة لما لا يعد من المخزيات والمنكرات ، وقد أرشدتها الحوادث المتكررة لتلك السيئات بقوارع تنفتت منها إلا بباد وتذوب الأحساسات حسرات ، ومع ذلك فهي سائرة في سبيلها سيراً حثيثاً . وعاملة على بقاء ذلك واستشرائه بكل الوسائل . الى غير ذلك مما يطول شرحه كما سيراه القراء إن شاء الله في موضعه من كتاب الانسان والمدنية .

فلم هذا التناقض الهائل بين مطلب احساساتنا واحكام عقولنا ، ولماذا هذا التعارض بين عقائدنا وأفعالنا ؟ هل قضى على الانسان بأن يكون عمره متذبذباً متردداً ، لا يركن الى شيء حتى يزعج عنه ، ولا يعتمد على أمر حتى يطرد منه ، ولا يقف لحظة حتى يساق للإمام ، ولا يساق للإمام حتى يجذب الى الورا ، ولا يكون كذلك حتى تتوزعه القوى المختلفة من جميع جهاته ، وهو مع ذلك يزعم أنه حر رشيد ، وأنه مختار مريد ، وأنه بطل صنيدي ، وأنه ذوعزيمه تقد الحديدي

وتذيب الصياخيد ، وأنه وأنه مما طالت فيه دعاويه ، وكثرت عليه من نفسه شكاويه .

هل للإنسان عذر في الحال المرتبك ، والأمر المشتبك ؟ هل له أن يقول عن نفسه مدافعا : أنه ضعيف ألقى به في وجود قوى العوامل ، قصير مدى الفكر تكنفه في الكون ألوف من الفواعل ، محدود العلم قضى عليه أن يسير من حياته في مراحل ، بغير زاد ولا راحل . عديم الخبرة بالطبيعة قذف به منها في مجاهل ، ظلمى الفؤاد لكجال مجهول سيق لأن يعرف منه المناهل ، فاتجه اليه من غير دلائل ، تمتع بصفات متباينة حتم عليه أن يختار منها الفضائل ويقاوم الرذائل ، وهو مع ذلك بين أمثاله في حياة لها قوانين وشرائط ، وعليه منها تكاليف ومغارم ، تشتبك فيها مطالب حياتهم بمطالب حياته ، وأغراض نفوسهم بأغراض نفسه ، فتجلى له الحياة على صور شتى ، وأشكال عدة ، لا بسمة من جهله وجهلهم ثيابا تتنوع وتباين ، وتتلون وتتخالف ، على نسب يلتوى عليه أكثرها ، ولا يدرك منها الاجزاءها ، فيرى نفسه مرغما على اتيان ما ينكره عقله ، وغشيان ما يستهجنه فكره ، إن رغب في إصلاح نفسه قاومه مما يحيط به عقبات عدة ، وصدمته في صدره صعوبات وشدة ، فيكره نفسه على أن يعيش ناقصا وهو يرى الكمال بعينه ويمضى عمره في تعاسة وهو يرى السعادة بين يديه ، ترنو بنظرها إليه ؟

قلنا هل للإنسان يقول هذا مدافعا عن نفسه ، وملصقا الغار في

نقصه على بنى جنسه ؟

كان يمكن ان يقول هذا لو لم يكن الله تعالى قد أقام سيد المرسلين محمداً صلى الله عليه وسلم مثالا يرسم الطريق للخاطبين ، وعلمنا على سبيل السائرين يتتبع التائه اثر قدمه ، ويسير مسترشداً بعلمه قطعاً لعذر المعتذرو بوعورة المسالك ، ودحضاً لحجة الزاعمين بأن الانسان مكره على تقحم المهالك ، والتردى فى المضانك .

ليس على الذين رعبتهم مفازات الحيات ووعوثتها ، وهاتهم عقباتها ومعاطبها ، الا ان يتبعوا ذلك المثال الكامل فى سيره ويقتدوا بهديه فى جميع أمره ، فانه جاء ليعلم الانسان كيف يسلك بنفسه الحياة بدون أن يدنسها ، وكيف يطير بروحه الى الغايات بدون أن يتعبها ، وكيف يجرى فى باحات المطالب المختلفة بدون أن يلامسه الجور بذلة ، ويركض فى ساحات المجد غير خاش ان يصدمه الغلو فى صدره .

قضى الله على سيدى المرسلين صل الله عليه وسلم ان يطوف جميع أدوار الحياة الممكنة ليكون للناس فى جميعها مرشداً اميناً ، ودليلاً خبيراً ، فكان (فرداً) فى اسرة ، و (واحداً) من قبيلة ، و (نفراً) فى امة ، و (زوجاً) و (أباً) و (تاجراً) و (مريباً) و (مرشداً) و (واعظاً) و (جندياً) و (قائداً) و (مشرعاً) و (قاضياً) و (حكماً) و (اماماً) و (سياسياً) و (ملكاً) و (مسالماً) و (محارباً) و (معاهداً) و (عابداً) و (زاهداً) و (نبياً) و (مرسلأ) وهى وظائف حيوية يستحيل ان تتفق كلها لبشر ولكن لا يخرج الرجل من أن يكون له

بعض صفات منها فلم لا يقتدى بهذه الروح العالية الكريمة التي برهنت للعالم اجمع انها جازت كل عقبات الحياة نقيّة طاهرة ، ومرت بين أمواج المصاعب والفتن نقيّة زاهرة ، ثم صعدت الى عالمها تاركة وراءها من حسن الذكر شذى أعطر من ارج الزهر في السحر ، وأثرا يكسف بالألانه كل أثر ، ولم تزل قوتها في الأرض تعمل اعمالا تدهش البشر ، ونورها بين الأنوار يحسر البصر ،

فهل يصح أن يعد المسلمون هذه السيرة من ضمن السير ، ويجعلوها مجرد فكاهة في السهر ، ورقائق يوشون بها أطراف السمر ، أم يجب ان يدرسوها من جهة فلسفية حيوية ليتخذوها دستوراً للعمل ، ونبراسا يحلون به عن حياتهم ظلمات الخطل ، ويحتمون به التدهور في الزلل ، وعلماء يعيشون الى ضوءه في كل أمر جلل ؟

فالفردي في أسرته ، والواحد في قبيلته ، والنفر في أمته ، والزوج مع زوجته ، والأب بين أهله وصيته ، والتاجر في تجارته ، والمربي امام تلامذته ، والمرشد بين زمرة ، والواعظ امام حلقة ، والجندى في مهنته ، والقائد في رتبته ، والمشرع في وظيفته ، والقاضى في ولايته ، والحكيم لدى طلبته ، والامام حيال حشده ، والسياسى فى حكومته ، والمملك فى رعيته والمسالام امام اوليائه ، والمحارب قدام اعدائه والمعاهد بازاء اهل ذمته والعابد فى محرابه ، والزاهد فى دنياه يجد من سيرته صلى الله عليه وسلم نوراً يهتدى به فى شرعته ، وروحاً يقوى بها فى مزاوله صناعته ، ودستوراً يسير عليه لتحقيق أمنيته وقانوناً يرجع اليه فى حيرته .

كيف لا يجعل المسلمون هذه السيرة المثل لهذه الروح العظمى ،
 كحلا لأعينهم ، وشغافاً لقلوبهم ، ودخيلاً تحت ضلوعهم ، وشعاراً
 على جسامهم ، ودثاراً فوق لباسهم ؛
 وكيف لا يجعلونها مرجعاً لفخارهم وأصلاً لمجدهم وسؤددهم ،
 ودواء لادوائهم ، ومرهما شافياً لجراحهم ، ومنشطاً لفتورهم ، وسلباً
 لأولئهم ، وحرماً لأعدائهم ، وحجة على صحة دينهم ، ودليلاً على
 وضوح طريقهم .

نعم ان تجلية هذه السيرة الكريمة على الصورة الحيوية المؤثرة بالنسبة
 لأبناء هذا العصر الذين اشتبكت أمور حياتهم وتداخلت حلقاتها ،
 وامتدت مصالحهم وتشعبت فروعها ؛ حتى يستطيع كل فرد منهم أن
 يجد منها الهدى المرشد ، والدليل المبين لما يحتاج الى بحث وتنقيب ،
 وتفصيل وتبويب ، وأبحاث في أساطير الحياة طولى ، ودروس في
 أسرار القوى النفسية جلى .

هذا مما سنتوخاه في كتابنا هذا والله المعين ، والصلاة والسلام
 على سيد المرسلين ، وآله وصحبه وتابعيه أجمعين الى يوم الدين .

وم، لزوم السيرة المحمدية لكل انسان

كل مجهودات الانسان ومحاولاته متنازعة بين عاملين عامين
 يتقاسمان فؤاده ، ويتوزعان سائر قواه المغروزة في طبيعته عامل مادي
 جثمانى ، وعامل أدبى روحانى . الاول يدفعه لتأييد مركزه في هذا

المشهد المحسوس ويبعثه لاداء وظيفته فيه بحيث لا يستطيع الفكك منه ، وله مما ركب في الجثمان من الضروريات الكثيرة كالغذاء والمسكن واللباس والتحفظ من عواذى الأمطار والرياح والهوام ، وما غرز فيه من العواطف نحو أهله وولده وبنى نوعه جنود وأعوان تقوى فعله ، وتشد أزره ، وتزيده قوة على قوته ، وكلما تدرج الانسان في تدليل صعوبات حياته المادية زاد هذا العامل تأثيرا ، وصار أحشد جنوداً وأكثر نفيرا ، وتشكل وتطور على حسب تشكلات الحياة المادية وتطوراتها . ومن يرد الدليل المشاهد فعليه بالتدبر في حالى المتوحشين والمتمدنين ، فان المدنية مع ما أحدثته من التسهيلات في أمور الانسان الجسدانية ، لم تقلل من شدة ذلك العامل بل زادته أيذا على أيده ، فصار أقوى مما هو عند المتوحشين بما فتحت لذويها من باحات المطالب ، وما أيقظته في نفوسهم من الحاجيات والرغائب .

هذا العامل يحلّ للانسان اللذائذ العاجلة ، ويصور له المشتيات الفاتنة ، ويكسوها من سحر التموهيات والزخرف ثيابا يأخذ بالبصر رواؤها ، ويميل بالاعناق زبرجها ، ويتوجه بمجموع هذا السحر الفاتن الى ما غرز في طبيعة الانسان من عاطفة العجلة ، ويظل يواجهها بهذه المرأى الفاتنة ، والمظاهر الساحرة ، حتى يستولى على ارادتها ، ويتحقق من اثاره حميتها ، ثم يسلطها على الانسان نفسه فيقيم فؤاده ويقعده ، وينسيه ذاته ويذهله ، فيشمر عن ذيله ، سعيا لنوالها ، وجدا للحصول عليها على الصفة التى تصورها فى خياله فيدأب وينصب ،

ويفتكر ويتخيل ، فاذا لم تنجع هذه الوسائل كلها في انالته أملة ، وتكليل عمله ، ووجد من مصالح معاشريه ما يقاومه في سبيل رغباته ، ويصادمه في محاولاته لعدم اعتداله فيها ، تذرع بالدخائل ، وتوسل بالدسائس ، ومت بالحيل ، وأدرع بالتقوية والكذب ، فنافق ومكر ، وداجي وستر ثم خلب وختل ، وسلب بعد ما قتل ! هذا ما يشاهد يوميان أسرى هذا العامل المادى وهو فى العالم المتمدن أكثر ، وأثره فى تشويه الفطرة الانسانية هنالك أظهر .

أما العامل الروحانى ، فهو عامل قلبى وجدانى ، يناجى الانسان فى ضميره ، ويناغيه فى صميم معناه ، ويناقشه فى سويداء قلبه ، فيبين له علو عنصره وسمو جوهره ، ويكشفه بجمال ذاته ولألاء روحه ، ويفضح له من سوءات الدنيا قصر مدتها ، وكثرة آلامها وشدة محنتها ، ويستلفتها الى الذين وقفوا قواهم فى حبها ، وسروا أنفسهم لفتتها ، كيف عاجلتهم المنية ودهمهم الفناء ، فتركوا المال والولد ، ونزحوا من الدار والبلد ، ونزلوا بعد سكنى القصور الشاحخة ، والعلالي الباذخة ، الى حفرة ضيقة ، ومحلة خشنة ، مثلهم كمثل القذر يؤنف من رؤيته ، ويهرب من ريحته ، ولم يزل به ذلك العامل حتى يوقظه من سكرته ، ويبعثه من غفلته ، ويستولى على كليته ، ثم يفتح له من جانب روحه نافذة تطل به على كنوز معناه من ذخائر الجمال المعنوى ولطائف النعيم الروحانى ، ولذا نذ السعادة الأبدية ، وحدائق الكمالات الحقيقية ، ما يذيب فؤاده شوقا اليها ، ولهفاً عليها ، ويأخذ بلبه هياما بها وغراما فيها ولكن : دون

ذلك جهاد ونصب ، وسهاد وتعب ، دون ذلك العدل والاستقامة عدل في استعمال المواهب ، عدل في أعمال الخواص الظاهرة ، عدل في وظائف المشاعر الباطنة ، عدل في توجيه القوى الخارجة ، عدل في إثارة الاحساسات الكامنة ، عدل في مرامى الأفكار ، عدل في خطرات الخواطر ؛ واستقامة في معاملات الخلق ، استقامة في منهاج الحق ، استقامة في التوجه لنوال المآرب ، استقامة في النكوص عند فوات الرغائب ، استقامة حين الفتن ، استقامة وقت المحن ، استقامة في كل حركة وسكون !

هذان العاملان العمان المادى والمعنوى لهما في صميم فؤاد الانسان مجال واسع يتصاولان فيه ويتجاولان ، ويتدافعان في أرجائه ويتجادبان ، والانسان بينهما واقف وقفة المستكين ينصاع لاشارة الغالب منهما ، ويرضخ لسلطان الأقوى فيهما ، ولكن لا يلبث المغلوب منهما أن يثور على خصمه ، ويعيد الكرة عليه ، فيرتفع بينهما الصخب واللبج ، ويتجدد العداة والشغب ، ويتنازعان الانسان بينهما من كذب ، فيميل مع من غلب ، وهكذا حتى يحنى يومه فيذهب مع من ذهب !

هذان العاملان العمان قد تقاسما الافراد والأمم ، وتوزعا العواطف والهمم ، حتى يعز عليك أن ترى رجلا توصل الى ايجاد الصلح بينهما ، فعاش حرا من نزاعهما ، وما الناس الا أحد رجلين : رجل يطلب الدنيا قد تكالب على حطامها ، ووقف كل قواه على التمتع بلذائدها ، فاعمل لذلك ما استطاع من حيل ووسائل ، وما أمكنه من حبائل ومخاتل ، ولم يبال عدل أم جار ، أحسن أم أساء ، وكلما أصاب شيئا

ما طلب ، ونال رشفة مما اليه دأب ، زاد نهمه وكلبه ، ونمى لهفه ولهبه ، واستشرى جشعه وطمعه ، وثار ثوران الحصان الجموح يدوس كلها صادفه من حقوق وأعراض ، ولم يزل في سورة جماحه حتى تقابله سهام المنايا في صدره ، فيكون قد أنضب الجهاد ماء قوته ، ونكر الجشع والظلم جمال صورته ، ولاحت أمام عينيه أشباح ضحاياها من بني جنسه ، واشلاء صرعاة من اخوان حياته ، فتكبيكه في مهاوى عمله فيودع الحياة وفي قلبه ما فيه من حسرات لا نعرف لها من اللغة وصفاً !

أورجل (وهذا الصنف أقل من أن يعد) تشبع فكره بسوءات الدنيا وشدة محنها ، وتذوق عقله تفاهة أشياءها وقصر مدتها ، وأحست مشاعره الداخلة بماهية اللذات الروحية وجلالتها ، فصدف عن الدنيا نفسه ، وقصر على الآخرة جهده ، فترك الشغل والعمل ، وصرف مجهوده للفكر والأمل ، ولم يبال عضته الفاقة بناب ، أم راشته الحاجة بسهم ، ولم يسأل أنفحه البرد بزمهريره ، أم لفحه الحر بهجيريه ، بل غرق في لجة التأملات الذاتية ، وأشرف على عجائبه القلبية ، وترك مادته تحت تأثير الفواعل وسطان العوامل ، وقنع بنعيم روحه عن كل نعيم ، وعن لذائد الجسمانيات بالصفاء المستديم .

دلنا تاريخ الامم كلها أن الانسان لا يقوم أمره ولا ينتظم حاله بواحد من هذين العاملين على انفراده ولا بد من أن يكون كلاهما متسلطين عليه . شوهدت أمم قامت بالعامل المادى فنالت من خير الحياة الأرضية مانالت ولكن لم تلبث أن جار بها ذلك العامل عن

قصد السبيل فور طها في أنواع من الافراطات والتفريطات كانت السبب في تلاشيها وفنائها وشوهدت أمم قامت بالعامل الروحاني فنالت من رقى الروح المكنات العلى ، والمقامات الفضلى ، ولكنها لم تأمن عدوان جيرانها ، وجور متآخميها من الأمم ، بل ولم تنطق فطرتها الصبر على تلك الحالة فجاءها الفساد من ذاتها ، وعدى عليها عامل جسدها فذهبت الى حيث ذهب السابقون .

فاتنظام حياة الانسان واستبائها متعلق بايجاد الصلح بين دينك العاملين المسيطرين على كيانه ، وهو مجهود أصبح الشغل الشاغل اليوم للعالم الانساني في الغرب خصوصا ؛ فقد أرشدتهم المثالات والحوادث الى ذلك كما سيمر بك ان شاء الله تفصيله ؛ ولكن كيف نجد تلك الطريقة وانى نبحث عنها ومن نتعلم حدودها وشرائطها ؟

يدل تاريخ الانسان من أول نشأته لليوم ان الحقائق الكبرى لا تسرى الى فؤاده ولا تأخذ مكانها اللائق بها منه ، الا اذا رأى لها مثالا محسوسا يحس به وينظر اليه ، وتنفع به نفسه وتنتقش في ذهنه صورته . فما هو ذلك المثال المحسوس الذى يتعلم الانسان منه كيف يوجد الصلح بين عاملى مادته ومعناه ؟

لو كانت المسألة تصورية فكرية لكفاه ما هو موجود فى بطون الكتب من الحث على العدل بين مطالب الروح والجسد ولكن المسألة عملية أكثر مما هى علمية ولا يوجد الآن من يشك فى أن التربية الحققة هى ما كانت بالقدوة الحسنة والأسوة الصالحة لأنها هى وحدها

التي تستطيع أن تستولى على مشاعر الفرد فتقوده الى صراطها رغم
أنفه وضد ارادته ، بخلاف الترية بالأقوال فانها تذهب على الأكثر
ادراج الرياح ، ولولا ذلك لكانت الامة المصرية اليوم ارقى الأمم
في معارج الكمال الخلق لكثرة ما يذيع فيها الآن من الفاظ التهذيب
والتريية . ذلك لان الانسان حسي بطبعه لا يستطيع أن يرضخ الا
للحوادث نفسها والمحسوسات بذاتها . يظهر هذا الخلق منه في كل
حركاته وسكناته حتى في الحين الذي (يعتقد) فيه أنه (يعتقد) مدركاته
بدون شك ولا ارتياب . والا فالى أى علة تنسب اتيانه للافراطات
وهو يدعى أنه (يعتقد) ضررها على جسمه وعقله ، وبماذا تفسر
غشيانه للتفريطات وهو يزعم أنه (يعتقد) أنها عادية على كمال مادته
ومعناه ؟ لماذا لا يمسك النار المحرقة بيديه ؟ لماذا لا يلقى بنفسه في لجة
بحر ؟ لماذا لا يرمى بنفسه من مأذنه ؟ اليس لكونه يعتقد أن كل عمل
من هذه الأعمال عاد على حياته ، وعائد عليه بالضرر المحقق ، فان كان
يعتقد بدون شك ان كل افراط وتفريط له على تركيبه المادى والمعنوى
مثل ذلك الضرر لآنس من طبيعته النفرة عنه والهرب منه ، وان غشي
شيئا من ذلك يوما أو أياما فلا تزال عقيدته تراحم عادته حتى تتغلب
عليها تماما . كل هذا يثبت ان الانسان مرغم على ان لا يعتقد الا على
الأسلوب الحسى العملى حتى في الحين الذي يدعى ويحلف فيه انه على
غير تلك الصفة ، ولولا هذه النظرية للزمنا أن نقول بان أكثر
المتدينين مجانين لأنهم يأتون ما (يعتقدون) ضرره الدينوى والأخروى ،

ويكسلون عما (يعتقدون) نفعه وضرورته في كليهما ، ولا حيلة لهم بعد ذلك الا أن يجلسوا الى بعضهم فيكون ويولولون على سوء طريقهم وشر مآلهم أو منقلبهم ألسنت ترى أن أكثر الذين يدعون أنهم معتقدون يخاتلون طول النهار ويكذبون ويسرقون ويرأون ويمنعون الماعون ثم لما يخلون ببعضهم يتحسرون ويتأففون ويحوقلون ويسترجعون ويقولون ضاع الدين وعدم الايمان وذهبت كمالاتها الى الأوربيين فعملوا بها وسادوا علينا وتركناها نحن فهبطنا وانحططنا ، ويظنون يظهر من هذا الأمر غاية العجب ، ولا يدرون ما حقيقة السبب وهو ما نقوله من أن الانسان حسى بطبعه لا يعمل الا ما يعتقد (بالحس) نفعه . فترك المتدينين لفضائل دينهم وتأسفهم على عدم امكانهم العمل بها لا يشعر بأنهم يعتقدونها بقلوبهم ، فان عمل جوارحهم على ضدها يبين أوضح بيان انهم شاكون في فائدتها ، مرتابون في حسن نتائجها . كما أن تحلى الأوربيين بها لا يدل على انهم متدينون وانما يدل كما يقرون بذلك ، على انهم اختبروها فوجدوها أليق الصفات بالانسان وأمسها بتحسين حياته فلصقوا بها لما احسوا بآثارها الجليلة عليهم . هذا بحث مهم لذيذ يفصح كثيرا من تلييسات الشيطان على الانسان موضعه في الجزء الأول من كتابنا وانما جئنا به هنا تمهيدا للبحث المهم الذي نحن بصددده .

قلنا أصبح الانسان بدوافع الحوادث المتكررة في القرون المتوالية يميل ميلا اضطراريا لأن يجمع بين مطالب روحه وجسده في سلك

واحد ويؤاخي بينهما مؤاخاة طبيعية ثابتة ، وقد دل على هذا الميل الاضطرابى بلسان قادة معارفه المادية أنفسهم كما رأيت وسترى أقوالهم ان شاء الله ، فما الذى يمنعه من احداث تلك المؤاخاة المرجوة ؟

لو كانت المسألة من المسائل التى تتم بالأقوال لرأيت بعينك اليوم أساطين دنيا ودين ، وأراكين علم ويقين ، قد اتحدت مطالب أرواحهم وأجسادهم ، فاستقاموا على منهاج الذين خلوا من الأنبياء والصديقين والشهداء ، لأن الأقوال فيها قد بلغت الغاية من أصابة جوهرها ، والاشراف على لبابها ، ولكن المسألة عملية شاقة تحتاج لأستاذ كبير لحل دقائقها ، وعرف طبائعها ، وخبر أجزائها ، وأدرك نسبها فى ذاته بالاختبار والحس ، لاتريديا من كتاب ولا حكاية من خيال . واذا كان التريد من الكتب والحكاية من الخيال لا يفيدان فى أحداث أبسط الامور العملية فهل يفيدان فى أحداث أكبر الأعمال التى من بعض نتائجها إقامة الانسان على منهاج الفطرة ، وايجاد الصلح والوئام بين عاملى طبيعته الروحية والجسدانية ، الذين جعلاه بتنازعهما يحسد الحيوان فى هدو ضميره ، ويعبط النباتات فى عدم ادراكها : « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا . »

اليك مثالا محسوسا : عرف لير منا أن الماء مكون من جوهرين بسيطين وهما الاكسيجين والايروجين فاعتقدوا ذلك قلباً وقالبا لما عرفوا من أنه صحيح بالاختبار ، ولكن اذا مست الحاجة إلى إيجاد

الماء منهما استحال الأمر عليهم وأدركوا عندئذ أن مجرد العلم بالشيء لا يكفي في إيجادها وعلموا أنهم يحتاجون لجملة أمور عملية تشق عليهم بل تستحيل على قوتهم : (منها) استخراج كل من هذين العنصرين على حدة من الاجسام التي هما من مركباتها ، وهو يستلزم المعرفة التامة بوجوه استخلاصهما بالطرق الكيماوية وبوسائل الحصول عليهما نقيين غير مشوبين بمركبات أخرى تحول دون نجاح العملية ، ثم يحتاج الأمر لآحداث الحرارة اللازمة لآحداث ذلك الاتحاد لأنهما لا يتحدان على الدرجة العادية ؟ والخلاصة لا يمكن إيجاد الماء منهما إلا بتوقيف الأستاذ الكيماوى وارشاده ارشادا عمليا . هذا ما يعوزه إحداثك التآخى بين عنصرين بسيطين كثيرى الانتشار فى الكون وميالىن لبعضهما كل الميل وقد رأيت أن مجرد العلم بذلك لا يغنيك من العمل شيئا ، فما بالك بإيجاد الوحدة بين مطالب الروح والجسد ؟ للروح مطالب لا يستطيع أكبر الفلاسفة إحاطة بعلم النفس سردها سردا فضلا عن الاحاطة بحدودها ومعرفة نسبها إلى بعضها ، وللجسد أيضا مطالب عدة وهى وان كانت أيسر عند الباحث من الأولى إلا أنها تستلزم علما جمعا بالمسائل الفيزيولوجية (علم وظائف الأعضاء) والزولوجية (علم الحيوانات) والتشريحية ، فان كانت عملية إيجاد الاتحاد بين ذينك العنصرين البسيطين الأوكسيجين والهيدروجين تعوز العمليات التى سردها عليك فان المؤخاة بين الروح والجسم تستدعى من العمليات ما يتلاشى بجانبه كل ما رأيت ولا يعد شيئا يذكر . ألا ترى معى أنها

تستوجب إحاطة كبرى بقوى الروح وأنواعها، ونسبها إلى بعضها،
ومامنها مقدمة لتاليه، وما منها نتيجة لسابقه، وما منها مستقل، ومامنها
تابع، ومامنها متبوع، ومامنها متغير، ومامنها ثابت، ومامنها متعاد، ومامنها
متوافق؛ ثم إن كل هذا يستدعي الماما كليا بمجاري سيالات كل منها
ومناجها وغاياتها وتعرجاتها في سيرها ونكوصها على نفسها، ثم تستلزم
إدراكا ذريعا بحاجيات الجسد ومسارب تياراتها وما منها جوهرى
طبيعى ومامنها عرغى وهى ومامنها صالح ومامنها فاسد؛ ثم تقتضى وقوفا
تاما على وجه نسبة كل قوة روحية بما يقابلها من حاجيات الجسد، وتحريا
مضبوطا فى كيفية توفيق نتائج تلك النسب الجزئية مع بعضها لتنضم كلها
الى نتيجة واحدة يكون من أثرها المؤاخاة التامة بين مادة الانسان ومعناه
واقطاع تلك المنازعة الشديدة بينهما، وهى التى حرمتها من الغبطة بنفسه
والتنعم بجمال روحه

نعم ان هذه العملية الانسانية الجليلة تحتاج الى استاذ مجرب وموقف
ذاقها فى ذاته وصار هو نفسه النموذج الناطق بها، فما هو ذلك الرجل الذى
يصح أن يتخذ مثالا لهذا الكمال الانسانى المحبوب؟ هو عبد الله
ورسوله خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم. لسنا
نقول هذا مجردا عن الدليل؛ او عاريا عن الحجة فان الوجود وما فيه
شهود عدول ودلائل ناطقة وما علينا الا ان نتناول منها بأقلامنا
مانشاء فانتظر ترالعجب العجاب ان شاء الله. نحن فى سيرنا فى السيرة
المحمدية الكريمة على الأسلوب العلمى لا نريد أن نقيم اعدل الحجج

العلمية على نبوة خاتم النبيين فقط ، بل نريد أيضا ان نعرف ان شاء الله السبيل الذى يجب على كل مسلم أن يسلكه لنجاة نفسه واستنزال الرحمة الالهية على قلوبنا التى تسممت بسموم ما يحيط بنا من هذا البدع الجديد الساحر . من هذه الحيشية نرى أنفسنا فى حاجة كبرى فى كل خطوة نخطوها فى بحثنا الى مدافعة حجب كثيرة حالت بين النفوس وبين القلوب فغيرت فى نظرنا كل شئ ونكرت فى بصائرنا كل صورة حتى تكاد تلبس الالفاظ غير مدلولاتها . ولئن تعجب متفلسف متعسف من قولنا ان نبينا صلى الله عليه وسلم هو السكّال المجسم والنموذج الذى يجب تعلم كيفية إيجاد الوحدة بين الروح والجسد منه فقد قالت مثل ما نقول أمة بأسرها بعد ان كانت من الشك بحيث يقول الله عنها : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون . » ثم انتهى أمرها بالخضوع له والاقتراء بهديه وسنته نصارت بعد ان لم تكن أمة عدت خير أمة أخرجت للناس ونالت من بسطى الحياة المادية والروحية ما لم تنله أمة قبلها ولا بعدها . هذه الظاهرة الاجتماعية الكبرى كادت الغواشى المدنية والالفاظ العلمية القشرية تنسينا عظمتها بل تعمينا عن جلالها . لو صحت وأنا فى القرن العشرين باعلى صوتى وبين قادة العلوم الاوربية أنفسهم وقالت روح محمد أكبر روح ظهرت فى بنى آدم منذ نشأتهم لليوم لما استطاع أحد أن يتردد فى صدق قولى ولو ترددت لقلت له ارنى رجلا فرداً نجح وحده فى أمر واحد فقط من هذه الأمور (١) توحيد

أمة منقسمة إلى قبائل متعادية (٢) سن قانون كفل لها السلطان على جميع الأمم بعد أن كانت لا تعد في مصافها (٣) ملاشاة رذائلها الوراثية وابدالها بفضائل اتخذت مثالا للكمال الانساني (٤) نفس عقائدها الباطلة وابدالها بدين لا يزال يزيد وينمو بصفة مدهشة الى اليوم وينتظر أن يرث كل الأديان الباقية . فعل كل ذلك ولم يفقد من طهارة نفسه ولا سمو روحه مثقال ذرة أى أنه عاش وسط هذا النجاح الذى يفتن أقوى الأفتدة زاهداً عابداً عادلاً كما كان فى أول يوم من دعوته ، وكان فى كل أفعاله المثال الكامل والنموذج الناطق والميزان العادل ؟ إذا كانت كل هذه الفتوحات المادية لم تستطع ان تؤثر على القواد المحمدى العظيم ولا أن تفتن نفسه الطاهرة مع علمك بأن عشر معشار هذا النجاح فى شق صغير من مثل عمله قد قتن الملوك والمشرعين والفلاسفة والقواد أفلا يكون هذا أقوى دليل محسوس على ان لديه صلى الله عليه وسلم السر الذى من عرفه آمن على نفسه سلطان الفتن ، والا كسير الذى من تعاطى منه جرعة وقى المحن ، واستقام على اعدل سمن ؟

﴿ كيف كان العالم قبيل بعثة ﴾

(النبي صلى الله عليه وسلم)

قلنا فى فصلنا الثالث من كتاب (الانسان) ان لكل جيل روحاً عمومية تنتشر فى أفق العالم فتعم سائر الأمم الداخلة فى نطاق الاتصال بأثر واحد تظهر نتائجها فيها على حسب قابليتها ، وقلنا إن تلك الروح قد تكون سامية شريفة أو سافلة وضيعة ، أو مختلطة من هذه وتلك ،

وقلنا إن وظيفة الأنبياء محصورة في إيجاد روح جديدة في الأمم التي يرسلون إليها « يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده . » لتقاوم تلك الروح السائدة وتلاشيها لتحل مكانها فترفع الأمم من معارج التقدم الى الدرجات التي قدرت لها ، وقلنا إن أظهر مثال لنظريتنا هذه أعمال خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » .

قلنا ذلك في الفصل المشار اليه ونريد من هذا الفصل أن نجلى لقرائنا تلك الروح العمومية التي كانت منتشرة في أفق العالم قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم لنبين لهم بطريقة محسوسة أن حال الأمم كافة كان يستدعى الإصلاح والتعديل ، ويستلزم قارعة عظمى تقيمهم على نهج السبيل ، وليتجلى لهم بأدل دليل أن رسالته كانت للعالم كافة كما قال الله تعالى « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون . »

مما رأيناه بالبحث والاستقراء أن روح رسول الله صلى الله عليه وسلم كما لبثت تقاوم الأرواح المحيطة بها وتجاهدها ثلاثة عشر سنة من عمر الفرد الواحد ثم ظهرت بعد ذلك عليها ظهوراً سريعاً مدهشاً ودانت لها أرواح العرب كافة في عشر سنين آخر ، كذلك بقيت روحه الكريمة تصاول الأرواح العامة المحيطة بأمتة من كل جانب ثلاثة عشر قرناً من عمر العالم ثم ابتدأت بعد ذلك في الظهور والجللاء والتأثير على العواطف والاحساسات بطريقة في غاية الغرابة . ومن

يتأمل في الثلاثة عشر قرناً الماضية ويطلع على ما كتبه أعداء الاسلام على الاسلام والمسلمين تحريفاً لتعاليمه ، وتشنيراً على قواعده وأصوله ، ووشاية وإيقاعاً بأهله ، ووصمهم بما لا يتصوره العقل من الوصمات الفاضحة ثم يتأمل في مجموع الحركة الاسلامية المنبعثة من ذات أوربا في هذا القرن ، ير أن الشبه تام بين تأثير الروح المحمدية العظيمة في عمر الفرد الواحد ، وبين تأثير الروح العامة التي أودعها في أمته في عمر العالم . وبما أن المدة بين بدء انجلاء هذه الروح الكريمة الى تمام ظهورها وكال سطوعها كانت عشر سنين من عمر جيله فكذلك انظر أن المدة بين بدى تجلى روحه في العالم أجمع الى تمام أشراقها سيكون عشرة قرون ، فلا يأتي القرن الثالث والعشرون من الهجرة حتى يكون القرآن دستور الأمم كافة ، يتلوه التالى في المشرق فيرن صدهاء في المغرب ، وليس هذا بعجيب لأنه الحق الصميم والأمم بمجموعها مسيرة سيرا اضطرارياً نحو الحق بعامل ناموس الترقى فلا بد من أنها ستنتهى الى القرآن كما قال تعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

وبما أننا وصلنا من بحثنا الى هذه النقطة فيسكون بحثنا على الانسان والانسانية في الجزء الأول سائراً مع بحثنا في حياة سيد الانام صلى الله عليه وسلم ، لأننا رأينا كما سيراه قارئنا معنا أن الروح المحمدية التي أدبت الأمم كافة حين ظهورها ، هي بعينها التي تؤثر عليها اليوم وتجذبها الى نورها شيئاً فشيئاً . وبما أننا تكلمنا اليوم في فضل الانسان

على الأرواح العمومية فنريد أن نبجلى للقارئ الروح العمومية التي كانت قبيل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم بشهادة علماء أوروبا أنفسهم ليكون الكلام أعجب فنقول :

كتب المسيو (جول لابوم) في مقدمة فهرسته الذي جمع فيه الآيات القرآنية الشريفة المتماثلة تحت عنوان محمد ما يأتي :

« لأجل أن يفهم الانسان تمام الفهم أى دعوة من الدعوات يلزمه أولاً الامام بحال الداعى فى ذاته ، ولأجل أن يقدر قدر دعوته يجب عليه أن يدرس الجهة البشرية التى وجه همته للتأثير عليها . هذا هو الغرض من هذه النبذة الوجيزة التى خصصناها للشرح العربى مؤسس ما يمكن تسميته بالجامعة الاسلامية .

« حوالى ميلاد محمد (صلى الله عليه وسلم) فى القرن السادس الميلادى كان جو العالم متلبداً بغيوم الاضطرابات والفتن . فكان شعب (الونيزجو) الآريين فى اسبانيا وفرنسا الجنوبية يصابون الملك (كلوفيس) وأولاده الكاثوليكين فكانوا من أجل ذلك يطلبون مساعدة امبراطور مملكة الرومان الشرقية المدعو (جوستينيان) ثم جبروا بالدخول معه فى حرب جديدة تخلصاً من سلطة القواد الذين جاؤوهم بتلك المساعدة فقد كانوا يزعمون أن لهم حق الفاتحين لا مجرد ولاء المساعدين المحامين .

أما فى فرنسا نفسها فكان أولاد (كلوفيس) هذا متغادرين متسافكين وكانت الحروب التى شبت نيرانها بين المملكة الونيزجوتية

(برونه) والمملكة الفرنكية (فيريديجوند) تهيء للتاريخ أشد الصعائف
اثارة للأسى والكمد .

أما في إنجلترا فكان (الانجلو) ينازعون (السكسونيين) الأرض
التي احتلوها واستعبدوا فيها ذرية (كيمريس) وهم أقدم المغيرين على
تلك الجزيرة التي تتطلع اليوم للوقوف في مقدمة الأمم علما وصناعة
وقوه ، وهي التي كانت في ذلك الوقت مجالا للقوة الوحشية السائدة
في تلك الغياهب الحالكة .

أما في إيطاليا فكان اسم (الرومان) وهو ذلك الاسم الشاخص قد
فقد أهميته القديمة وكانت رومة وهي الشظية الأخيرة أو رأس ذلك
التمثال الكبير المتهشم (يعنى مملكة الرومان) في حالة تمللمها من
استحالة أمرها الى مركز ديني بسيط ، ترتج وتضطرب كلما ألم بها طائف
من ذكرى عظمها القديمة أيام كانت مركزاً دينياً أصلياً ، فكانت تهيء
نفسها لأن تكون مركز البابوية وهي تلك السلطة الزمنية كما اقتضت
سياسة (شرلمانى) أن يجعلها كذلك بعد قرنين من الزمان ؛ ولكنها
مع ذلك لم يسعها حمل نير (الهيرولين) و (الاستروجوتين) وامبراطرة
المملكة الرومانية (والومباردين) الذين تداولوا السلطة عليها تداولا .
أما المملكة اليونان التي كانت قد نسيت مجدها القديم فكانت
تابعة لمملكة الرومان الشرقية مثلها منها كمثل الزينة ذات الضواء .
وكان شرق أوروبا مقلقا جنوبها من أول مصاب نهر (الران) من
جهة الغرب لغاية مصاب نهر (الدانوب) من جهة الشرق . فكان

(الاسكندريانيون) و(النورفيجيون) و(الدانماركيون) يتزاحمون في الطريق الذى سلكه (الجوتيون) و(الهونيون) الذين احتلوا (تارس) و(مكدونيا) و(لومبارديا) (وإيطاليا) سواء بالقوة أو بالخدعة . فى ذلك الوقت بدأ ظهور الأتراك من أعماق آسيا الصغرى وهى تلك الأمة التى حصرت فيما بعد مملكة اليونان حوالى أسوار القسطنطينية.

« التصوير البديع الذى جادت به قريحة المسيو (رينان) لبيان مركز الامبراطورية الرومانية فى القرن الاول من التاريخ المسيحى لا علاقة له البتة بالتصوير الممكن عمله لتجلية حال أوروبا فى القرن السادس : تلك كانت مفاسد قصيرة مختمة ، أما هذه فوحشية حرية تلعب بالارواح وتتمرغ فى الأوحال (١)

« أما آسيا فلم تكن أهذا بالاً من أوربا فى شيء : فمملكة (تيت) و(الهند) التى اقتبست منها الأمم السائدة فى أوربا الآن قرائحها وأفكارها العامة ولغاتها ، والصين التى تعد مسائلها أغرب المسائل السياسية والفلسفية ، وبالاختصار أغرب المسائل الاجتماعية ، كانت هذه الممالك كلها متميزة بالأحشاء بالحروب الداخلية والخارجية المتضاعفة بالمنازعات الدينية .

أما السفح الشمالى من الهضبة الآسيوية العالية التى هى فى حوزة روسيا الآن ، فكانت غير معروفة على الإطلاق . « أمامملكة الفرس

التي كانت أحوالها مرتبطة بأحوال الغرب خصوصا من لدن تجريدة الاسكندر المقدوني فكانت مشتبكة في حرب مع اليونان الرومانين في القسطنطينية الذين كانوا أصحاب السلطة على آسيا الغربية .

« أما في افريقيا كان هؤلاء اليونان الرومانيون أنفسهم وهم أخلاط من عساكر وتجار وحكام مجموعون من آفاق مختلفة ، دائبين على امتصاص دم القطر المصري وعاملين على جعل مصر العلية ذات المجد القديم كالجثة المصبرة عديمة الحس والحراك . وكان هذا شأنهم أيضاً في الأقاليم الخصبه وقتئذ الواقعة في الجهات الشمالية من افريقيا التي انتزعوها من أيدي (الفنداليين)

» والخلاصة كان جو العالم الارضى متلبدا بسحب الاضطرابات الوحشية في كل جهة ، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير ، وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة في اصلاء نيران الحروب والمعارك . ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولا يؤثر عليها تأثيرا حادا وان كان وقتيا الاشياء واحدهو : الغنيمة وسلب الأمم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحروب وفقراء الحرائين وبسطاء المتسولين . ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق في بعض صوامع الكهنة وبعض الجرائم الفلسفية التي كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب وانتقلت من روح الى روح أخرى بواسطة بعض أصحاب الجسارة من رسل الرقي في المستقبل لكانت البربرية أسرعت في خطاها مقودة بخطرسة زعماء البهيمية واستحالت

الى وحشية محضة .

«مع هذا كله كان هنالك ركن من أركان الأرض لم يصبه لفحة من هذه الحركة ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم ، بل بسبب موقعهم الجغرافى البعيد عن مضطرب الامم التى كان يقال انها متمدنة . ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التى ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة فى أوروبا الا عن بعد وما كان يصلها ذلك اللفظ الا فى غاية الضعف والضوالة . وكانت تجهل وجود الهند والصين فلم تك تتعدى علاقاتها مع آسيا حدود بلاد الفرس ، ولم تعرف لديها الفرس الا بواسطة أخبار الانتصارات أو الهزائم التى كان من ورائها رد بعض الوديان العربية القريبة من سوريا الى تبعية امبراطرة القسطنطينية تبعية اسمية ، أو رفع نير تلك التبعية الاسمية عنها ، على أن ذلك الوادى الأخير كان يهيم بلاد العرب جدا لان ابناءها كانوا يذهبون اليه للتجارة وكان لها فيه أبناء استعمروا الشاطئ الغربى من نهر الفرات وصعدوا رويدا رويدا الى بحر قزوين . وما يشبه المساتير الدينية انها بقيت منفصلة عن القطر المصرى الذى أغار على جنوبه العرب الرعاة ولم ينجلوا عنه تماما الا بعد أن انجلى عنه بعض اخوانهم المتأخرين وهم الاسرائيليون تحت قيادة موسى (عليه السلام) حينما استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم .

أما المملكة الوحيدة التى كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة فى بلاد الحبشة . اما الجهة الشمالية من افريقيا التى أغاروا عليها مرتين

والتي كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجيين وبين يونان القسطنطينية والفنداليين فكانوا لا يحملون بوجودها .

ثم قال : قال المسيو (كوسان دوپرسوفال) في كتابه تاريخ العرب « ان المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفراسين أما المتبدون منهم فكانوا في الحقيقة احرارا لا سلطة عليهم . وكان عرب سوريا دائنين للرومان . أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة وهم ملوك حمير سيادة وقتية فكانت تعتبر انها تحت سيادة ملوك الفرس ولكنها في الحقيقة كانت متمتعة بالاستقلال التام الذي لا غبار عليه »

ثم قال (جول لا بوم) : « ولم يكن العرب احسن استعدادا من غيرهم لقبول أى دين من الأديان قال المسيو (دوزى) في كتابه (تاريخ عرب اسبانيا) : كان يوجد على عهد محمد (صلى الله عليه وسلم) في بلاد العرب ثلاث ديانات : الموسوية والعيسوية والوثنية ، فكان اليهود من بين اتباع هذه الأديان أشد الناس تمسكا بدينهم وأكثرهم حقدا على مخالفى ملتهم . نعم يندر أن تصادف اضطهادات دينية في تاريخ العرب الاقدمين ولكن ما وجد منه فنسب الى اليهود وحدهم . أما النصرانية فلم يكن لها اتباع كثيرون ، وكان المتمذهبون بها لا يعرفونها الا معرفة سطحية . . . وكانت هذه الديانة تحتوى على كثير من الخوارق والاسرار بحيث يعز أن تسود على شعب حسى كثير الاستهزاء . أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد

الأعظم من الأمة والذين كان لكل قبيلة بل أسرة منهم آلهة خاصة والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ويعتبرون تلك الالهة شفعا لهم لديه فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم بعض الاحترام ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان متى لم يتحقق أخبارهم بالمغيبات أو لو عولوا على فضحهم الاصنام بأن قربوا لها ظبية بعد أن نذروا لها نعيمة . وكانوا يسبون اصنامهم اذا لم تنلهم مطالبهم ولم تسعفهم بآمالهم . قال المسيو (كوسان دوبر سوفال) : « من العرب من كان يعبد الكواكب وخصوصا الشمس ، فكنعنان كانت تدين للقمر ولدبران ، وبنو لحم وجرهم كانوا يسجدون للبشترى ، وكان الأطفال من بنى عقد لعطارد ، وكان بنو طى يدعون سميلا وكان بنو قيس عيلان يتوجهون للشعرى اليمانية » . وكان عليهم بما وراء الطبيعة على نسبة أفكارهم الدينية قال (كوسان دوبر سوفال) في كتابه تاريخ العرب : « كان من العرب من يعتقد بفناء الانسان اذا خلعته المنون من هذا العالم ، ومنهم من كان يعتقد بالنشور فى حياة بعد هذه الحياة ، فكان هؤلاء الآخرون اذا مات أحد أقربائهم يذبحون على قبره ناقة أو يربطونها ثم يدعونها تموت جوعا معتقدين أن الروح لما تنفصل من الجسد تتشكل بهيئة طير يسمونه الهامة أو الصدى وهى نوع من البوم لا تبرز تطير بجانب قبر الميت نائحة ساجدة تأتيه بأخبار أولاده فاذا كان الفقيد قليلا تصيح صداه قائلة « اسقونى » ولا تزال تردد هذه اللفظة حتى ينتقم له أهله من قاتله بسفك دمه . »

قال المسيو لا يوم بعد ايراده هاتين الجملتين من الاستاذين السابقين :
 « كانت طباع العرب وأخلاقهم لا تدل الناظر اليها الا على انهم شعب
 لم يكادوا يجوزون العقبة الأولى من عقبات الاجتماع لو لم تكن
 الأسرة عندهم بل القبيلة أيضا — وهى نقطة تستلفت النظر — تهتم
 اهتماما عظيما بحفظ سلسلة نسبها ولو لم يكن — وهو أمر أغرب من
 سابقه — أدراكهم للقوانين وسعة لغتهم من جهة أخرى داعيا الى
 الالتفات بنوع أخص » : ثم قال مباشرة « قال المؤلف المحقق الذى
 اقتبسنا منه أكثر هذه التفصيلات المتقدمة : كان العرب مغرمين
 بشرب الراح .

ويوجد من الشعر ما يدل على انهم كانوا يفخرون ويعجبون به
 ويلعب الميسر . وكان من عوائدهم ان الرجل له أن يتزوج من النساء
 بقدر ما تسمح له به وسائله المعيشية ، وكان له أن يطلقهن متى شاء
 هو اه ، وكانت الأرملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها ، ومن هنا نشأت
 تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الأب وقد حرم
 ذلك الاسلام وعده زواجا ممقوتا وكان هنالك عادة أفظع من
 كل مامر وأشد معارضة للطبيعة وهى وأد الأهل لبناتهم . (أى
 دفنهن أحياء)

« هذا كله لا يشير الى أن العرب لم يكن فيهم أى جرثومة خلقية
 صالحة يمكن تقويمها وتهذيبها ، فقد كانوا يحبون الحرية جاحما ويمارسون
 فعائل الكرم وبذل القرى .

« الافراد الذين كانوا تابعين للأمم أرقى من الأمة العربية والذين كانوا مبعثرين هنا وهناك من جزيرة العرب كانوا قليل العدد جداً ولا يظهر أنهم كلفوا أنفسهم بوظيفة الدعوة الى ملهمهم . فاليهود الذين كانوا متشبعين بالاثرة الشعبية على مثال الصينيين واليابانيين والمصريين لا يرى منهم لليوم خاصية التأثير على غيرهم الا بالخضوع لقوانين الأمة التي يشتغلون تحت ظل حمايتها بالأمور المالية . ولئن شوهدها أنهم أدخلوا الى ملتهم بعض العرب ، فلم يكن ذلك النتيجة بسيطة لا اشتراكهم في الأساطير التاريخية ، وهو اشتراك يدل على قرابة قريبة بين الأمتين ؛ تلك القرابة يستدل عليها أيضاً بتساويهم في حب الكسب ، وتآزيمهم في الاستعداد لعدم الانفة من سلوك أى طريق من الحيل والمكر لنوال كسب أو حطام . ولا ينتظر أن يكون من نتيجة الاجتماع بهذه الاعتبارات أدنى ترق أدنى . أما المسيحيون فكانوا يفتدون شيئاً فشيئاً الى بلاد العرب هرباً من الاضطهادات الدينية التي كانت في مملكة الرومانيين ولكن لم يكن في حالهم نور يستلقت البصر تألقه ، وفي حالة مسيحي الحبشة اليوم نموذج لذلك ، فانه لا يمكن أن يتحلى الانسان بمدرجات العقائد السامية من دين بمجرد التسليم بنص تلك العقائد .

« في عهد هذه الأحوال الحالكة ، وفي وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ولد محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وسلم) في ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ » انتهى

هذه هي الروح العمومية التي أرسل المصلح الأعظم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لملاشاتها وتخليص العالم من غوائلها ، وقد رأيت بلسان الأجنبي عن الاسلام أنها كانت محتاطة بالأمم الداخلة في نطاق المواصلات العامة احاطة السوار بالمعصم ، وفاعلة فيهم الأفاعيل المحزنة بحيث تدل الرأى لأول وهلة ان بقاء الانسانية على تلك الحالة يؤدي بها الى التلاشى العاجل ، ويريه بطريقة جلية أن لابد من صاخة كبرى تنزل على تلك الأدمغة الجامدة ، والقلوب الصلدة فتردها عن غيها ، وتكبحها عن جماحها ، وهذا ما حصل على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وامام المصلحين ، وفي التفصيل بلال الغلة ، وشفاء النفس فانتظروا العجب ان شاء الله .

﴿ الاسلام مبال الدورار التي نفا اب العقائم ﴾

قلنا ان كتابنا في حياة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم سيكون ان شاء الله تعالى كمرآة تتجلي فيها صورة موجزة من أعمال تلك الروح العظيمة في العالم واننا سننهج لذلك المناهج التي نستفيد منها في تعديل عوجنا وتقويم أودنا ومداداة عللنا لهذا نرى أنه لا مناص من أن نخطط لأنفسنا خطة جديدة لم يقم عليها من سبقنا من كتاب السيرة الشريفة وفاء بمطلوب الروح العلمية الجديدة واستشرافاً لسبجات الأنوار المحمدية من جهتها التي تنطبق على أحوالنا في العصر الذي نحن فيه .

وبما أننا وصلنا من بحثنا في كتاب الانسان الى تفصيل حوادث تلك الحرب القائمة بين الاعتقاد والعلم وبسط الادوار المختلفة التي دخل فيها الانسان تدريجاً تحت تأثير ناموس الترقى مما لا نشك في أننا داخلون فيه أيضاً فلا بد لنا من التعويل في حياة المصلح الأعظم صلى الله عليه وسلم على أسلوب ينطبق على تلك الأدوار نفسها لنجد منها الدواء المناسب لنا فنقول :

هل يمكنه أن يعيى الانسان به

الجواب على هذا السؤال يستدعى أولاً معرفة كنه الدين . لأنك لو حددته بأنه مجموع العقائد التي يتلقاها الانسان عن أمه وأبيه ، وينقشها في ذهنه معلمه ومربيه ، ويزيدها الوسط الذى يعيش به نشوباً فيه أو أنه تلك الاساطير التي تفرقت عليها الأمم أحزاباً ، وانشقت بها الشعوب أسراباً ، وكثر فيها الجدال أحقاباً ، وصقلتها القرائح فصارت فصولا وأبواباً ، فلا تعدم قائلاً يقول :

« تلك أيام خلت ، وسنين مضت ، وأدوار حدثت وانقضت . وقد استقام الانسان بعد ما تجاذبته الأدوار والأطوار وتنازعت المذاهب والأحزاب ، على طريق العلم الذى لم ينله الا بعد ما بذل مهجة فؤاده وضحى في سبيله عزيز حياته ، وبهذا قد دخل في دور نهائى ليس الدين عليه فيه سلطان ، ولا للعقائد في فؤاده مكان وصارت ، الأديان في نظره من

ضمن أساطير الماضى يلقي نظره عليها تفكها بسير من غير ، واستجلاء لوجوه العبر من مقادير البشر . ألا ترى أن التدين اليوم قاصر على الأمم الشرقية . المتأخرة فى ميادين المدنية . ومن تراها من الامم الغربية ، على شئ من العقيدة الدينيه ، فسهما من الحضارة أنقص من سهم من تلخصت منه تماما ، وليست فيها تلك البقية الا لتأخرها عن غيرها فى مجال العلوم والفنون ، وابطائها فى ترك ما كان عليه الأقدمون ، وليس بينها وبين مساواة غيرها فى عدم الدين الا تعميم العلم فى البنات والبنين ، وأنتم معاشر الشرقيين ، لاسبب لتأخركم عن غيركم وجمودكم على حالكم ، الا انكم تريدون أن تعيدوا مثل الاولين ، وترجعوا سنة الماضين ، فى الحياة بتعاليم الدين ، وكيف يتأتى ذلك وحياة الامم كحياة الافراد أطوار بعد أطوار ، ورقيا أدوار بعد أدوار ، ولكل طور لوازم ومقتضيات ، ولكل دور حالات ومناسبات ، فما مثلكم فى نشوبكم بالدين وأحكامه ، وتعلقكم بأدابه وأهدابه ، الا كمثل من أراد أن يعيش طفلا وقد دخل فى دور الشبوية فكما أن للشباب آميالا وعواطف لا يحس بها الطفل ولا يتخيلها حتى يستحيل أن يتصنع أحدهما حالة الآخر ؛ كذلك للامم فى كل دور من أدوار حياتها آميال وعواطف يستحيل معها أن تتصنع انها فى دور غير دورها ولوبذلت فى ذلك غاية وسعها .

هذا هو سر جمودكم وهبوطكم ومادمت لا تعرفونه ولا يقوم فيكم رجال جسورون يدعونكم إلى تقليد الأوربيين فى ترك الدين بالمره

أوبالآقل لفصله عن حياتكم الاجتماعية كما فصلوه هم قبلكم بيضعة قرون فلا يرجى لكم إصلاح مطلقاً .

ومما يستغرب من أحوالكم أنكم تريدون أن تجاروا أوربا وتساموها في حركتها ومدنيتها وأنتم كارهون دورها الذى هى فيه فكأنكم تريدون أن تباروها وتسبقوها وأنتم على ما أنتم عليه من الجود على دور سابق . مثلكم فى ذلك كمثل شخص جاز دور الطفولية ولكنه عز عليه أن يخلع مناسباته عنه وهو مع ذلك يريد أن يسابق شابا آخر رضى لأحكام الطبيعة ولم يعارض فعلها عليه فقادته الى طريق الحياة الكاملة ورفعته من الكمال الى الدرجات المقدرة له . لاجرم تذهب أتعاب الاول أدراج الرياح ولا يكون حظه من الحياة الا الأسر والانقلاب ، والرضوخ للأقوى وحمل نيره على عاتقه . »

هذا ما يجيش فى صدر بعض من شربوا من دن المعارف الأوربية فى القرن الماضى وهو بعينه ما يتغنى به على وتر الفلسفة بعض الكتاب ويحتالون على بثه فى الأذهان بكثير من الوسائل : تارة فى أطواء المقالات العلمية فى المجلات الدورية . وطوراً فى الأبحاث السياسية ، على صفحات الصحف اليومية ، وقد نجحوا بعض الشيء فى إشراكها فى نفوس كثير من الاحداث حتى أخرجوهم عن دائرة الجامعة التى تربطهم بماضيهم . وهى من أقوى الشبه التى لو نشبت فى الأذهان حلت معاهد العقائد منها وأصبح تعب الكتاب الاسلاميين فى إرجاع الدين الى الأذهان كالضرب فى الهواء أو الكتابة على الماء .

لهذا لا نرى بدامن بسط أمثال هذه المدركات المضرة بغاية الحرية والصراحة لأنها المكاريب الكامنة في النفوس الناشبة بالأفئدة ، بل الرجز المنتشرة جراثيمه في الهواء مما لا مناص لكل حي من تنسمه فهي إن صادفت رتبي ناشقها ضعيفتين سممتها وحللتها تحليلا ، وإن وجدتهما قويتين ساورتها من مكان قريب وعطلت من حركة صاحبها بعض التعطيل . ولما كانت الحكمة في معالجة الأمراض تقضى بإبادة جراثيمها أولا بدل مكافحة أعراضها التي لا تزول حتى تظهر ولا تضمحل حتى تنشط ، فقد رأينا أن تتبعها في مكانها ونفق دونها الحجب حتى نصل إلى مواطنها ومساقط ويلاتها

﴿ ماهو الدين ﴾

ليجرد الانسان نفسه ولو لحظة من آثار الوراثة المختلفة التي لها السلطان الأقوى على فكره وخطرات هواجسه وعلى كل حركة وسكون فيه ، وليمح من لوح ذاكرته كل مانقشته فيها المؤثرات المختلفة في المكان الذي يعيش به وفي الأسرة التي هو فرد منها وفي الجمعية التي هو من آحادها ، وليتناس كلها علمه عن الوجود وكائناته وما أدركه من مخلوقاته ، وليحسب نفسه خلق من ساعته ، ثم لينظر إلى الوجود نظر الذي لا يملك من العلم إلا ما تهديه اليه مشاعره الظاهرة ، وإحساساته الباطنة ، وليبدأ بتسريح نظره في تلك القبة الزرقاء التي تحيط بالكون من كل جانب ، ثم لير به على ما يحيط به من الخلاء المترامي الأطراف إلى كل جهة يوجه إليها بصره . ثم ليلق نظره على نفسه بعد ذلك ، فماذا

يحيش في صدره من هذه الجولة السريعة ؟ لا مشاحة في أنه يؤوب وفي نفسه رعدة من الخوف والدهشة ، وألم من الفرق والوحشة ، لماتين له من عظم الكون وشسوع أكنافه ، وحقارة شخصه وضؤولة جثمانه . رأى تلك اللانهاية فوق رأسه فوق عقله منها حيث انتهى بصره وارتد فكره منهزماً يرجف من شدة ما أصابه من نخامة هذا المجهول الهائل المسدول عليه من كل جانب !

أراد تصويره بما فطر عليه من حب اكتناه المساتير أن ينفذ إلى صميم ذلك الأمر الجلل فأنحلت عزماته انحلالاً ، وارتخت معاقدهمته إرتخاء . وأخذ الفرع بمتنفسه أخذاً كاد يفقده حسه من شدة ما شعر بحقارة ذاته وتفاهة أمره في وسط هذه اللانهاية الفخيمة !

رنا بصره الى ماحوله ، وما بين يديه وخلفه ، فراه محاطاً بفضاء تضيق عنه سعة خياله ، ويخرج دونه متسع وهمه ، فأنزل نفسه منه على قدر ماأخذ جسمه من حيزه غير المتناهي ، فكاد يصعق من الوجل أمام هذا السكون المطلق ! فاذا جن عليه الليل وهو في تلك الحالة الساذجة ورأى أديم السماء قد تلون بذلك اللون القاتم ، وتلألأت في أرجائه النجوم والكواكب ، وبرزت تلك القبة السماوية في ذلك المعرض المرصع ، وزادت مهابة الليل نخامة وعجباً ، ازداد أمرها غموضاً على فكره وتبين له أنه وسط بحر من مجاهيل وأسرار أيسر ما يستطيعه أمامها الاقرار بعجزه وضعفه ، والخنوع بحقارته وضؤولة شخصه ، واحتياجه المطلق ملجأً يلجأ اليه ، وموئلاً يعول في النجاة عليه ، وفقره لقوى يهبه من

قوته ، ورحيم ينشر عليه من افاضات رحمته .

هذا هو مبدأ الدين والباعث الطبيعي على العقيدة ، والسائق القاهر للبحث عن خالق الكون جل وعز ، وهو بعينه الدافع الذي دفع الأمم لتكوين الأديان ، والرضوخ للكهان ، وتسليمهم أمرهم في كل شأن ، وهو بذاته أيضاً الداعي لارسال الله تعالى رسله تترى الى الأمم بالهدى ودين الفطرة

ربما يقول قائل : « ان هذا التصوير البديع ان صدق على الإنسان مجرداً عن آثار العلم فلا يصدق عليه وهو كما نراه اليوم ، ثملاً من رحيق المعارف ، نشوان من سلاقة المعلومات ، مدعياً انه أدرك المعلولات والعلل ، ووقف من أمور الكون على ما لم يحلم به الأول ، ولا اضطرب لهم به أمل » نقول لهذا المعترض هون عليك ؟ جرد نفسك من كل ماذكرته لك من آثار الوراثة والعقائد ، وما قرأته في كتب الملاحدة من الظلمات الكشيفة ، ثم قف ذلك الموقف بما لديك من العلم ، وابدأ بنظر الفضاء المحيط بك من كل جانب ، واستورد الى فكرك النظريات الرياضية التي تثبت لك أن الفضاء ممتد الى ما لا نهاية أي انه ليس له حد . . . وانه مشحون بعوالم لا تحصى من نجوم وكواكب وتوابع وذوات أذنان ، وان الارض التي أنت عليها ليست إلا كالذرة بالنسبة لتلك الأجرام الضخمة ، وتذكر ماقرأته في أبحاث (كيلر) و (كوبرنيك) و (هرشل) و (زولنر) و (فلامريون) من أن الارض كوكب من الكواكب السيارة السابحة

في الفضاء حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو متراً ونصفاً في الثانية الواحدة ، وانها ذات شكل كروي محيطها ٤٠٠٠٠ كيلو متر وانها واحدة من سيارات أخرى أكبر منها حجمادائرة كلها حول تلك الشمس المضيئه التي هي أكبر من الارض مليوناً وأربعمائة الف مرة ، وان المسافة التي تفصلها عن الأرض هي ثمانية وثلاثون مليوناً من الفراسخ ، وان هذه الشمس بهذا الحجم الهائل لا تقارن بالشموس الاخرى التي تسبح مثلها في هذا الفضاء المدهش ،

واذا أردت أن يكون لك فكر عام على حجومها فاعلم أن أقرب نجم الينا يصل الينا ضوءه في ثلاث أو أربع سنين فاذا كان ضوء الشمس يصل الينا في أقل من أربع دقائق ومع ذلك فهي أكبر من الأرض بمليون واربعمائة الف ضعف فكم يكون حجم نجم لا يصل ضوءه الينا الا في أربع سنين أى في (٢٠٧٣٦٠) دقيقة ثم ما ذا يكون حجم الشعري التي يصل الينا ضوءها في ٢٢ سنه خل هذا جانباً وقل كيف تتصور احجام تلك النجوم التي تكتشف جديداً ويزعم علم الفلك ان ضوءها لم يزل ساجاً في الفضاء من يوم تكونها الى يوم وصول ضوءها الينا أى في ملايين من السنين أليس في هذا التخيل ما يرعد الفرائص ، ويأخذ بمخنق التصور ؟

هذا بالنسبة لما فوق رأسك أما ما هو بين يديك وخلفك من ممالك الطبيعة من جماد ونبات وحيوان وانسان فليس أمرها بهين عليك ، لأنك لو استعرضت شيئاً قليلاً من عجائب النباتات ورأيت

أنك تلقى الى الأرض بزره لاتكاد تحس بها بين أصابعك فتراها بعد سنين شجرة ذات جزع غليظ وفروع ممتدة الى أمتار عديدة وأوراق وأثمار ذات ألوان وطعوم وأريج يفعم الأنف من مسافات بعيدة ثم لو طفت على مملكة الحيوانات واستحضرت الى فكرك تلك الكائنات المختلفة فى الصور والاحجام والأشكال والطباع والغرائز والحيل مما لاتكفى المجلدات لشرح عجائبه ، ثم لو تفكرت فى أن المادة التى هى أصل كل هذه الصور البديعة مجهولة لديك بالمره ، لرجعت وكلك شعور بضعفك وعجزك ، واحساس بوهن طبيعتك وحقارة شخصك ولوجدت فؤادك ساجداً بفطرته أمام هذه القوة العظمى التى أبدعت هذا الوجود المدهش ، ولتحققت أنك كلما ازدادت بالكون علماً ازدادت احساساً بجهلك وشعوراً بضعفك ، واحتياجاً لمن يأخذ يدك ، ويسكن جيشان صدرك . « انما يخشى الله من عباده العلماء » ثم انك كلما رنوت الى أجزاء هذا الكون ورأيتها تتلاشى وتتجدد وتفرق وتتجمع ، ووقفت على حركة سريان الحياة من النبات الى الحيوان الى الانسان وجدت نفسك مسوقاً لأن تتساءل عن حظك من هذه الحياة وعن مصيرك بعد تلاشى هذا الجسم السريع العطب . ولو خزك حب الحياة المرتكز على أجمل عواطف نفسك ودفعك لأن تجول بفكرك فى مضمرات الأشياء ومستورات المعارف ، لتشق الحجب التى تحول بينك وبين مطلوب روحك حتى تجد ضالتك فتعيش سعيداً ، أو لاتجدها فتبقى فى هذه الأرض العمر الذى قدر لك بين فزع

وجزع ، ووحشة ووهل ، تعالج من اضطراب نفسك مالا تعبر عنه ،
حتى تجيء تلك الساعة المنتظرة حلى صفة لا أستطيع أن أتخيلها
الأتري بعد هذا أن الانسان على أى حالة من أحواله سواء كان
جاهلا لا يعرف شيئا أو عالما يعلم شيئا . . . لو جرد نفسه من آثار
الوراثات المختلفة ومحا من ذهنه كلها يربطه بالمكان الذى عاش فيه
وبالمذاهب الذى ينتمى اليه ، ثم تفكر بعد ذلك فى الكون وفى نفسه
لاندفع بفطرته وطبيعته اندفاعا اضطرابيا الى القاء نفسه ساجدا أمام
خالقه ولولم يستطع أن يتصوره بصوره ، أو يقع فكره منه على كيفية .
هذا هو الدين الفطرى الذى خلق الانسان مطبوعا عليه بطابع
الخالق الحكيم الذى أقام الانسان على هذا المركز الوسط وقدر عليه
ما قدر . من الكمال الصورى والمعنوى . فالدين على هذه الصورة الطبيعية
لا يتصور زواله بوجه لأنه مرمى كل عواطف النفس وغايتها وقد
أدرك ذلك أهل البصر من الغربيين فقال غطريف الفلسفة الأوربية
(ارنست رينان) فى كتابه تاريخ الأديان : « من الممكن أن يضمحل
ويتلاشى كل شئ نحبه وكل شئ نعد به من ملاذ الحياة ونعيمها ، ومن
الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة ، ولكن
يستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى بل سيبقى أبداً الأبدى حجة
ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الانسانى
فى المضائق الدنيئة للحياة الطينية »

وقال الفيلسوف الشهير (اجوست سباتيه) فى كتابه (فلسفة

الآديان) : « لماذا أنا متدين ؟ انى لم أحرك شفى بهذا السؤال مرة
الا وارى مسوقا للإجابة عليه بهذا الجواب وهو : أنا متدين لأنى
لا أستطيع خلاف ذلك ، لأن التدين لازم معنوى من لوازم ذاتى .
يقولون لى : ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج . فاقول لهم
قد اعترضت على نفسى كثيرا بهذا الاعتراض نفسه ولكنى وجدت
يقهر المسألة ولا يحلها . وأن ضرورة التدين التى أشاهدها فى حياتى
الشخصية أشاهدها باكثر قوة فى الحياة الاجتماعية البشرية فهى ليست
أقل تشبها منى باهداب الدين . الى أن قال : « اذن فالدين باق وغير
قابل للزوال وهو فضلا عن عدم نضوب ينبوعه بتمادى الزمن ، نرى
ذلك ينبوع يتزايد اتساعا وعمقا تحت المؤثر المزدوج من الفكر
الفلسفى والتجارب الحيوية المؤلمة » انتهى

وهذا كله نفحة من نفحات هذا الناموس الكبير الذى أوحاه الله
لخاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله
التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أ كثر
الناس لا يعلمون » .

﴿ الاسلام وهو الدين الفطرى ﴾

الفطرة لغة الخلقة والخلقة فى اللسان العصرى الطبيعة فالدين
الفطرى يمكن تعبيره باللسان العصرى بالدين الطبيعى ومعناه أنه
لا يكلف الانسان الا بما ينطبق على طبيعته ويناسب حال جبلته وقد
سعى فى القرون المتأخرة أرومات العلم الطبيعى فى أوروبا وكونوا لهم

دينا سموه بهذا الاسم ولم يدخلوا الى أصوله الا ما تقضى به الفطرة الانسانية وتقر على حقيقته العلوم الطبيعية ، خالصاً من الاختلافات والتأويلات ، منزها عن الرموز والاسرار ، عملاً بقول شيخهم الكبير (كانت) الفيلسوف الالماني حيث قال : « الديانة الحقيقية الوحيدة لا تحتوى الا على قوانين أغنى قواعد صالحة للجرى عليها نشعر من ذاتنا بضرورةها المطلقة وتكون مجردة عن الاساطير والتعاليم الكهنوتية » (١)

سلك هؤلاء ، هذا المسلك فى القرون المتأخرة بعد ماسموا من تناقض الأديان ، وأنفوا من الرضوخ الكهان ، ولم يعلموا أن الدين الطبيعى قد أوحاه خالق الطبيعة على أشرف عباده قبلهم بأكثر من عشرة قرون . فلندع هؤلاء الآن وشأنهم فسيتبينون الحق بعد حين ، كما وعد بذلك الخالق فى كتابه المبين . ولتثبت لقراءنا أن الاسلام هو الدين الفطرى الذى لا يعتريه الزوال ، ولا يلحقه الاضمحلال فنقول : تبين لنا أن الانسان على حالة البساطة الأولية ، والسذاجة المبدئية شعر بلزوم الاخبات لخالق ذاته ، وأحس بضرورة الاعتصام به لنجاة حياته ، فلم يجرمه الله من اسعافه بعباده كان يصطفيهم لحمل أمانته ، والقيام بتبليغ أمره الى خليقته ، فكانوا يجمعون أقوامهم بدين الفطرة ، لأن الله لا يكلف عباده بما لا ينطبق على طبيعتهم (لا يكلف الله نفساً الا وسعها) ولكن الناس فى تلك الأحيان كانوا من سن الحياة العمومية ، فى دور الطفولية ، تؤثر عليهم الخيالات أكثر من

الحقيقة ، فكانوا لا ينصاعون لرسولهم الا مادام فيهم ومتى انتقل الى العالم الآخر ارتكسوا الى عقائدهم الاولى مكسوة بثوب جديد ، حتى اذا جاءهم رسول آخر قاوموه وناذوه ، ومكروا به وصاولوه ، وماروه بكل حجة وجادلوه ، وفيما يحكى الله عن حالهم صورة من أمرهم مع رسلهم قال تعالى : « وقال موسى إن تكفروا أأنتم ومن فى الأرض جميعاً فان الله لغنى حميد . ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم ، لا يعلم الا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وانا لنفى شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليخفركم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ، قالوا إن أأنتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إن نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتىكم بسلطان الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون »

هكذا كان حال الأمم مع رسلهم فى خلال تلك القرون المتوالية حتى جاء القرن السادس وقد درسنا حال الأمم فيه فى الفصل المتقدم وقد رأيت أن حالتهم كانت تدعو الى قارعة كبرى تردهم عن غوايتهم وتوقظهم من سكرتهم ، وقد كان ذلك ، فأرسل الله تعالى خاتم أنبيائه بدين الفطرة الذى أرسل الله به رسله من قبل (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً) مخاطب الناس قائلاً عن ربه (يا أيها الناس قد جاءكم

برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً (فدخل الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً لأنهم كانوا قد سئمو الخيالات المضلة التي مزقتهم أحزاباً ، وفرقتهم أفذاذاً ، فدخل فيه من غير العرب في قرن واحد ما يزيد عن مائة مليون ولم يزل ينمو لليوم بصفة مذهشة بتأثير المدنية الأوروبية نفسها . وان تعجب من ذلك فإليك التفصيل : قد رأيت أن الفارق بين الدين الفطرى أى الطبيعى والأديان الأخرى هو أن الأول مركّز على الحقائق المحسوسة والثانى على الخيال ، فيكون الانسان متقرباً للحق على قدر ضعف سلطان الخيال عليه ، والأمم قبل سريان الحركة الأوروبية الاستعمارية فى العالم كانت كل أمة منها جامدة على دينها مستنيمة الى أساطيرها لا يزججها عنها شيء : تقول ما شاءت من الرجال ، وتعبداً أرادت من الحكماء والأبطال ، والخلاصة أنها كانت من الدين على خيال ومن المدركات فى ضلال . فلما جاء دور الأوروبيين وجاسوا خلال الممالك بالحديد والنار ، والكهرباء والبخار ، أقاموا لتلك الأمم بأفواه المدافع والبنادق ، وبالسنة المشرفيات الصوارم ، أكبر البراهين الحسية على أن عهد الخيالات قد مضى وأن ما كانوا فيه من الاعتماد على معجزة ذلك الاله أو كرامة ذلك الكاهن ، خرافات باطلة ، وترهات فاضحة فانجلي الدين عن أفتدتهم وخوى جنانهم من العقيدة فاستعرضوا الأديان التى وصلت اليهم فلم يرضوا منها غير الاسلام ديناً خلّوه من الخيالات ، وارتكزوه على

المحسوسات ، فدخلوا فيه أفواجاً أفواجاً ولم يسمع في تاريخ الانسان أن القبائل بخدافيرها تدخل الى دين في زمن ضعف سلطة أهله غير الدين الاسلامي . وبناء على هذا فكلما توغلت مدافع الأوربيين في أحشاء البلاد الوثنية ازداد انتصار الحقيقة على الخيال ، وفتحوا لدين الله أكبر مجال « إن الله ليؤيد هذا الدين برجال ليسوا من أهله » الاسلام الدين الفطري أو الدين الطبيعي لأنه لا يكلف الانسان الا بما هو مطبوع على البحث فيه واعتقاده ، ولا يجيئه من العقائد الا بما لا يقف حجر عثرة في سبيل تقدمه وترقيه لأن غرضه الأول تخليص النفس الانسانية من تلك الكسف الظلمانية التي أسدلها عليها حفظة العقائد ، وسدنة المعابد ، والزاعمين بأن لهم حق الوساطة بين المخلوق والخالق ، وليطهر الأفتدة مماران عليها من آثار الوراثة والتقليد ، وما تراكم على سويداواتها من غلف التعصبات والجوهر .

كان الناس من جهة الدين في غيابة من الوهم ، وظلمات من الجهل ، يقدسون أساطير جمعت من مدركات الماضين ووساوس المتقدمين مالو أرادت البصيرة أن تنسم منها روح اليقين لارتدت على عقبها ترسف في اصفاد اليأس ، واغلال اللبس من هول ماوضع أمامها من عقبات وما أحيطت به من غياهب وظلمات ، فكانت بين أمرين اما أن تقتنع من الحياة بمجرد البقاء ولو كان العمه لزيما ، والحيرة صفتها ، واما أن تحاول أن ترى النور فتعرض نفسها لخطر أيسره أن تضاعف عليها تلك الكسف فلا تعود بعدها تذكر النور ولا توهمها .

جاء الاسلام والبصيرة في هذا الانين ، من ثقل نير الدين ، وفي لطف شديد ، الى نور جديد ، فصاح بالناس : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه ويهديهم اليه صراطا مستقيما » .

كانت النفوس حيرى في معنى الدين ؛ لاتعرف من آثاره غير هذا الضغط المشين والحال المبهين فقرر لها الاسلام بأن الدين ضالة الأرواح وأنشودة العواطف ، وبلسم جراح الحياة ، ونسيم الراحة والطمأنينة ، ومهب نفحات الحق ، وهو واحد لاتعدد فيه ، بعث الله به كافة الأنبياء الى الأمم رفعا لما طرأ عليهم من الخلاف ، وحسما لما احتوشهم من روح النزاع : « كان الناس أمة واحدة فاختلفوا » .

أما ذلك الدين فهو الاسلام لله أى الاستسلام الى أحكامه بالقيام على صراط الفطرة المجردة عن الأوهام والأفكار البشرية التي هي داعية الخلاف ، ومثيرة التنازع بخلاف الفطرة ، فانها واحدة في عموم النوع الانساني فلا يعقل نزاع بالاستقامة عليهما ، ولا يتصور شقاق بالانصياع لمقتضياتها « ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب . فان حاجوك (أى جادلوك) فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والايمان أسلمتم ، فان أسلموا فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » . « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فن يهدى من أضل

الله وما لهم من ناصرين . فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر
الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس
لا يعلمون . منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين
من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، كل حزب بما لديهم فرحون »
التفت الى أولئك الذين استعبدوا أنفسهم للأهواء ، وخضعوا
لسلطان الأهوام ، وحصروا عقولهم في مضائق الخرافات ، فدعى
عليهم سدا جثتهم قائلا : « ان هي الا أسماء سميتوها أتم وآباؤكم ما أنزل
الله بها من سلطان ، ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد
جاءهم من ربهم الهدى » ثم طالبهم بالدليل على ما حملوه عقولهم من
هذه المدارك الفاسدة قائلا : « أتوني بكتاب من قبل هذا أو إثارة
من علم ان كنتم صادقين » « هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون
الا الظن وان أتم الا تخرصون » « هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين »
ثم سجل عليهم انهم أساءوا الوهم ، وعبدوا الظن فقال : « وما لهم
به من علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئا »
ثم بين لهم الفرق بين المعتقد بالدليل والبرهان ، وبين المستسلم
لزخارف الخيال ، الا سيرل كواذب الأهوام فقال « أفمن كان على بينة
من ربه كن زينا له سوء عمله واتبعوا أهواءهم »
ثم توجه للذين قبلوا هذا النور الباهر وخلعوا عن أعناقهم ربقة
الذل والاسر ، ونفضوا عن رؤوسهم غبار الضغار والعبودية فقال :
« ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى

الله عاقبة الأمور . ومن لفر فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فنبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور » « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلاً » ثم أمرهم أن لا يتبعوا ديناً من الأديان التي أقيم لها المعابد والكهان وصارت عبثاً ثقيلاً على هامة الانسان ، لما سرى اليها من الضلال والبهتان ولكن ألزمهم الاعتراف بان أصل جميعها واحد وهو الناموس الأقوم الذي بعث الله به الرسل الى الامم كافة فلم يحفظوه من التبديل والتحريف والتزييف ، فكلف الاسلام اهله بالايان بها اجمالاً فقال : « وقولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون »

هذا هو الدين الفطرى فى بساطة معناه وممتانة مبناه وهو الذى دعا اليه الأنبياء كافة وتمت الدعوة اليه بخاتمهم وامامهم محمد صلى الله عليه وسلم وقد رأيت انه من جهة التدين لا يدعو الا لما يشعر به الانسان فى ذاته شعوراً ضرورياً طبيعياً ، أما تلك الأساطير التى طمت بها الديانات وعدت من أركان الايمان فيها فقد أثبتت العلوم الطبيعية والتاريخية بطلانها بالمرّة وصار اعتقادها والتمسك بها من الازراء

بالعقل ، والتغريب بالنفس لأنها ليست الا مبلغ علم الأقدمين بالطبيعات والتاريخ توارثها اللاحقون عن السابقين واكتسبت لقدمها شكلا مقدسا كما هي سنة الناس في احترام اسلافهم حتى صارت هي الدين بذاته وقد سبق القرآن العلم والفلسفة في تقرير أنها أباطيل وأوهام فقال « ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » ثم انبأنا بأن الاسلام مقدمة عصر العلم ، وطليعة دولة الحق ، ومؤسس سلطان الحكمة فقرر الناموس الطبيعي الكبير الذى اكتشفه (دارون) و (ولاس) بعد القرآن بثلاثة عشر قرنا تقريبا وهو قولها (لا يبق الا الأصلح) فقال تعالى بافصح عبارة وأكمل بيان « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض »

أما من جهة العلم بالكون وأشياءه فأرانا أننا لم نعلم منه الا قليلا وأمرنا بدوام طلب العلم فقال تعالى « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » « وقل رب زدنى علما » وبهذا فقد هدم صرح تلك العقائد الباطلة التى يزعم أصحابها أنها حوت علم الأولين والآخرين ، على السموات والأرضين مما اذن الله به للعالمين ؛ وان ما عداه فرجس باطل ، وخيال حائل ، يستحق معمله ان يحرق بالنار ، أو ان يصلب كالفجار . أما من جهة سير الماضين ، وأخبار المتقدمين ، مما جعلوها أساس العبادة والايمان ، وعلقوا عليها نجاة الانسان ، مما أثبت التاريخ العصرى ، بالحس والعيان ، انها خرافات اخترعها الخيال ، وسطرها الجهال ، وانها ليست خاصة بدين دون دين ، ولكنها عامة عند الامم

أجمعين ، مما يشعر أنها دأب الأولين ، فقد سد الاسلام هذا الباب سدا محكما بتقريره و « ان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى » و « كل امرئ بما كسب رهين » و « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون »

أما سرد حوادث الماضين فهي وظيفة التاريخ له فيها أسلوب خاص به مثل سائر العلوم الأخرى أما الأديان فوظيفتها أشرف من كل وظيفة وهي اقامة الانسان على سنة الفطرة بتخليصه من كل ما ليس طبيعيا فطريا ، وتنزيهه عما يرضخ له تقليديا ، ليعيش حرا متمتعا بعقله وفكره وحكمه ، لا عبدا لأوهام غيره . ألا ترى انه لما سأل فرعون موسى كما قال تعالى : « فما بال القرون الأولى » أجاب موسى عليه السلام كما قال تعالى « قال عليها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » فانظر الى هذا الجواب النبوى الكريم الذى يشير بغاية الصراحة الى أن التاريخ ليس من وظيفة الانبياء من جهة ، ومن جهة أخرى يشير الى أن سائر أهل القرون الاولى ليس مما يمكن التهم عليه بتلك الجسارة التى تشاهد فى الجهال بالتاريخ بل هى حوادث كبرى تحتاج لمثل ما يحتاجه كل علم من العناية والدقة . انظر الى هذا الجواب النبوى ثم انظر الى أولئك الذين يسردون لك تاريخ العالم من لدن آدم الى اليوم سردا يشعر بأنهم شهدوا أحوالهم ومن العجب أنهم يعلقون على ذلك عقائدهم وإيمانهم

أما من جهة الأخلاق والعوائد فالاسلام لا يطلب من الانسان

فيها غير الاعتدال والتوسط . لأنه لما كان الدين الفطرى (أو الطبيعى بلمحة العصر) فينظر للانسان نظر العلم الطبيعى له أى بصفته أبداع الانواع الحية وأكمل نموذج للصورة المادية « إنا خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » ليس فى تركيبه الخارجى والداخلى ولا فى شكله الصورى والمعنوى زيادة ولا نقص لواتبع فى نموه قانون الحكمة الالهية، ولكن الخالق الحكيم إذعده إلى منصات من الكمال يحسر دون إدراكها التصور فقد متعه بخاصيتى الاختيار والارادة وأراه طريق الاعتدال والانحراف بالفطرة وبالوحى وصرح له بأنه إن اعتدل نال غايتى كماله المادى والأدبى وان انحرف ارتطم فى عقبات النقص وارتد الى أسفل من عالم الحيوان كماهى السنة الطبيعية فى هبوط العالى فقال تعالى : « إنا خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون »

﴿ نظرة على الأدوار التى تمتلئ العقائد ﴾

من أكبر الشبه التى يطعن بها فلاسفة هذا العصر صدور الملمين ، ويغض بها الماديون من أعين الاعتقاديين هى قولهم ان الانسان مر ويمر من عقائده على ثلاثة أدوار (أولاً) دور الاحترام والاجلال ، والاعتقاد بأنها نهاية الكمال (ثانياً) دور الشك والارتياب ، عند يقظة الأفكار والألباب (ثالثاً) دور العلوم والمعارف حيث يبلغ العقل أشده ، وينال الانسان رشده ، فيعلم أن الأديان أساطير الماضى ،

ووساوس الأقدمين فيتركها ويتجه للعلوم يحتلب درها ، ويستسقى ربابها ، ويكون بذلك كالشباب جاز دور الطفولة ، واتسم بصفات الرجولة ، تمر به مدركاته القديمة فيعدها حلماً لذيذاً ، وخيلاً مسلياً ، ويضحك منه كما يضحك من كل أفعاله وهو طفل ؛ ثم يأخذ في شأنه من الجد وراء الحقائق المحسوسة والدأب لاستغلال خير الطبيعة ، وتحسين حال بنى نوعه من كل الوجوه الممكنة

نقول ان هذه المقولة إن صدقت في نصف صروح العقائد التي أنس بها الانسان في دور طفوليته فلا تصدق على الاسلام الذي أرسله الله عند ما بلغ الانسان رشده وسمي الوصاية عليه . واليك التفصيل

المسائل الكبرى التي يطأطئ المسلم أمامها رأسه ويحترمها جهده هي بعينها كبرى المسائل الفلسفية التي ستبقى مادام الانسان نقطابارزة في حياته يزيدها مر الأيام وضوحاً وجلالاً ، وتكسوها زيادة العلم كالأوجلا وهي :

(أولاً) ان لهذا الكون الباهر غير المتناهي صانعا حكيما « لاتدركه الأبصار » « ليس كمثل شيء » « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » « خلق كل شيء فقدره تقديرا » ولا ينكر أحد أن هذه كبرى المسائل العالية التي لا يتصور زوالها بوجه من الوجوه . (ثانياً) ان للإنسان روحا غير مادية لها حياة خالدة في وجود غير هذا الوجود . وهذه أيضا من المسائل العظمى التي أصبحت اليوم الشغل الشاغل لكبار العقول كما تنقله عنهم

في كتاب ما وراء المادة

(ثالثا) ان لله ملائكة وهم خالق متجددون عن المادة «لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون» وهذه أيضا مسألة اثبتتها مسألة استحضار الأرواح اثباتا حاسيا كما استراه ان شاء الله

(رابعا) ان لله رسلا من الناس يتمتعهم بخاصية الاشراف على الملائكة الأعلى ويستودعهم اسرار وحيه ، وقوانين الدين ليلغوها الى أمهم «وما من أمة الا خلا فيها نذير» «وما أرسلنا قبلك الا رجالا بوحي اليهم» «كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق» وهذه أيضا مسألة كبيرة زادتها مسألة التنويم المغناطيسى واستحضار الأرواح جلاء ووضوحا لما أثبتنا من أن الروح الانسانية اذا جردت عن الاشتغال بالماديات أمكنها أن تستقى معلوماتها بدون وساطة المشاعر كما ستفصل ذلك ان شاء الله تفصيلا في محله من كتابنا

(خامسا) الكتب التي يرسلها الله الى خلقه أى وحيه الى أنبيائه وهى مسألة كبرى أيضا لا يرتاب فيها الا من يجهل مسألة التنويم المغناطيسى العصرى كل الجهل ورضى أن يكون واقفا من العلم حيث وقف ملحدو أوربا قبل قرن من الزمان وزعم أن الكون محصور على ما يعلم ... (سادسا) مسألة القضاء والقدر وهى مسألة عظمى توزعت عقول الفلاسفة أجمعين من القدم لليوم ولها انصار وزعماء حتى من الذين لا يعتقدون بغير المادة لأن تشبع الفكر العصرى بوجود نوااميس للكون ثابتة لا تتغير تجعل مسألة القضاء والقدر من نتائج العلم الطبيعى نفسه كما

سنفصل ذلك إن شاء الله تفصيلا .

هذه هي مسائل الاسلام التي نحترمها وأمرنا بالتفكير فيها للوصول الى المدركات العالية منها وقد رأيت أنها مسائل الانسانية كلها لا المسلمين وحدهم وانها مما لا يتصور في العقل عدم احترامها واعتبارها من المسائل الكبرى في أى دور من أدوار الرقى العقلى لارتباطها بحياة الانسان مباشرة ووقوفها في مهب فكره ومضطرب ذهنه .

أما دور الشك فان صح على العقائد الأخرى فلا يصح على الاسلام بوجه من الوجوه . الشك هو التردد في صحة شئ ودواؤه العلم . وقد رأيت أن المسلم ليس له من العقائد الا ما هو مغرور في طبيعة البشر حب الاهتمام به واعتقاده وهي تلك المسائل الست ؛ وبما أنه قد يطرأ الشك للانسان فيها لقلة علمه فالاسلام لا يعاقب الشاك أو المستشكل بالحرق بالنار أو بالصلب بل بدوائه الحقيق وهو العلم واستنزال روح الرحمة الالهية من قلبه ، وقد وعده الله بحسن النتيجة فقال تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » بل أئذ الضارب عن العلم صفحا بالطبع على قلبه فقال عز وجل : « كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون »

قلنا ان الاسلام جاء بعد أن بلغ العقل الانسانى أشده ولذلك فهو لا ينزل الانسان منزلة القاصر بل الراشد الذى له حق التصرف بفكره وارادته بخلاف الأديان الأخرى التي ادعى قادتها أنهم أوصياء على الانسان وانه لا حق له في استعمال عقله وفكره في شؤون حياته

إلا طبقا لما يوحى به اليه من التعاليم والقواعد وقد أساءوا استعمال هذه الوصاية لحدان الناس تركوا الدين من أجلها وتخلصوا من تلك السلطة بعد جدال وجلاد دام قرونا متوالية وعدى على حياة ملايين كثيرة من الأبرياء، أما الاسلام فلم يجعل لأحد من بنيه حق الوصاية على غيره بل أسبغ على الكل نعمة المساواة الحققة وآخى بينهم اخاء ملكوتيا لم يسبق له مثال في تاريخ العالم، وجاء الخطاب عن لسان العزة الالهية بهذا القسطاس العادل: « الجنة لمن أطاعني ولو كان عبدا حبشيا والنار لمن عصاني ولو كان شريفا قرشيا » ولذلك تراه يخاطب أبناءه عموما بلسان واحد لا يخص بالخطاب طائفة دون طائفة ولا قبيلة دون قبيلة، ولم يعلق نجاة روح على روح أخرى وفي هذا الحديث الشريف أكبر عبرة لمن يعتبر: « اعمل لي يافاطمه فاني لأغني عنك من الله شيئا » وهذا غاية ما يتوق اليه أنصار حرية النفس، ومحبو رفع القوة الاستبدادية.

أنظر الى هذا المثال الباهر من الحرية وقارنه بذلك الاستعباد الهائل الذي طوق به قادة الأديان الأخرى أعناق أتباعهم حيث عقلوا نجاة السواد الأعظم منهم بشفاعاة رجال قلائل أو رجل واحد. ولا غرو فانهم يتصورون الخالق تعالى على صورة الملوك الارضيين الذين لا يمكن التقرب اليهم الا بالتوسل بحاشيتهم وذوى الزلفى منهم، أما المسلم الذي ينزه خالقه عن مشابهة المخلوقين، ولا يجرى عليه صفة الملوك الأرضيين، ويعلم أنه أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، وأنه

ليس بينه وبين عبيده حجاب ، ولا جلاوزة ولا حجاب ، وأنه سميع مجيب « وهو أقرب اليه من جبل الوريد » فانه لا يحتاج لمن يقربه اليه زلفى غير صالح أعماله ، وعقائل صفاته . أما التعلق بشفاعاة الشافعين ووسيلة الوسطاء والمقربين ، فليس من عقيدة المسلمين ، ولا صفة لها عندهم فى الدين ، وما ورد من ذلك عندنا ففقيه بأذن الله ومعلق على أمره بالنسبة لبعض مستحقى المغفرة قال تعالى : « من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه » « وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . » أما أولئك الذين ليس فى أعمالهم مايؤهلهم للحظوة بمغفرة الله فلا يستطيع أحد أن يشفع عنهم قال تعالى : « فما لهم من شافعين » « فما تنفعهم شفاعاة الشافعين »

هذا الأصل وحده هو أهدى قائد لنفوس الآخذين بالدين الى باحات الحرية ، وأقوى باعث لهم الى ساحات المساواة الأخوية ومن يعلم أن الحرية أصل كل الأصول المهدبة للأمم الرافعة لها الى منصات العظم ، الباعثة الى نفوسها روح الهمم ، يتحقق معنا أن هذا الأصل كان من أقوى الأسباب التى نهضت بأسلافنا الأولين ، الى أعلا عيليين بينما كان غيرهم فى أسفل سافلين ، مأسورين لرؤساء الدين ، ويتأ كدمعنا أنه كما كان سبب اسلام عشرات الملايين ، من الأقوام البعيدين عند ظهور هذا الدين هرباً من الضغط المهيمن ، كذلك سيكون هو نفسه الجاذب للعواطف ، المالك للأمال فى هذه القرون وما بعدها حتى يخلص السلطان للاسلام ويكون الدين كله لله . فان روح هذه العصور المتأخرة

قد بعثت الى قلب الانسان حب الحرية والمساواة وسينمو هذا الشعور في الانسان بتوالي الحوادث حتى لا يكون عليه سلطان غير شعوره الخاص وعواطفه الذاتية ، وأين يوجد ما يلائم هذا التطور غير الاسلام الذى يخلى بين الانسان وربّه ، ويرفع الحجب بينه وبين مالك حياته « قل انى هدى ربي الى صراط مستقيم ، ديناً قيماً ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شئ ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

والباحث فى أسباب خلع أوروبا لطوق العقائد يرى من أهمها مسألة الشفاعة والوساطة . قال الفيلسوف (لوسيان اريا) فى كتابه (عقائد الغد) : « ان كراهة الناس لرؤساء الدين هى التى ولدت فى أكثرهم كما يظهر لى المجافاة للدين . فان الخطر جاء من تسخير الناس بسبب الدين نفسه . ومع هذا فلم تكن وظيفة الكاهن من مواضع المناقشة فى مؤتمر الأديان ولكنها فيما أرى من المسائل الأولية التى يجب حلها فى مستقبل قريب » انتهى . وانك ترى علماءهم وفلاسفتهم يعدون عدم وجود الوساطة من ضمن المزايا الكثيرة التى للاسلام على سائر الأديان وأقرب شاهد على ذلك ماورد فى (المجلة) الفرنسية فى جزء ١٥ مايو وهو : « ليس فى الاسلام البتة لاطقوس

دينه ولا أسرار كهنوتية ولا كهان ولا هياكل ولا شيء مما يعتبر شرطاً أصلياً في أداء العبادة . بل فيه أن الانسان شفيح نفسه امام خالقه قتره يرجو بذاته رحمة ربه وغفرانه . وبعبارة الاصطلاحات الدينية الاسلام بعد وجود الجمعيات الكهنوتية والسلطة الروحية من البدع المضادة لنص العقيدة .

قلنا الاسلام ينزل الانسان منزلة الراشد لا القاصر ولم يكلفه من العقائد الا ما لو خلى ، ونفسه لاهتم بها لأنها نتيجة عواطفه المغروزة في طبيعته ، وقلنا انه لو شك فيها يعالجه بعلاج الشك وهو العلم لا بالضغظ على فكره أو حرق جسده كما فعل غيره . لهذا جعل العلم قوام الدين وملاك اليقين حتى فرضه على عموم أتباعه من ذكر أو أنثى ، وسن لهم كل ما من شأنه زيادة العلم ونموه أدته ، كالسياحة واستشراف أحوال الأمم وتعرف نوااميس الحايقة والعمران . وكانظر في الكون وتنور أسرار الكائنات . حتى قال عن السياحة « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا . الخ الآية » « قل سيروا في الأرض فانظروا الخ الآية » وقال عن النظر في الكون « وفي الارض آيات للنوقين وفي أنفسكم ، أفلا تبصرون » فانظر كيف أن السياحة واستطلاع أحوال الأمم والكون التي شككت اليونانيين في عقائدهم قبل الميلاد بأربعائة سنة ، وحلت معاهد عقائد الأوريين في ابان اختلاطهم بالمسلمين واشرافهم عن مدينتهم كما أثبتنا لك ذلك في كتاب الانسان ، قد ندب اليها الاسلام بصفاتها مقوية للعقيدة ، مثيرة لروح الدين ، مثبتة

الأراكين اليقين حتى قال الله عن السياحة « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » وقال مبيكثا الذين لا ينظرون في مساير الطبيعة « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » فأى فرق هائل بين دينين يقوى أحدهما بما يهدم الآخر، ويحيى بما يلاشى ضده ؟

السياحة تزيد في سعة المدارك وتشرف بالانسان على أسرار العالم وعلى نواميس العمران والخراب في الأمم، وعلى أسباب المدنية والوحشية في الشعوب وتجعل للانسان فكرة عامة على معنى الحياة الانسانية الصحيحة. والنظر في الكون نتيجه توسيع نطاق ساطة العقل الانسانى على الادراك والسرمان فى ضمائر الكون، والوقوف بالتصور والفكر المواقف التى هما جديران بها من هذا العالم البديع، وتخويل القوة البشرية خاصية استخدام قوى الكائنات فى تحسين الحياة الانسانية وتهذيبها بما يفتح للعقل من مغلق المساتير ومؤصد الأسرار. وهذا كله كما لا يخفى يعلو بالعقل والفكر ويسمو بهما درجات متوالية على نسب محسوسة فيحصل مايسمونه الترقى فى الهيئة الاجتماعية، وهذا الترقى كما يحصل فى الصنائع والفنون كذلك يحصل فى المدركات والعقائد، والدليل على ذلك أن كل أمة تترقى تترك عقائدها وتهجرها لتطلب عقائد أرقى منها. وقد شعر بذلك رؤساء العقائد فحرموا النظر على أتباعهم، وقرروا أن كل علم لا يوافق العقائد

فهو مردود باطل يستحق صاحبه سوء العذاب . فكيف يخالف الاسلام هذه السنة التي جرى عليها حفظة العقائد ويعلق كمال الايمان وتمام اليقين على ما أحدث الشكوك في أذهان الأديان الأخرى وانتزع العقائد من أفئدتهم ؟

ذلك لأن الاسلام كما قلنا لم يكف الانسان من العقائد الا بما لو ترك الانسان وشأنه لتعلق به من نفسه لانه نتيجة قوى عواطفه واحساساته ، وهى تلك العقائد الست التي ذكرناها آنفا ، ثم انه بعد ذلك لا يكف الانسان الا خلع نير التقاليد والوراثات والعقائد الباطلة عن عاتقه خلعا كلياً ليستوى بشراً سوياً خالصاً لله ، لا تماثلاً محشواً باقذار آبائه وأجداده ، ضلالات أسلافه وأواليه ، عقله أسير رئيس دينه ، وفكره مغلول عن البحث خوف الكفر ، كأنه مصاب بشلل فى قواه ومواهبه ، أو مسلوب التصرف فى نفسه . فما الذى يخشى على المسلم بعد ذلك من وراء العلم ؟ وهل للروح المسلبة غذاء غير العلم ، ونور غير الحكمة « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » انما يخشى الله من عباده العلماء »

اذا تقرر هذا فهل يسرى قانون الأديان التي تنتاب العقائد على الاسلام وهل يخشى على المسلم من تشبع فكره بأحوال الأمم وعظمة الكون وهل يليق بعد هذا أن يقال لمسلم انك لا ترتقى الا اذا خلعت طوق الدين من عنقك كما فعله غيرك من الأمم الراقية ؟ وهل يقال له انه من الحياة الانسانية فى دور الطفولية أو أنه يود أن

يبقى في ذلك الدور ويسابق الأمم الأخرى التي تجاوزته ؟
 ان الذي حرم المسلمين من التمتع بمزايا دينهم هو اضرابهم عن
 السياحات وعن تعرف الاحوال والنظر في السكون ومتى جاء ذلك
 اليوم الذي يأذن الله فيه للحقيقة الاسلامية ان تنفذ الى أوروبا من
 خلال هذه التعصبات القديمة المتكاثفة لما ترتق روحها السائدة في
 هذا الجيل عما هي عليه درجات أخرى ، فسترى في ذلك اليوم كيف
 يكون رجوع الحق الى نصابه بل كيف يكون الدين كله لله « ولتعلن
 نبأه بعد حين » .



سحر المدنية المادية

أطلنا التساؤل في فصل الانسان عن أثر المدنية المادية على
 المتدينين وطفنا بالقارئ على كثير من صور الشبه الرائجة في جيلنا
 هذا وهي الشبه التي تسلطت على مكان الشعور من أفئدة أكثر النشأة
 الحالية من جراء احتكاكها بزخارف الصناعات التي تجرفها الينا سيول
 الترف الأوربي وصارت فتنة للأعين والعقول معا ، وبلغت منا مالم
 تبلغه الطبا من الهوادي ولا الرماح من الأفئدة فلم نر بدا من مناقشة
 هذه الأفئدة المفتونة الحسب في كتاب حكيم القلوب الأعظم خاتم
 النبيين محمد صلى الله عليه وسلم لنستطيع بعون الله وقوته أن نوجه
 إليها شعاعا ساطعا من روحه الكريمة يمزق غياهبها ويكشف كسفها
 ونهتدي به الى كنه المدنية الفاضلة التي جاء صلى الله عليه وسلم يدعو
 (م — ١٨ — أول)

العالمين اليها بذلك الكتاب الكريم الذى يهدى للتي هي أقوم .
قال الله تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم » وقد حقق وعده وأرى العالم آية هي أكبر آياته في خليقته ، وذلك بأنه بعث في الأميين رسولا منهم في الحين الذى أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، وناهيك بمديتي الرومان والفراسيين وقد رأيت في فصل الانسان لمعة صغيرة من وصف مدينة الفرس حين ملكها الاسكندر وأمامدية الرومان فكانت لا تقل عنها في شيء بل تزيد عليها في كثير من الشؤون ، ولكي يبرهن الخالق الحكيم لعموم النوع الانساني على أن الفضائل روح إلهية اذا حلت في الأمة رفعها الى أعلا عليين ولولم يكن في وسائلها الطبيعية ما يؤهلها لذلك الرقى المبين ، وسادت على سواها وإن كانت أصغر من ذلك في أعين الناظرين ، اختار الأمة العربية على أنها كانت من عدم الوسائل الطبيعية بحيث دامت آلافا من السنين حافظة شكلها ، وواقفة مكانها ، أعرض عنها سائر الفاتحين يأسا من استصلاحها وتفاديا من العناء الذى يأتى من قبلها ، فلما أرسل الخالق رسوله اليها حاملا روحا كريمة ، مكث بين أظهرها ثلاثا وعشرين سنة سقاها في خلالها من ذلك الحوض المملوكى جرعاً بعثت اليها حياة جديدة وصبغتها بصبغة إلهية ، فاصبح العرب وبين جوانحهم قلوب كأنها انفصلت من المملأ الأعلى قدملت بأنوار الحق وتشبعت من روح الفضيلة ، فهبوا يحققون وعد الله من أحقاق الحق وازهاق الباطل وتأسيس خلافة يطأطئ أمامها كل جبار

عنيد ، وتعنو لها جهة كل عات صنيدي . كان يلزم أن يكون هؤلاء القوم الذين كانوا بالأمس يسكنون في الصحارى ويجولون في الفياض أكثر الأمم تأثرا بسحر المدنية وانسجارا بالموهات الصناعية . كما يشاهد من البدو اذا جاؤا الى المدائن العامرة ولكن سبحان ربي الذي جعل في كل شأن من شؤون خاتم أنبيائه معجزة باهرة فان أصحابه قد خالفوا كل السنن النفسية المعروفة ، وبذل أن تنهر أبصارهم وتندesh بصائرهم عند رؤيتهم تلك المعاهد الفاتنة في مدينتي الفرس والرومان قابلوها بفتور الأنف منها ، المحتقر لها ، ترفعا عما فيها من الجرائم السامة للفضائل ، القاتلة للعواطف ، فلم تلفتهم عن شأنهم بل قابلوها بأفئدة عرفت حقيقة الحياة الصالحة واطمأنت الى ما وعدّها الله به من السعادة الحقّة ، والكمال الخالص ، فلم يقيم منهم داع الى تقليد في بدعة ، ولا محاكاة في ضلالة ، ولم تمت من احتكاكهم بها غيرتهم ، ولم تنحل بسحرها الفاتن همهم ، بل استقاموا على صراطهم وهو الصراط القويم ، ووزنوا الأمور بقسطاسهم وهو قسطاس العدل المستقيم .

ان هجس بهم هاجس وصور لهم أنهم قليلون مستضعفون ، وان أضدادهم كثيرون قويون « تذكروا إذا هم مبصرون » وقالوا « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » « انه لا يأس من روح الله الا القوم الكافرون » وان نزغ بينهم الشيطان وقال لهم أين أنتم من لحاق هذا الشأو

الباذخ ، ونوال مثل هذا الشأن الفخم ؛ قالوا كما كانوا يقولون قبل ذلك « هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا إيماناً وتسليماً » وتلوا على أنفسهم : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم الخ الآية » .
وان همس لهم هامس وأراد ان يفتنهم بتلك الزخارف التي كانت تقع تحت أنظارهم قالوا هذه سعادة الدنيا ونحن لا نريد الا السعادين معاقرأوا : « ومن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » وان أراد الشيطان أن يوهمهم باستحالة الجمع بين سعادتى الحياتين ويريهن أن الدين ليس بشرط في سعادة البشر بدليل قيام أضدادهم بدونه قالوا : « واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرا خلاهما نهرًا وكان له ثمرة فقال لصاحبه وهو يحاوره ، أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً ، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً ، قال له صاحبه أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً . لكن هو الله لا قوة الا بالله ، ان ترن أنا أقل منك مالا وولداً فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء

فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح مأوها غورا فلن تستطيع له طلبا ، وأحيط بشمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربى أحدا . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبي) « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » « سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

لم يأتهم الشيطان من جانب إلا سدوه في وجهه بآية من كتاب الله وسنة رسوله فلم يمر عليهم قرن من الزمان حتى أصبحت الدنيا دنياهم والخلافة فيها خلاقهم ، ترتعد الملوك عند ذكر سلطانهم ، وتهتز العروش خوفا من نفوذهم ، وصارت لهم مدينة كسفت بنورها كل مدينة ، وبلغوا بها ما لم تبلغه أمة قبلهم ولم تزل آثارهم تدل العموم على عظم مكانتهم وسمو أرواحهم .

قال (دروى) المؤرخ احد وزراء معارف فرنسا السابقين : « بينما أهل أوروبا تأهون في دجى الجهالة لا يرون الضوء الا من سم الخياط اذ سطع نور قوى جانب الأئمة الاسلامية من علوم أدب وفلسفة وصناعات وأعمال يد وغير ذلك حيث كانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان وبصرة وفاس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف ومنها انتشرت في الأمم واغتنتم منها أهل أوروبا في القرون المتوسطة صناعات وفنوننا » يأتي بيانها « نقل المؤرخ (سديو) عن (هومبلد) « ان العرب خلقهم الله ليكونوا

واسطة بين الأمم المنتشرة من شواطئ الفرات الى الوادى الكبير
باسبانيا وبين العلوم وأسباب التقدم فتناولتها تلك الأمم على أيديهم
لأن لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم أثرت فى الدنيا تأثيرا لا يشبه
بغيره » ثم قال : « وهذا حجة على أنهم كما قال غيرنا ونحن نعرف
به أساتيدنا ومعلمونا »

وقال (دراير) أستاذ بكلية نيويورك بأمریکا : « ان أقوى
وأكبر الممالك الدينية التى لم ير العالم مثلها قد ولدت فجأة وامتدت من
المحيط الا تلاتيكى الى أسوار الصين ومع ذلك فلم تك قد بلغت نهاية
ما قدر لها من الامتداد والنفوذ فلقد أتى عليها بعد ذلك حين من
الدهر طردت فيه خلفاء القياصرة وملاكت بلاد اليونان ونازعت
النصرانية السلطة على أوربا ونشرت نفوذ عقائدها خلال الصحارى
الوحشية والغابات الموبوءة من أول شواطئ البحر الأبيض الى خط
الاستواء » « لقد طافوا (العرب) معاهد الفلاسفة والعلم بسرعة تشبه
السرعة التى طافوا بها مملكة الرومان » « انا لتأخذنا الدهشة أحيانا
لما نصادف فى كتبهم آراء علمية كنا نظنها نشأت فى هذا القرن .
من هذا القليل مذهب النشوء والترقى للكائنات العضوية فقد كان
يدرس فى مدارسهم . »

وقال عن مدنيتهم : « ان خلفاء الاندلس كانوا محاطين بأنواع الأبهة
التي هى من لوازم الحياة الشرقية ، وكان لهم قصور عامرة ، وحدائق
زاهرة (وسرايات) يعمرها الجلالة والجمال وان أوربا بالحالية (تأمل)

لا تعلق في حسن الذوق والرفقة والظرف في شيء من أشياءها عما كان في العواصم العربية الأندلسية في الزمن الذي تتكلم عنه . كانت شوارع هذه العواصم مضأة بالليل ومبلطة بتليطامتنا . وكانت البيوت مفروشة بالبسط ومزينة حوائطها بالنقوش وكانت تسخن في الشتاء بالمدافئ وترطب في الصيف بتيارات من النسائم المعطرة تصل اليها من سراديب تحت الارض مغطاة فوهتها بالأزهار الزكية ، وكان لهم حمامات ومكاتب ومحلات للغذاء وفوارات للبياه والزئبق . وكانت المدائن والأرياف حافلة بالاحتفالات والرقص الذي كانوا يأتونه على نغمة (العود) و (المزهر) وكان شعار العرب في ملاعبهم القناعة وطلاقة النفس ، بخلاف جيرانهم الغربيين فقد كان ديدنهم النهم في الاكل والادمان للسكر . وكان الخمر حرام عليهم لا يقر بونه وكانوا يتمشون في حدائقهم في الليالي القمرية وفي غياضهم المنعزلة المزروعة برتقالات وهم يصغون الى قصة أدبية أو يتجاورون في بعض المواضيع الفلسفية مسلمين أنفسهم عن أحزان الدنيا بقولهم : انها لو كانت خالصة من شوب الآلام لأنستنا الحياة الآخرة ، وراضين بالكد والتعب في المعيشة الأرضية أملا في نوال الراحة الآخروية الدائمة . انتهى

هذه مدينة سامية لا تقل في نظر (دراير) وغيره في حسن الذوق والرفقة والظرف عما عليه أوربا اليوم ولقد نالها آباؤنا في أقل من قرن واحد بمحض سيرهم على صراط العدل المستقيم المبين في القرآن الكريم .

كونوا هذه المدينة وطبعوها بطابع اسلامي محض وأثروا بها على سائر الأمم ولم يتأثروا بهم بشيء منها .

وإن تعجب من هذا فاعجب منه انه كانت مساجدهم بجوار هذه المعاهد الفتاة عامرة بالمصلين والشعائر الدينية خافقة الاعلام على الرؤوس أجمعين يقول المؤذن حي على الفلاح فتجيبه الارواح قبل الاشباح ، وتسجد لدائه الأفئدة قبل الجوارح ، لا كما نحن اليوم يفتنا ملهى قدر عن أكبر مطلب من مطالب أرواحنا ، ويأخذ بعقولنا مرقص مخجل عن أسمى رغبة لنفوسنا ، حتى أن ما أقيم في بلادنا من تلك المعاهد التافهة التي لا تساوى جزأ مما كان لأبائنا قد أنسانا الدين والدنيا والشرف والحياة .

السبب الأكبر لما ألم بنا من السحر بهذا البدع الجديد ، واغتال من نفوسنا أشرف عواطفنا ، هو ولا شك العناية المطلقة عن قوانين الحياة ، ولقد بلينا بكتاب فقدوا رشدهم من سحر هذه المدينة الجديدة فقابلوا الأمة وهي في غفلة عن ذاتها فصوروا لها المدينة الحالية في صورة خيالية محضة ، وانتهزوا فرصة فتور حركتها فافؤأدها بأسا من لحاق شأو الأمم الأخرى ، ونفثوا في روعها القنوط المطلق وسموم الاستخذاء للأقوياء ، وقتلوا كل عاطفة شريفة فيها فنشأ تحت هذه النعمة نشء من الناس مستعدين للتقليد والمحاكاة فسلكوا المسالك التي نسعى جهدنا اليوم لردهم عنها ولولا أن اليأس كفر في مذهبنا لقلنا قد استعصى الداء وعز الدواء ولكن الله غالب على أمره والافراد

كلاهم في قبضة الله يميتهما وينشرها ولا معقب لحكمه . « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله »

أى شئ يكسر من شرة أولئك المترنمين بمدينة هذا الجليل أ كبر من نقل أقاويل أصحابها في بيان نقصانها وانها ساعية بالأثم الى حتفها ان لم يقوموا بها على صراط الدين الحق ؟

قال الفيلسوف (فيرنس جيفرت) « ان العلم قد غلا في الاستفادة من سرعة تصديق العامة أكثر مما غلا رؤساء الدين ، فلقد أثبت لها عدم صحة رموزها الدينية القديمة ووعدها بتعويضها لها بأصول ثابتة أبدية لدين حسي جديد ، فلم يف بوعده لها . ولما آب للانسانية رشدتها ، وقد فقدت شعرياتها السابقة ، وجدت نفسها حيال فراغ أوسع مما كانت فيه قبلا . وفي الواقع ماذا يفيد الانسان علمه ببعض الحوادث الطبيعية بجانب ذلك الاتحاد المتجدد المؤلم الذى يجرنا اليه ضميرنا الفاقد لحرارة الحياة »

« انهم ينصحون كل انسان بأن يكون لنفسه دينه الخاص ، ولم يفطنوا الى أن هذه النصيحة المزدوجة تحتوى على تناقض بين حيث ان المذهب الحسى لم يترك للانسان مجالا في غير المسائل المادية المحضة .

« ان الحقد والعداء يزدادان يوما فيوما في نفوس أهل البأساء المحكوم عليهم بالفاقة الى الأبد ، وان جنون البذخ والجبروت ينمو على قدر ذلك لدى أهل اليسار والبذخ . وهذا الاتحاد الآخذ في النمو

يسوق جمعياتنا بعاطفة المساواة الى حالة ثورية دائمة . وأصبحت ترى الملوك العظام يتعاقبون على عروش الملك بسرعة لم تكن تشاهد في وزراء الأزمنة الماضية . والحكم الاستبدادى بدل أن يتشبح في بعض الافراد أضحي منتشر بين الملايين فكل ديموقراطى يتمنى أن يبلغ الرتب العلية وترى الشعب لما أحس أنه خلص من أسر الواجبات الوحية التى تفرضها الكنيسة وازدرى بذلك الدستور السياسى الذى يراه يتغير بسرعة جنونية أعطى لعاطفة الاثرة فيه كل الحرية وصار يعتبر أن ماله من حق المساعدة فى ادارة شؤون حكومته وسيلة لنوال مآربه الحيوانية بأسرع ما يمكن ولقد رجونا أن نداوى مصائب النوع الانسانى بالكنوز المادية التى ألقيت بين أيدينا من منذ قرن من الزمان . ولقد تكاتف العلماء والمهندسون والصناع والميكانيكيون على زيادة متاع الحياة الدنيا زيادة عظيمة ، ولكن لم يكن من نتيجة كل تلك المكتشفات الا نشرحى حب المال فى الطبقات السحيقة جدا .

« فأى قانون أخلاقى يكفى لكبح جماح أهوائنا وادخالها الى مجاريها الطبيعية المعتدلة » لقد ذهب عنا السكالم المعنوى ولم يبق فينا الا خوف مبهم من شىء غير مدرك . لأن العقيدة بالله لا يمكن زوالها من النفس فترى الذين لا احساس لهم يستفيدون من وراء ما وقعنا فيه من الظلمات ، وترى العقول المستنيرة بالعلم ، المحرومة من الدين تعذرهم فى ارتكابهم الجرائم ، وبهذا فقد أصبحت الشهوات غير واقفة عند حد »
وان تحت هذا السلم الذى اقتضاه الخوف العام لا حقاداً تختمر

اختاراً بأشد ما كانت في أى زمن من الأزمان . فان جرائم الفوضويين و افلاس المالمين وانتحار الأسر بأجمعها والوساوس الخرافية الآخذة في الانتشار بين الناس والجنون الذى لا ينتظر الا سنوح الفرص ، وأصحاب الاثره البائسين ، وكل هذا الفساد الخلقى الشديد الوطأة البعيد القرار الذى عم اجناسنا ناشئ من عدم وجود قاعدة دينية تصلح لاحداث الوحدة والاخاء بين احتياجنا الدائم للعمل وبين عاطفتنا للحب .

« لذلك ترى ظلمات من الحزن والكمد آخذة في الاسوداد كل يوم ملقية أطنابها على عالمنا . ويزعم الانسان في غروره ان حرية الاثره ستحصل له كل ما يتمناه من سرور وانسراح حتى صرنا وكل يوم لنا مطلب جديد وكل طائفة تسعى لنوال امتيازات جديدة ، وكل فرد يدعى لنفسه حقوقا ليس لها حد تنتهى إليه وبذلك فقد أصبح الانسان بين هذا العذاب المنصب عليه من الكبر والتمرد معترفا بأنه أمام الحياة أضعف مما كان في أى زمن من الأزمان »

وقال العلامة (كاميل فلامريون) ونظن أنه غير مجهول لدى المسلمين : « لا يجوز لنا أن نخجل من الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط لاننا راضين به وأصبحت عقولنا المتشعبة بالآثره لاهم لها إلا اغراضها الذاتية أليس حظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلا مبالاة بوجوه جمعها ، والحصول على المجد بطريق الاغتيال لا الكسب والجمود وعدم الاهتمام بالدستور والواجبات ؟ » « وإن من التناقض

البين المؤلم أن ترى أن الرقي الباهر الذى حصل فى العلوم مما لا مثيل له فى التاريخ ، وأن هذه الفتوحات المتوالية التى تمت للانسان فى الطبيعة بينما رفع عقولنا إلى المدرجات العالية أهبط انسانيتنا إلى أخس الدرجات . ومن المحزن أن نحس بأنه بينما نشعر ببناء قوتنا يوما بعد يوم ، تنطفى حرارة قلوبنا وتتصوح زهرة حياتنا القلبية بتأثير غلبة المطامع المادية والشهوات الجسدية » انتهى .

هذا تمهيد بسيط سقناه أمام الكلام فى حل الشبهة الماضية ليعلم أولئك المتفقهون بزوال الدين وقيام العلوم الطبيعية مقامه أن سنة الله لا تتبدل ، وأنه سيجىء يوم يرى الانسان فيه أن الدين دواء الوحيد ، وأن ما كان فيه من تلك العجرفة والكبرياء لفحة من لفحات الشيطان ، ولكنه فى ظننا لا يعود حتى تصهره الحوادث صهرا وتؤدبه بعصاها أدبا ينتقش فى كل ذرة من ذرات جسمه « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز »

هذه الفتنة العمياء التى يموج فى دياجيرها الأوربيون الآن بشهادة من تنقل عنهم من كبار علمائهم أتهم من الرقى الصناعى المدهش الذى حصل لهم لما تركوا عقائدهم التى كانت تحول بين عقولهم وبين مشتهياتها من العلم ، فبدل أن يقفوا عند حدود الدين الفطرى جازوه إلى متاهات الالحاد وقالوا إذا كان كل ما نلناه من سعادة هو من العلم فلا نعترف بناموس غيره وقد أريناك بعضا من أقوال عرفائهم فى هذه الفتنة العلمية الخطيرة وهو دور من أدوار حياة الأمم أشار الله اليه فى كتابه

الكريم بقوله تعالى : « فاذا مس الانسان ضر دعانا ثم اذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم (تأمل) بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون . قد قالحا الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين » .

*) (الشبه العامية والعقائد) *

استعرضنا أمام القارئ في فصل الانسان تحت عنوان « نشأة الروح العلية التي يسيطر بها الغرب على الشرق » كثيرا من الشبه العلية التي تلوكها اليوم بعض الألسن وتجيش في كثير من الضمائر ، واستدركناها في كتاب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم بفصل تمهيدى اجمالى ووعدنا قارئنا بالتفصيل الشافى فتنجز اليوم وعدنا فنقول والله ولى المؤمنين :

قلنا فى ذلك الفصل : « فهل فى هذا دليل على قول بعضهم من الملاحدة ان الدين باعته الجهل ومادته الحماية عن حقائق الكون ؟ وهل فيه حجة للقائلين بأن الأديان الموجودة هى حوادث تاريخية استلزمها أدوار خاصة ، وقد أدت وظيفتها وأخذت فى الانحلال ولن يقوم لها فى عصر العلم قائمة ؟ »

وقلنا : « فهل فى الرقى المادى شىء من السحر يعترى النفوس فيلفتها عن مطالب أرواحها ويعميها عن رؤية كالاتها ؟ ان كان كذلك فما هو ذلك السحر فى نفسه وما منشؤه وكيف يؤثر على العقول هذا

التأثير المدهش ؟ وهل لا يمكن أن يوجد على سطح الأرض مدينة مادية متحدة بكمالات روحانية ويكون الانسان بينهما مغمورا في نعيم روحه وجسده متمتعا بلذائذ مادته ومعناه ؟ ان كان لا يمكن ذلك فهل شرع الدين ليكون مقصورا على الفقراء والمساكين ، وموقوفا على المحرومين والمستضعفين ؟ وان كان من الممكن جمع مدينة مادية وكمالات روحية فما بال بعض المسلمين الذين قضى عليهم بالاحتكاك في قشور هذه المدينة الأوربية قد خلعوا أعتة الدين وأملسوا من وشيجة العقيدة ؟ »

ثم قلنا : « ماهي المدينة وما تأثيرها على الروح الانسانية ؟ ماهي الشهوات الجثمانية وما هي الكمالات النفسانية ؟ لماذا يفضل الانسان الشهوات الفانية على الكمالات الباقية ؟ هل السبب في ذلك عدم الايمان ؟ فما هو الايمان ؟ كيف يقوى وكيف يضعف ؟ هل في العلوم المادية ما يقوم مقام الدين في إيتاء الروح حاجتها وتهدئة النفس في جيشانها ؟ هل فيها ما يغذى عواطف الروح ويجعلها تقنع بنعيم الحياة الأرضية وتكتفي بملاذها الجسدية ؟ هل نمو القوة العقلية ينتهي بالانسان الى اعتقاد بطلان الأديان ، وادراك فساد ما بنيت عليه من الأركان ، فيكون الشأن تأخر الدين كلما تقدم العقل حتى يتم الأمر بزوال الدين وانتهاء سلطته وقيام العقل مقامه في أداء وظيفته ؟ . » ان قيل نعم فما هو العقل وما هو الدين وما حدود سلطانهما على النفوس ؟ » وان قيل لا نقول : اذن ما هذا الأثر الذي نشاهده ؟ » ان قيل : ذلك لما تسهله المدينة

لهم من أسباب اللهو والترف ، وما تجلله لهم من المغريات على الخلاعة والسرف ، نقول : وكيف يقوم الأمثال هذه الأمم قائمة وكل ما ذكر من صنوف اللهو محلل لروابط الهيئة الاجتماعية ، عاد على كيان حوافظها الأصلية ؟ هل ذلك لأننا وهمون في تحديد ماهية الفضيلة وماهية الرذيلة ؟ « ثم أوردنا على أنفسنا قول معترض يقول : « انكم تتعجبون من كونكم مسحوبين من أنوفكم الى تقليد الأوربيين والأخذ بعاداتهم ، وتذهبون في تحليل هذا الأمر مذاهب الخيال والشعر فتسمونه سحرا أو تسمونه روحا وقد جعلتم التفيق بأمثال هذه الكلمات مادة لكم في أبحاثكم وكتاباتكم . أتدرون ما تجدونه في أنفسكم من الاندفاع للتقليد أثر أى قوة هو ؟ هو أثر قوة الفضيلة فى الأمم التى تحتكون بها لأن الفضيلة جذابة خلافة تؤثر تأثير السحر على العواطف والأميال فهى تجذبكم كل يوم إليها بقوتها الذاتية فترضخون لأحكامها بالفعل بينما تكون ألسنتكم وأقلامكم لائكة تلك العبارات الاستفهامية ، والجلل التعجبية اندهاشا من كونكم مسحورين بالردائل ، ومجبزين على ترك الفضائل . »

هذا ما قلناه فى الفصل المذكور آنفا وآتيناه به هنا لمناقشته الحساب من قريب خشية أن يكون الرد فى مجال والشبهة فى مجال آخر فيعضل الموضوع على المطالع فلا يهبه من العناية ما يستحقه فلنبدا الكلام والله المستعان :

تمهيد

لو أردنا أن نعالج كل هذه الشبه التي سردناها واحدة بعد أخرى لطلال بنا الكلام وتشعبت بنا فنون التعبير وذهب فكر القارىء مع قلبنا مذاهب بعيدة يصعب معها اشرافه على مجموع المقال، ويتعذر عليه الاحاطة بأطرافه من أول جولة فتضيع الثمرة التي تقصدها بالذات من اشباع القول في هذا البحث. لهذا رأينا أن نحدد ميدان المناقشة في دائرة محصورة يستطيع القارىء أن يلم بمحيطها من أول نظرة ويدرك لها مركزا معلوما؛ ولا حرج علينا بعد ذلك أن مددنا انصاف اقطارها الى حيث يقتضيه منا خطر الموضوع، فانه مادام واقفا في مركز الدائرة يمكنه أن يتبّع خطوات القلم الى حيث يشطح ثم يعود بنفسه الى النقطة التي خرج منها ليتجه حيث أراد بدون أن يخشى الشرود عن جوهر الموضوع.

هذه الدائرة التي نقول عنها هي عبارة عن بسط مقدمات أولية أساسية صالحة لأن تكون لهذه المباحث كالحُدود المرسومة للبناء، لا نرى بداً من اقامتها ومن الله نستمد القوة والحول :

﴿دستور الكائنات ودستور الانسان﴾

لكل كائن في عالم الكون دستور يسير على موجهه في حياته،

وتريد اليه سائر محاولاته ، حتى ان الجمادات والنباتات ليست محرومة من دستور خاص بها ملائم لأحوالها وان كانت لم تتمتع من خصائص الادراك والتمييز بما يشعرها به ويهديها اليه ، وليس دستوراهما الا النواميس الطبيعية المسطرة على كيانهما حتى انك لو كلفت شخصا من أشخاص الجمادات أو النباتات بما لا ينطبق على تلك النواميس أى على دستوره الخاص لقاومك وأعيك ، فاما ان تقلع عنه وإما أن يذهب فقيد هواك . فأما الحيوانات الحاصلة من الحياة على قسط أكبر من هذين العالمين السابقين فدستورها أوسع مجالا ، وأبعد اختصاصاً وأنأى مرامى وأغراضا ، ولكنه مهما اتسعت مجالاته ، وتشعبت اختصاصاته ، فلا تتعدى مراميه الحاجيات المادية ، والمطالب الجسدية ، وليس فيها من القابلية والاستعداد مهما ارتقى وتهذب لأن ترمى لما وراء حسها بأى وجه من الوجوه

أما الانسان فقد دل حاله بالاستقراء على أن عوامل دستوره لا تقف به عند المطالب الطينية ، بل تتعداها الى باحات أخرى معنوية لا يحددها له الوهم بحد ، ولا ينتهى منها تصوره الى غاية . وكلما ارتقى في الفكر والشعور درجة اتسعت أمامه تلك الباحات المعنوية درجات كثيرة ، وزادت شدة العوامل الدافعة اليها حتى أنه قد يصل من الالتذاذ بالمعاني لدرجة يضحى معها الماديات فى سبيلها ويكتفى من بواعث الحاجات الجسدية بما يسد الرمق تفرغا لتلك المطالب العالية ، وجريا وراء أمانيه منها . وقد شوهده من أحوال الانبياء أنهم مع

سمو مناصبهم ، واستطاعتهم للتنعم بالماديات فوق ما يستطيعه الملوك والقادة لتسلطهم على أرواح الناس وأجسادهم ، كانوا يكتفون من الخبز ببقيات تقيم صلبهم ، ويلتفتون من عالم القدس وأنوار الجمال الالهى لما هو أكبر من الدنيا وما فيها فى نظرهم . وأعظم مثال تقدمه لقرائنا حال سيد الانام محمد صلى الله عليه وسلم فقد كان من السلطان على رعيته فى درجة لم ينلها عشاق الملك ومؤسسو الممالك بحيث أن كل واحد من أتباعه كان يهون عليه أن يفديه بنفسه وأهله وماله ، ومع ذلك فقد أبت نفسه الشريفة كل ذلك النعيم الفانى ولم يصب من حاجيات بدنه الا ما يقيم شخصه اكتفاء بذلك الصفاء الروحانى الذى كان يشعر به مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وتدلنا سيرة كبار أصحابه وعظماء تابعيه فى كل الأجيال أن منهم من تبعه فى هذه الخطة الشريفة فانغمر مما يتوق اليه فى بحر من الفيض الالهى لو وضعت الدنيا بلذائدها فى صدقة من أصدافه لما وازنت أصغر درة من درره المعنوية الكريمة .

نعم ان تاريخ النوع البشرى ليدل دلالة صريحة لاسيما لو استقرينا أحوال الأمم المرتقية منه على أن دستور الانسان فى حياته ، الذى يسيطر على سائر حركاته وسكناته هو غير دستور العالم الحيوانى ولا هو ترق منه الحيوان لاهم له إلا خدمة الجسد ، واداء مطالب البدن ، يعيش ويموت أسيره وخادمه ، والانسان على الضد منه : له مرام أبعد مدى ، وأغراض أشرف مقصداً ، وهو طلب كمال يشعر به فى صميم ذاته ،

ويتضرم لأجله في لباب كيانه ، وان لم يستطع ان يصوره بصورة ،
أو يقف منه وهمه على كيفية

نعم خلق الانسان مغرما بالكمال ، ولهان به في كل حال
فهو لا يأكل ولا يشرب ، ولا يسكن ولا يلبس ، ولا يحارب ولا يسلم ،
ولا ينقض ولا يسهر ، بل ولا يماكر ولا يداجي ، ولا يدلس ولا
يحاجي ، وان شئت قلت ولا يسرق ولا يقتل إلا وفي قلبه نار تدفعه
لطلب الكمال ، وترعه عن الوقوف في الأوحاوان غلط في اختيار
الوسائل ، وارتكس بجهله الى أخس المنازل

طلب الكمال صفة من صفات الروح الانساني ، ولازم من لوازم
تركيبه الروحاني بل هو النتيجة اللازمة لكل هذه العواطف والأمال
والقوى التي ركبت في هذا الفؤاد الحفاق الساكن بين الجوانح !

دع عنك لحظة ما تعرفه من حال الانسان في جهله وعمايته ، وما
تسمعه من غيه وضلته ، وما أكسبته له التربية الرديئة من الصفات
الحيوانية ، والأمال السفلية ، كالايغال في المآثم ، والانغاس في أقذار
الجرائم ، وأرجاس الذمائم ، وانظر اليه بشرا سويا خالصا من مؤثرات
التربية المعوجة والوسط المفسد ، طاهرا من شوب التقليد والوراثات .
تركاثنا أعطى من القوى والمواهب ، ومنح من الملصكات والبواعث ،
ملا يدخل في حسابان حاسب ، ولا ينحصر في أبحاث باحث . ماذا
ترى ؟ ترى ادراكا لا تعجزه حقيقة ، وعقلا لا تعمى عليه معضلة ، وفكرا
لا ترتد موجاته دون غاية ، وتصورا لا تنتهي قواه عند نهاية ، وخيالا

ليس لمراميه دائرة تنحصر فيها ، وأميالا لا تنتهي لها مطالب ، وقوى لا تعيها الرغائب ، وهو مع كل هذه العطايا في عالم لا تنتهي عجائبه ولا تفنى غرائبه ، ولا تنضب مادة آياته ، ولا تغيض أسرار مدهشاته . تأمل في هذا الكائن المتمتع بهذه المواهب ثم قل لي أى مطلب يليق أن يتخذه له غاية في حياته ، وأى مرمى يصح أن يجعله غرض محاولاته ، وأنشودة ملكاته ؟ قلنا دع ما تعلمه من حالة الانسان في الفساد والدنانيا جانباً وقل لي بعدها أى طلبة تليق أن تكون مرمى هذه الخلقة الشريفة ، ومطمح نظر هذا التركيب البديع غير كمال مناسب لهذه الغرائز ، ولا تق بهذه المنح والنحائر ؟

نعم خلق الانسان وكل ما فيه يسوقه ويخذه لطلب الكمال والجمال ، بل ويهيئه ويدفعه في سبيله دفع الجوع للجوعان ، ويسوقه سوق الظمأ للظمأ ! ولكن :

فيادارها بالخيف ان مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال
أى قلب لا يتفتت كمدا وحسرة ، وأى حشاشة لا تذوب أسفاً
وحزناً ، اذا علم الانسان من حال بنى نوعه واستعدادهم لأسمى منصات
الكمال ، ما أتينا على طرف منه ، وانهم قد وهبوا من الملكات والقوى
ما يدفعهم اليه دفعاً ، ويهيئهم له تهيئاً ، ثم يرى أن أكثر هذا النوع
المكرم قد شا كل البهائم في شرها ونهمها ، وضارع الوحوش في
ضلالها وجهلها ، وأشبه الضياغم في ضراوتها وقسوتها ، وحاكى
الشياطين في حيلها وخدعها ؛ وقد عكسوا كرائم تلك القوى والملكات عكسا

سقط بهم دون عالم الحيوان ، فزوجوا بينهم زمائم الصفات ، وخسائس الأخلاق ، وقاسوا على مقتضاها معاملاتهم وأحوالهم ، ورتبوا على أصولها قوانينهم وشرائعهم ، وجلسوا أنفسهم بذلك في مضيق لا يليق بكاملهم ، ولا يناسب سمو حالهم !

هذا هو الذي كان يلم بفكر المصلح الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم فيجعله دائم الحسرة طويل الفكرة ، أسفاً على ما آل إليه أمر هذا النوع الكريم وقد كاد هذا الأسف يؤثر على مزاجه الشريف حتى أن مبدءه جل وعز خاطبه على لسان الروح الأمين قائلاً : « فلعلك باخع نفسك (أى مهلكها) على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » وقال تعالى : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات . » فرجع عليه الصلاة والسلام الى هذا الأدب الالهي وعلم أن تلك حكمة بالغة وابداع لا يعلمه إلا هو ، فهو وحده المصرف للأمور ، العليم بصيور الشؤون ، واعقاب الأحوال سبحانه لا معقب لحكمه .

انظر الى هذه الفطرة الانسانية الكريمة والى ما تمتعت به من قوى ومواهب ، والى ما تليق له من عاليات المراتب ، وساميات المناصب ، لو أسلمت وجهها الى الله أى لو تخلصت من شائبات التربية الفاسدة ، وحررت من مؤثرات العادات القبيحة ، والتقليدات المردية ، والوراثات المائلة بالملكات الى غير ما خلقت له من الكمال والاعتدال ، ثم قدر تلك الحجب الطينية الغليظة التى تحجب عن هذه الفطرة الكريمة نورها الزاهر وجمالها الباهر ، وتأمل كما ينبغي ان تتأمل فى تلك الغياهب

الشیطانية التي تحول بين المرء وقلبه ، وتهبط به عن أوج مجده ،
 واشكر الله على أن هداك للإسلام ، وأقامك على منهاجه ، وهل الإسلام
 إلا إسلام الوجه الى الله وخلع كل الوراثة والعقائد والمدرکات
 التي ما أنزل الله بها من سلطان ، والقيام على صراط الاحسان في القول
 والعمل على ما يقتضيه قانون الخلقة وناموس الحياة » ومن أحسن
 ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن »

إذا تأملت فيما قلناه ورأيت أنك بينما ترمى الإنسان نورا صرفا وجمالا
 خالصا وكلاما بحتا اذا هو بعدم اسلامه أى بعدم اسلام وجهه لله ظلمة
 متكاثفة وقذرا محضا ونقصا يسفل فيه عن أخس الحيوان ، اذا
 تأملت في هذا وتعجبت منه ، فان أعجب منه بما لا يقدر ان الحد
 الفاصل بين هاتين الحالتين المتناقضتين عقيدة واحدة قد تحل بصميم
 فؤاده وتمتلك سائر قواه فتوجهها الى مصاعد الكرامة ، ومعارض الجلالة
 فيعرج على أجنحتها الى الغايات القدسية ، ويتصل بالعوالم النورانية ،
 وقد تتخلى عنه هذه العقيدة فتدعه لهواه فيهوى به الى أسفل من دركات
 الحيوانية ، ويغمره من عالم النقص الى أخس المنازل ، ويتركه من
 مداحض الأهواء في هوة ليس لها آخر .

هذه العقيدة هي الايمان بالعالم الروحاني واليك البيان :

~*~*~*~*~*~*~*~*~*

(الناس أمام هذه العقيدة) *

الناس بازاء الاعتقاد بالعالم الروحاني ثلاثة أصناف : صنف

يعتقدها اعتقادا ذوقيا فوق اقراره بها اقرارا برهانيا ، بمعنى أنه لم يكف باقامة الأدلة على حقيقتها وجعل دينه مجرد حفظ تلك البراهين والثروة بها كتابة وقولا فقط ، بل صدقها بالحجة والبرهان ، وعمل بما تقتضيه من الأركان ، فذاقها ذوقا ذاتيا فأنتجت فيه ثمراتها النورانية فسطعت في أعماق ضميره ، وأقصى ثنيات فؤاده . ورجل لم يعتقددها ولم يصح لديه برهان على حقيقتها فكشطها من ذاكرته ، ولم يعد يخطر بها بباله ، فلم يعمل بموجبها ولم يبين أموره على أصولها .

ورجل ثالث يعتقددها بالوراثة عن آباءه وأجداده فاكتمى منها بمجرد وهمه بأنّه واحد من حملة أمانتها ، وفرد من الأمة التي كانت تحمل عليها ، وتستضيء بمصباحها .

لا جرم أن لكل رجل من هؤلاء الثلاثة دستورا خاصا في الحياة يلائم مكانه من هذه العقيدة لا بد لنا من الالمام الى طرف منه تمهيدا لحل كل تلك الشبه المتقدمة لارتباطها بهذا الموضوع تمام الارتباط .

✽ حال المعتقد بالعالم الروحاني ✽

هو رجل لم يقف من هذا الوجود المحيط به في الدائرة التي تحددها له حواسه ، أي لم يقصر عوالم الكون على محض ما تبصره عينه الكلية وما تلمسه يده الغليظة وما يتأثر به شمه وسمعه وذوقه ؛ وعز عليه أن يكون من الجمود والغلظ بحيث يحزم بأن هذا الوجود الذي لا نهاية له لا يشتمل إلا عليه وعلى ما يمكن أن يحسه فقط ؛ وأنف تصوره

أن يحكم على نفسه بأنه والحيوانات في مستوى واحد لا يمتاز عنهم في شيء مطلقا كما يدعيه غلاة التاريخ الطبيعي ، وأبى فكره الطموح الجوال أن يزعم أن هذه الطبيعة المدهشة لا يصرفها ويحركها الا نواميس طبيعية محدودة لا غم لها ولا اختيار ولا ارادة ، وان كل هذه البدائع المحيطة بهامن كل جانب ليست الا مقتضيات تلك النواميس ونتائجها ، وتغاضى عقله أن يقبل تلك التعليلات الطبيعية التي جاء بها أولئك الذين ذهبت بصائرهم ، وطمست أفئدتهم لعلمه بأنها ثمرة الفكر ولا يخفاه كلاله حده ، وعجزه عن ادراك كنه الذرة البسيطة فضلا عن الاحاطة بالسكون والحكم عليه هذا الحكم الجائر .

علم صاحبنا كل هذا ثم نظر الى تاريخ النوع الانساني نظرة فرأى أن العقيدة بالعالم الروحاني قديمة وعامة في سائر الأمم فصعب عليه أن يزعم أن النوع الانساني عاش كل هذه القرون الكثيرة مغموسا في بحار الخيال ، وواهما في أكبر مسألة تعنيه وتهمه . ثم ألقي بنظرة أخرى على تاريخ الانسان ومر على أحوال أولئك الرجال العظام ، الذين ملكوا قياد الشعوب والقلوب في سائر الأجيال من لدن القدم لليوم ، وأحدثوا أكبر الحوادث الاجتماعية وهم الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام فرآهم كلهم مجتمعين على وجود عالم روحاني فوق هذا العالم الجسداني ، ودعوا الى الاعتقاد به كافة الناس فأحدثوا بهذه العقيدة أعظم القوارع الأدبية التي كان ولم يزل لها أكبر أثر في حال الانسان وأخلاقه . فرأى أن مجرد حال أولئك الأنبياء والرسل إن لم

يكن هو وحده أدل الأدلة على وجود ذلك العالم، فلا أقل من أنه يستلقت إليه النظر، ويرجعه عليه الفكر، ويميل بالعقل الى ترجيح وجوده، ويحجب اليه المتساع بشهوده.

جال صاحبنا هذه الجولات الطبيعية والتاريخية ثم عاد الى نفسه فرأى أن الحياة الارضية دار آلام وأحزان، وقرارة أكدار وأشجان، ومحلة بلايا وأرزاء، تارة في النفس والمال، وأخرى في الاخوان والآل، وأن حوادثها سلسلة من أدوار وأطوار، لا تنتهى حلقة منها حتى تبتدى حلقة أخرى والانسان بين تلك الحلقات في حرب عوان، وضراب وطعان ضد نفسه وأهله وبنى بلده واخوان وطنه وعموم نوعه وفوق ذلك كله ضد الطبيعة وعوارضها، وهو من معمعان هذه المعركة الدائمة في تيار يجرى به الى حيث يجهل. ويجول به في كل جدول يجتهد ليقف لحظة أو يرتاح هنيهة فيرى أن في وقوفه الهلاك المعجل، والشقاء المسجل، فلا يسعه إلا الاستسلام لدفع ذلك التيار فلا يزال يقذف به من جانب الى جانب حتى ينتهى به الى غاية حياته، أو يصدمه في إحدى جمحاته، صدمة توقف حركاته. ربما يكون هذا الرجل في أثناء دورانه هذا قد جاء بأولاد اندفعوا معه بهذا التيار نفسه، وصار حظهم من الحياة لا يفترق عن حظه، وكثيراً ما تمزقوا أمام عينيه فيكون ألمه مضاعفاً، وحزنه وأساه ليس يسهل على الواصف.

رأى صاحبنا نفسه في هذه الحال فتحقق أن الحياة على هذه الصفة عبئاً ثقيلاً، بل بلاء وبيلا وشرأمو لا يجدر بالانسان معها أن يحسد

الفأرة في وكرها ، والنملة في مسكنها ، والحمامة في عشها ، بل والحجارة في جبلها ، والرمال في سهلها . وبينما هو يفكر في هذا الشأن ويتنفس من حالته ويجأ إلى قيوم الوجود ليهديه في حيرته ، وينعشه من وهدهته ، وإذا بصوت جهورى يرن له من أعماق قلبه ، يصعد إليه من لباب معناه تاليا عليه قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » فلم عندها أنه مستودع أمانة جلييلة ، وحامل سر عظيم ، فهم يتعرف تلك الأمانة ، ويدرك معنى ذلك السر ، ولكن أين العرفاء ، أين الأدلاء ، أين المرشدون ، أين الهادون الخبيرون ، أين الحكماء الروحانيون ؟ فبينما هو يجأ إلى الله بهذا القلب المنكسر ، واللب المنذعر ، وإذا بصوت كالأول صعد إليه من غيابة سره تاليا عليه قوله عز وجل : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » فرمى بنفسه بين يدي أولئك الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام رجاء أن يأخذوا بيده ليقفوه من هذا الدوران الهائل ، وينقذوه من أسر هذه الحلقات الموبقة ، ولكن من الذى يقصد منهم وهم كثيرون ، ومن الذى يستمد من روحه وأكثر تعاليمهم قد حرفها المحرفون ، وبدلها المبدلون ، فانه ليموج في متائه هذه الحيرة وإذا بالهام يذكره بهذه الآيات : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة لله لمنين » فلم يسعه بعد أن ظهر له وجه الخلاص ، وتراءت

له سفينة النجاة إلا أن يعتصم بها من هول ذلك التيار الجارف ،
ولكن هيات كيف الوصول الى سلم السفينة وهو من موج أحواله
في هبوط وصعود ، ومن ثورتها في اضطراب يضيع الرشد والحيل ،
ويغرى باليأس عن بلوغ الأمل ، فينما هو على مهواة القنوط وإذا
بذا كرتة مرت به على هذه الآية : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم
لا تقنطوا من رحمة الله » « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » فعلم
أنه لن يحرم من معونة مبدعه الذي خلقه ووعد به الهداية ، وصوره على
هذا الابداع وحاطه بحسن الرعاية ، فلم يزل يأخذ نفسه بأدب القرآن ،
ويستمد نور طه عليه الصلاة والسلام حتى هدأت تلك الزعازع ،
وركدت هاتيك الزماجر ، وقد كان يظن أنها لا تهدأ ، ثم منحه الله كرامة
السكينة في فؤاده بعد ذلك الجيشان الابليسي ، والسكينة مشرق النور
الالهى ، ومهبط السر القدسي ، ومهب نسائم الطمانينة والراحة « هو
الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » فازداد
حبا في التأدب بأداب النبي الأعظم وتشبها بتعاليمه صلى الله عليه وسلم
فنال على قدر ذلك قربا من الحق الأقدم ، وتمتع بشهود الجمال الأقدس ،
وبصر أبور الخالق ، وشعوراً بلذة الرضا والاستسلام ، والتذاذاً بذلة
العبودية ، وهياماً بما ينتظره في العوالم التي تلي هذا العالم « يهدي الله لنوره
من يشاء » واكتسب ثباتاً في قوله وفعله ، ورزاقته في فكره ونظره ،
وزايلته تلك الحمى الشيطانية التي كانت تدفعه وراء المطالب الكاذبة ،
وتستبعده للكجالات الرهمية الكاسدة ، وارتفع عنه ذلك الطيش

الحيوانى ، والنزق الجنونى ، والخرق الشهوانى الذى كان يلعب به لعب
الطفل بالكرة ، ويستطيره استطاره الريح للريشة ، فكان من الذين
قال خالقهم فيهم: « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا
خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما .
الآية » ثم كان من أثرتلك الحالة الكاملة عليه ان انفتح له من قبل عالم
الجلال والجمال نافذة عليـة يصل اليه منها نور يغمر فؤاده ، ويحميه من
غاشيات الفتن المادية ، ومفسدات المطالب الجسدية ، ويحجب عنه
أفاعيل الشياطين التى لا تفتأ تناصب الانسان العداوة والجفاء ، وتنصب
له اشراك المكر والخداع ، فيكون من هذا النعيم فى حالة تغبطه عليها
الاملاك ، وتخدمه فيها القوى الروحانية العلوية والسفلية ، وتخضع له
نواميس العوالم المعنوية والمادية بما لها نسبة بحالته البشرية .

هذا هو الرجل الذى يعتقد بالعالم الروحانى اعتقاد ذاتيا ، وعمل
بمقتضياته عملا حقيقيا ، ولم يكتف بالثرثرة به لفظيا ، فهو يعيش عيشة
مباركة طيبة حاصلـا على سعادتيه ، وفرحـا بكمال حالتيه « ومن يعمل
من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم
أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »

* (أثره فى الوجود) *

يظن الذين لم يذوقوا طعم العقائد ، ولم ينتعش فؤادهم بسبحات
نورها سواء كانوا من المنتسبين اليها أو من أضدادها بأنها تغض من

طرف الانسان عن الاحتفال بالعالم الفانى وتثبط من حركته عن الرقى فى مجال السكالم الصورى الجسدانى وهو زعم لا أساس له من الواقع ، وما يرى من ذلك عن بعض الأنبياء فان صح كان ذلك خاصا بزمانهم لحكمة يعلمها الله تعالى وهو أمر لا يبنى عليه حكم فان تاريخ الرسل عليهم الصلاة والسلام عامة وتاريخ امامهم وخاتمهم محمد خاصة يدل على أن أكبر الحوادث الاجتماعية التى بعثت الى السكالات الصورية والمعنوية تمت على أيديهم وبواسطتهم . على انى لا أعنى بالسكالات الصورية والترقيات المادية تلوين الأوائى وتزويق الألبسة والتفنن فى صنوف المآكل والمشارب واقامة معالم المراقص والملاعب وتهتك النساء وذهابهن فى الزينة والخلاعة كل مذهب . كل هذه الافراطات يجدر أن تسمى نفثات شيطانية ونزعات حيوانية لا كمالات انسانية ، وانما أعنى بالرقى المادى المتاع بالمزايا العظيمة التى خلقها الله لنا فى الطبيعة وصرف القدر الواجب من قوانا فى تحسين حياتنا الجسدية تحسيناً لا يفتن النفس والعقل ، ولا يعدو على الشرف والعرض ولا يصرف الانسان عن الجمال الباقى الى الوهم الفانى « قل من حرم زينة الله التى أنخرج لعباده والطيبات من الرزق »

إذا عجمت من هذا وقلت كيف يجتمع الزهد فى الدنيا مع هذا السعى فيها ، قلنا :

الرجل الذى يعتقد بالعالم الروحانى يعلم تبعاً لذلك أنه النسخة الصغرى لهذا الوجود كله ، وخليفة الله عز وجل فى أرضه ، وانه قد

منح من القوى المختلفة ذات القابليات العجيبة ، ما لا يحصره وصف
الواصف ، أريد من هذا أنه كلما ازداد تنور أبعالم الروح ، واستشراقاً
لأنواره الباهرة ، ظهرت فيه قوى جديدة ، ومواهب لم يكن يحلم بها ؛
ويرى بالحس أن تلك القوى لم تخلق فيه عبثاً ، ولم توضع فيه ثنيات
فؤاده جزافاً ، بل خلقت لأغراض يجب أن تسعى إليها ومرام لا تنفك
تتطلع لها ؛ فيكون الذى يعتقد بالعالم الروحاني والحالة هذه مجبراً
على أعمالها فيما خلقت له ، مسوقاً الى توجيهها الى مراميها التى طبعت
عليها ، عملاً بشروط خلاقة الله فى أرضه ، وقياماً على صراط العدل
الذى هو طريق حياته ونجاته . وبناء على هذا فيكون دأبه على أعمال
قواه واستخدام مواهبه على النحو الذى صور له عليه مبدعه بقدر شغفه
بكمال ذاته ، وكفه بالصعود بها الى العوالم التى يتوق إليها ، لأنه يعلم أنه
لا كمال إلا بأدائها ، ولا صعود إلا بالنهوض بأعبائها .

هذا سر تلك الهمم العلية ، والعزمات القوية ، التى تسوق أصحاب
العقائد الحقّة الى جلائل الأعمال فى هذا العالم الأرضى مع زهدهم ،
وتفاهة الطينيات فى نظرهم

الرجل من هؤلاء لا يستثمر الطبيعة لينال منها لذة ، أو يصيب
منها وطراً ، فإن ما يشعر به من اللذة الروحانية تكفيه النظر للدنيا وما
فيها ، ولكنه يستثمر الطبيعة لكونه يعتقد أنه آلة من آلات الحياة .
ينشرها حيث يصل اليه امكانه ، وأنه شعاع من نور الكمال خلق
لكشف الغم ، ويقشع الغياهب ، وأنه عامل من عوامل الحق أرسل

ليقارع الباطل حيث كان وأنى وجد .

أنا لا أدعى أن جميع أفراد الأمم ذوات العقائد الحقّة هم على هذا النمط من السّكّال وإنما هذه الحال مخصوصة بأفراد من تلك الأمم يعدل الواحد منهم الألوّف المؤلّفة من ليسوا على شاكلته . فإذا كان منهم مائة في أمة عظيمة فإن إراداتهم القويّة تستولى على مجموع إرادات الملايين من أبناء جلدتهم فيسوقونهم الى حيث يريدون ويصبغونهم بنفس صبغتهم ولوثقايديا ، وليس هذا بعجيب بل هو أثر من آثار قانون الموازنة ألا ترى أن من كان جسمه أقوى كان جذبته لمن هو دونه مناسبة لتلك القوة ؟ كذلك من كانت روحه أقوى جذب من هو أضعف منه لا محالة وحركة بحركته . ومن هنا ساغ لنا أن نقول ان روح خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم أقوى الأرواح التي ظهرت في العالم لتأثيرها في الأرواح المحيطة بها تأثيرا لم يعهد له مثيل في تاريخ الانسان

✽ حال الذي لا يعتقد بالعالم الروحاني ✽

حاله على الضد من سابقه بمعنى أنه وقف من وجوده في الدائرة التي حددتها له حواسه ، وقصر الكون كله على ما تبصره عينه وتلسه يده ويتأثر به ذوقه وسمعه وشمه .

بحث عن روحه وعن عالم الغيب فلم يحس بهما بواحدة من تلك الحواس فأنكر وجودهما ، وأراد أن يعزل وجوده ووجود الكائنات

على غير الطريقة الاعتقادية ، فاخترع أسماء انتزعها من حال الموجودات وعلائقها ببعضها وسماها نواميس طبيعية وزعم أنها قديمة كقدم جوهرها وهي المادة ، فزعم أنها هي التي أبدعت كل هذا الابداع الباهر في ملايين لا تحصى من السنين ، وأن ليس الكون وما فيه إلا سلسلة غير متناهية . تولد الدنيا من الدنيوات فتعمل فيها النواميس المستسلطة عليها فتظهر عليها الكائنات الجامدة والحية ، ثم تلبث ما قدر لها أن تلبث ثم تتلاشى وتتخطم بمصادمة كوكب آخر لها أو بسبب آخر وهكذا الحال أبد الأبدين ودهر الداهرين ...

ولكن كيف العمل وهو من أدوار الحياة مسوقاً بنفس التيار الذي كان يسوق صاحبنا المعتقد ، ومن هم العيش ومنغصاته على ذات الحال التي وصفناها هنالك ! ويزيد عليها أمر أقطع عليه من كل ماسبق وهو اليأس من الخلاص !

يرى هذا الرجل نفسه من مضاضة العيش ولواعج الحياة على أحر من الجمر وأمضى من المهند المصقول ، ويرى المصائب تترى من بين يديه ومن خلفه عليه وعلى أهله وإخوانه وبني نوعه ، ثم لا يرى له من ذلك مخلصاً ، ولا يتخيل أن له منه معزياً ، ولا يتوهم أن وراء هذا الطور المضطرب طوراً من الحياة يرتاح فيه ، ويلتذ بتظاره وتمنيه ! ينظر الى مناجل الموت تحصد حوله الرقاب ، وتهدم القصور والقباب ، ويرنو الى مقذوفات البلايا تهوى بالأرائك والعروش ، وتحطم الملوك والجيوش ، ويلتفت الى ما بين يديه وخلفه فيرى صرعى

هذا العالم الفانى يستثيرون الذعر من أعماق الصدور ويستجيشون الخوف من القواد الصخر ! ثم يلتفت الى نفسه فيراها فضلاً عماهى عليه من الحال المقيم المقعد ، هدفاً لقارعة تذهب بأنفاسه ، وترزجه الى شق من الأرض لا يقيم بعده رأساً ، ولا يحير جواباً ، تتسلط عليه فيه الهوام والحشرات تستأصل عناصره وتمتص نخاع عظامه ، ثم يلحظ فلا يرى له من ذلك الأمر محيصاً ولا مفراً ، ولا يتصور دونه منجاة ولا مستقراً ، فكيف تكون الظلمة التى تلم بفؤاده والالم الذى يحل بمعناه ، والكد الذى يستولى على لبه ، والنكد الذى يخيم على كيانه ؟

لا جرم أن كل هذه الأمور المزعجة تدفعه رغم أنفه لطلب المخلص فى العالم المادى وتدفعه فى ذلك السبيل دفعا قهريا فيتجه بمجموع قواه الى الماديات لتحسين حياته اتجاها جنونيا ، لا التفاتا كاليا ، فينال منها شأوا لا يستهان به « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » ذلك لأن الله سبحانه خلق الانسان وقذف به الى الأرض وركب فيه من القوى والمواهب ما يسيطر على قوى الطبيعة وتصلح لما فوق ذلك من تسخير القوى الروحانية أيضا أو بالأقل لاستثمارها والاستفادة منها . فهو ان طلب الدين وحده ناله وإن طلب الدين والدنيا معا حصلهما ووجد من قواه ما يساعده على ذلك ، وإن لم يرد الا الدنيا وحدها بلغ منه منها فان منح الله معروضة لكل من طلب كما قال سبحانه : « كلا نمده هؤلاء

وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا .

﴿ أثره في الحياة ﴾

تصنع ساعة من الساعات حال الذى يئس من وجود الآخرة ، وهب أنك ممن لا يرى فى الوجود الا ما يحسه بمشاعره القاصرة ، وادفع بنفسك فى معمعان الحياة وويلاتها واستورد على فكرك اليوم الذى يلتف فيه الساق بالساق ، وتبلغ النفس التراق ، وتخيل مضاضة تلك اللحظة التى يحمد فيها الحس والشعور ، ويدس فيها الانسان الى أعماق القبور ، بعد سكنى القصور ، تاركاً ما لا جمعه بعد طول التعب ، وأفلاذ كبدهم بالجهد والنصب ، واخوانا شاطرهم الحزن والطرب ، ومعاهد أوطار نال فيها الأرب ، قلنا تصنع أن تكون فى هذه الحالة الحرجة ساعة من الساعات ثم انظر ما يلم بفؤادك من ألم ووجع ، وما يحيط بمعنائك من ظلمة وكرب ، ولكن لا تعجل بالخلاص مما أوقعت نفسك فيه بل انتظر قليلا ، وتأمل فى ثورة عواطفك تأملا طويلا ، تر أن اليأس الذى خيم بفؤادك استحال الى حمى تدفعك لتتلبس عن الآخرة عوضا ، وترتعجك لترتاد عن الخلود بدلا ، وتراك اندفعت اندفاعا قهريا لأن تحصل من لذائذ هذا العالم أقصى ما يصل اليه الامكان ، وأبعد ما يناله الجهد والعرفان . تراك تستهل خوض الصعاب والعقاب ، وتستهنون اقتحام المخاوف والأخطار ، جريا وراء المطالب الكبار ، والرغائب الجسام ، ولسان حالك يقول :

(وإذا لم يكن من الموت بد * فمن العجز أن تكون جباناً)
وترى أن هذا اليأس نفسه قد ألبسك نفس الصفات التي تكسبها
العقيدة للمعتقد من حيث الجدل لا استثمار الطبيعة ولكن مع هذا الفارق
الجسيم : وهو أن صفات المعتقد يكون سائقها أداء واجبات خلافة
الله ، وتتميم نظام الوجود في أكمل معناه ، وتجليته في عالم الامكان
بأجمل مجلاه ، والجري وراء الكمال الروحي باستعمال سائر قواه
فيما خلقت له ، فيكون بذلك ساكن الفؤاد ، مطمئن الجأش ، هادئ
الضمير ، غير مصاب بحمى الطلب ولا رعونة الحاجة ، خالصاً من
نهم الحس وثورة المشاعر ، ناجياً من وخزات الشهوات وطعنات
الأهواء . وأما غير المعتقد فيكون مسوقاً إلى العمل والاقدام باغراض
سافلة ، ومحذوراً إلى الهمة ولكن بعوامل هائلة ، لا يفكر إلا في إيتاء
جسده غاية لذاته ، وأقصى امنياته ، فيلزمه الشره أينما سار ، وينغصه
النهم حشماً دار ، يطلب فلا يهجع ، يأخذ فلا يشبع ، له في كل نظرة
وخزة من شهوة ، وفي كل لمحة طعنة من رغبة ، يريد أن يحصل ما يؤمله ،
فإن ناله كان نيله سبباً لزيادة همه وتفاقم غمه

من هنا ترى أنه ليس بعجيب أن ينال غير المعتقدين مدينة زاهرة
وحضارة باهرة ، ولكن لا تنس أن بواعثها هو ما أصف لك ، ولذلك
لا ترى فيها نصيباً للروح ، ولا قسطاً للكرام العواطف . ترى أن الحق
فيها مع القوة ، والحكم للسيف والفتوة ؛ الضعفاء فيها أسرى الاغنياء ،
وعبيد الأقوياء ، يستغيثون فلا يغاثون ، ويحاربون فلا يجابون ،

ويتعصبون فينهرزون ، ويضربون عن العمل ثم يرغمون ، فلا يكون لهم من حيلة بعد ذلك إلا العمل بمبادئ الفوضى ، يترصدون لقتل الملوك ، ويعملون على تل العروش ، وينابذون الأديان ، ويهزؤون بالمعابد والكهان ، وينتظرون بالآثم الدوائر الجسام . والخطوب العظام يشكو عقلاء هذه الأمم من سوء الأحوال ، ومن ضياع العواطف الغوال ، ويذكرونهم بواجبات السكال والاعتدال ، وينذرونهم بسوء المآل ، ولكن من يسمع ومن يجيب ! القوم سكرى من حمى الشره والنهم ، وصرعى من دن الشهوات والفتن ، فلا يفقهون حتى تنزل بهم القوارع تتلوها القوارع ؛ وتوقظهم الحوادث تتبعها الحوادث : « لنذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » والا فقد عرضوا أنفسهم لما حاق بالأولين من المكذبين : « فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم »

﴿ المعتمد بالوراثه ﴾

هو رجل وجد أبويه على ملة من الملل فدرج عليها ثم كبر ولم يحكم فيها نظراً ، ولم يعمل فيها فكراً ، بل قنع من الحياة ونعيم الوجود بما حصله له آباؤه من الرقى المادى فجعل هذا الميراث حظاً من الدنيا ، ورام أن يبقى فى يديه كما ورثه ثم ينتقل الى أولاده وأحفاده لا ينقص شيئاً فأشبهه فى ذلك من يرث عن أبويه مالا فيجتزئ به غير طامع فى سواه ولم يدر أن حفظ المال يحتاج لعلم وعمل ، ويلزم لاستبقائه

أو إنمائه حالة من الحالتين : إما عقيدة تعرفه أنه هو وماله لله ، وأن كليهما مخلوق لتنظيم ملك الله ، فيسعى له إقامة لأمر الله ، وردعا عن مناهى الله ، فيكون كالمسلمين الأولين حيث انصبت إلى خزانهم ماليات الأمم بحض قيامهم بخلافة الله . وأما أن يكون بلا عقيدة فيظن أن المال قوام الحياة ، وقيمة الانسان في الوجود ، ودستور الأمم والشعوب ، ومفتاح السعادة والنعيم . . فيسعى لطلبه بكل الوسائل والحيل كما هو حال أكثر أمم هذا العصر . هذان هما السيلان لاستغلال المال واستبقائه ، كما أنهما السيلان لايجاد كل مدينة واستمرارها . أما الذى هو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فلا يصلح أن يكون مستقلا فى نفسه لأن الأرض لأحد رجلين : اما لرجل يعتقد أن الأرض لله فيأخذها صيانة لأمانة الله وأداء لخلافته ، واما هى لرجل يعتقد أنها جنته ومأواه ، وليس له غيرها الله فيتكالب عليها تكالب الضواري على فرائسها ، ويبدل فى سيدها كل ما يملك من حول ومن حيلة .

أما صاحبنا الذى يعتقد بالوراثة فليس واحداً من هذين الرجلين انه ليس بمعتقد لأنه غير عامل بعقيدته ، ولا جاحد لانه مقر بقبح الجحود وبشاعته ، فهو وسط بين الاثنين وليس له إلا تحمل أحد النيرين : فاما أن يرضخ لسلطان صاحب العقيدة فيحبيه بحياته ، ويصرفه بمرسته ، وإما أن يقع تحت ضرس غير المعتقد فيمزقه ثم يزدرده مع ما يزدرد .

نعم العقيدة بالوراثة مالم يعززها الذوق الذاتى لاتفيد صاحبها

في الدنيا شيئاً، ولا أدري ماذا يكون نصيبه في الآخرة. لا تفقده في الدنيا لأنه محروم من دافع العقيدة ودافع الجحود معاً. لأن المعتقد له من شعوره بأنه خليفة الله في الأرض أكبر باعث على استغلال الطبيعة وإحياء مواتها والذهاب في الابداع فيها كل مذهب، وتاريخ آباءنا الأولين أكبر شاهد، وغير المعتقد له من يأسه من الآخرة أكبر سائق على التكالب على الدنيا والتنعيم فيها بكل الوسائل الممكنة، أما الذي اكتفى من العقيدة بمحض تذكره أن أبويه كانا مؤمنين، فلا يحس بأثر دافع من دينك الدافعين، فلا جرم لا يجد في نفسه لذة العقيدة ونورها الذي يضيء عليه مسالك الحياة، ولا حمى الجحود ويأسه الذي يسوقه لكل ما ينعمه في دنياه، وبناء عليه فلا يكون نصيبه من الحياة إلا التمتع المؤقت بميراث آبائه فلا يلبث أن تغشاه غاشية من صولة الأمم الطامحة فتجعله لقمة سائغة وتذهب به إلى حيث ذهب الغافلون من كل الأمم.

﴿ الفضائل والردائل ﴾

قد أكثر الناس في هذا العصر خصوصاً من ذكر هاتين اللفظتين وجالوا بهما في كل مجال فنشأت بازاءهما شبهة قوية في الدين يكثر ترددها على ألسنة المشككين، فيقولون مثلاً: « انكم تدعون ان الفضائل قوام الأمم وملاك الحياة، وان عدمها نذير التلاشي ومقدمة الدمار، فما بالكم ترون الأمم التي تزعمون أنهم أحط منكم في الفضائل أو أنهم

مغمورون في الرذائل قد سبقوكم الى باحات الرفعة والعظمة وأخضعوكم لنيرهم ؟ » ليس حل هذه الشبهة بالأمر الهين الا إذا أسسناها على قاعدتها الطبيعية ، وذلك لا يتأتى إلا بما قررناه آنفاً من أن الناس ثلاثة أقسام : قسم يعتقد بالعالم الروحاني ، وقسم لا يعتقد به ، وقسم يعتقد بالوراثة فهو وسط بينهما . وقد قررنا بواسطة التحليلات الفلسفية ان لكل من المعتقد وغير المعتقد دافعاً يدفعه الى الرقي والتقدم ، وان رقي الأول يشمل الرقي الروحي والجسدي ، واما الثاني فرقيه محدود في عالم المادة فقط ، وقلنا ان المعتقد بالوراثة لاحظه من أحد هذين الدافعين ، وانه لا يليق الا أن يكون تبعاً لأحد هذين الصنفين . والآن نقول : ان ذلك الدافع الظاهر الذي يدفع المعتقد للتقدم للأمام هو (طلب الكمال) بمعناه الحقيقي . هذا الدافع هو مبدأ الذي يسير على مقتضاه ، ويجعله دستوراً في كل أمر من أمور دنياه . وأما غير المعتقد الذي يرى نفسه مدفوعاً لتكميل بدنه واشباع حواسه فبدأه (تنازع الحياة) لأنه لا يرى سعادته الا في نيل أقصى ما يستطيعه من المال والجاه فتراه ينازع الناس فيهما منازعة اليأس المستميت بما يراه أحسن الوسائل .

هذان الدافعان دافع طلب الكمال ، ودافع تنازع الحياة دافعان عظيمان للحياة ، ودستوران كبيران للبقاء فهما من هذه الجهة فضيلتان طبيعيتان ، ولكنهما لعالمين مختلفين . أما فضيلة طلب الكمال فهي فضيلة العالم الانساني لأنها تلائم سمو فطرته وتوافق جوهر عنصره كما أريناك ذلك في الفصول السابقة ، وأما فضيلة تنازع الحياة فهي فضيلة

العالم الحيوانى بأسره لأنهم عاثشون بهذا الدستور وهى بالنسبة لهم فضيلة طبيعية مقيمة لحياتهم ولا يصح أن نعبّر عنها برذيلة الا باضافتها للنوع الانسانى لأنها لا تليق به ولا تؤديه الى غايته التى خلق لأجلها . ومن هنا ترى أن للأمم الخيار فى القيام على أحد هذين الدستورين لأنها تحيا بكل منهما حياة طبيعية ولكن مع هذا الفارق الجسم وهو أن الأمة التى يكون مبدؤها (طلب الكمال) تنال كمال الروح وكمال الجسد معاً كما حصل لأتباع الرسل الذين يقول الله تعالى فيهم : « فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » . وأما الأمة التى يكون مبدؤها تنازع الحياة فلا تنال إلا كمال الجسد وحده كما قال تعالى « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون »

﴿ بيان لطبيعة هذين المبدئين ﴾

مبدأ (طلب الكمال) الذى هو دستور المؤمن مرتكز مباشرة على الاعتقاد بأن الانسان جسد وروح ، وأن روحه هذه هبطت اليه من عالم التقديس والجمال لتبتلى فى الدنيا الى حين ، ولتتم بهذا التبدل ابداعا قدره الخالق لا يعلم سره إلا هو ، وأنها بعد أداء وظيفتها فى هذا العالم تعرج الى عالمها على جناح جهادها الحيوى إلى حظائر النور الأقدس فى عالم فيه مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وتنضم هناك إلى أرواح عالية سبقتها بالكمال والايمان فتبقى معها بقاء أبدياً سرمدياً فى نعيم مقيم ، وراحة لا يشوبها ألم . ولا يخفى على الناظر أن

هذا ارتقاء في الشعور ارتفع به الانسان عن عالم الحيوان الذي لاحظته من الوجود الا التكالب على إشباع كرشه وإيفاء حاجة حواسه .

أمامبدأ الذي لا يعتقد بعالم الروح فهو (تنازع الحياة) لا طلب السكال . وهو مبدأ مؤسس على الزعم بأن الانسان لم يخرج عن كونه أرقى الحيوانات ولا فرق بينه وبينها في شيء على الاطلاق إلا في كونه أرقى منها عقلا وأوسع إدراكا وأقدر على استثمار الطبيعة بما وهب من الآلات الجسمانية ؛ وأنه ليس له من الحياة إلا ما قدر لجسمه من البقاء سنوات معدودة ، ثم إذا مات تحللت عناصره في الأرض وذهب كل عنصر إلى ما يشبهه من عناصرها ، وفي عقله وادراكه وذهب إلى هوة العدم كما تذهب الدجاجة والمهرة سواء بسواء ؛ وان الانسان لا مناص له من أن يكون مع معاشريه في حرب مستمرة ينازعهم الحياة وينازعونها ياها والغلبة في هذه الحرب تابعة للقوة العضلية والفكرية ، فمن كان أقوى يداً وعقلا كان أحق بثمرة الحياة دون غيره أما الضعيف في الجسم والفكر فلا يكون نصيبه من المعيشة إلا النكد الواصب والهم الناصب ، ولا بأس عليه بعد ذلك ان سئم الحياة وأرسل نفسه إلى عالم العدم . أما الصفات المحموده والخصال الشريفة فليست مطلوبة إلا لما تجراليه من المنافع المادية والأدبية في دائرة هذه الحياة وحدها . أصحاب هذا المبدأ لا يوجبون البشاشة مثلاً لكونها خلعة من خلال السكال التي يشاكل بها الانسان سكان عالم التقديس وتهيه

لجوارهم متى فارقت روحه الجسد ، ولكنهم يوجبوها استجلاباً لرضى
المعاشرين الذين يتعاملون معهم واستدراراً للربح منهم ومزاحمة لمن
يؤدى مثل وظائفهم .

وبناء على هذا فالفضائل والرزائل لدى أصحاب هذا المبدأ دائرة
حول حطام الدنيا ونعيمها ، وهو بعينه مبدأ العالم الحيوانى تقوم عليه طوائفه
برمتها ، ولها العذر فى ذلك فانها محدودة القوى والمواهب محصورة
العقول والملكات ، لاتشعر بغير ماتحس به ولا تتخيل مرمى
وراء ماتنظره . أما الانسان الذى لا يقف عقله عند حد ، ولا ينتهى
تصوره عند غاية ، فأشد ما يظلم به نفسه أن يحشرها إلى أدنى من عالمها ،
ويسلبها أشرف خصائصها .

هذا المبدأ الحيوانى أى مبدأ (تنازع البقاء) يصلح لاقامة أمر
الطوائف الانسانية ، بل ويبعثها للرقى والفلاح فى السعادة الجسدية ،
لأنه لم يخرج عن كونه مبدأ طبيعياً تقوم به أشخاص لا يحصى لهم
عدد من الكائنات الحيوانية ؛ ولكن فيه غبن فاحش على الانسان ،
لأنه بقيامه على هذا المبدأ لا يحصل الا الحياة الدنيا ثم لا يزيله
الهم والكدر طرفة عين ، ولا يدعه الكمد والوحشة يطمئن الى
شئ ، وكثرة المتحجرين فى الأمم القائمة بهذا المبدأ دليل محسوس
على ما نقول .

أما مبدأ (طلب الكمال) فهو المبدأ الكامل الذى يليق بالانسان
ويجدر به لأنه يكسبه الحياتين معا كسبا طبيعياً لأن الكمال فى ذاته

الغاية القصوى التي ينتهى اليها كل شيء ويخضع لها كل شيء . فما من شيء الا وله كمال خاص خلق مسوقا اليه فاما أن يحصله فيعيش على أكمل صفة من وجوده الخاص ، واما أن تصرفه عنه الصوارف فلا يزال يتخبط في كيانه حتى يلفظه الوجود الى يثور العدم . ولما كان الانسان أكمل الكائنات وجب أن يكون كماله أكمل الكمالات ؛ فلا جرم أنه متى تكمل امتلك سر نواويس الكائنات التي في عالمه فتخضع له خضوعا اضطراريا ، فتأتيه الدنيا بخدا فيرها صاغرة تقبل قدميه وتقف بين يديه ، ألم تر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نهض هو وأصحابه يؤدون واجب الطاعة لله في طلب الكمال خضع لهم كل شيء وخافهم كل شيء ، وانحدرت اليهم سائر خيرات الأرض انحدار المير مثله في تاريخ الفاتحين . فانظر كيف أهمهم قامو المحض طلب الآخرة ، فجاءتهم الدنيا صاغرة ، والأعجب من ذلك أنها هربت اليهم من أولئك الشعوب الذين كانوا يعبدونها ويسجدون لها ، ولا يعرفون لهم كمالا سواها ، ورضيت أن تكون الخادمة الخاضعة لأولئك الفضلاء الذين كانوا يمجونها وينكرونها ، ولا يحفلون بالنظر اليها في حسناتها وبهائها . أما تلك الأمم التي تجعل مبادئها في الحياة كمبادئ الحيوانات العجماء فلا يكون لها حظ الا في الحياة الدنيا ولا تكاد تناولها الا باتخاذها لها من دون الله ، وصنما لا ترى لها ملجأ سواه ، وناهيك بما في هذا من الازلال لتلك الجهة الانسانية السماء ، التي لم تخلق إلا لتحاذي السماء . أما لو علم الانسان ان مفتاح السعادة الحققة هو طلب الكمال وأن

سبيله سبيل الله لما اذلوا أنفسهم هذا الذل الفاضح ولطلبوه من صميم
افتدتهم فمالوا سعادتي الحياتين معا ، والى هذا السر العمرانى الكبير
يشير الله تعالى بقوله : « من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب
الدنيا والآخرة . »



﴿ المدنية الاسلامية والمدنية الحديثة ﴾

الاسلام دين الله وهو الحقيقة المطلقة التى استودعها من عهد
نشأة الانسان قلوب سائر الانبياء والرسل الكرام « شرع لكم من
الدين ما وصى به نوحا الخ الآية » ولكن كانت أيدى تلك الأمم
الجائرة تمتد الى تلك التعاليم بالتحريف والتبديل رجاء أن يطبقوها
على ما يناسب مقتضيات النقص الذى هم فيه ، ودام هذا الحال أماذا
حتى اقتضت الحكمة الالهية ايداع هذا السر الأقدس لخاتم أنبيائه
ونخبة أصفياه محمد صلى الله عليه وسلم فى كتاب لا يأتية الباطل من
بين يديه ولا من خلفه وقد حماه الله من امتداد الأيدى المحرقة اليه ،
وصانه من عدوان العادين عليه ، وهو الى اليوم كما أنزل يقيم الحجة
على الغالى والمقصر ، ويبشر المعتدل وينذر المعذر ، ويشير الى الطريق
الذى لا يضل سالكة ولا يخاف طارقه ، وهو طريق العدل المستقيم
« وان هذا صراطى مستقيم فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن
سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »

الغرض الأصيل من الاسلام تخليص الانسان من قدر التريبة

الفاسدة ، وأثر الوسط الردى . ووضر الوراثة الساقطة التى تلم بمجموعها بفؤاد الانسان فتحرمه من سبحات نور مبدعه ، وتعميه عن رؤية الطريق الذى دفعه فيه مولاه وهو الطريق الذى يقول عنه عز وجل : « انا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفوراً . » هذا السبيل هو سبيل الكمال ، هو سبيل الجمال هو سبيل الرحمة ، هو سبيل الهدى ، وان شئت التعبير باللهجة الجديدة فقل هو سبيل التقدم ، هو سبيل التمدن . وهو السبيل الذى ساره خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم بوحي من مولاه فكان من شأنه ما كان ، وساره أصحابه من بعده فأصبحوا ملوك الأرض وملوك السماء .

أنا لا أريد بالمدينة الإسلامية والمدينة الحديثة مبلغ الرقى الصناعى فى كليهما ، لا ولكنى أريد الروح التى ساقط اليها وأقامتهما على قطبيهما والسبب الذى يجعلنى أفضل روح الأولى على روح الثانية ، هو لكون تلك مبدأها طلب الكمال بأخص معانيه وهو المبدأ الجدير بالانسان المناسب لما وهب من المنح الجسام ، لدفعه الانسان الى طريق الحق والعدل واكسابه حظ الحياتين معا ، أما هذه (أى المدينة الحديثة) فمبدأها تنازع الحياة وهو المبدأ الذى بسطنا أثره فى الفصول المتقدمة وقتلنا انه لا يناسب الكمال الفطرى للانسان ، وان فيه غبنا عليه لعدم صلاحيته الا لنوال الحياة الفانية دون الباقية . على أننا لسنا أول الناعين على هذه المدينة نقص مبدئها فان عقلاءها أنفسهم يشاركونا فى هذا النظر وقد نقلنا كثيرا من أقوالهم فى ذلك فى الأجزاء السابقة

ربما يقول قائل : « ان كنت تنقم على من يدعو الى الأخذ بأسباب المدنية الجديدة والسير على قوانينها فهل أنت ممن يسهل عليه أن نبقى كما نحن تتناولنا الحوادث وتتقاذفنا المثالات ، ونحن بين ذلك في حال لا يرضى به من له مسكة من شعور ؟ ألا ترضخ لقول القائل من أننا في عصر لا مناص لنا فيه من تقليد المتمدنين في جميع شؤونهم بدون شرط لنستطيع مجاراتهم في الحياة وحفظ شخصيتنا بازاءهم ؟ » نقول اننا ممن يرى ان دون التمسك بأصول المدنية الحديثة على علاقتها وبمحض الدعوة الاجمالية اليها عقبات اجتماعية وحوائل أدبية ومادية شديدة المراس ، بحيث اننا لو أضعنا وقتنا في محاولتها ومعالجتها لذهب تعبنا أدراج ولم نجن من وراء ذلك الا تجريء أصحاب الأهواء الى الجرى وراء شهواتهم بغير مبالاة تحت ستار الفكر الجديدة وحجاب الأخذ بأسباب الحضارة . ألم تر أنه من يوم ظهور الدعوة فينا الى لزوم التمسك بآداب المدنية الجديدة لم نحصل من وراءها غير الخسران والبوار ولم تفعل فينا الا تشجيع الشبان والكحول على الانطلاق في ميدان الاباحة والحرية البهيمية ، بحجة أنهم طليقة النشأة الشرقية . والسابقون الغيورون في طريق المدنية ، وماذا تنتظر لنا من النجاح والفلاح لو تبعتهم البقية الباقية ؟

اذا تقرر هذا فعندى أن تداعينا الى الرجوع الى مبادئنا الأصلية القويمة أضمن لحياتنا وأقرب لاصلاح أحوالنا من تلك الثثرة باسم المدنية الحديثة التي رأيت من أثرها ما رأيت .

فان قيل : « هب انك غير واهم في قضيتك من امكان الرجوع الى الفضائل الاسلامية الطاهرة وهب اننا أصبحنا كلنا فضلاء أتقياء ، فماذا يفيدنا ذلك امام قوة هذه المدنية الجديدة من حيث الصناعة وأساليب الاستعمار . »

نقول أما كوننا غير واهمين في أن الدعوة الى الفضائل الاسلامية تفيد فائدة عظمى في الرجوع اليها مهما قاومتها الأحوال السافلة التي وقعنا فيها ، فذلك أمر ليس بعجيب ولا هو بدع في تاريخ الطوائف الانسانية . فاننا من المضائك الاجتماعية والارتباكات المادية والأدوية في الحال التي تصلح لتدفعنا رغماً عنا الى طلب المخلص وارتداد الملجأ بكل الوسائل . ولو درس الناس سر التفاف الشعوب بحذافيرها حول المصلحين لرأى أن من أكبر أسبابها ما هم فيه من الأخطار التي تهددهم بالزوال والتلاشي ، فان الطبيعة الانسانية مجبولة على عدم الاستسلام للفناء الا بعد نضوب مادة ما أودع فيها من المقاومة والمقاومة . ونحن بما نرانا فيه اليوم من الشعور بلزوم المخلص ، لانظن أن بيننا وبين الأخذ بالفضائل الحقبة الا دعوة داع متعظ ، وارشاد هاد مهتد . وليس بعزيز على الله ان يتلافانا بنبوغ أرواح كبيرة تنشر الحياة حولها وتكشف عن الأعين والعقول تلك الغمم التي انسدت عليها من غاشيات الغرور والغفلة . أما الشك في أثر الفضائل امام قوة هذه المدنية فهو غمط لحق الفضيلة ، وجهل لأثرها على نفوس الآخذين بها . أنا لا أعنى بالفضيلة تلك الظواهر التي تبدو على بعض ضعفاء النفوس

كاللبن والبشاشة والانعطاف والخلق الخ من الأخلاق التي يظنها الناس فضائل ويقيسون الفضلاء على أصحابها فيشكون في آثارهم في بناء صروح مجد الأمة وإعادة شرفها . وأن لهم العذر في هذا الشك ماداموا لا يميزون بين الضعف الذي يؤدي للحشمة والوقار واللين والهشاشة والسماحة وبين الفضيلة التي لاحد لسلطانها على النفوس .

انا ان قلت فضيلة فانما أعني بها تلك الروح السامية التي تهبط على النفوس فتزعج أصحابها عن الوقوف في قدر النقص ، والخوض في حمأة الدنيا ، وتهيب بهم الى مسابقة الأمم في مزايا الحياة ، ونعمة البقاء ، وليس بعظيم على أمة تهبط عليها هذه الروح أن ترقى في السنة الواحدة مالا يرقاه غيرها في قرن من الزمان .

ليس ما أقوله بالشعر ولا بالخيال فقد هبطت هذه الروح العالية على أصحاب المصلح الأعظم بواسطته صلى الله عليه وسلم وهم من القلة بحيث لا يتجاوزون عقود العشرات وحواليهم من الأعداء الألداء والصناديد الأقوياء والأضداد العتاة ما كان يكفي أن يزرع اليأس في قلوب أضعاف أضعافهم ممن ليسوا على منهاجهم فلا يعودون يذكرون النهوض ولا تمنيا ، ولكن روح الفضيلة قوة الهية لا يعرفها الا الفضلاء فلم تزل تفعل فيهم فعلها حتى رأينا تلك الشرذمة القليلة جذبت اليها العواطف والقلوب وانضمت الى أمثالها بسرعة مدهشة ثم تحركت حركة صارت بها صاحبة السلطان الأقوى على أكثر المعمور .

ان تعجب من هذا فأعجب منه رجل يرى هذا الأثر المدهش

وينكر معه أثر الفضيلة أو يشك في أنها قوة لا تقف أمامها القوى ولا تمنع انتشارها الحوائل « أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم الغالبون »

— ٣٥٣ —

﴿ رجوع للمقصد الأصلي ﴾

يقول قائل لقد طفت بنا من شعب المباحث في مناح شتى ومطارح بعيدة وجعلتنا بذلك كما قلت في دائرة محدودة يحيط بها البصر من أول نظرة ويستطيع قارئك أن يشطح معك الى حيث أردت ثم يعود الى مركزه على طريق مستقيم لا يتعداه ، الا أنك قسمت الناس الى ثلاث رجال وقلت ان أحدهم رجل يعتقد بوجود العالم الروحاني وعامل بما يقتضيه اعتقاده ، والثاني جاحد به ، والثالث يعتقد ورائة عن آبائه وقومه فهو لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، ثم فصلت المبادئ الحيوية التي تنتج من عقيدة كل رجل من هؤلاء الرجال الثلاثة فقلت : ان مبدأ الأول (طلب الكمال) ومبدأ الثاني (تنازع البقاء) والثالث لا مبدأ له بالكلية ، ثم سرت في تفصيل هذه التقسيمات ماشاء الله أن تسير ولكن بقي عليك أمر أعظم خطراً وأشدّ مراساً من كل ماسبق وهو اقامة الحجة البينة على وجود ذلك العالم الروحاني ، ونصب الدليل الواضح المحسوس على ان الذي يعتقد به ليس يضرب في بيداء الخيال ولا يسبح في آل الوهم خلافاً لما يزعم أعداء العقائد ، وسماسة الاحاد ، نقول نعم بقي علينا ذلك وهو المفتاح الوحيد لمغالق كل الشبه المتقدمة ولكن سلوكننا ذلك السبيل يستدعي توجيه نظر قارئنا الى

حقيقة رئيسية وهى ان نكران عالم الروح ليس بنتيجة علم من العلوم ،
 أوزبدة فلسفة من الفلاسفات نشأت فى قرن من القرون ووقفت حيث
 هى بحيث أن من قرأ ذلك العلم أوشارف تلك الفلسفة أنكر الروح
 والخلود . كلا وانما ذلك الانكار حال يعتري النفوس المستعدة له فيسلب
 عنها أجمل صفاتها وهى الطمأنينة للحق ويجعلها مسرحة لشياطين الشكوك
 والريب حتى ان الواحد من المصابين بهذا المرض ليشك فى وجود
 ذاته ووجود الكون المحيط به من كل مكان وقد حكى الله لنا الوصف
 المميز لهذا المرض فقال تعالى « : ولوقتحناعليهم باباً من السماء فظلوا
 فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون »
 ذلك الحال الذى يحل بالنفوس وينشب فيها ، فيلفتها عن ذاتها
 ويطوح بها فى متاهات الشك ، ومحارات الشبه ، ويجول بينها وبين
 أنوار الحق الواضحة ، لا يحصل من قراءة علم مخصوص كما قدمنا وانما
 يحصل كما تحصل كل حال من الأحوال الانسانية بواسطة أسباب كثيرة
 منشأها التربية والمعاشر وروح المدنية التى فيها الأمة ، ومقام دينها
 السابق من الضغط على العقول والأفكار . أو من الحرية والاطلاق
 الخ الخ من الأسباب التى تشكل الطباع والأموال ، وتصيبها فى قالب
 لا يقدر على بعضها أى علم من العلوم .

ومن ينتقد حال الأوربيين فى القرن الماضى والقرن الحالى كان
 ولم يزل يرى أن الاتحاد فى بعض طبقات العامة أكثر منه لدى العلماء
 أنفسهم مما يدل تمام الدلالة على أن الانكار لا يأتى من صفة العلوم

وحددها بل من الأسباب الاجتماعية والأدبية التي تعيش الأمة في وسطها أيضاً .

وربما يظهر لنا بواسطة الاستقراء والتحليل أن تلك الأسباب الاجتماعية والأدبية أشد فعلاً في أحداث تلك الحال الاحادية من العلوم التي يقصد بها بث الاحاد والجمود بغاية الصراحة .

ذلك لأن سلطان العلم تابع لدرجة الاقتناع ، والاقتناع كما لا يخفى ليس فيه الناس سواء بخلاف تلك الأسباب الاجتماعية والأدبية فانها متسلطة على الكل على حد سواء ، بل هي العوامل التي تتلقى الانسان وهو على حالة السذاجة الطفلية فتنشئه على قالبها ، وتخرجه على مقتضى أسلوبها ، فيشب متشبعاً بدرياقها وسمها ، ريان من صفوها وكدرها ، ولسان حاله يقول

(أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى)

فصادف قلباً خالياً فتمكنا)

إذا تقرر هذا ربما علم قارئنا أن سيرتنا في اثبات العالم الروحاني سيدفعنا رغماً عنا الى درس تلك الأسباب العديدة التي تهى النفوس لقبول مرض الاحاد ، ولما كان عش الاحاد الحاضر هو الغرب فسيكون كلا منا في تلك الأسباب موجهاً اليه ان شاء الله تعالى سواء فيما يختص بالاسباب العلمية التي هيأته كمذهب لامارك وداروين اللذين يزعمان أن الانسان مترق من القرد ، ومذهب اجوست كونت وليتريه وغيرهما الذين قصروا العلم على الحواس الخمس وسدوا في

وجه الانسان نافذة النور السماوى ، أو فيما يختص بعاداتهم وأمايلهم وبواعث مدينتهم التى أصبحت فتنة العالم الارضى اليوم .

نسلك هذا المسلك الشاق وكان فى وسعنا أن نقتصر على اثبات العالم الروحانى بواسطة التحليلات العلية والمقررات الفلسفية ، ولكن ما الفائدة من ذلك بعد ما علمنا أن الاتحاد اولى به أن يسمى حالا تلتجه أسباب كثيرة من أن يسمى علماً تثمره المطالعة فى كتب مخصوصة .

هب أن الناس كلهم أصبحوا يعتقدون بوجود العالم الروحانى فماذا يكون من أثر هذه العقيدة على أفعالهم ماداموا فى هيئة من الحياة تبعثهم لضد ما يعتقدونه رغماً عن أنوفهم؟ السنارى فى أنفسنا انا قد نعتقد فى أمر من الأمور انه حق وصواب وضد باطل وخطأ فنجد أنفسنا مسوقين لآتيان الباطل ، محفوزين لغشيان الخطأ ، بينما يكون قلبنا يتضرم أسفاً وندماً ، واحساساتنا تحترق اسى وسدماً ؟ أليس ذلك نتيجة أسباب وعوامل تنشأ من طبيعة الحالة الحيوية التى فيها الأمة ؟ أما نحن فبدرسنا للأسباب التى تولد ذلك الحال السىء نؤمل أن نجعل أمتنا على بصيرة من الأمر قبل أن تتوغل فى مظاهر هذه المدنية المنصبة عليها من كل مكان والله ولى المؤمنين

﴿ محاكمة مدارك الفلاسفة الاقدمين ﴾

(فى مسألة اللاهوت)

أتينا فى مبحث الانسان على أكبر مدارك الفلاسفة اليونانيين

في المسألة اللاهوتية واستعرضنا أمام قارئنا المناهج التي نهجوها في تقرير عقيدة وجود الصانع جل وعز ، فرأينا أن سقراط استند على البرهان الطبيعي والتاريخي . عرض بالأول على انظار خصومه بدائع الصنائع في هذا الوجود ، واختار منها ما وسعه علمه فبسطه بسطاً جديلاً وألزم خصمه من تلك الجهة بلزوم الاعتقاد بوجود موجد لهذه الأشياء يسكنها بقوته ويمدها بحوله ورحمته . وحاول ببرهانه التاريخي أن يقنع مناظره الى أن العقيدة مساك الأمم ونظام الأمور ، وأنها عامة في سائر النوع الانساني ، شائعة في كل أجياله ، واستبعد بذلك أن يكون النوع الانساني كله مجتمعاً على غير حقيقة .

ورأينا من براهين أفلاطون وارسطو أنهما خرجا عن حدود البراهين الطبيعية ودخلا الى متاهات الفلسفة الكلامية فتكلما عن لزوم وجود سبب أولى للأسباب الثانوية ومحرك أصلي يهب الحركة للحركات العلوية والسفلية ، ونهجا لبراهينهما مناهج تقتضيا فلسفتهما . وتستدعيها مداركها الخصوصية .

كل هذا أشرف عليه قارئنا تفصيلاً ولعله قد اتضح له مثلنا ان أحسن تلك البراهين كلها اسلوبا ، وأقواها على ذهن السامع تأثيراً ، وأشدّها لمقاتل الخصم المعاند اصابة ، هو البرهان الطبيعي الذي بسطه (سقراط) . وإن براهين ارسطو وأفلاطون رغماً عن علوها عن .
متناول العقول الوسطى فيها من التعسف والافتيات والحكم على

المجاهيل مالا يخفى على ذى فطنة . ولا غرو بعد ذلك إن قلنا لقراءتنا إن أحسن تلك البراهين أثراً في الأمة التي نشأت فيها هي براهين (سقراط) فقد أصلى الملاحدة بها ناراً حامية نثرت نظامهم ، وحلت معادهم ، وأخذت بمتنفسهم ، ولم يأمنوا شره الا بوسيلة لا يستعملها الا الجبناء السفلة ، وذلك بالوشاية في حقه لدى حكومة تلك العصور ، واتهامه بالألحاد في آلهتهم ، فانصاعت تلك الحكومة الجاهلة لمزاعمهم وحكمت عليه بالقتل سما ، فتجرعه بصبر الحكماء ، وثبات أصحاب الاعتقاد وهو يدرس كما قلنا لتلامذته في السجن خلود النفس بعد الموت .

ذلك لأن سلوك مسالك الخفاء ومناهج الاغماض في البرهان على مسألة كالمسألة اللاهوتية هي أجلى المسائل وأوضحها ينقل تلك المسألة من حيز الوضوح والجلاء ، ويحشرها الى عالم النظريات والظنون وهناك يتسع فيها المجال للأخذ والرد ، ويشتد فيها الحجاج بين قبول وصد ؟ ويظن كلا الحزبين أنهما في موضوعهما الأصلي وهما في الحقيقة قد خرجا الى غيره مما ليس بينه وبين ما كانا فيه أدنى علاقة ولا نسبة . ثم لا يكون من وراء كل هذه الجلبة والصياح الا تثبيت الملحد في الحادة ، وابقاء الجأمد على جموده ، وخروج المؤمن منه وقد أضاع وقته ، ورضى من الغنيمة بالاياب .

ذلك لأن النفوس من جهة الاستعداد للعقيدة وعدم الاستعداد

لها تنقسم الى ثلاثة أقسام : قسم مستعد للإيمان بالفطرة ، وقسم غير مستعد له بالفطرة ، وقسم جامد ساذج .

﴿ النفس المستعدة للإيمان بالفطرة ﴾

هذه نفس كريمة رقيقة الاحساسات ، دقيقة الشعور ، حية العواطف ، كثيرة الانفعالات بالفواعل ، جواله لا تقف عند حد ، تواقه لا يقنعها غاية تصل اليها ، عالية لا ترضى بشيء ولو سمت على السماك الأعزل ، وحلت بين الملوك في المحل الأول ، بعيدة الآمال لا يسع هذا العالم المادى بعض ما تنوق اليه وتمناه من صنوف الكمال والجمال ، واسعة الخيال يضيق هذا الوجود المحسوس عن مضطرب خيالها ، ومختلف أحلامها ، شديدة الحرص على الحقيقة فلا تقنعها قشور الأمور ، ولا ظواهر الشؤون ، فهي تميل دائماً لثقب الأغلاف ، وهتك الحجب توصلاً للباب ما تبصره ، وكنه ما ترمى اليه ؛ رحيمة الفؤاد تكاد تذوب أسمى على نقصان الناقص ، وأسفاً على عيب المعيب ، ولولا شيء من العلم يريها أن الله أرحم الراحمين ، وأكرم الأكرمين ، لقضت أيامها حزناً وكداً على جهل الجاهل وغرور الغافل ، وميل المائل .

هذه النفس تعشق الكمال وتتحرق لئيله ، وتهوى الجمال وتفتنى شوقاً لاستشراقه ، وتحس بالفضيلة وتتلف للوصول الى غايتها ، وتشعر

بجلالة العلوم وتتضرم للسبح في لجتها .

تنظر الى أديم السماء الناصع والشمس في أبهة لألائها، تختال في غلائل أشعتها، فتود أن تنفذ الى سر هذا الفضاء الفخم فتردها أنوار الشمس حسرى، تذرِف دموع الهزيمة وتسكب عبرة الخيبة، ألا انها مجرد من ذاتها قوة أقوى من قوة البصر بما لا يقدر وهى قوة البصيرة، فتصعد بها على أجنحة التأمل والاعتبار؛ تطير من أفق الى أفق ومن سماء الى سماء، والى أين؟ عند ذاك تصيح هل من نهاية؟ هل من غاية؟ هل من حد يقف التصور عنده؟ هل من تحم يرتد الفكر بعده؟

تنهزم هذه النفس من عالم الحس فتعترها دهشة القصور، ووحشة التقصير، فتميل لتعويض ما فقدته من شممها بادراك سرها، فتنزل الى عالمها فى سويداء فؤادها، وتقطع دونها علاقات المحسوسات وشواغلها فتغوص فى بحار معانيها على قدر ما تسمح لها به قواها فلا تجد نهاية ترتد دونها، ولا غاية تقف أمامها، فتقف حيرى لا تحير جوابا، ولا تستطيع خطابا، ثم ترتد الى حالها الأولى حائرة بين عالمين لانهايين، عالم محيط بها، وعالم فى داخلها هى محيطة به، لا تدرى أيهما أصل لصاحبه، فلا تسل بعد ذلك عما يساورها من أرق وضجر، وما يلابسها من ألم وسهر . لفوات مطلوبها، وعجزها عن نيل بغيها .

هذه النفس لا تتقنع بعدها تين الخبيتين التى صادفتها بلزوم السكينة، والمعيشة كما يحبىء ولو على غير طمأنينة . هيهات ! بل لا تزال تترامى طوراً

في مهاييع هذه اللانهاية السماوية ، وآخر في مضارب هذه اللانهاية
الفؤادية ، وكلها تخيب ثمن ولكن لا أنين اليأس ، وتحن الى مطلوب
ولو لم يكن متميزا .

هذه النفس الحية المضطربة لا تطمئن الا اذا وجدت العقيدة ،
ولا ترتاح الا اذا سادتها منهجا الرشيدة .

هذه النفس في كمال خلقها أو استعدادها للكمال تحتاج لغاية كاملة
تركز فيها نهايات أخلاقها ، وتجعلها قابلة لصاعدات عواطفها واحساساتها ،
وهذه الغاية لا تقنعها ، لما اتصفت به من العلو عن المحسوسات والماديات ،
الا اذا كانت أعلى من كل خيال يضطرب في ذهنها ، وأسمى من كل
كمال يحيش في صدرها ، وليس كذلك الا الله وحده فهو كل الكمال ،
وغاية الجمال ، سبحانه وتعالى .

هذه النفس في اطافتها ورحمتها ورقة عواطفها وجمال جوهرها
تنظر الى الكون فيشوق عليها أن تعتقد ، خاليا من اله رحيم ينشر على
المخلوقات أشعة رحمته ، ويقيم أمورها بحوله وقدرته ، ويفيض على
أصنافها من افاضات عنايته ورأفته .

هذه النفس الطاهرة لو اتفق وأقنعها مقنع جدا بعدم العقيدة ، اضطربت
وتألمت ، وتخبطت وتوجعت ، ولا تزال كذلك حتى تجد سلام العقيدة
على صدرها ، وتحس بريحاتها في روحها ، والاعاشت منغصة متألمة
لا يرتاح لها بال ، ولا يقر لها قرار .

هذه النفس الكريمة هي النفس الانسانية السليمة من آفات النقص .

وعوارض الخداج ، فهي بطلب العقيدة انما تؤدى وظيفتها التى خلقت لها ، كما تؤدى العين وظيفتها الطبيعية بابصار المبصرات وادراك الألوان والأشكال .

اذا تقرر هذا فما فائدة البرهان الفلسفى لمثل هذه النفس المؤمنة بالفطرة وليست فى حاجة اليه بوجه من الوجوه ؟

هذه النفس لا تنتظر البرهان لتؤمن بخالقها فهى مؤمنة به بذاتها كما قررنا ذلك ، بل هى ذاتها اصرح البراهين على وجود مبدعها فلا ترى فى البراهين الفلسفية الا اضاعة الوقت فيما لا يجدى ولا ينفع ، بل ربما عدتها ضرراً على العقيدة لا غماضها فى طرق الاستدلال ، وسلوكها مخالج الخفاء فى أمر هو من الواضوح بحيث لا يحتاج الا الى محض استلفات كقوله تعالى : « أفى الله شك فاطر السموات والأرض » « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم »

❖ النفس الكافرة بالفطرة ❖

هذه نفس مظلمة خشنة الاحساسات ، غليظة الشعور بكل ما لا يؤيدها الى لذة جسدية ، أو شهوة حيوانية ، قليلة الانفعالات بالفواعل الا ما يدفعها لغشيان قبيح أو اتیان أمر منكر ، جوالة لا تقف عند حد ، ولكن فى الأميال السفلية ، والمطالب البهيمية ، تواقفة لا يقنعها غاية ، ولكن من غايات هذا الجسد المظلم ولذائذه ، ساقطة ترضى بالهون متى لم تجد فيها القوة الحيوية لبلوغ مآربها ، فاذا آذنت من نفسها شيئاً من

الحول والحيلة نهضت نهضة البهيمة المفترسة تعدو على الأموال والأعراض والأَنْفُس، لا ترتدع بزاجر قاي ولا تنتهي بناه وجداني، شديدة الحرص ولكن على ما فيه لها منفعة عاجلة، أو طلبة سائغة؛ وقافة مع الحس، مرتظمة في أحوال المادة، يكفيها من معاني الأشياء الغلف الظاهرة والحجب الساترة، الا فيما يختص بلذات الجسد، وشهوات البدن قتراها ثقابة للحجب، هتاكة للأستار، سبارة للأغوار غليظة السكبد تنظر للبؤساء نظرة المتشفي الشامت، وتلحظ الزمنى والهلكى لحظة المنتقم الأشر، ولولا شيء من الخجل من الناس لأعلنت على رؤوس الأَشْهاد انها ترتاح لرؤيا المصائب السود، وتطرب لذوب المهبج والسكرود، وتود لوجاء طاعون قتال فاجتاح الناس أجمعين لكيلا تبقى إلا لوحدها ومن يكون وسيلة لتكميل لهوها ومرحها.

هذه النفس لا تدرك الكمال الخلقى فلا تحبه، ولا تعرف الجمال المعنوى فلا تهواه، ولا تشعر بالفضيلة فلا تتمناها، ولا تحس بحالة العلوم من الجهات الروحية فلا تريدها لتلك الفائدة بل تريد العلوم لتسهل لها نيل وطر مادي، أو تكميل حظ دنيوى، تنظر الى استبرق السماء، وتلاحظ مجالى الغزاة فى تنقلها فى ذلك الدست الماسى المشرق، فتود أن لا تشرق إلا عليها، ولا تنير إلا أحوالها، وتقف مع حسها لا تود النفوذ الى ورائه لا بالبصيرة ولا بالبصر. فهى اذن لا ترى الا نهاية الحسية والمعنوية ولا تريد أن تراها.

هذه النفس الحرجة الضيقة الظلمانية لا تحب أن ترى الوجود الا

على قدر عقلها فهي لا تحس بهزيمة أمام لانهاية ، ولا تعترها وحشة القصور الذاتي الذي يدفع صاحبه الى التكمل ، ولا تلتجى الى سويدها فؤادها لتبحث عن سر ذاتها ، كل ذلك لافائدة منه لها ولا ترى له وجهاً في تميم نظام شؤونها . فهي إذن لا تعرف تلك الحيرة التي تلم بالنفوس العالية طلباً للسكون الى نقطة ؛ والركون الى حقيقة . نعم انها تحس بنوع من الحيرة ولكن فيما يختص بأمور ذاتها المادية ؛ وأحوال حياتها الدنيوية .

هذه النفس الحامدة الراكدة ، الخشنة الحامدة ، لا تبحث عن العقيدة ، ولا تسمع لمن يدها عليها لفقدانها معنى الكمال الذاتي ، ومغزى الجمال الا دنى . قلنان العقيدة ضرورية للنفس الطاهرة الكاملة لتكون كقابلة تتوجه النفس اليها في توقها للكمال الاقدس ، واشربابها للجمال الاقدم ؛ أما النفس الكافرة فهي من النقص والقبح في الخفيض التي وصفته لك ، فكيف تتطلب العقيدة . وهي غاية الكمال ونهاية الجمال .

هذه النفس كافرة بالفطرة ، فهي مظلمة معتمة ، لا تدرك النور ولا تبحث عنه ، وان حملة اليها فلا تدركه ولا تحس به وأحباب هذه النفس معيون بقوله تعالى : « إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير »

هذه النفس لا تفيدها البراهين الفلسفية بل تزيدها مرضاً على

مرض ، وتكسبها ظلمة على ظلمة ، ولا يرغم من معاطس أصحابها ، ويكسر من خراطيمهم الا البرهان الطبيعي المحسوس ، حتى أنك لو برهنت لأحد هؤلاء الملاحدة وجود الصانع بالبراهين الفلسفية وسلكت معه مسالك المنطق ، لوجدته يطير فرحاً لعله بأنك أفسحت له مجال القيل والقال ، وساوئته في الاقرار بأن حقيقتك تحتاج الى جدال ، ثم لرأيته رفع عقيرته وزجر ، وهز رأسه وتجبر ، وأخذ يرد عليك رداً ، ويوسعك تأنيباً ونقداً . ولكنك لو تركت له مجال التعسف في التفلسف ، وحاكمته للحس والعيان ، وخاطبته مخاطبة الانسان للانسان ، وناجيت منه الوجدان ، بلسان الوجدان ، لرأيته نكص على عقبيه وانهمزم ، ونكل عنك وانصدم ، وغاب عنك وله رسيس في الصدر يذيب الحجر ويهد الجبل .

﴿ النفس الجامدة بالفطرة ﴾

بقي نوع ثالث من النفوس هي النفوس الجامدة بالفطرة ، الخاملة من أصل طبيعتها . وهي بين النفس الكافرة والنفس المؤمنة في مركز لا تغبط عليه ولا تنهأ من أجله .

النفس المؤمنة نفس عالية كريمة لها لذات روحانية لا تعبر بلسان ولا تعرف الا بذوقها بالوجدان ، ولها اشراف على علم كل مافيه جمال وكمال ، وعظمة وجلال ، وهي بين جسمها وبينه طوراً في شقاء وآخر في صفاء ، آوثة في نصب وأخرى راحة ، وذلك تبعاً لأحوال الجهاد الذي هي فيه ، وشؤون العالم الذي تعمره وتحويه . والنفس الكافرة وان لم تكن نفساً

شريفة ولا عالية انما لها عالم ظلماتى خاص بها . فيه صور من لذات لها وهمية ، واشكال من موهات طينية وقتية ، فهى توهم نفسها بالسعادة وان لم تذقها ، ويخيل اليها أنها على مقربة منها وان كانت تداربها وتبتعد عنها ، فهى تعيش عيشة مصطنعة وهمية ، وتحيا حياة مافقة سرابية . ان فاتتها الذلة المعانى الروحانية ، ولألاء المراتى السماوية ، اعتاضت عنها بأنوار الكهرباء وأضواء الثريات ، والملاعب التياترية ، والمظاهرات العيدية ، وحسوا السلافة العقيقية . وغير ذلك من الملاحى الوهمية . وهذه الطواهر الفاتنة الساحرة وإن لم تكن ذات فائدة حقيقية للروح الانسانية ، لكنها لا تخرج عن كونها لذات وملهيات ، فيها للنفس مسرح ومجال . أما النفس الجامدة فأمرها على غير تلك الشاكلة . ليس لها استقلال فى ذاتها فيقال انها من عالم قائم بذاته له شؤون وأحوال مثل كل العوالم الأخرى ، ولا هى تابعة لطبقة من النفوس خاصة حتى يقال انها محكومة بسننها ، مقودة بقوانينها ، وإنما هى نفس لاصفة فيها ولا خاصية ، كأنها لم تستكمل شروط النفس الانسانية فيكون صاحبها إنسانا ، ولم تهبط إلى الدرجات السفلية فيكون صاحبها حيوانا . وإنما هو شىء يشبه الانسان ، ويسفل عن الحيوان فى كثير من الأحوال .

هذه النفس الناقصة لا تحس بحاجة روحية مطلقا فتتوق اليها . ولا تهوى معنى من المعانى فتتلهف عليها . وكيف يتوق الانسان لما لا يحس بلذاته ، أو يهوى ما لا يخطر به خيلته ؟

هذه النفس لا تهمها أى مسألة من المسائل الانسانية الكبرى ،

فلا تنبصر في الوجود ولا تتأمل الكائنات ، ولا ترفع طرفها الى السماء ، ولا تلقى بصرها الى الأرض ، بقصد استكشاف سر أووقوف على أمر . وان نبها إلى ذلك منه له ساطعة عليها من وجهة من الجهات ، لبت طلبه بثاقل ، فان همت بالفعل أحست بكابوس على نفسها وثقل في أعضائها ، وخمود يدب إلى سائر جثمانها ، حتى لو أدمنت النظر ، وأعملت الفكر يخشى أن تسقط مغشياً عليها ، أو تخر نائمة لا تستطيع حراكا . ذلك من تكلفها ما ليس في طبعها ، وتعملها ما لا يوجد في كيانها .

هذه النفس تعيش ما تعيشه وهي في يقظة تشبه النوم من أكثر الوجوه ولا تعلو في ادراك الأشياء وتعقلها عن حلم النفس المؤمنة أو الكافرة ، فهي في نوم مؤبد تمر بها الأشياء مرور الأشباح على بصيرة المضطجع وقت القيلولة وهو بين اليقظة والاعفاء وهكذا تمر حياتنا سنة بعد سنة وعاماً بعد عام وهي في مركز طفوليتها الأولى لم تتحول عنه إلا في مقتضيات نمو أعضائها الطبيعية ليس الا .

هذه النفس تسمع بالدين وقد تنسب الى مذهب من المذاهب الاعتقادية المنتشرة بين البشر ولكن ذلك منها تقليد اضطرارى ، وعمل آلى لا تعقل معه ولا فهم . وتراها تصلى مع المصلين وربما سبحت مع المسيحين ولكنها انما تفعل ذلك مسوقة بعوامل الوراثة القاهره ، مدفوعة بفواعل المحاكاة الطفلية ليس الا

هذه النفس ليست مستعدة لشيء من الأشياء المعنوية سواء كانت

اعتقادية أو الحادية ، فهي لا تنبع في علم من العلوم ، ولا تبرز في فن من الفنون ، ولا تفيد الأمة التي هي منها الا بأمور مادية محضة تعملها عملاً حيوانياً مسخرة لا مختارة . هذه النفس هي المعنية بقوله تعالى : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً »

هذه النفس ان تفضلت عليها بدعوة الى الايمان فلا تحدث نفسك بدعوتها اليه بالفلسفة والمنطق فربما نامت قبل أن تكمل حديثك ، واعمد الى البرهان الطبيعي فاسرده عليها سرداً خروجا من الاشم ليس الا .

﴿ نظرة على ماسبق ﴾

رأيت من التقسيم الذي مر لك ان النفس على أى حالة من أحوالها لا تود البرهان على عقيدتها الا طبيعياً محسوساً ، لا فلسفياً غامضاً . وكلما ابتعد أصحاب الاعتقاد في حفظ حقائقهم عن الفلسفة ، وقضايا الجدل ، سلموا من آفات الاقتراقات في الدين ، والتحزبات في المذاهب . هذه هي الخطئة الاسلامية التي بعث الله بها سائر الأنبياء فأضاعها أتباعهم فبعث الله بها أخيراً خاتمهم وامامهم سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ؛ فأدى امامتها أحسن أداء وجلب بها للنوع الانساني خيراً في العقيدة والأخلاق والشرعية ما كان يحلم به فلاسفة العالم ولا يضطرب لهم به أمل .

جاء النبي صلى الله عليه وسلم والناس من أمر الدين وطرق الوصول

اليه في حنادس حالكة وظلمات متكاثفة . هذا يعدد في الآلهة ، وذاك يشبه الله بمخلوقاته ؛ ويعطيه صفات عباده ؛ وذلك يتخيله على ما يحدده له وهمه ، وتتردد به أخلاقه والكل مطيعون منصاعون لرؤساء اتخذوا الدين وسيلة للسلب والسطوة وجعلوا العقائد أحابيل للقهر والسلطة ، فعلوا عن مستوى العامة حتى صاروا كأنهم من نوع أرقى من نوعهم ، حتى ادعوا أنهم وسطاء بين الله ومخلوقاته وأنهم مهيمنون على مقادير عباده . فان جال في صدر أحد مرءوسيه شك أو دبت الى نفسه شبهة كان السيف الى عنقه أسرع من سماع الاجابة عنها بأذنه . فان تفضلوا بشيء من ذلك في كتبهم صونا للعقائد ، وحفظا للتقاليد ، أتوا بكسف من الغياهب يتلوها كسف ، وقطع من الدياجير الحالكه يتلوها دياجير أشد منها سواداً ، بحيث لو ألقى الانسان عليها بصره غار في ظلمات فاذا هم عقله بانقاذه منها غرق فيها معه وسجما معا في عيلم لا قاع له ولا ساحل ؛ وصار بين أمرين : فاما أن يبقيا في تلك العماية طول حياتهما يقاسيان لواعج تلك العماية الحالكه واما أن يعودا فلا يذكر الدين بعدها لما قاسوه أول مرة ؛ فيكتمان ما يلم بصدرهما حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

جاء النبي صلى الله عليه وسلم الى الأمم وهم بهذه الحالة السيئة من جهة اشرف الأشياء على أنفسهم وأعزها على قلوبهم فقال عن لسان ربه : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم »
(م — ٢٢ — أول)

إليه صراطاً مستقيماً» « هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » ثم جرى صلى الله عليه وسلم على طريق الاسلام متبعاً وحى ربه فى الدعوة ، مؤتمراً بهذه الآية « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هي أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »

التفت الناس الىه صلى الله عليه وسلم بعد ما أظهره الله على أعدائه وجعل كلمته هى العليا فاذا معه أنشودة الروح ، ومطلوب الفؤاد ، وضالة العواطف ، ومفقود الفطرة الانسانية . وما هو ؟ دين واضح ، وشرع حكيم ، وعقائد مثبتة بالحس ، وأوامر لا تيجنبها الا المجنون لوضوح حكمتها ، وجلالة أثرها ، ونواه لا يغشاها الا المصاب بعقله لظهور ضررها ، وشيوع قدرها .

دين يدعوا الى الله الواحد المنزه عن كل ما يجيش بالفؤاد من صور وأشكال ومقتضيات وشؤون لا تليق بمقامه . ولم يكلف النفوس بما ليس فى طبيعتها ادراكه من العوالم التى تعلو عن مداركها ، فما الذى يمنع النفوس من الترامى عليه خفافاً ، والهرع اليه بكل ما تمتلك من حول وقوة ؟

هذا هو الذى حصل فى العالم فان النبى عليه الصلاة والسلام لبث فى أمته ثلاثاً وعشرين سنة داعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً لهم فلم يدعه الله اليه حتى كانت الأمة العربية بأسرها تعبد الله لا تشرك به شيئاً وهذا أثر لم يحصل فى أية أمة من أمم الأرض . لا على يد فيلسوف

ولا على يد رسول من الرسل عليهم الصلاة والسلام. ولم ينتقل النبي صلى الله عليه وسلم الى الدار الأخرى حتى قام بعده خلفاؤه بالأمر ولم تمض مائة سنة حتى دخل في الاسلام طوعا لا كرها مائة مليون من النفوس ولا يزال لليوم متبعا سيره في الرقي والنماء حتى ينتظر أن يكون دين أوروبا بعد قرون قليلة ان شاء الله تعالى .

إنالسنا هنا بصدد سرعة انتشار دين الاسلام وانما نحن بصدد الأدلة على أن البرهان الطبيعي في العقيدة هو البرهان الحق الذي قرره الاسلام ودعا به النبي عليه الصلاة والسلام ، فانظر الآن الى الفرق بين دعوة النبي ودعوة الفيلسوف . دعا به سقرات وقاوم به أضداده حيناولنال منهم شيئا ولكنهم رموه بعد ذلك بالالحاد في آلهتهم وفعلوا ما فعلوه من صفات الجبناء وهذا جهد الفلسفة والحكمة . أما النبي عليه الصلاة والسلام فأحال به أمة باسرها الى ارقى درجات الايمان ، في سنين تعد على الأصابع . فهل بعد هذا يهم واهم بأن الفلسفة والنبوة متقاربان ، أوهما معا في ميدان ؟

ان الذي أثر على الأمة باسرها فجعلها مؤمنة بعد أن لم تكن هي روح المصلح الأعظم صلى الله عليه وسلم وهي تلك الروح التي سادت على أرواح معاصريها كلهم وبسطت نفوذها على قومها عن بكرة أبيهم ، لم تترك فارسا ولا حكيما ، ولا شابا ولا هرما ولا غنيا ولا فقيرا ، الا وأدخلتهم تحت سلطانها ، وأظلمتهم بظلالها ، فأين الفلسفة بعد هذا ، وأين الفلاسفة من ذلك ؟ أما ترى معي من هذه النظرة البسيطة

أن مجرد التأمل في هذه المسألة يهب الانسان أقوى البراهين الحسية على رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أفضليته على سائر الرسل الكرام عليه وعليهم التحية والسلام.

﴿ ماوراء المادة ﴾

﴿ على حسب الأسلوب العملي ﴾

﴿ أهميته عند علماء أوروبا ﴾

إنالم نربدا لتتيم بناء هذا الصرح الفخيم الذى ندبنا أنفسنا لاقامته لدينا الاسلامى الخفيف فى مقدمة هذا القرن الجديد من الخوض فى علم (ماوراء المادة) لاعلى طريقة من سبقنا من رجالات العلم فى القرون الماضية ، أيام كان للقضايا المنطقية والأفكار المجردة السلطة الكلية على العقول ، والسطوة العظمى على الوجدان ، بل سنخوض بحره إن شاء الله على القاعدة العملية التجريبية كما هى مطالب الروح العلمية العصرية .

ربما تعجب قارىء من عزمنا على خوض علم ماوراء المادة على الأسلوب التجريبى العملى ، مبعداً أن تدخل الأشياء المعنوية غير المحسوسة تحت سلطان الاختبار والامتحان ، وله العذر فى تعجبه مادام لم يقف على خبر من تلك القوارع الالهية العظمى التى انصبت

على هامة طواغى العلوم المادية فى الغرب فقلبت شكل نظرياتهم رأساً على عقب ، ولم تزل لليوم تفعل بهم وبمدركاتهم المؤيسة الأفاعيل . « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز »

ليست أعاصير الشكوك والريب التى تهب فى رؤوس بعض المتعلمين والمتفلسفين منا بشىء يذكربجانب تلك الأعاصير المحتاجة من شكوك قادة العلم الأوروباوى الذين بسيطرتهم على موارد السعادة المادية ، والزخارف الصناعية ، كادوا يحرمون على الشفاه ذكر الدين فضلاً عن ملاشاتهم لأصوله ؛ ولقد كتبوا فى ذلك من المؤلفات والأسفار وسلكوا فيها مسالك من العلم مايمحو كل أثر من عقيدة ، ويعنى على كل صورة منه فى الوجدان ! فالى ماذا آل أمرهم اليوم ؟ هذا سؤال تحتاج الاجابة عليه إلى ماتصدينا له من كتابة ألوف من الصفحات ، وسترى ذلك بعينيك إن شاء الله . إنما نقول باختصار تعجلاً بالنتيجة : اداهم إلى خلل فى الضمائر ، خلل فى العواطف ، خلل فى مرامى الأفكار ، خلل فى شكل الاجتماع ، خلل فى الاخلاق ، خلل فى الأموال والأفئس والثمرات ! أدى بهم الأمر لأن يقوم أحدرؤساءالنشأة الجديدة فى فرنسا وهو (هنرى بيرنجيه) قائلاًلقومه (١) : « ان المسألة الدينية أصبحت اليوم الشغل الشاغل لكبار العقول لان مستقبل الأمم المتمدنة يتعلق بجلها . أدى بهم لأن يقول العلامة الألمانية « الشهير (ادواردوهرتمن) (٢) : « لم يوجد أبدا عصر كان أهله أقل »

« تديناً من هذا العصر الذى نحن فيه ولكن مع ذلك قدلاً »
 « يوجد عصر هاجت أهله المسائل الدينية مثل هذا الهياج الهائل . »
 « أدى بهم لأنه يصيح بينهم الفيلسوف (فيرنس حيقايرت) (١) :
 « لقد شعر النوع الانسانى بحاجة كبرى الى الاعتقاد ولكننا لانستطيع »
 « تحديد شكل تلك العقيدة بالدقة ، ولقد أحسننا كلنا بضرورة ارجاع »
 « الحياة الى أرواحنا ولكننا لاندري ان كانت ثمت روح تقيّة »
 « أقوى من روح عيسى (عليه السلام) وأشد نفوذاً منها على الوجدان »
 « تستطيع احداث هذا العمل المعجز . ان أرواحنا لمتعطشة الى دين لأننا »
 « فى غاية الألم من أنه لا دين لنا . ان هذه الاستغاثات التى تتصاعد »
 « من العالم العصرى وتختلط فيها صيحات الرجاء بصيحات الشك »
 « تشبه بصفة مذهشة تلك الشهقات اليائسة التى كان يصعدها »
 « العالم القديم زمن تلاشى الوثنية اليونانية ان الهيئة الاجتماعية »
 « الحاضرة التى توحدت تماماً فى أحوالها المادية المعاشية نراها »
 « بعكس ذلك متشعبة منشقة بالنسبة لمراميها الفكرية والدينية . ولقد »
 « أجهدنا أنفسنا فى بيان كيف أن جيلنا هذا قد تدلى شيئاً فشيئاً »
 « فى حضيض هذه الفوضى الأدبية الأخلاقية . وانا نعتقد أنه لا يوجد »
 « العلاج واحد يداوى به هذا الداء العياء : وذلك الدواء هو »
 « العقيدة الدينية ، فانها وحدها تستطيع أن تداوى العالم الانسانى مما »
 « ألم به . » انتهى

ولكن كيف تؤوب العقيدة الا تلك القلوب التي أصلدتها المعلومات
المادية قروناً متوالية ، وكيف تلين تلك العقول التي نشبت شعاب
الفلسفات المختلفة فيها مع ما تأسست عليه من شكوك واستشكالات
هائلة ؟ لو كان الحال واقفاً عند هذا الحد ، لاستسهننا الأمر ،
ولقلنا ان البرهان اذا تجلى للفؤاد قلب كيانه وفصله عما جمد
عليه ؟ ولكن هنالك داء دوى أشربتة النفوس في الثلاثة قرون الماضية
ونشأت عليه وهو سحر هذا الرقى الصناعى المدهش الفاتن ، وزخرف
هذه المدينة الساحرة !

الانسان وان كان يعرف من نفسه الضعف ، ويأنس من حاله
العجز ، ومن شخصه الضؤولة أمام ما يحيط به من هذا الوجود الواسع ،
والكون المدهش ، الا أنه شديد المحال ، كثير الادعاء ، عظيم المراوغة ،
متقن فن التدليس على نفسه ، والتمويه على عقله ؛ يتظاهر بالجبرية
المطلقة ؛ والغطرسة المفرطة في الوقت الذى يعلم أنه أضعف من بعوضة ،
وأشد عرضة لمبيدات الحياة من ذرة . يتصنع القوة والحول ، ويرأى
بالمقدرة والطول ، في الحين الذى يندب على قلة وسائله ، وعجز
حيله . هذا شأنه وهو فى أبسط أحواله وتاريخه يشهد عليه ؛
فما بالك وهو فى هذا الجيل جيل المدهشات والعجائب ، جيل
المكتشفات المحيرة للدارك ، جيل العلوم الطبيعية ، والحرية
الفلسفية ، لاجرم أن يزيد توغلا فى دعاويه ومزاعمه ، ويتغلغل فى
ريائه وتصنعه .

كان الانسان وهو فى أبسط أحواله فى القرون الخالية يكذب
 الاثنياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بدعوى أنهم اخوانه فى البشرية ،
 يأكلون كما يأكل ويشربون كما يشرب ، ويموتون كما يموت ؛
 فكان يحاول أن يرسل الله اليه رسلا من السماء فى أبهة تأخذ بصره ،
 وجلالة تذهب بلبه !

كانت هذه الشبه وحدها تمنعه من سعادته ، وتنشطه فى غوايته ،
 فكيف يكون حال الانسان اليوم وهو بين هذه المدهشات الصناعية ،
 والسحريات الفنية : التليفون عن يمينه ، والفضوغراف عن يساره ،
 والمنظار أمامه والآلة البخارية وراءه ، والآتوموبيل تحته ، والبالون
 فوقه ؛ هذا غير ما يحيط به من الآلات والأدوات ، وما يتخلل ذلك
 من مدافع مكسيم ، وبوم بوم ، وبنادق مرتين وموزر ، وصناديق
 الديناميت والتوريد . لاجرم يكون قد زاد ادعاؤه وكبره ، وعظم
 رياؤه وتصنعه وأصبح يزعم (معاذ الله) أن الاثنياء دونه علما وادراكا ،
 وأقل منه فهما وتصورا .

يرى بين يديه الملايين الكثيرة من المؤلفات والأسفار وقد
 أودعت من عجائب العلوم المادية ، والابحاث الطبيعية ، على أصل
 تكون الأجرام العلوية ، والكرة الأرضية ، والجواء السماوية ،
 والأمطار والسحاب ، والرياح والعواصف ، والنباتات ومراتبها ،
 والحيوانات وفصائلها ، والانسان وأدواره ، وتدرجه فى أطواره ؛
 واللغات ومناسئها ، والشعوب وتخالفها ، يرى ذلك كله بين يديه فينتفج

حضناه كبرا ويرتفع أنفه شموخا، ويصغر خده عجبا ، ويتبايل في مشيته اختيالا ؛ ثم يرمى بصره الى القرون الخالية في قلة علومها ، واغلاط أعلامها ، وجهالة السواد الأعظم من أهلها ، فيكبر أن يكون فيها رجل يرضى لنفسه باتباعه أو يطمئن من كبره للرضوخ لأوامره . وكيف يتأتى ذلك وانصياعه له يستلزم أن يعتقد أنه أكبر منه علما وفهما ، وأفوز منه من قسط المعارف سهما .

هذا من جهة . وأما من جهة أخرى فانه يرى أنه قد قيد نفسه بعادات في الكلام ، عادات في السلام ، عادات في اللقاء ، عادات في الوداع ، وحمل جسمه أحمالا وأى أحمال : أطواقا براقة في عنقه ، وألواح ملبعة على صدره وفي معاصمه ، وأقشعة مفصلة على جسده ، وسراويل لاصقة بسيقانه ، وأحذية ضاغطة على أقدامه ، وفي صدره ومعاصمه من أحجار الياقوت والماس ما يأخذ بالعين بصيصه ، ويداعب أشعة الشمس بريقه . ينظر الى نفسه وهو في هذه الهيئة ثم يلقي بصره الى أولئك الأنبياء في بساطة ألبستهم ، وعدم تكلفهم ، فتتفخ أوداجه صلفا ، ويحاول أن يقنع نفسه رغما عن احتجاج ضميره بأنه قد صعد درجات في سلم الانسانية وارتقى مراتب بعيدة في الكمالات الصورية :

ثم ينظر لنفسه في تفننه في أصناف ما كله ومشربه ، وما استوجبه بذخه من استعمال الألوان الذهبية والفضية ، والموائد الأنبوسية ، والمناشف الحريرية ، والطنافس الصوفية ، ذات الصور الملئية ، ثم يرنو بصره الى أولئك الرسل الكرام في خشونة ماكلهم ، وقلة مؤوتهم

فيرaug عقله بما أوتي من قوة المراوغة والخداع ، ويحاول أن يقنعه بأن هذا رقى عظيم لم ينله أهل العصور الماضية ، ويكبر عليه أن يخضع لرجل منهم مهما كانت صفته ! ولما ينزل نفسه بقوة المخادعة والمخاتلة الى هذه الدركة باختياره يكون قد هياً فؤاده لقبول أثر هائل أنكى في تسميم معناه من كل ماسبق وهو قصيف هذه الجلبة المصمية المنبعثة من هذه المدنية الذهنية فيعتريه دوار في رأسه ، يذهله عن ذات نفسه ، فيدور في تياراتها مع الدائرين ، ويمثل دوراً فيها مع الممثلين . هذا الأثر الهائل الذي بعثته هذه المدنية في قلوب أبنائها هو بعينه أثر كل مدنية مادية ظهرت في العالم وستكون نتيجتها كما كانت نتيجة ما تقدمتها من مدنيات الرومان واليونان الارتكاس بأهلها إلى أشد ما عليه الأمم الميتة اليوم إن لم يكن الله تعالى يريد أن يرينا من آيات حكمته أمراً .

بدى في العالم المتمدن جهة أعلا شرقية من شرفات بنائه الشامخ ضياء ساطع ، وسناء لامع ، يبشر بقرب انفراج أزمة الاحاد ، وانفصام حلقات العناد ، ولكن أين العامة منه ؟

ذلك النور ظهر شطر وجه رجالات خاصتهم ، وأعلماء كلتهم ، وقد احتملته أعين بعضهم ، وعشت عنه عيون البعض الآخر ، أما العامة (١) الذين تسممت قلوبهم بتعاليم أولئك القادة سابقاً فأمرهم

(١) لا أريد بالعامة من يعرف القراءة والكتابة كما اصطلاحنا عليه في بلادنا بل أريد بالعامة كل

من ليس بعالم مؤثر

لم يزل عويصا .

العامّة من كلّ أمة وفي كلّ زمان كان علاجهم شديدا على الرسل والأنبياء ، ومراسمهم صعبا على الاتقياء والأولياء ، فكيف بهم في القرن العشرين الميلادي وقد أعماهم الترف ، وقذفهم المدنية المادية بسحرها الى متاهة الضلالة والغى . هل ينتظر بهؤلاء إلا أحد أمرين : إما إياب إلى الرشاد ، وتكب لسبيل العناد والاحاد ، والتوجه شطر هذا النور اللامع ، والاخذ بيد أرواحهم من هذه الهلكة المحتاجة ؛ وإما الاسترسال مع التيار الذي هم هائمون على وجوههم فيه ، فيكون مصيرهم كمصير كلّ الأمم التي تقدمتهم من الفناء والتلاشي « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

الفائدة العظمى التي نتظرها من بحثنا في علم ما وراء المادة العصري واثباتنا حيرة زعماء الماديين ودهشتهم من تلك القوارع التي صبت عليهم ، هي إلفات تلك العقول التي تتيه بذلك العلم الطبيعي الناقص وتزعم من أجله أنها فاقت كلّ أهل العصور الخوالي في مضمار الفهم والعرفان ، حقيقة كبرى : وهي أن هذا العلم مهما اتسع نطاقه ، وشسع مجاله فليس له علاقة إلا بظواهر الأشياء وقشورها ، ولا نسبة بينه وبين الكائنات إلا من جهة غلفها . أما العلم الذي يمس حقائقها ، ويدرك لبابها ، وأعد الإنسان بطبيعته للتغذى منه ، وإحياء روحه بمدركاته ، وقضى عليه أن لا يكون إنسانا إلا به ، فهو علم جاءت به الأنبياء وحملته صدورهم الرحبة . وإن ما أرسله الله على قادة العلم المادي في هذا العصر

فكسر من شوكتهم ، وأراهم أنهم جهلاء لا يدرون شيئاً ، وإن كل ما حصلوه لا يساوى قطرة مما حجبته عنهم هذه المادة الصماء ، فليس إلا صورة ناقصة من ذلك العلم العالى الذى تغلغل أولئك الأنبياء فى أرجائه ، وقلبوا به العالم من شكل الى شكل آخر .

أما نحن الذين قضى علينا أن نكون بضعفنا وباضمحلال شخصيتنا عرضة للتأثر بحال الأمم الغربية والدوران فى حركتهم ، فإن أبنا إلى عقولنا ، واعتبرنا بالمثلثات التى أدبتهم ، فحمدنا الله على أن هدانا إلى دينه القويم ، وصراطه المستقيم ، حمينا أنفسنا من مثل ما وقعوا فيه ، وصنا أمتنا من فتنة يطول فيها أمد الحيرة ، ويدوم فيها ألم البلاء ، وأما إن أئينا إلا أن ننسحر بترف أولئك العامة منهم ، مدعين أن عدم الدين دليل على سمو العقل ، ونكران العوالم المملوكة تية ارتقاء فى الفلسفة العالية ، فلن نلوم إلا أنفسنا ، ولن نجنى من وراء هذه الحركة الشيطانية إلا ما جنته كل أمة كفرت بأنعم ربها : « وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرأ » .

نحن قبل الخوض فى هذا الموضوع يحسن بنا أن نقدم بين يدي القارئ بعض أقاويل كبار أولئك الخاصة ليعرف أنه امام أكبر موضوع من مواضيع العصر الحاضر ، وحيال مسألة أمالت رؤوساً كانت لا تميل ، وحولت عقولا كانت لا تستحيل : « والله غالب على أمره » .

قال العلامة (م. ت. فالكومر M. T. Falcomer) أستاذ علم الحقوق في الكلية الملكية باسكندرية ايطاليا في كتابه (المدخل الى علم الاسبرتزم العملى) : « هذه النظرية (النظرية القائلة بأن ما يحصل من خوارق العادات في جلساته الاسبرتزم » منسوبة لأرواح الموتى) يظهر بادىء بدء أنها جديدة ، ولكن الحقيقة أنها ليست « كذلك ويمكن أن يقول الانسان بدون أن يخشى معارضا أن الفيلسوف » (أما نويل كنت) (قد أدركها وإن (اللان كاردك) قد نشرها بين » العالم بعد أن فصها فصاً علمياً من جهاتها الثلاث : تجريبياً وفلسفياً » وأدياً ، ولكنها بالأسف كانت ولم تزل عرضة لنقد صارم بالنسبة » لاختبارها اختباراً عملياً وتعليل المشاهدات الروحية بها وبالنسبة » لتطبيقها على الحياة الاجتماعية والدينية وأخيراً بالنسبة للشهادة » الشخصية . أى نظرية غير هذه النظرية مما يكون أقل تأسيساً على » العلم كانت تزول من الوجود وتتلاشى أمام هذه الصدمات الهائلة » من الماديين والقائلين بوحدة الوجود والروحانيين الأقدمين » أنفسهم . فانك ترى الكنائس ومجامع العلوم الجامدة على مألدها » تحاربها في آن واحد (مع أنها تسعى في إيجاد الصلح بينهما) لأنها » تلقى على الناس نوراً ساطعاً فينكشف به فساد ذمة البعض وجهالة » البعض الآخر وكبر العموم . فالخرب التي تقاسيها هذه النظرية » شديدة المراس جدا واهول مما يمكن وصفه ولكن كلما شعر » عليها النقد العلوى سيفه ضمننا صفوفنا وهياًنا أنفسنا وجمعنا أدلة »

« للمقاومة . (فاكرا كوف) يصول (هارتمن) و (ريشانباش) »
 « يقارع (بوشنر) و (ولاس) ينزل (سيد جويك) و (يونج) »
 « دحره (جاردى) و (شيايا) هزم (لومبروزو) . وكانت نتيجة »
 « هذه الحرب إن انضم الى صفنا واحداً بعد واحد (شيابارلى) »
 « و (لودج) و (ريشيه) و (اكورويكنز) و (منديليجيف) »
 « و (زولنر) و (تندل) و (ويليم كروكس) و (اليوت كوس) »
 « و (اديزون) و (بلفور) و (جون لبوك) و (جلادستون) »
 « (جيرس) و (داريجليو) و (بروفيريو) و (جييه) و عدد »
 « عظيم من علماء مشاهير آخر (١) الى أن قال . »

« مجموع المشاهدات التى تتأسس نظرية الروحين العصريين »
 « عليها متشعبة يجب معرفة كيفية الاتجاه فى بحثها وفحصها ولذلك »
 « فنحن ننصح الذين يريدون الاشتغال بها بأربعة أمور : المطالعة والنظر »
 « والاختبار والاستنتاج . » الى أن قال : ان الظواهر والمشاهدات »

(١) هؤلاء علماء مشاهير من شعوب مختلفة (Aksocaf) من كبار علماء الروس ومستشار
 القصر و (R. Wallace) اكبر علماء الفسيولوجيا الانجليز و (Lodge) من أشهر
 علماء الانجليز ويلقب بداروين الطبيعة و (Richet) أشهر أطباء العالم وهو فرساوى له
 من آثار عظيمة فى الطب و (Zollner) عالم فلسكى المانى شهير يعد اليوم أذكى بنى البشر
 و (Tyndall) علم فرد فى علم الطبيعة وهو انجليزى و (Crookes) أكبر كيمائى
 الانجليز و (Coues Eliot) عالم امريكاني رئيس الجمعية العلمية الاميركية
 و (Edison) عالم امريكى شهير جدا باختراعاته وهو مخترع الفونوجراف و (Balfour)
 عالم انجليزى ورئيس وزراء الانجليز الحالية و (I. Lubbock) عالم انجليزى طائر الصيت
 ويلقب بلورد افبرى و (Gibier) تليد باستور .

«الروحية المذكورة ليس لها أدنى علاقة بظواهر علم الطبيعة والكيمياء»
 «الأرضيين، بل هي من متعلقات طبيعة وكيمياء علويتين أعنى من»
 «عالم ما وراء المادة فليعلم الجاهل وليتذكر المتناسي أن العلم البشرى لم»
 «يزل موضوعاً بالنقص وأن العالم المحسوس ليس هو في الحقيقة»
 «إلا ظلاً للعالم غير المحسوس، أعنى أن المحسوس ليس هو إلا»
 «الظاهر القشرى، أما غير المحسوس فهو اللباب الحقيقي إلى أن قال:»
 «هذه الطبيعة العالية ليست خيالية تأملية ولا هي مما تتعلق بالعقائد»
 «الجامدة، بل هي حاصلة على جميع شرائط العلوم الكونية لأنها تجريبية»
 «امتحانية. وأخيراً هذه الطبيعة العالية هي وحدها التي تستطيع أن»
 «تسلك بجميع العلوم وبالدين مسالك التركيب الفلسفي بأشباع العقل»
 «والاحساس معاً.»

هذا واحد من خاصة أولئك الأقوام نقلنا مامست إليه الحاجة
 من كلامه وسنعود إن شاء الله إلى ما يلزم الاستشهاد به من أقاويله.
 وأنت ترى أنه ليس بفارق العقل، ولا بقاصر التصور ولا بجاهل غمر
 بل درج في مهاد العلم الطبيعي والفلسفي، وبين يديه من مجالى الصناعات
 المدهشة والمرأى الفاتنة الملمية، ما ليس لغيره من صرعى هوى المدنية
 الغربية من المترفين، ومع هذا كله وما هو فيه من المركز الاجتماعى
 العالى بين قومه، وما يحيط به من نقدة الأقاليم، وأصحاب القيمة في
 العلم، والذراية فى اللسان، قام يلفت قومه إلى جمال ذاتهم وخلود
 أرواحهم، معالجاً لهم بما وقعوا فيه من الدوار المدنى الذى أصابهم

من سحر حضارتهم . وسمح لنفسه مع عظم مركزه أن يختم كلامه بقوله :
 « ان هذه المشاهدات المتعلقة بالعلم الروحاني التي بسطتها »
 « وشرحها في هذه الوريقات مما يشوش عقل العامة ، كما قال ذلك »
 « أيضا الفيلسوف (بابوس Papus) وسيحكم على عمل هذا أكثر »
 « من واحد من قرأني ، ولكن بدون برهان ولا حجة ، بأنه نتيجة »
 « شكل خاص من أشكال الخلل العقلي ولكن هذا الحكم لا يمنع من كون »
 « مذهب (الاسبرتزم) التجريبي تنمة للعلوم الطبيعية لما تأكد من »
 « أن الانسان مخلوق صالحا لأن يعيش في عالمين متميزين . فمن العقل »
 « والتبصر أن يطالع الانسان وينظر ويجرب ويتأمل ويستنتج بعد »
 « معرفة السبب بدل أن يحكم مثل هذه الأحكام بلا دليل ولا »
 « برهان . »

أهميته عند علماء أوربا

كتب الاستاذ الطائر الصيت (الفرد روسل ولاس) الفسيولوجي
 الانجليزي الشهير مكتشف ناموس الانتخاب الطبيعي مع الأستاذ
 (داروين) الطبيعي الشهير الى جريدة التيمس : « بما اني قد حسبت
 لدى كثيرين من مكاتبيكم في مصاف رجال العلم الذين يصدقون بصحة
 مذهب استحضر الأرواح فأرجوكم ان تسمحوا لي بايراد مبلغ البراهين
 التي أسست عليها معتقدي .
 ابتدأت أبحاثي من مدة ثمان سنوات تقريرا واعتبر من حسن

حظي أن هذه المشادات العجيبة كانت في ذلك الوقت أقل شيوعاً وأضعف استلفاً مما هي عليه الآن ، لأن ذلك سمح لى أن أعمل أبحاثى فى منزلى الخاص بمرآى جماعة من اخوان لى لأشك فى طهارة قلوبهم » إلى أن قال :

« أنا لا أنتظر من الذين يتشككون سواء كانوا يشتغلون أو لا يشتغلون بالعلم أن يعتقدوا صحة هذه الخوارق التى أستطيع أن أسرد لهم منها عددا كبيرا اختبرته بنفسى ، ولكن يجب عليهم هم أيضاً أن لا ينتظروا منى أنا ولا من الألف المؤلف من رجال الذكاء والفطنة الذين تحصلنا على حجج ساطعة فى هذا الموضوع أن تقبل تعليلاتهم الموجزة التافهة . ولم أكن أخشى أن أطيل عليكم لـكنت أريتكم جملة ملاحظات على الأفكار الوهمية التى تغلبت على عدد كبير من أهل العلم بخصوص طبيعة هذا البحث ، فلأخذ خطاب المستر (وركس) مراسلكم مثالا لذلك : اعتبر حضرته عدم امكان الحصول على هذه الظواهر بمجرد الارادة برهانا قويا ضد صحتها ، وحسب أن عدم تعليلها بالنواميس الطبيعىة المعروفة حجة أخرى على بطلانها ، وغاب عنه أن الاغماء وسقوط الأحجار الجوية وداء الكلب لا يمكن الحصول عليها أيضا بواسطة الارادة وهى مع ذلك حوادث لا يشك فى وجودها » .

ثم سرد أسماء جملة من اخوانه العلماء الذين يعتقدون بمذهب استحضار الأرواح ووصف فضلهم على العلم ودقتهم فى التجارب
(م — ٢٣ — أول)

ثم قال :

« ولم يكتفوا فقط باعتقاد صحة هذه الظواهر العجيبة ولكنهم كانوا يعتبرون نظرية الروحانيين الحاليين (أى النظرية القائلة بنسبة هذه المدهشات إلى أرواح الموتى) المفسرة الوحيدة لحصول هذه الحوادث الخارقة للعادة . وأعرف أيضاً فيزيولوجياً حياً للآن دأمر كنز سام وهو من أمهر الباحثين فى هذا المذهب ومن أشد المعتقدين به . ملخص الأمر أنه يمكننى أن أقول انه وإن كان من الناس من ينسب حصول هذه الخوارق للغش والتدليس الا أنى لم أكتشف على شيء من ذلك مطلقاً وبما أن الجزء الأكبر من هذه الخوارق لا يتأتى حصوله بطريق الغش الا باستعمال آلات غاية فى الدقة فلم يستطع أحد أن يقف على سر تلك الحيل للآن . على أنى لست بمغال إن قلت ان المشاهدات الرئيسية لهذه الخوارق صارت الآن مؤسسة على قواعد علمية وسهلة على الباحث مثل سائر الظواهر الطبيعية التى لم يكتشف ناموسها للآن . لهذه المشاهدات الخارقة للعادة أهمية كبرى جداً لتفسير حوادث التاريخ فانه غاص بمثل هذه المسائل ، ولدرس مصدر الحياة والعقل اللذين لم يتوصل العلم إلى فك معماها للآن الخ » انتهى نقول : يرى القارىء من هنا أن اهتمام مئات الألوف من علماء أوروبا وأمريكا فى بحث مسائل استحضار الأرواح ليس موجهاً للالتهاؤ وتمضية الوقت بالنظر لخوارق الطبيعة بل غرضهم أسمى من ذلك بكثير . غرضهم الوصول كما يقول الأستاذ (الفردولاس) المتقدم

ذكره لادراك أصل الحياة والعقل وذلك معميات أخرى في الخليقة وقف العلم المادى أمامها حائراً لا يبحر جواباً .

لما قام هؤلاء العلماء الأماثل يبحثون المسائل الروحية بالطريقة العلمية العملية ، قام في وجوههم أعداء العلم ونصراء اليأس ، ونذر الظلمة ، يستهزؤون بهم وينذونهم بالألقاب ويكذبون تجاربهم من غير أن يكون لهم أدنى علم بمسائل ذلك الموضوع ، ولكن سطوات الحقيقة تردع كل جبار عنيد فان أولئك العلماء الجسورون وقفوا أمام خصومهم وقفة الحزم والحكمة وردوا عليهم الردود المفحمة وسلقوهم بالسنة حداد ، قال الاستاذ الشهير (وليم كروكس) أكبر كيميائي الانجليز وأحد رؤساء الجمعية العلمية الانجليزية في كتابه (الأبحاث في الظواهر النفسية) الذى طبعت ترجمته الفرنسية اثنتى عشرة مرة بالانجليزية والفرنساوية عشرات من المرات ما يأتى :

« وبما انى متحقق من صحة هذه المشاهدات فمن الجبن الأدبى أن آنى الشهادة لها بحجة أن كتاباتى قد استهزأ بها المتقدون وغيرهم (تأمل) من يعلمون شيئاً في هذا الشأن ولا يستطيعون لما علقوه من الأوهام (تأمل) أن يحكموا عليها بأنفسهم . أما أنا فأسأرد بغاية الصراحة ما رأيته بعينى وحققته بالتجارب المتكررة (المدفقة) » .

عجيب أمر هؤلاء الماديين يعلمون كما يعلم كل انسان أن الانسان لم يزل من العلم في دور الطفولية وان المسائل المجهولة لم تزل تنغص عقل كل باحث ، ثم اذا رأوا باحثاً أخذ ينمى مواد العلم بشئ من الأشياء

التي تهدم أصلا من أصولهم المقررة قاموا في وجهه يدعونه دعا،
ويوسعونه شتا وهجرا، كأنهم مأجورون على أن يدافعوا عن الاتحاد،
أو مرشون على أن يطفئوا نور الايمان من قلوب العباد، وكلما اشتدوا
في تحمسهم الباطل لمذهب الفناء والعدم، قابلهم أولئك العلماء
المسورون بشهب من الافحام تقف بهم عند حدهم.

قال العلامة الانجليزى الطبيعى (كرمويل قرلى) كما نقلته عنه
(المجلة الروحية) ما يأتى : ان الشئام التي تكبدناها في سبيل الاعتقاد
بمذهب استحضار الأرواح لم تأت إلا من جهة الذين لا يحصل لهم
اقدام على البحث والتنقيب الا بعد معاداة ما يحفلونه .

وكتب العلامة (اجست مرجان) رئيس قومانيات التلغرافات
الانجليزية وهو من كبار علماء الطبيعة في مجلة (فروم ماستراف
سبريت قال) :

« أنا مقتنع بصحة مذهب استحضار الأرواح مما رأيت به بعينى وسمعت به
بأذنى اقتناعا يجعل تطرق الشك مستحيلا على . وان الروحانيين لعل
الطريق التي تقدم العلوم الطبيعية وليس اضدادهم الامشخصين للذين
يريدون وضع العقبات في سبيل الترقى . »

عجيب أمر هؤلاء الماديين . ماذا يصيبهم من الأذى لو ثبت يوما من
الأيام بالتجربة والامتحان أن للانسان روحا خالدة وأنه مجزى
على كل صغيرة وكبيرة من أعماله وأفكاره في دار بعد هذه الدار ؟
ماذا يلحقهم من الضرر المادى أو الأدبى لو رجعت تلك القلوب

اليائسة ؛ والاحساسات الكئيبة المتلظية ، فى هذه الحياة الأرضية ؛ فاعتقدت أن الدنيا دار ممر الى دار أخرى فيها ينصب ميزان العدل الالهى ، وتتجلى للفاضلين والكاملين سبحات النور القدسى ، فينالون جزاء جهادهم الحيوى الطويل فى معترك هذه المادة الطينية ؟ ثم ماذا ينالهم من الفائدة لو ثبت عكس ذلك وبقت الفطرة الانسانية تن من فقد العقيدة وانتشر الاحادى فى طبقات العالم حتى أكل الناس بعضهم بعضا من الفساد الخلقى ؛ وأصبح الانسان يرى فى الموت العدو اللدود الذى يقطع بينه وبين أهله الأعراء وأفلاذ كبده المحبوبين ؛ وأضحت الأم التى تفقد ولدها أو بنتها لا ترى لها معزيا ولا مسليا غير الذهاب مثله أو مثلها الى عوالم الظلمة والفناء .

الله أرحم بعباده من هؤلاء الماديين ، فليمتووا بغيظهم فان الله متم نوره ولو كره الكافرون وهو القائل وقوله الحق : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز » .

كتب الفيلسوف الفرنساوى الشهير (شارل فوفى) فى كتابه المسمى (الوحى الجديد — الحياة) يقول : « لما فقد الفكر قدرته على التصديق بوجود الأرواح صارت منابع الحياة الخلقية مهددة بالغيضان وأحست الجمعية الانسانية (تأمل) من نفسها بأنها قد دخلت فى دور الفتن والانحلال الذى يجب أن يعقبه الخراب التام ، ولكن لما أشرقت فى الأذهان هذه الفكرة الجديدة (مذهب استحضر الأرواح) — وان لم تكن بينه الحدود للآن — أحست النفوس بقرب

حدوث تغير جديد في الأفكار » انتهى .

ولكن حضرات الماديين يظهر أنهم لا يريدون ذلك التغير في الأفكار بل يريدون أن يبقى الانسان معتقداً بأن روحه ليست إلا وظائف أعضائه المختلفة ، وأن عقله وفكره إفراز من مخه كما أن البول إفراز من كليتيه (كما يثرثرون بذلك في كتبهم) وان الانسان مثله كمثل النباتات لاحظ له من الحياة إلا السنوات التي يعيشها على سطح الأرض في وسط هذه المحن الشديدة . دهمهم يصدقون هم أنه لا أرواح لهم ولكن هيات هيات أن ينصاع الناس بعد اليوم لاعارة أقوالهم السامة جانب الأهمية . فقد زال سلطانهم وتقوضت دعائم دولتهم ونجى الناس من شر اك أباطيلهم والحمد لله رب العالمين .

لنرجع إلى ما كنا فيه من نقل أقاويل علماء أوربا في بيان أهمية مذهب استحضر الأرواح حتى إذا وجدنا لقارئنا فكرة عامة على ذلك نقلنا له إن شاء الله تفصيلات الأبحاث المختلفة ، والمشاهدات العجيبة التي قام بها فحول علماء الارض (والله غالب على أمره) .

نقلت المجلة الروحية أقوال الأستاذ (هودسن) الانجليزى جاء فيها ما يأتى : « قد ابتدأت أنا والأستاذ (هزلوب) البحث من منذ اثنتى عشرة سنة وكنا ماديين دهرين لانصدق بشيء مطلقا ولم يكن لنا إلا غرض واحد وهو كشف الغش والتدليس ليس إلا . أما اليوم وما أدراك ما اليوم فانى أعتقد وأجزم بإمكان المحادثة مع أرواح الموتى . وقد قام لى الدليل على هذا الأمر بحيث لا أتصور أن يتطرق الشك إلى

فيه مطلقاً .

وقال الاستاذ الفسيولوجى الطائر الصيت (روسل ولاس) المتقدم ذكره فى مقدمة هذا الفصل فى كتابه (الخوارق العصرية) قال : « لقد كنت دهرىاً صرفاً مقتنعاً بمذهبي تمام الاقتناع ولم يكن فى ذهنى أدنى محل للتصديق بوجود حياة روحية ولا بوجود عامل فى هذا الكون كله سوى المادة وقوتها ، ولكنى رأيت ان المدهشات الحسية ان تغالب فانها قهرتني وأجبرتني على اعتبارها أشياء حقيقية قبل أن أعتقد علاقتها بأرواح الموتى بمدة طويلة ، ثم أخذت هذه المشاهدات مكاناً من عقلى شيئاً فشيئاً ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية (تأمل) ولكن بتأثير المشاهدات التى كان يتلو بعضها بعضها بطريقة لا يمكن التخلص منها بطريقة أخرى (أى بغير نسبتها إلى أرواح الموتى) . »

وقال الاستاذ (متزجر Metzger) السويسرى فى كتابه المسمى (الاسبرترزم العلمى) : « هذا المؤلف يتركب من سلسلة خطب قرئت فى جمعية الأبحاث النفسية فى مدينة (جنيف) وليس من السهل على المؤلف (يحكى عن نفسه بضمير الغائب كما هى عادة بعض العلماء) نشره بين الجمهور على هذه الصفة لأنه يعلم أن شكل الخطب لا يليق أن يكون تأليفاً لما يكون فيه من التكرار فى المواضيع والترداد للأفكار التى لا يسهل على الخطيب اجتنبها لاشتغاله فوق كل شيء باقناع سامعيه والزامهم الحجة .

« الموضوع الذى نحن بصدده مشتبك ببعضه جداً فان المشاهدات

التي يلزم امتحانها كثيرة جداً ومتخالفة ، والنظريات التي رؤيت كافية لتعليلها وتفسيرها عديدة ومتناقضة . فمن الناس من ينسب لأرواح الموتى حدوث كل الظواهر النفسية حتى أصغرها ، ومنهم من يقول بأن الرأى القائل بتداخل الأرواح في حدوثها لا لزوم له أصلاً ، فان مجرد قوى الانسان تكفي لتعليلها كلها . فالتوسط بين هذين الرأيين المتعاكسين بالبرهنة للأولين بأنهم واهمون في نسبتهم للأرواح مشاهدات لا دخل لها فيها ، وبالاثبات للآخرين بأن تعليلهم كل المشاهدات بدون استثناء بمجرد العوامل الانسانية هو تكليف لنظرياتهم بتفسير ما لا قبل لها به لا يكون من نتيجته التعرض لاغضاب كل من الخصمين المتجادلين :

« فما العمل اذن ؟ الأولى قول الحق لا السعى في ارضاء حزب من الأحزاب . فالمؤلف بعد أن درس هذه المسألة درساً مدققاً اقتنع بأن كلا هذين الطرفين مفرط في مزاعمه سواء في ذلك أنصار مذهب استحضر الأرواح الذين يصدقونه بدون أقل تحفظ ، وأضداده الذين ينكرونه بتاتا . فاذا كان لا شك في أن عدداً عظيماً من المشاهدات الروحية ممكن تعليلها بدون فرض تداخل الأرواح في احداثها ، فلا شك كذلك في أن هنالك مشاهدات أخرى تستلزم فرض تداخل الأرواح بطريقة لا يمكن دحضها ولا التردد في قبولها . هذا مايجب التجاسر على قوله ولو كان فيه مصادمة الثقة الطفلية للذين يتوهمون رؤية الأرواح في كل شيء ، ومكافحة ذلك الكبر المتناهي من الذين

ينكرون وجودها رأساً أو الذين ينسبونها لفعل الشيطان .
 « الذى شحذ عزيمة المؤلف وأمضاها هو أنه يعتقد قلباً وقالبا بأن
 مذهب استحضر الأرواح المنق مما علق به من الأوهام الطفلية التى
 محط من كرامته وتفسده سيحدث أثراً أدبيا فى غاية من الأهمية فى
 هيئتنا الاجتماعية المختلة . فانه عدا عما يكسبه للعلم من المواد العلمية
 ذات القيمة التى لا تقدر ، سيقذف نورا ناصعا على هذا الخطب الفكرى
 الحاضر ، وسيكسب القسم المعنوى من الفلسفة والدين عضدا قويا ،
 وسيوجد تسليية عظمية لعيون الباكين ، وروح رجاء لقلوب اليائسين .
 » مذهب استحضر الأرواح يثبت وجود الروح ويكاد يجعلك
 تلمسها بأصابعك . ولقد أصبحت مسألة خلود الجزء المعنوى من
 الانسان مما لا يمكن الجدل فيه لبدايتها . كما أنه قد انستت تلك المهواة
 السحيقة القرار التى كانت تفصل الأحياء عن من كان يقال عنهم ميتون .
 « هذه حقائق جديدة فى الواقع ونفس الأمر ، ولكن ما أجل
 فوائدها وأعظم عوائدها ! فان هيئتنا الاجتماعية فى هبوط مستمر ،
 ولقد أصبح الناس يتساءلون بقلوب يملؤها الأسف والأسى عما
 ستؤول اليه حالة مدنيتنا المتنازعة من كل جانب التى اقترسها مذهب
 الماديين المحتاح للفضائل (تأمل) الذى بقتله فيها عواطف الجرى
 وراء الكمال ، وبمحوه أنوار مستقبلها يدفع الانسان لغشيان كل ما يطوف
 بفكره من الملاذ الجسدانية بدون المبالاة بوسائل الحصول عليها .
 » بعد هذا كله ألا يكون إقامة الأدلة العلمية على ضلال الذين

يحددون وجود الروح وبيان أننا لا محالة مجزيون على جميع أفعالنا وأقوالنا وأفكارنا هو أنجح العلاجات لهذا الجنون الكثير الاشكال؟ هذا هو تأثير الاسبرتزم وسيكون تأثيره دائماً كذلك فيما نرى .

ثم تكلم الأستاذ السويسرى على ما سيكون له من التأثير العظيم على الفلسفة والتدين لتأسس مبادئه على المشاهدات المحسوسة التى لا تدع للشك مجالاً فى النفس ، ولا للارتياح سلطاناً على الفؤاد ، فقال مشيراً الى الدين والفلسفة : « انهما سيكونان بواسطته أقرب للفهم ، وسيكتسبان به حياة جديدة وصيغة علمية وستسترد أوامرهما وتعاليمهما السلطان الكبير الذى كان لهما على أرواح الناس ، وسيستطيعان مكافحة الاحاد الذى وقعنا فيه بوسائل أنجح وأسلحة أسمى . هذا ما يعلل سر تزايد استلفاته لأنظار الباحثين رغماً عن العداوة الكامنة أو الظاهرة التى يصادفها فى بعض المراكز . فأصبح العلماء (تأمل) يهتمون به لأنه يفتح لهم مجالاً عظيماً للبحث والتنقيب عن المساتير . والروحانيون ذوو الصبغ المختلفة من الفلاسفة ابتدؤا يفهمون بأنهم يجدون منه وحده سنداً ركيناً فى الحقيقة ، وعماداً لا يتزعزع ، يعتمدون عليه فى تأملاتهم على مسائل الروح وبقائها بعد الموت وعلى أحوال الحياة فى العالم الثانى . لهذا ترى عالمين من العلماء الأعلام المسيو (أجوست سباتيه) الأستاذ الشهير جداً فى كلية العلوم فى (مونتيلية) فى خطبته (بالاولا) من جنيف والمسيو (ارنست نافيل) الفيلسوف الكبير فى كتابه (العلم ومذهب الماديين) يتمنى كل منهما بفتور ولكن

بصراحة تامة أن يرى تحقيق نظريات بواسطة المشاهدات النفسية أى مذهب استحضر الأرواح .

« فأهمية مسألة استحضر الأرواح وجدتها ، ولزوم محاربة مذهب الماديين ، مذهب الفناء والعدم الذى سيؤدى بنا الى أسفل سافلين لو لم توضع العقبات ضد انتشاره ، وضرورة تغيير كيان ذلك التشدد الدينى القديم الذى ساعد مساعدة كبرى على ايجاد هذا الاحاد الذى يساورنا من كل جانب ، والفائدة المنتظرة للحقيقة الفلسفية والدينية والعلمية ؛ كل هذه الأسباب هى التى ساقى المؤلف لابرار بحثه هذا ولو أنه لايجمل عدم كفايته لبلوغ الغاية من هذا الموضوع وهو يتمنى من صميم فؤاده أن يوجد كتابه هداميلا عند بعض قارئيه لبحث هذا الموضوع الذى لم يزل فيه كثير من الجهات المظلمة ، ويرجو أيضا أن يحفف دموع عيون باكية وأن يعيد القوة والجلد للذين فدحتهم المصائب وذلك بأن يبرهن لهم بأن ستجىء الساعة التى فيها تشرق العدالة والنجاة والسعادة لجميع العالم . فغرض المؤلف من هذا الموضوع هو خدمة الحقيقة والبر . » انتهى

الامضاء (د . متزجر)

بعد هذا كله يوجد من الناس من يتهم الباحثين فى هذا المذهب والمصدقين به بالجنون تقليداً لبعض علماء أوربا عند بدء ظهور هذه الخوارق بين ظهرانيهم . ولكننا نقول لهؤلاء قد مضت سنة الأولين وقد رجع أكبر القائمين بذلك وهو الاستاذ الكبير (سيزار لومبروزو)

عن زعمه لما رأى أن أكثر اخوانه دخلوا في ذلك المذهب أفواجا أفواجا ، ثم فحسه بنفسه وألف فيه كتاباً مبهاً ذكر في آخره هذه العبارة الصالحة : « ولنحذر من ادعائنا دقة العقل والاعتقاد بأن كل الناس من قبيل المخرفين ، والتوهم بأننا نحن العلماء دون سوانا فان ذلك يوقعنا في الجهل والضلال » .

فرحم الله قتي خلع عن عقله غاشيات العقائد الجامدة وأسلم وجهه لخالقه تالياً قوله (رب زدني علما) .

﴿ مذهب استحضار الأرواح ﴾

(١) عامل كبير لنشر الاسلام في أوروبا

أجل مزاي مذهب استحضار الأرواح في أوروبا هي ما نراه من أنه فتح لذويه نافذة واسعة تطل على العالم الروحاني أشرفوا منها على مسألة الوحي والنبوة وهي تلك المسألة التي طالما قام بمنابتها أسرى الحس وقصار النظر وأرادوا بذلك الغض من كرامة الأديان والخط من شرف العقائد ، ولكن أين يتاه بهم ! وقد حكم الخالق لأصفيائه بالنصر والتأييد ، رغماً عن كل جبار عنيد فقال تعالى : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبيصرون . »

(١) هذه المقالة تنمّة لسؤال وجهه الينا حضرة الأستاذ الشيخ أحمد محمد الالفى بطوخ

القراموص بأبي كبير

نعم ان مسألة التنويم المغناطيسى ومذهب استحضر الأرواح قد دلا الانسان من طريق الحس على وجود عالم روحانى ، وراء هذا العالم الجسدانى وكفى بهذا الرقى العلى هادما لأصول الملحدة الذين قصروا العالم لقصور مداركهم ، على ماتحسه حواسهم الكليلة . فكانت هاتان الآيتان الكبر اوان التنويم المغناطيسى ومذهب استحضر الأرواح اللتان أرسلهما الله تعالى فى هذا العصر من البواعث العظمى التى ألجأت الانسان الى الاعتقاد بالنبوات والاعتراف بوظيفة أولئك الرسل الكرام فى هداية الناس وتربيتهم ، ودلتهم على مقاومهم من عالم الجلال والجمال وخصوصا مقام خاتمهم وأمامهم محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام . وهذه درجة فى معراج الكمال الانسانى لاتساويها درجة سواها وهى بعينها مقدمة لوعده الله تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز »

اعتقاد الشاعر الفيلسوف الشهير (فيكتور هوجو)

« برسالة نبينا عليه الصلاة والسلام »

ليس فى الشرقيين اليوم من يجهل مقام الفيلسوف الفرنساوى (فيكتور هوجو) الذى يحمله الفرنسيون إجلالا لامزيد عليه وتشاركهم فى ذلك كل الأمم الأوربية التى استقت من جداول فكره حكمة فكت لهم كثيرا من معمية الحياة . هذا الرجل الكبير كان يعتقد بمذهب استحضر الأرواح وله فى ذلك كلام كثير وليس

يعطينا منه اليوم إلا نقل ما يؤخذ منه صورة اعتقاده بالنبوات وبالأُنبياء
ومنهم نبينا عليه الصلاة والسلام.

جاء في المجلة الروحية بتاريخ مارس سنة (١٩٠٣) ضمن مقالة
مستخرجة من كتبه الشهيرة قوله في كتاب له : « العالم متحرك بمحركين
متميزين ، كلاهما محجوبان عن مشاعرنا وهما الأرواح والقوى الطبيعية ،
أما القوى الطبيعية فهي تابعة لدستور رياضي لا يتبدل ولا يتغير ،
وأما الأرواح فهي حرة لا يقيدتها شيء . من هنا كان من لوازم القوى
الطبيعية النظام والأحكام ، أما الأرواح في حريتها فجائز عليها الشطط
والضلال ، ومع ذلك فتلک الحرية التي تتمتع بها الروح معدل يعدلها
وينظمها كلما مالت ذات اليمين أو ذات الشمال ، وذلك المنظم هو
الضمير . هذا الضمير ليس هو في الحقيقة إلا الشعور بدستور معنوي
خفي ناتج من ذلك القانون الأدنى العام المعزوز في فطر البشر .

ماتلك الذات الكاملة التي نسميها (الله) والتي يمكن تسميتها أيضا
بمركز الافاضات ، فهي المقيضة لتينك القوتين السالفتي الذكر وبناء
عليه فهي قيوم الروح والقوة معا . »

ثم شبه تلك الذات الكاملة بالشمس وشبه الأُنبياء في اكتساب
النور منها بالأقمار فقال : « الفطرة المودعة في صميم الانسان بوجود
الله آتية من تلك الشمس مباشرة . أما الديانة اليهودية والصائية
والبوذية والمعددة الآلهة والمانوية و (المحمدية) والمسيحية فهي من
نور القمر . لأن موسى ، وبوذا ، وذورو ، واستر ، وارفيه ، وكونفوشيوس

وماني ، (ومحمد) ، وعيسى هم أنواع من الكواكب دائرين حول تلك الشمس يستشرقون نورها ويعكسونه على من دونهم من العالمين . فالديانات التي هي أثمار الشمس الالهية وظيفتها إفاضة النور على الانسان في غياهب حياته وظلمات بقائه . » انتهى .

هذا (فيكتور هوجو) وليس هو وحده الذي أصبح يقول هذا الكلام بل كل نخبة المعتقدين بمذهب استحضر الأرواح وقد أضحي هذا الموضوع شائعاً بينهم لدرجة معها صار يخطب به خطباءؤهم ويكتبه كتابهم بدون حرج . ومن ذلك ما نقلته المجلة الروحية في جزئها الصادر في يوليو الماضي سنة (١٩٠٣) من ملخص خطبة خطبها فيلسوف الاسبرتزم وخطيبها المفوه (ليون دوني) في غرفة الزراعة بباريس . تكلم الخطيب في أثناء الخطبة على وظيفة رجال القرائح الكبرى في العالم الانساني وعلى مكانهم في هداية الخلق وارشادهم ثم قالت المجلة : « المسيو (ليون دوني) استعرض أمام سامعيه كبار الوسطاء بين الملائكة والأعلى والناس ، وهم الذين خلد لنا التاريخ أسماءهم ، وسرد أدلة وحججاً استملاها من الحوادث ومن تفاصيل حياتهم ، وذكر من أولئك الرجال المسيح ، ومحمد ، وكريستوف كولومب ، ولوتاس ، وشكسبير ، وجوث ، وديكارت ، والفريد موسيه نفسه الذي كان يقرباً أنه إنما كان يكتب أشعاره باملاء روح عالية (١) من

(١) يرى قارئنا معنا أن القوم اعتقدوا بالوحى حتى أفرطوا فصاروا لا يفرقون بين الأنبياء ورجال القرائح . إنما الذي يهنا هو اثبات اعترافهم بوظيفة نبينا وخرجهم من جحودهم السابق

هنا يرى أن خاصية الأشراف على العالمين قد ملأت تاريخ العصور كلها ، وإن كل العاملين العظام على ترقية النوع الانساني كان يوحى اليهم من قبل الأرواح العالية النيرة .

« هذه الخاصة كانت دائماً الممدة للقرائح العالية ، والمهذبة للعالم والمعلمة المرشدة للأمم والشعوب أى أنها كانت الوسيلة التى بها يربى الخالق عباده ويخرجهم من طور الى طور آخر . وقد كان ينحى بها الشعوب فى بعض الأحيان من سيطرة الظالمين كما حصل بواسطة (جان دارك) التى خلصت فرنسا من هاوية العدم . فالأرواح الكبرى بوحيا المصطفين من النوع الانساني ونريد بالمصطفين رجال المدارك العالية ترتقى الانسانية بهم ، ويكبر معهم قسطها من ادراك الحقيقة ومن التنور والحب » انتهى

وكتب الكاتب الباحث (سنكس) فى المجلة الروحية فى جزئها الصادر فى يونيو سنة (١٩٠٣) مقالة تحت عنوان « محمد » هى عقيدة اراكين مذهب استحضار الأراح فيه صلى الله عليه وسلم ، نقطف منها مايمس موضوعنا ، وربما ترجمناها برمتها إن شاء الله فى فرصة أخرى قال حضرته : « ظهر محمد بعد المسيح بخمسمائة وسبعين سنة وكانت وظيفته هو أيضاً ترقية دقول البشر باشرابها الأصول الأولية للأخلاق الفاضلة وبارجاعها الى الاعتقاد بالله واحد وبحياة بعد هذه الحياة . » ثم قال :

« ان الديانة الاسلامية أحدثت رقياً كبيراً جداً فى الفكرة الدينية

فى العالم وخلصت العقل الانسانى من قيوده الثقيلة التى كانت تأسره .
حول الهياكل بين يدى الكهان ذوى الصبغ الدينية المختلفة . نعم ارتقى
العقل بواسطة الاسلام للاعتقاد بحياة أخروية ، وهذه العقيدة هى
الوازع الأقوى فى محاولات الانسان المادية والى الأخبات لاله
واحد يستطيع أن يعبد بنفسه ، بدون مداخلة أحد بينه وبينه ، وان
يرتقى فى مصاعد كرامته الى مجالى أنواره بدون وساطة الوسطاء ولاشفاعة
الشافعين من بنى جنسه . ولقد توصل محمد بمحوه كل صورة فى المعابد
وابطاله كل تمثيل لذات الخالق المطلق ، الى تخلص الفكر الانسانى
من عقيدة التجسيد الغليظة التى كانت من لوازم الفكر البشرى فى
القرون الخالية ، وأجبر النوع الانسانى بتأثير هذه التعاليم لأن يرجع
الى نفسه ويبحث عن الله خالقه فى أعماق روحه وصميم سره ليستطيع
أن يرتفع بهذه العقيدة النقية اليه تعالى بواسطة العبادة القلبية المملوءة
احتراما وشكرا ومحبة . ولقد قصر الناس فى الالتفات الى ذلك الرقى
الأدبى الباهر الذى تم بواسطة الديانة الاسلامية . وقد حصل هذا
الرقى بعيدا عنا لدى شعوب يسهل علينا وصفهم بالمتوحشين ظلما
بمجرد كونهم لا يخضعون لأفكارنا ولا يقولون بعقائدنا ولأنهم أحط
منا فى العلم والفكر ؛ ولكن مع كل هذا يجب علينا أن نعترف بأن
هذه الحركة الدينية قد رقت ولم تزل ترقى الى اليوم عقول أهم شتى
من سكان هذا المعمور .

« أما الاسلام فى ذاته فهو فى نظرنا اليوم — على شرط تخليصه

من كل التعاليم التي ألصقتها به الشعوب الطفلة ومن كل الشروح الباطلة التي شرحت بها أقوال النبي — أكبر وأعظم ما يدركه الانسان من معنى الدين ، وتعاليمه في العلاقات التي يجب أن تكون بين الانسان وخالقه هي أكثر التعاليم انطباقاً على نوااميس الطبيعة وقوانين العقل الانساني « انتهى

هذا أجل نتيجة لمذهب استحضر الأرواح في أوربا وهو من أهم الأسباب التي تدعونا للاكثر من الكلام فيه والتتويه به وتلقى كل ما يجد في مواده بالبشر والارتياح ، لأننا رأينا من مطالعة ما كان يكتبه القوم في مؤلفاتهم وما كانوا يثبونه في فلسفاتهم قبل ظهور هذه المسألة العجيبة ، ان أفكارهم قد تشبعت بأصول المذاهب الحسية حتى صار من المستحيل عليهم أن يتصوروا بعقولهم ما لم يكونوا يلبسونه بأيديهم أو يحسونه بأحد حواسهم ، وكان قد تأصل فيهم هذا الجمود وأفرع فروعاً كثيرة تشبثت كلها في مجارى تصورهم ، ووقفت في مهب روياتهم ، وأثمرت ثمراتها المعهودة من الشكوك والشبه والاشكالات والشطط . على انا رأينا أن كل ذلك كان منهم تابعاً لناموس رد الفعل حيث أن رؤساء مذاهبهم الدينية كانوا قبل ظهور دولة العلم وتأييد صولته عاملين على نشر الأوهام والخرافات وتسميم الفطر بالترهات والأضاليل ترويحاً لمصالحهم ، وحفظاً لمراكزهم ، فلما ظهر نور العلم على ظلمات الأوهام ، واسترجع كل من العقل والفكر حريتها الفطرية المفقودة ، وهبت نفوسهم من خدر الغفلة والجمود ، نبذوا كل شيء يشتم

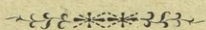
منه رأتهم ، ويحس فيه بأثرهم ، وأولعوا بالتشهير عليهم ، والخط من كرامة كل شيء يذكر فيه اسمهم ، ولما كان أكثر كلامهم في مواعظهم ، وأكبر دعامه يستندون عليها في أداء وظيفتهم هي مسألة الوحي والنبوت ، فقد تشدد أنصار العلم وقادته في القرون الثلاثة الأخيرة في دحضها وإبطالها فانهم لذلك وإذا بهذه الآية الكبرى آية استحضر الأرواح قد ظهرت من بين تلك الكسف الإلحادية المتكاثفة ظهور الكهرباء الجوية من خلال السحب المتراكبة في الليل الدامس ، فتار ضدها العلماء من أراكين المذاهب الحسية ، وصاحوا بالناس صيحات تدل على نهاية الكبرياء والتطرف في الجبروت قائلين : هذا عود إلى الظلمات الماضية ، هذارجوع إلى خرافات الأمم البائدة ، هذا هدم لأصول العلوم العالية . وغلا كثير منهم فقالوا : هذا جنون يلم بالحاضرين في جلسات التحضير فيريهم أشباحاً ومرأى لاحقيقة لها إلا في وهمهم ، ولا أثر لها إلا في خيالهم ، حتى أن الأستاذ الشهير أ. لبر الباحثين في الجرائم (سيزار لومبروزو) كتب هذه المسألة في بعض كتبه ونسبها لجنون آتيا وعين اسم هذا النوع من الجنون وزعم بذلك أنه هدم أصل المسألة واستأصل شأفتها وتبعه غيره في مزاعمه هذه وكثر الجوار والخوار من كل الأفواه مصبوغة بصنع مختلفة حتى أن رجال الدين أنفسهم كانوا من أكثر الناس تشدداً في دحضها وإبطالها قائلين أن تلك من الأعياب الشياطين والجنة بعقول الناس ونصحوا العامة بعدم التعرض لها وقاموا لها مقاوم لها شأن في الهياكل والمعابد ، ولكن ! تلك

حادثة اقتضتها الحكمة الإلهية رحمة بذلك العالم الخابط في متاهات
 الالحاد والجمود ، المشرف على هاوية العدم والزوال . فينبأهم يتلفتون
 يميناً وشمالاً وإذا بها امتدت وانتشرت واتبعت في انتشارها عين
 الناموس الذى تتبعه كل حقيقة ، وصار لها اليوم أى بعد مضى خمسين سنة
 تقريباً من ظهورها أكثر من مائتى مجلة خاصة وعشرون مليوناً من
 الأتباع ذوى المكانات الاجتماعية والعلمية المختلفة . وقد مرت في
 خلال هذه المدة على قرائح قوية ، وأفكار نقية ، وثافها نقدة العلوم ،
 وأصحاب الباع الأطول في تدقيق التجارب ، وتمحيص الحقائق ، ولم
 نسمع أن عالماً فحصها أو كذب بها ، أو نقاداً اختبرها أو أرى العالم وهن
 أصولها ووهى أساسيدها ، بل بالعكس رأينا أن كل من جربها هام بها
 وصدقها وصار من أشياعها ، ولو كانت أحبولة من أحابيل المشعوذين ،
 أو ضرباً من سيمياء الدجالين ، لما مرت على كل هذه الأنظار سليمة
 من الطعن ، نقية من الجرح . كلا فهامى لليوم تنتشر انتشار النور في
 الظلام تفتح غلف الأفتدة وتأسر أقوى العقول المتشددة ، وكانت
 هى السبب الوحيد في رجوع الناس إلى الاعتقاد بأن لله رسلاً إلى
 خلقه يحملون إليهم أنوار دينه ، وأصول شرائعه ، ولئن رأيت في كلامهم
 على الوحي والأنبياء شيئاً مما يخالف العدل والتبصر كوضعهم الفلاسفة
 والشعراء في مصاف الرسل والأنبياء فليس ذلك بالخطب الصعب ،
 فان الذى أرجعهم عن الجنود المطلق إلى هذا البصيص من النور قادر
 على أن يقيمهم على الصراط السوى بعد قليل » سأريكم آياتى فلا

تستعملون»

وأنك لو عرفت كم حجاباً كان يحول بين هؤلاء وهذه الحقائق ،
وكم سداً كان مقاماً بينهم وبين هذه العقائد ، لقلت انهم قد خطوا خطوة
لو حدث الإنسان بها لما صدق ، ثم انك لو رأيت كل ما كتبوه في
كتبهم إبعاداً للقلوب عن خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم وتغييراً لها
حتى عن الحوم بالفكر حوله بواسطة مأسوسه من تلك الأكاذيب
والأراجيف التي سمحت لهم أنفسهم بابتكارها واختلاقها ، ثم قرأت
اليوم ما ترجمناه عنهم بشأنه صلى الله عليه وسلم ، لعلمت أن روحه الشريفة
قد عملت فيهم وهي في عالمها العالى ما لم تفعله الظبي من الأعناق ، ولا
السمهريات من خبيثات الأضالع .

أليس كل هذا تحقيق لوعده تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق ،
وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء
شاهد . ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط . »



﴿ كيف كان اسراء النبي صلى الله عليه وسلم ﴾

وردتنا من حضرة المحترم رياض سايم افندى بمصر هذه
الأسئلة وهي :

(١) هل اسراء النبي صلى الله عليه وسلم حصل بالجسد والروح أم
بالروح فقط ؟

(٢) المراد بالصراط والميزان أشياء حسية أو معنوية ؟

- (٣) هل الحشر والنشر بالأجساد والارواح أم بالارواح فقط ؟
- (٤) أى شئ يتنعم فى الآخرة الاجساد أم الأرواح ؟
- (٥) ما الحكمة فى ابراز عالم الشهادة من عالم الغيب ؟ هل هى كما يقال لاطهار النور المحمدى ؟ وهل حق ما يقال من أنه لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تخلق هذه العوالم كلها ؟ انتهى
- هذه خمسة مسائل من أعوص المسائل الدينية التى خاض عباها العلماء قديماً وحديثاً وكانت سبباً لكثير من الخلافات بينهم وهى من الأمور التى تختص بعلم ما وراء المادة ولذلك فقد جعلناها من مواضيعه فى هذا الجزء ولكننا لانحب أن نجمل الكلام فيها اجمالاً لاتشتفى النفس به بل رأينا أن نحاول حلها واحدة بعد أخرى ليكون الموضوع أنفع لغلة العقل ، وأرد لعادية الريب ، وأنفذ لمكان الاقتناع من النفس والله السكا فى .

المسألة الأولى

(هل حصل الاسراء بالروح والجسد أم بالروح فقط ؟)

قال الله تبارك وتعالى « سبحان الذى أسرى بعده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا » وقال تعالى « والنجم اذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى . ذومرة فاستوى ،

وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنى فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ؛ فأوحى الى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أقمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، مازاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى . »

هذه الآيات الكريمة نصوص صريحة في حصول الاسراء الى بيت المقدس والعروج الى السماء ورؤيته صلى الله عليه وسلم لآيات الله الكبرى مما لا يخطر على بال أحدنا خطوراً لمناحن فيه من التورط في أحوال الحس ، والأمة بازاء هذه النصوص النيرة مجمعة على حصول الاسراء والعروج لاخلاف بينها فيما لا اعتقادها بأن النبوة أمر عظيم ينكشف به للأنبياء من جهة عالم الملكوت والجبروت نوافذ يطلون منها على سكان حظائر التقديس ، وعمار الصفيح الأعلى ، هذا ما لا خلاف فيه بين اثنين من هذه الأمة ، ولكن الخلاف في كيفية الاسراء والعروج : هل كان بالروح وحدها أم بها وبالجسد أيضاً ؟

قال الأستاذ القاضي عياض رحمه الله تعالى في شفائه « ثم اختلف السلف والعلماء : هل كان اسراؤه بروحه وجسده ؟ على ثلاث مقالات :

(١) فذهبت طائفة الى أنه اسراء بالروح وأنه رؤيا منام ، مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ووحي والى هذا ذهب معاوية وحكى عن الحسن والمشهور عنه خلافه ، الخ »

« (٢) وذهب معظم السلف والمسلمين الى أنه اسراء بالجسد وفي اليقظة ، وهو الحق ، وهو قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وعمر وأبي هريرة ومالك بن صعصعة وأبي حية البدرى والحسن وإبراهيم ومسروق ومجاهد وعكرمة وابن جريج ، وهو دليل قول عائشة ، وهو قول الطبرى وابن حنبل وجماعة عظيمة من المسلمين ، وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين » (٣) وقالت طائفة كان الاسراء بالجسد يقظة الى بيت المقدس ،

والى السماء بالروح ؛ واحتجوا بقوله تعالى « سبحانه الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى » فجعل الى المسجد الأقصى غاية الاسراء الذى وقع التعجب فيه بعظم القدرة والتماذج بتشريف النبي محمد صلى الله عليه وسلم به ، و اظهار الكرامة له بالاسراء اليه . قال هؤلاء ولو كان الاسراء بجسده الى زائد عن المسجد الأقصى لذكره فيكون أبلغ فى المدح الخ » انتهى كلام القاضى عياض .

نقول من هنا يتضح لقارئنا أنه لا يوجد نص صريح بالاسراء بالروح والجسد معاً ، ولو وجد لما كان مساغ لهذا الخلاف كله ؛ وما يحسن أن يلتفت اليه المطالع أن منكرى الاسراء بالجسد ليسوا ممن لا يعتد بايمانهم أو لا يؤبه لأقوالهم ، الأمر الذى يدل على أن القول بالاسراء بالروح فقط ، لا يقدح فى ايمان المؤمن ، ولا يؤثر على كمال عقيدته بشيء .

على أن الذى يود الاحتياط لعقله فيميل لرأى القائلين بأن الاسراء

كان بالروح فقط ، لا يليق به أن يتخذ هذه الرخصة سببا للخط من كرامة السواد الأعظم من الأمة الذين قالوا بأن الاسراء كان جسدا وروحا . ولو تأمل أحدا لرأى ان أولئك النفر الكبار الذين قالوا بمحض الاسراء الروحاني ، لم يقولوا ذلك استبعادا له على قدرة الله وعلى كرامة رسوله ، ولكن قالوها وقوفا مع مبلغ اجتهادهم فيها . ولو حاسب نفسه المستبعد منا وقوع ذلك الاسراء بالجسد والروح معا ، لرأى أن حرج صدره يرتكز على ضيق دائرة علمه بمساير الوجود وجهله لأسرار الخليقة ، وعلى ظنه (وان لم يصرح به) بأن كل ما خرج عن احاطته الذاتية ومعارفه الشخصية باطل لا يعتد به في شيء . ونحن لأجل تبرئة هؤلاء الأسلاف الكرام . الذين كانوا يعتقدون بالاسراء الروحاني الجسداني ، من وصمة الركون للخيال وسرعة التصديق - كل ما يقال ، كما يميل لأن يميهم به أعداؤهم ، نود أن نقيم الأدلة الطبيعية على قدر يسمح به طاقة العلم المادي بأن عقيدتهم ليست من باب المستحيلات أو الظنون البعيدة التحقق بل هي من مشاهدات الطبيعة وحوادثها اليوم فنقول :

ان وجوه استحالة هذا الاسراء الجسداني ينحصر في أمرين :
 (أولها) السرعة العظيمة التي يقتضيها ذلك الانتقال من مكة الى بيت المقدس وهي مسافة يمكن تقديرها بألفي كيلو متر يتعذر على القطار المستعجل قطعها في أقل من ستين ساعة ذهابا وإيابا .
 (ثانيهما) انتقال الجسم الانساني من مكان الى مكان بدون آلة من

آلات الانتقال المعروفة .

نقول : أما الأمر الأول فليست السرعة اللازمة لقطع ألفي كيلو مترا ذهابا وإيابا في بضعة ساعات من الليل بالأمر المستحيل في ذاته . فان هذه السرعة لو قرنت بالسرعة المتمتعة بها السيارات السماوية في مداراتها الواسعة لما عدت شيئا يذكر . وهذه كرتنا الأرضية التي نعيش عليها ولا تتخيل أنها دائرة ، قد برهنت العلوم الفلكية على أنها دائرة حول الشمس بسرعة (ثلاثين كيلو مترا ونصف في الثانية) أي أنها تقطع الألفي كيلو متر التي تفصل مكة عن بيت المقدس في أقل من (عشرين دقيقة) وبناء على هذا فليس أمر هذه السرعة بالخطب الكبير ، ولا بالشئ العجيب . وكيف نعجب منه بعد ما ثبت بالبرهان المحسوس أن هذا الكوكب الأرضي الذي نسرح ونمرح على صهوته ، دائر بنا كل لحظة هذا الدوران المزعج لا يفتر آونة ولا يغفل طرفه عين ، ولو حصل فيه شيء من التغير لاختلت موازنته ، ولتغيرت أوقات الشروق والغروب ، ولتبدلت أحياء الفصول ، ولتعطلت بسبب ذلك الزروع والضرع ، مما لا أستطيع أن ألم ببعضه فما بالك بكله والله أعلم . على أن هذا كله ليس هو الشأن العويص في هذه المسألة ، فان الخطب الجلل هو البرهنة على إمكان حصول انتقال الجسم الانساني بدون وسائل النقل المعروفة الى مثل هذه المسافات الشاسعة .

نقول المسلمون بازاء أمثال هذه المسائل العويصة التي تختص بالنبوات أحد رجلين : رجل جاز عمدة الحياة المادية ، واخترق

قشور هذه الحوائط الصورية فأشرف بروحه على عالم الأرواح واستشرف
 بفؤاده عجائبها وغرائبها ، وألم بطرف من أمورها وشؤونها ، فهو
 لا يصدق فقط ان بعض المسائل يصح أن تحصل بقوى روحانية فوق
 القوى الانسانية ، بل يعتقد اعتقاد مشاهدة وعيان ، بأننا تحت سلطان
 العالم الروحاني بحالتيه العلوية والسفلية . فنوايانا الصالحة ، وعواطفنا
 نحو السكّال والجمال ، وما نحدث به نفوسنا من جلائل الأعمال ،
 وصالح الأميال ، وما نجاه من الخفة للنجدة والمروءة ، وما نحسه من
 الحمية لمدافعة الضيم ، ومقارعة الذل ولو عدى على الحياة ، كل ذلك
 الهامات ودوافع آتية إلينا من تلك القوى العالية المحيطة بنا من كل
 مكان مما نسميه الملائكة . وأما مقاصدنا السيئة ، وساركننا خطط
 الفجور ، ومخالجات الفتن وتفكرنا في الأضرار بالناس ، فوسوسة من
 القوى السفلية التي تتناثر حولنا من كل صوب ونسُميها بالشياطين ،
 هذا الرجل الذي نحكي عنه من تذوق طعم الروحانيات وعرف
 مكانها من الخليقة ، لا يستبعد مثل هذه الأمور ، ولا يجيش في صدره
 أن يشور عليها .

ورجل آخر مؤمن ولكنه لم يفتح له ذلك الباب العالى ، ولم يشرف
 على شيء من بدائع العالم الروحاني فانه يحتاج بازاء هذه المسائل الى
 دليل يعتمد عليه ويقارع العدو بسلاحه كما هو شأن المسلم في كل ما
 يعتقد ، فلشل هذا الرجل نسوق شيئاً مما فتح الله به على بعض العلماء
 الطبيعيين في أثناء تجاربهم في مسألة استحضر الأرواح لنستطيع أن

نقرب للأذهان كيفية انتقال الجسم الانسانى من نفسه (بحوامل روحانية) محضة . واذ كانت هذه المسألة من عويصات المسائل فقد آلينا على أنفسنا أن لانبنى أسانيدنا إلا بواسطة من لا يمتري أحد فى صدقهم من علماء أوربا .

كتب الاستاذ الشهير العالم الفرد فى علم الكيمياء العصرى (ويليم كروكس) الانجليزى فى كتابه (القوة النفسية) الذى ترجم إلى اللغة الفرنسية وطبع بها اثنتى عشرة طبعة ، تحت عنوان «ارتفاع الجسم الانسانى» ما يأتى :

« هذه الحادثة حصلت فى الظلام بحضورى أربع مرار فى شروط من الرقابة كافية مرضية . ولكن لما كان البرهان الحسى لازم جداً للبرهنة على مثل هذه المدهشات ليكسنا أن نهدم من أذهاننا عقائد جامدة « حددنا بها لأنفسنا ماهو الممكن وماهو المستحيل » رأينا أن لاندكر من هذه المشاهدات إلا مايكون فيها الاستنتاج العقلى معضدا بحاسة النظر .

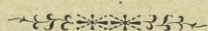
« شاهدت فى فرصة من الفرص كرسياً عليه امرأة جالسة ارتفع بها عن سطح الأرض بمقدار عدة عقد . وشاهدت مرة تلك المرأة ، وقد أرادت أن تبعد عنها كل ظن من الحاضرين فى أنها سبب هذا الارتفاع ، جثت على ركبتيها فوق كرسىها ، فارتفع بها الكرسي على هذه الصفة بحيث أننا رأينا كلنا قوائم الأربعة . ارتفعت هذه المرأة بهذه الصفة مقدار ثلاث عقد ومكثت معلقة فى الهواء مدة عشر ثوان

تقريباً . ثم نزلت بهدوء وبطء . ورأيت مرة غلامين صغيرين في فرصتين مختلفتين ارتفعا بكراسيهما من على سطح الأرض في رابعة النهار وفي شروط من المراقبة والضبط مرضية جداً (بالنسبة لي) لأنني عند ذلك كنت جاثياً على ركبتي لم تذهب عن مرمى عيني مطلقاً قوائم الكرسي . فتحققت أنه لا يمكن أن يكون بينه وبين أحد أدنى اتصال .

« أما أغرب مسائل انتقال الجسم البشري وأعظمها فوق كل ما حصل من ذلك أمامي ورأته عيناى فهو ما حدث بحضور (المسيو هوم) فلقد رأيته في ثلاث حالات مختلفة يرتفع بجسمه من على سطح الأرض تماماً ويتعلق في الهواء . أما المرة الأولى فقد كان جالسا على كرسي طويل . وأما المرة الثانية فقد كان جاثماً فوق كرسيه . وأما في المرة الثالثة فقد كان واقفاً على كرسيه . وفي كل مرة من هذه المرات الثلاث كنت متمكناً من مشاهدة هذه الحادثة في بدى ظهورها .

« وقد حصلت هذه الارتفاعات الجسيمة من المسيو هوم نحو مائة مرة شوهدت أحسن مشاهدة ، وروقت تمام المراقبة امام كثيرين من ذوى الصفات المختلفة . وقد سمعت من فم ثلاثة من شهود العيان وهم الكونت (دورافن) واللورد (لندسى) والقبطان (س . وين) تاريخ حوادث من هذا القبيل من أغرب ما يتصوره العقل شوهدت بكل مفصلاتها وادق جزئياتها » ثم قال الأستاذ عقب هذا « ان رفض صحة هذه الحوادث يعادل رفض كل شهادة انسانية مهما كانت صفتها ، لأنه لا توجد حادثة سواء في التاريخ الدينى أو في التاريخ الدنيوى

مستندة على براهين بهذه القوة . » انتهى كلام الاستاذ (كروكس)
من هنا يرى قارئنا ان مسألة انتقال الانساني بواسطة القوى
الروحية أمر أثبتته العلم العصري ، وقد رأيت أنه يحصل لمثل الدكتور
(هوم) على ما به من رعونات البشرية ، وغلبة القوى النفسية عمالاً يسلم
منه الا الأقلون ؛ فما بالك بنبي مرسل أخاصه الله لنفسه ، واصطفاه
لأعباء وحيه ، وانتخبه لحمل شرعه ، وطهره من أدناس الخصال ،
وأرجاس الخلال ، وزكاه من جماح البشرية وزيف الأُميال الشهوية ،
وجعله في عالم وسط بين عالمي الملك والملكوت . لا جرم أنه لا يستبعد
على مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تلك الروح العالية التي
برهنت للعالم أجمعها على أنها أكبر الأرواح قدراً ، وأعظمها مقاماً ،
ان تنال من مزايا القوى الروحانية أكثر مما يناله مثل هوم بما لا يقدر ،
فاذا كان هوم يستطيع أن يقف على كرسيه في الهواء فلا يستبعد على
محمد صلى الله عليه وسلم (لا تنس ما بينه وما بين هوم من الفارق في
القوة الروحية) ان ينتقل بجسمه الشريف على أجنحة القوى الروحانية
من مكة الى بيت المقدس ثم يعود في ليلته . فيا صاح لا تقنع بأنك
صاح !



ما وراء المادة

سالنا حضرة الفاضل محمد أفندی العطفی مترجم محافظة السويس

عن رأينا فيما قالته مجلة المقتطف في مسألة الاسبرترزم (استحضر الأرواح في أوروبا) بمناسبة سؤال وجه إليها فقال حضرته : طالعت في أحد أعداد مجلة المقتطف اجابة لصاحبه على سؤال وجهه إليه أحد قرائه بشأن مسألة استحضر الأرواح فأنكر صحتها ونسب التصديق بها لهوس المشتغلين بالبحث فيها وقال لا عبرة بكونهم علماء فان مراكز الادراك تختلف في الدماغ فقد يكون الانسان أعلم العلماء بفن من الفنون ولا يفترق عن العامة في ماعدا ذلك من الأمور ، فما قولكم في ذلك . أرجوكم الاجابة كتابة في الاسلام في عصر العلم لافادة العموم »

نقول : نحن ان كنا نكتب في فن استحضر الأرواح وندافع عنه فانما نكتب فيه جملة أوجه مهمة : منها أكبر هادم لمقررات العلم المادى الحاضر الذى قرر عدم وجود شىء فى الوجود غير المادة وقوتها الذاتية ، وان كل هذا الأبداع فى عالم الشهادة ناشىء من فعل نوااميس الطبيعة القديمة كقدم المادة ، وأنه لا روح ولا خلود ولا روحانيات ولا ملأ أعلا ولا نعيم أخرويا ولا شقاء ولا جن ولا ملك ولا مما ترويه للناس كتب الأديان ، وان الانسان حيوان مرتق فى سلسلة الوجود ليس غير . فنقل من مذهب ما وراء المادة التجريبي العملي ما يكسر من شرة القائلين بهذه المقالات ، المظنطين بتلك المنكرات ، لاسما وهم يتبجحون بطلب الأدلة الحسية لا العقلية . حتى انك لو أتيتهم بأعظم البراهين العقلية المنطقية لقالوا انما أنتم واهمون ، وفي

بحجار الخيال غرقون ، تصدقون ما تتصورون ، وتدينون لما لا تتحققون ، ولو كانت ثمة حقيقة كما تقولون لظهرت آثارها للعيون ، ولا اهتدى اليها الباحثون . فان رويت لهم من كتب الأولين والآخرين ما شاهده الأولياء والصالحون ، ورآه بأعينهم العابدون ، لما ازدادوا الاسخريه بك واستهزاء منك . زاعمين أن تلك المشاهدات ليست على أسلوب يكفل لها الحفظ من الخطأ ، والتنزه عن العبث واللعب كما هو عليه أسلوب البحث في هذا العصر . فلم نر سلاحاً يطأطىء من هذه الرؤوس الشاحخة ، ويطأمن من هذه الكبرياء المفرطة ، ويرغم من هذه المعاطس المعجبة ، الا مقابلتهم بأبحاث أراكين علماء أوروبا في فن استحضار الأرواح والتنويم المغناطيسى فانها أقوى سلاح اتخذته حماة العقائد ضد هؤلاء المبطلين ، وشاع استعماله في الناس أجمعين . قال المسيو (دولن) في كتابه (الحادثة الروحية) الذى طبع خمس مرات يقول صحيفة (٢٨٣) : « كان الماديون قبل قليل من الزمن يستطيعون أن يطرخوا براهين الفلاسفة الملمين قائلين لهم انها ليست على أسلوب يوصل الى حقيقة ، ولكن باتباع أسلوب الروحيين لا يخشى من الماديين العود الى مثل هذا الرفض . فانا لا نقول للناس يجب أن تعتقدوا فيم أفض علينا بالتسليم وعدم الدليل ، ولم نحرم حرية البحث على أحد من العالمين . بل بالعكس نقول لهم : هلموا اقرءوا وجربوا وابحثوا كل ما يؤكد لكم صحة الحوادث التى ظهرت للعموم ، وكونوا بجانين مدققين ولا تسلموا بصدق مشاهدة الا اذا استطعتم أن تكرروها بأنفسكم

كثيراً وفي شروط مختلفة . وبالاختصار نقول لكم تقدموا والحذر ملء
أفئدتكم في سبيل الوقوف على هذه المجاهيل لأن الذي يحشم نفسه بناء
أصول جديدة يكون معرضاً للغلط والضلال ومتى درست حادثة من
تلك الحوادث ترها تحدثك بذاتها على كنه طبيعتها ومقدار أهميتها .
أليست هذه الطريقة هي أسلوب الفلسفة العملية عنها ؟ وبماذا
يستطيع أن يلاحظ أشد الماديين شكيمة على أمثال (روبرهار)
والأستاذ (مابس) والمستر (اكسون) ؟

« اننا انما نقارع أعداءنا بنفس أسلحتهم لارغامهم على الهزيمة ،
فبنفس أسلوبهم نعلن على رؤوس الأشهاد خلود الروح بعد الموت .
« كل النظريات المادية التي تزعم أن الانسان آلة مادية بسيطة
مجردة عن الروح ، وكل العلماء الذين اتخذوا العلم المادى سلاحاً
لإثبات مادية الانسان وعدم روحانيته ، قد كذبوا أشد التكذيب
وبأن ضلالهم بواسطة المشاهدات الحسية الروحية الخ » الى أن قال :
« إن قوة الاسبرتزم وسيطرته على العقول آتية اليه من تركه حرية
البحث لذويه ، فان كل أصوله يمكن بحثها والمناقشة فيها وامتحانها
ولكنها ما وضعت للامتحان مرة الا وخرجت أقوى مما كانت قبلاً .
والأديان في هذا العصر الأخير تشبه تلك الأربطة اللازمة للطفل
لتعليمه المشى ، ولكنها صارت لا تفيد الآن (يظهر أن دولن لا يعرف
الاسلام ولوعرفه لماعمم حكمه على الأديان) بل صارت مضرة به
لبلوغه سناً يسمح له بالمشى وحده . والرجل في القرن التاسع عشر
(م - ٢٥ - أول)

لما رأى أن تلك الأديان ثابتة لا تتغير على حسب ناموس الترقى أحس أن تعاليمها القديمة لا توافق الدرجة التي وصل إليها من العلم ورآى نفسه بين أمرين : اما التسليم لمقررات العلم الواضحة ، واما الخضوع للعقيدة التقليدية ، فلم يسعه الا لقاء نفسه بين احضان العلم المادى . ولكن متى رأى مثل هذا الرجل أن هنالك مذهبا يوفق ما بين مطلوب روحه من العقيدة ومطلوب العلم فلا يتوقف عن الأخذ به واتباعه . هذه الملحوظات الموجزة على الاسبرترزم تفسر لك سر سرعة انتشاره هذا الانتشار المدهش . لا يتوهم أحد أن الاسبرترزم عدو الأديان وانما هو عدو خرافاتها فقط . أما غريمه فهو المذهب المادى ، والذين يشكون بوجود العالم الأخرى وإن لم يكونوا كفاراً للنهائية . »

نقول ونحن لعين هذه الأسباب نكثر الكلام من البحث فى علم ما وراء المادة العصرى ونقول بأعلى صوتنا انه أكبر نصير للإسلام وبواسطته ستسلم أوروبا إسلاماً تدريجياً كما اثبتنا ذلك فى الفصل الماضى من أقوال (فيكتور هوجو) أكبر رجل فى القرنين الماضيين وأقوال الفيلسوف (ليون دونى) خطيب الاسبريتيين ، وأقوال (سينكس) الكاتب البليغ .

إن اتهام المشتغلين بالاسبرترزم بالهوس والجنون كانت تروج لدى العقول قبل خمسين سنة فى أوروبا ، أما الآن وقد صار المشتغلون بها أعلم علماء الأرض فلم يعد لتلك التهمة وزن ولا خطر ، بل أصبحنا ولا نقولها فى أوروبا الا الذين لا علم لهم بكنهه الحركة الفكرية فى العالم ،

واذا ساغ لنا أن نتهم بمقاله المقتطف عالماً أو عالِمين فكيف يسوغ لنا ذلك وهم الآن يعدون بالألوف ؟ اليك جدولاً بسيطاً يشتمل على عشرات من أسماء علماء أوروبا والأعلام ، نوردهم بدون القاب ولا تتأخر عن إيراد تاريخ أكتهم والادلال على أنهم جميعاً من رجال النهضة العصرية في الفنون الطبيعية في العالم .

« في إنجلترا »

- | | |
|---------------------|-----------------|
| (١) ولیم کروکس | (٢) لودج |
| (٣) دو مرجان | (٤) هكسلى |
| (٥) فارلى | (٦) اكسن |
| (٧) دوكتور تشامبيرس | (٨) هودسن |
| (٩) ستوس موزس | (١٠) مستر بلفور |
| (١١) رسل ولاس | (١٢) باريت |
| (١٣) جون لبوك | (١٤) لويس |
| (١٥) جان كوكس | (١٦) جورج سكتون |
| (١٧) دوكتور جمس جلى | (١٨) باركس |
| (١٩) جلا دستون | |

« في فرنسا »

- | | |
|---------------------|---------------------|
| (٢٠) كاميل فلامريون | (٢١) موتنيه |
| (٢٢) دوكتور دوزار | (٢٣) دوكتور أوليقيه |
| (٢٤) ساردو | (٢٥) جول بوا |

(٢٦)	أوجين نو
(٢٧)	دور وشاس
(٢٨)	دوكتور داريكس
(٢٩)	دوكتور ريشيه
(٣٠)	شارل فوقى
(٣١)	جان فينو
(٣٢)	فيكتور هو جو
(٣٣)	جرىمار

« فى أمريكا »

(٣٤)	مابس
(٣٥)	اليوت
(٣٦)	أدمون
(٣٧)	هار

« فى ألمانيا »

(٣٩)	زولنر
(٤٠)	فيشنر
(٤١)	أولتريسى
(٤٢)	ونير
(٤٣)	شبنر
(٤٤)	وندت

« فى إيطاليا »

(٤٥)	لومبروزو
(٤٦)	انجلو بروفيرو
(٤٧)	كيايا
(٤٨)	جيوزيب جيروزا
(٤٩)	كياپارلى
(٥٠)	فولى
(٥١)	بورتيسى
(٥٢)	فالكومر
(٥٣)	فتزى
(٥٤)	جيوفانى

هؤلاء أربعة وخمسون عالماً شهيراً ولو شئنا لأصعدنا عددهم من
نفس كتبهم إلى مئات عديدة وكل منهم له كلام على هذا المذهب وأهميته
وتوقع انفراج الأزمة الاحادية به سلكوا فى تقريرهم نظرياته مسلك

المتحمسين الغيورين بقدر ما كانوا متشددين في دحضه وراجمين بالجنون أشياعه وأتباعه . فان الدكتور الشهير الباحث في الجرائم والقوى العقلية (سيزار لومبروزو) كان من كبار القائلين في النصف الأخير من القرن الماضي بجنون من يعتقد في الا برترزم أو يظن أنه يرى بعينه شيئاً فيه وكتب ذلك في بعض مؤلفاته ، ثم لما أهداه الأستاذ (فالكومر) كتابه المسمى (بوصلة المستقبل) وقرأه الأستاذ قراءة إمعان وتدبر ، تغير فكره واثمهم نفسه وتألم من كتابة ما كتبه قبل أن يفحص ذلك الأمر بنفسه فكتب للأستاذ صديقه يقول ما معناه : « لقد جعلني كتابك هذا كالحصاة الحقيمة هوت من قمة جبل عال فهي تهبط إلى حيث لا تعلم ، يتلقاها سفح ويصدمها سفح آخر . وقد عزمت على أن أفحص تلك المشاهدات بنفسى . » ثم صدق في وعده واكب على دراستها وتجرتها ستة وشهوراً عديدة حتى ثبت لديه بالامتحان أنه كان يجهل هذا الأمر بالمرّة وأنه كتب عنه ما كتب عن جهل فندم على ذلك ولم يشأ أن يصر على ذنبه ، بل كتب كتاباً في هذا الموضوع كذب فيه نفسه واختتمه بهذه الجملة الجميلة : « لنحذر من ادعاء دقة العقل واعتقاد أن كل من سوانا مخرفون واهمون ولنحترس من الزعم بأننا وحدنا العلماء دون غيرنا فان ذلك يوقعنا ولا شك في الضلالة والحيرة . »

واليك الدكتور (جورج سكستون) الخطيب الانجليزى الشهير كان من أشد الناس طعناً في الا برترزم وأمضاهم سلا حاضداً الآخذين به ، ثم لأمر يعلمه الله حجب اليه بحته فأكب عليه بذلك العقل الشكاك المتردد

زيادة عن عشرين سنين ثم اعتقده وكتب في مجلة (سبرتوالى مجازين) مقراً بغلطه ، وكذلك كان شأن الدكتور تشامبرس والدكتور جمس جللى أما الاستاذ جورج سكستون فقد كتب عن نفسه يقول ، كما رواه عنه الاستاذ الشهير (روسل ولاس) في كتابه عجائب العصر الحالى : « أنى تحصلت فى بيتى الخاص وبمعزل عن كل واسطة التحضير (غير أصحاب لى لديهم خصيصه استحضار الأرواح) على البرهان الذى يستحيل دحضه (تأمل) والذى هو من طبيعة تؤثر على كل عقل ثابت ، بأن المخاطبات التى تحصلت عليها هى آتية من أصحاب وأقارب ميتين . »

يظهر لنا أن المقتطف لم يطالع ولا كتاباً واحداً فى هذا الموضوع لأنه لو كان فعل لكبر عليه جداً أن يتهم هؤلاء العلماء بالجنون وكل واحد منهم لم يدخل إلى ميدان البحث إلا وهو متسلح بسلاح العلم الطبيعى الحاد ، ومدرع بدرع الفلسفة الحسية الشديدة الشكيمة . هنا نقل جملة مما كتبه (الاستاذ كروكس) فى بعض المجلات الانجليزية ثم نقله فى كتابه المسمى أبحاث على المسائل الروحية قبل أكثر من ثلاثين سنة ، أى قبل أن يصل هذا المذهب إلى ما هو عليه الآن من الشيوع وكثرة الانتصار . نقل هذه الجملة ليعلم الذين يشكون فى عقل أولئك العلماء كيف أنهم ولجوا باب البحث فى هذا الموضوع وكيف أنهم فيه كما هم فى كل فرع من الفروع العلمية التى يبحثون فيها رجال حزم وعزم ودقة وروية قال كروكس :

« قبل بضعة أسابيع كتب فى مجلة (ذى اثنوم) بآنى شرعت فى

عمل أبحاث فيما يسمونه مذهب استحضر الأرواح وبالنسبة لما تحصلت عليه من المشاهدات العديدة من ذلك العهد رأيت أن أكتب كلمتين في هذه الأبحاث التي ابتدأت فيها . على أنى لأستطيع أن أقول بأن لى حكماً أو فكرياً على موضوع لا أدعى أنى قد سبرت غوره للآن فأنى أعرف أن الواجب على رجال العلم الذين تدربوا على العمل بأسلوب دقيق أن يختبروا الحوادث التي تستلفت أنظار العموم حتى يبينوا حقيقتها أو يفسروا إن أمكنهم وجوه اغترار ذوى النوايا الصالحة بها ويكشفون تدليسات المدلسين . ولكنى آسف أن يعلن عن شخص بأنه بدأ في بحث شيء قبل أن يحكم هو نفسه بأنه قد حان الوقت المناسب لاشاعة ذلك وإذاعته .

« يمكن أن يكون الانسان عالماً حقاً ويتفق مع الأستاذ (دومر جان) في قوله : « لقد رأيت حوادث كثيرة روحية ، وسمعت بأن كثيراً منها حدث في أحوال وشرائط تجعل الشك فيها مستحيلاً ، بحيث ان أى كائن عاقل لا يستطيع أن يقبل أى تعليل لحصولها بالخدعة أو الصدفة أو الغلط . وانى من هذه الوجهة أحس بأنى واقف على أرض ثابتة ؟ أمامن جهة سبب حدوث هذه الخوارق فلا يمكنى أن أختار تعليلاً من التعليلات التي قيلت في هذا الشأن . فان من الناس من وجد لها بغاية السهولة تعليلات طبيعية ولكنها لا تغنى عن الحقيقة شيئاً . ومنهم من علمها بنسبتها إلى أرواح الموتى ، ولكن هذا التعليل مع كونه أشنى للصدر من الأول إلا أنه لم يزل غامضاً يصعب قبوله . » انتهى قول الاستاذ

دومرجان .

ثم قال الأستاذ كروكس : « أنالا أستطيع أن أحكم على السبب المحدث للمشاهدات التي رأيتها ولكن يوجد منها بعض حوادث طبيعية مثل تحرك الأشياء المادية و حدوث اللفظ الشبيه بصوت بطاريات كهربائية تحصل في أحوال لا يمكن تعليلها معها بأى قانون طبيعي معروف . وهذا شئ أراني متحققاً منه تحققاً بأبسط الحوادث الكيميائية . »

« كل أبحاثى العلمية حلقة مستطيلة من مشاهدات دقيقة فأريد اليوم بأن يعرف عني بأن المشاهدات التي سأؤكد حصولها هي نتيجة أبحاث بلغت فيها حد الجهد من التحيص والتدقيق (تأمل) . أنا لا أستطيع الآن أن أجازف ببدء أى رأى على سبب هذه الحوادث فاني لم أر للآن ما يقنعني بصحة (الرأى الروحي) (القائل بأن سبب حدوثها الأرواح) فان العقل في مثل هذا البحث يود أن يكون البرهان على ذلك الرأى من الوضوح بحيث لا يتطرق اليه الشك ، فان الحقيقة يجب أن تكون مؤثرة مقنعة بحيث لا يتجاسر أحد على التردد في قبولها . »

من هنا ترى أن هؤلاء العلماء المصدقين بمسألة الاسبرترزم ، وكروكس من أكبرهم بل من أكبر علماء الأرض ، لم يصدقوا بها جزافاً بل أنهم حاولوها بما يحاولون به سائر مساتير الطبيعة بعلومهم التي برعوا فيها ، وعالجوها بعقلهم الخاص لا بالهوس وعدم التروى .

هنا يحسن بنا أيضاً أن نترجم لحضرات القراء جملة طويلة من كتاب (الحادثة الروحية وشهادات العلماء) تأليف الكاتب الفرنسى

الشهير (جابريل دولن) فانها تشمل سير الحركة الاسبريتية فى العالم بالتفصيل الموجز . فاليك ملخص ماقاله تحت عنوان « العلماء » :

يمكننا أن نبدأ فصلنا هذا بذكر اسم قانونى كبير من نيويورك هو الآن رئيس مجلس الأعيان الأمريكى واسمه (آدمون) فلقد كان لخبر دخوله الى مذهب الأرواح رجة عظمى دوت لها الجرائد الدينية والدينية دويهاً ثلاً . فرد ذلك الأصولى على جميع خصومه بكتاب سماه « الحوادث الروحية » كان له صدى كبير فى جميع المملكة الأمريكية وبث فيها المشاهدات والتجارب التى استند عليها فى تقرير مذهبه ، فصعد أحد الملحين على المؤتمر المقيم فى وشنجتون بضرورة فحص المسائل الروحية الى عدة ملايين ولم يكن قبل كتابه الى خمسة عشر ألفاً

اليك كيفية نفوذ العقيدة الروحية الى فؤاد ذلك القانونى العظيم . قال حضرته عن نفسه : « فى ٢٣ ابريل سنة ١٨٥١ كنت أحد تسعة عشر رجلاً جالساً معهم حول مائدة فى وسط الحجرة وكان يعلو المائدة مصباح منير وكان مصباح آخر فوق أنبوبة البخار الذى يسخن الحجرة . فمالبثنا غير قليل حتى ارتفعت المائدة نحو قدم عن الأرض ، وأخذت ترتج وتضطرب الى الامام والخلف بالسرعة والسهولة التى أستطيع أن أحرك بها قدحاً بين يدي . فحاول بعضنا أن يوقفها وبذلوا لذلك منتهى ماتصل اليه قواهم ، فلم ينجحوا . فلم يسعنا الا الابتعاد عنها ، ولم نكد نفعل ذلك حتى رأيناها على نور المصباحين صعدت

مع ثقلها وتعلقت بالهواء . فغريت من ذلك الوقت على متابعة هذه الأبحاث ظاناً (تأمل) انى واهم أو مغشوش ، وآليت على نفسى أن أسعى فى قشع ظلمات الخرافات عن عقول الناس بفضح سر هذه الألاعيب . ولكنى رأيت ان أبحاثى وتجاربى أدتنى الى نتيجة غير التى كنت أقصدها ، أى الى التصديق بها واعتقاد أنها أمور روحية » ثم قال (جبريل دولن) :

« والذى يجب ملاحظته والالتفات اليه فى كل هذه الشهادات التى يقدمها العلماء للناس أنهم انما ابتدءوا أبحاثهم وهم يجمعون جازمون بأن هذه المسائل كلها غش وتدليس ، وأنهم ما كلفوا خاطرهم يبحثها وتجربتها الا لشفاء معاصريهم من هذا الداء الجنونى المعدى . قال الأستاذ (مابس) الأمريكى الشهير مدرس الكيمياء فى المجمع العلمى الأهلئ فى الممالك المتحدة : « لقد رفضت بادئ بدء هذه المسائل واحتقرتها ، ولكنى لما رأيت أن بعض زملائى غرقوا فى بحارها وهو على ظنى سحر جديد عزمت على استعمال عقلى وقواى فى بحث هذه المسألة بالدقة ، وغرضى من البحث نجات رجال متتورين محترمين فى كل ما هم فيه ولكنهم على زعمى كانوا على وشك الهوى من هذه المسألة الى مهواة الغفلة والغباوة » قال جبريل دولن : « فكانت نتيجة أبحاث حضرة الأستاذ (مابس) مثل نتيجة القاضى (ادمون) وهى الغرق التام فى حياض الاسبرتزم » وقد حصل مثل ذلك للأستاذ (روبرهار) وهو من أشهر علماء أمريكا ومدرس فى كلية (بانسيلفانى)

فانه بدأ في البحث سنة ١٨٥٣ وهو زمن كما يقول عن نفسه « أحس فيه بوجوب استعمال كل معلوماته ومداركه لا يقاف هذا التيار الجارف تيار المسائل الروحية التي هي ، كما كان يعتقد قبل اعتقاده بها ، نزعة عامية ظهرت رغما عن مقررات العلم وقضايا العقل . » انتهى

قال (جبريل دولن) قبل أن يدخل الاستاذ (روبرهار) هذا في معمعان هذا البحث كان يعرف نتائج أبحاث الاستاذ (فاراديه) على الموائد المتحركة بنفسها وكان يظن ان ذلك الكيماوى الكبير قد وقف على علة تلك الحركات ، وفسرها تفسيراً مقبولا ، ولكنه لما جربها وامتنحها بنفسه وجد أن تعليقات الاستاذ الكيماوى ناقصة فأخذ في تكميلها باختراع الآلات وأدوات جديدة . فأخذ كرات بليارد مصنوعة من نحاس ووضعها على سطح مصقول من الزنج ووضع أيدي الواسطة على تلك الكرات ليتحقق من عدم استعمالها ليديها . فرأى وهو مندهش غاية الدهشة أنه رغماً عن ذلك الاحتراس تحركت المائدة واضطربت بدون فعل فاعل . عند ذلك رأى أن يغمس أيدي تلك الواسطة في الماء بصفة لا تستطيع معها أن تلامس السطح الموجود عليه الاناء الشامل للسائل . فلم يلبث الا قليلا على ذلك الشكل حتى رأى أن قوة تعادل ثمانية عشر رطلا انجليزيا حدثت على ذلك السطح من غير أثر مؤثر مرئى . فلم يقنع بذلك أيضا فوجه أبحاثه وتجارب به وجهة أخرى . وذلك أنه أتى بميزان ذو حلزون له دليل متحرك وأتى بمعول حديدى ثقيل ووضع طرفه على مشبك الميزان فتأثر طبعاً بشقل

المعول ووقف عند حد محدود . أما طرف المعول الآخر فركزه على سطح ثابت غير متحرك ثم أمر الواسطة بوضع أصبعها على ذلك الطرف امام عينيه بطريقة لا تؤثر على وزن المعول ولو أثرت عليه لأنقصت وزنه . فلم يلبث الأستاذ حتى رأى أن المعول ازداد وزنه في الميزان جملة أرطال فاندesh غاية الدهشة وقضى بالعجب العجاب .

وسترى بعد قليل بأنه في مثل هذه الحالة صنع الأستاذ الكيماوى كروكس جهازاً يدل على كل تغيرات الميزان في أثناء العمل وذلك ليتقى غش مشاعره ولا يكى يكون البرهان مادياً محسوساً من كل وجه .

لما اعتقد روييرهار بأنه يوجد في الوجود قوة طبيعية تظهر كما ظهرت له في شروط مخصوصة أراد أن يعرف ما اذا كانت تلك القوة متمتعة بعقل دراك أم لا . فصنع لذلك القصد دائرة كتب على أحد جهتيها حروف الهجاء جميعها وترك الوجه الآخر خالياً ووضع في وسطها ابرة تتحرك كابرة الساعة لتشير الى الأحرف المطلوبة على التوالي متى تحركت بأثر يقع عليها . ووضع هذه الدائرة على المائدة بحيث أن وجهها المكتوب كان امام المجرىين ووجهها الخالى من الخط امام الواسطة من الجهة المقابلة فتحركت الابرة ودلت على الأحرف المرادة وتركبت بذلك جمل معقولة بدون علم الواسطة ولا تداخلها .

« كل هذه التفاصيل مكتوبة في كتاب ألفه الدكتور (روييرهار) وطبعه ونشره باسم (الأبحاث التجريبية على المشاهدات الاسبريكية) وكان له نجاح باهر في أمريكا أكبر من نجاح كتاب القانونى آدمون .

لأن كتاب آدمون ربما يفسح مجال الظن لبعض الشكاكين بخلاف كتاب الأستاذ (روبيرهار) فانه بمثابة اقرار رسمي من العلم الرسمي عن لسان أحد أبنائه الذين لهم الحق في أداء مثل هذا الحكم.

« من هذا العهد نشبت الحرب العوان ، وصعد لهيب الجدل الى العنان ، واشتبك بذلك العلماء فيما بينهم أخذاً ورداً ، وتمحيصاً وفحصاً ، ولم يستطع واحد من المكذبين أن يبرهن على أن ما فعل من التجارب (تأمل) غير موافق للشروط العلمية العملية . فبقى النمر في جانب المنتصرين للاسبرتزم .

والخلاصة أن أكثر الداخلين في هذا المذهب هم الرجال الذين تعهدوا في مبدا الأمر بدحضه واقامة الأدلة الحسية على فساد مبناه وأصله . ولسنا في حاجة الى زيادة الشرح في هذه النقطة فان المسألة . عينها حصلت في انجلترة . فان رجال العلم الغيورين على صفتهم العلمية في هذه المملكة الأخيرة لم يريدوا أن ينهزموا أمام ما كانوا يعتبرونه وساوس عامية وخرافات جاهلية ، بل رموا بأنفسهم في لجة البحث والتنقيب . ولما أنسوا بأن نتيجة التجارب العلمية أدتهم الى خلاف ما كانوا ينتظرون لم ينجسوا عن إعلان الحقيقة بدون خشية ولا خوف من الاستهزاء والسخرية وهما سلاحا الجهالة والتعصب الذميم .

« من بين الرجال العظام في أمريكا الذين دخلوا الى مذهب الاسبرتزم حديثاً (روبر دال اوين) الحائز لصفتين كبيرتين : أولهما كونه معدوداً

بين العلماء العاملين ، ثانيهما كونه من فطاحل الكتاب المنشئين باللغة الانجليزية . فان كتابه الأخير الذى طبعه فى فيلادلفى سنة ١٨٧٧ تحت هذا العنوان المبشكر « عثرات على حدود العالم الأخرى » مفعم بالأفكار العالية والملاحظات السامية والوقائع المعلقة المبهمة .

«والخلاصة أن الحركة الاسبريتية فى هذه الأوقات أحيا وأنشط منها فى أى زمان كان . فانك ترى فى كل بلدة وعاصمة من عواصم أمريكا وبلادها جمعيات منتظمة متسعة دأبها وهمها البحث فى المسائل الروحية وامتحان مشاهداتها وخوارقها . وبها نحو من اثنين وعشرين جريدة ومجلة تنشر بين الناس لنقل أخبار وحوادث تلك الحركة المدهشة اليهم . ومجلة (بتراف ليت) التى تطبع فى (بوستون) هنالك من منذ اثنين وعشرين سنة هى الرائد الخبير للاسبريزم فى أمريكا . وما يدل بأجلى دليل على قوة سير الحركة الاسبريتية فى أمريكا هى الاجتماعات السنوية التى تلتئم سنويا حول شاطئ بحيرة (كساراجا) . فقد ابتنى الروحيون هنالك محلات تسع نحواً من عشرة آلاف نسمة ، ومع ذلك فالزحام يشتد هناك لدرجة ان كثيرين من الوفود بعائلاتهم يسكنون الخيام حول المدينة .

كل هذه الأمور تثبت أهمية الحركة الروحية فى أمريكا لا سيما وان مثل هذه الاجتماعات تحصل على شواطئ المحيطين الاطلانتىكى والهادى وجميع البحيرات الامريكية . ولنصف الى هذا أن جميع عواصم الممالك المتحدة لها جمعيات روحية ملتزمة منتظمة ، وقد ثبت

من الاحصاء الذى عمل سنة ١٨٧٠ (أى قبل ٣٣ سنة) أنه يوجد
بأمريكا للروحيين عشرين جمعية للمساكنة ومائة جمعية وخمسة جمعيات
للروحيين أنفسهم ومائتا خطيب وسبعة خطباء واثنين وعشرين واسطة
تحت طلب الناس غير الوسطاء الخاصين . وقد نقل الأستاذ الفيسولوجى
الانجليزى (روسل ولاس) فى كتابه (عجائب العصر الحالى) ان عدد
الروحيين فى أمريكا وحدها بلغ أحد عشر مليوناً (فتأمل) .

الاسبرترزم فى انجلترا

« فى انجلترا خصوصاً يجد الانسان ثلة من كبار العقول مشغلة
دائمة فى درس الاسبرترزم والتعمق فيه .

وأول ما نبتهى به من الشهادات على صحة هذا المذهب شهادة
الأستاذ وليم كروكس الذى تغنينا شهرته عن سرد ألقابه الكثيرة
وما له من الاحترام والاجلال فى أفئدة العالم .

ولأجل الادلال على بعض فضله يكفيننا أن نقول انه هو الذى
اكتشف الجوهر المسمى (تاليوم) وهو المقيم البرهان العملى على وجود
المادة الذى تخيلها (فأراديه) قبله تخيلاً ، هذا الاستكشاف فتح للأبحاث
العصرية مجالاً فسيحاً وميداناً واسعاً وأبعد مدى التأملات الانسانية
حتى يمكن أن يقال انه من أكبر الاكتشافات التى حدثت فى هذا القرن .

« لا جرم أن عقلا مثل عقل الأستاذ كروكس لا يجازف بنفسه في مضمار مجهول بدون أن يكون قد أخذ ما يخطر بالفكر من أسباب الدقة ووسائل الوصول إلى الحقيقة مع الأمن من الخطأ والخلط .

اليك مقاله في شأن الاسبرتزم في فصل كتبه في المجلة الانجليزية المسماة (كواترلى ريفيو) في شهر يوليو سنة ١٨٧٠ : (أى قبل ٣٣ سنة) « يقول الروحى أن جساما وزن ٥٠ رطلا أو ١٠٠ رطل يمكن « أن يعلو في الهواء بدون أدنى قوة محسوسة ، ولكن العالم الكيماوى « اعتاد استعمال ميزان حساس جداً بحيث أنه يشعر بنقل ما لوجع « منه عشرة آلاف ضعف لما زاد وزنه عن الحبة . فهو لا يطلب « من تلك القوة المحتجة التى تقول انها عاقلة مدركة وترفع تلك « الاجرام الثقيلة الى السقف ، الا أن تحرك ميزانه الحساس فى شروط « مخصوصة عند ما يكون فى حالة التوازن »

« الروحى يتكلم عن طرقات تسمع فى جهات مختلفة من الحجرة « لما يجلس نفران أو أكثر حول مائدة فى غاية السكون ، ولكن « المجرب العلمى يود أن تلك الطرقات تحدث على غشاء فونوغراف . « يتكلم الروحى عن اهتزاز وارتجاج حدث فى غرف بل على « بيوت حتى أحدث فيها خللا بواسطة قوة فوق قوى الطبيعة ، « ولكن رجل العلم لا يطلب الا تحرك كرة البندول الموضوع « تحت ناقوس من زجاج ومركز على أساس ثابت . « يتكلم الروحى عن أشياء ثقيلة وأنواع من أثاث البيوت تتحرك »

« من غرفة الى غرفة بدون فعل فاعل ، ولكن العالم قد اكتشف عدة »
 « تقسم له العقدة الى مليون درجة وتراه يشك في كل ماتعمله تلك »
 « القوة المحتجة ان لم تستطع أن تحرك دليل تلك الآلة درجة واحدة »
 « من تلك المليون درجة ».

« الروحى يتكلم عن سقوط أزهار مكللة بالندى وعن أثمار »
 « بل وعن كائنات حية أنفذت من خلال الحائط ، ولكن المنقب العلمى »
 « لا يطلب الاوضع جزء من مليون من حبة على كفة ميزانه الحساس »
 « بينما يكون ذلك الميزان موضوع داخل وعائه الزجاجى المقفل ؛ »
 « والكيماوى لا يطلب الا ادخال جزء من ألف من حبة الزرنيخ »
 « فى سائل موجود داخل أنبوبة محكمة القفل »

« الروحى يتكلم عن ظهور قوى تعادل الوف من الأبطال »
 « بدون سبب مولدها ، ولكن رجل العلم الذى يعتقد بأن القوة »
 « محفوظة وانه لا ينتج منها شئ فى جهة الا بحدوث فقد يقابلها فى »
 « جهة أخرى ، لا يطلب من تلك القوى الظاهرة الا أن تحدث فى »
 « عمله حيث يستطيع أن يزنها وقيسها ويجرى عليها الامتحانات اللازمة »
 « انتهى كلام الأستاذ كروكس . وقال (جبريل دولن) عقب هذا مباشرة .
 « من هنا يعلم بأى حذر واحتراس تقدم هذا العالم الكيماوى الى
 بحث ماتصدى له من هذه المشاهدات . ولم يرد أن يجرب مايجربه
 الا فى معمله الخاص حتى يكون واثقاً بأن لا غش ولا خداع فى أقل
 حركة من حركات تجاربه العلمية ، وهذا هو العقل والحكمة .

وكم بين هذا العلامة الجسور وبين علمائنا الفرنسيين من الفروق الجسيمة حيث أن هؤلاء الآخرين ينكرون الاسبرترزم بدون دليل ولا برهان ! هذه الجملة التي نقلناها عن كروكس مكتوبة في سنة ١٨٧٠ ولكن هذا العالم بعد أن أمضى أربع سنوات متوالية دائباً وراء البحث والتجربة كتب سنة ١٨٧٦ يقول :

« أنا لا أقول ان هذا ممكن (يريد مشاهدات الاسبرترزم) ولكني أقول انه ثابت محقق »

وسترى بعد قليل ماهية التجارب التي أقنعت هذا العالم الانجليزي « الجمعية الحديثة التي تكونت في لوندريه سنة ١٨٦٧ تحت رياسة السير جون لبوك (هو الآن لورد افبرى) والتي من وكلائها (توما هنرى هكسلي) وهو من أعلم علماء الانجليز (والمستر جورج هنرى لويس) الفسيولوجى الطائر الصيت ، قررت في جاستها المنعقدة في ٦ يناير سنة ١٨٩٦ بأن تتألف لجنة من أعضاء الدرس الحوادث الأسبريتية المزعومة وإعطاء الجمعية تقريراً عنها . فما حدث من الجدل والشغب لدى تقرير هذا العزم وإخراجه من القوة إلى الفعل يدل على أن أكثر الأعضاء كانوا مكذبين بالاسبرترزم ، وتلقت الجرائد الانجليزية هذا الخبر بالفرح والسرور ظانة أنها ستقضى على الاسبرترزم الحاضر القضاء الأخير . فلبثت هذه اللجنة ثمانية عشر شهراً دابّة في فحص مشاهدات الاسبرترزم ثم قررت صحتها للملأ فلا تسل عن الدهشة التي عرت عموم الناس عند ذاك من سماع هذا الخبر

« من بين الأعضاء الذين حضروا هذه التجارب العلامة الطبيعي الإنجليزي الشهير (الفريد رسل ولاس) نديد (دارون) الشهير وزميله في أعماله وقد كان قبل حضوره تلك الجلسة معتقداً بصحة الاسبرتزم . وقد ألف هذا العالم الكبير كتاباً شرح فيه اعتقاده وفكره في الاسبرتزم ولم يخش اللائمة ، وسمى كتابه (عجائب العصر الحالي) كما فعل قبله الأستاذ (مابس) والاستاذ (هار) وكثيرون غيرهما

« ومن ضمن الشهود الذين سمعت اللجنة أقوالهم في صالح الاسبرتزم الأستاذ (اجوست دومرجان) رئيس الجمعية الرياضية بلندره وسكرتير الجمعية الفلكية الملوكية . والمستر (فارلى) رئيس مهندسى قومبانيات التلغراف الدولى وما بعد المحيط الأتلاتيكي ، ومخترع مكشف كهربائى ، والذي توصل إلى حل غوامض مسألة التلغرافات البحرية »

« المستر (دومرجان) هذا قد أقر بعقيدته علناً بكتابه المسمى (فروم ماستراوف سبريت) وسترى بعد قليل خطاباً من المستر (فارلى) المتقدم ذكره يشكر فيه الأرواح شكراً جبرياً . »

« ان اجتماع آراء مثل هؤلاء الرجال المشاهير في صحة الاسبرتزم كاف في تقرير نظريته وتدعيمها تدعياً ثابتاً ، ولكن في مثل هذه المواضع الغويصة يحسن بالانسان أن يكتر من الشهادات عليها . فاليك شهادات أخرى : »

« المستر او كسون استاذ كلية « اكسفورد » درس في مدة خمس سنين مسألة الكتابة بلا واسطة أى الكتابة التى تحدث بنفسها بدون

تداخل انسان . وكتب في ذلك كتاباً سماه « سبريت ايدانتى »
 الذى سنستفيد منه فى الجدلّيات التى ستلى هذا الموضوع «
 ولننوه أيضاً باسم المستر (باركاس) عضو الجمعية الجيولوجية
 بنيوكاسل ، فلقد قصّ تجاربه الذاتية فى كتاب مفيد جداً اسمه (اوتلينس
 اوف انفستيجيشن اتوموردن سبيريتواليزم) ولا يسعنا هنا إلا
 استلفات أنظار الذين يودون الاقتناع بصحة الاسبريزم أن يقرءوا
 هذا الكتاب بامعان وروية «

« الحرب العوان التى قامت فى انجلترا من جراء المسائل الاسبريتية
 لم تكن بأقل حماسة وشدة منها فى الممالك المتحدة بأمريكا ، فلقد تألب
 أعداء الاسبريزم هناك أيضاً وجمعوا كل قواهم لهدم الاصول الجديدة
 ولكن فى تلك المملكة التى فيها حرية البحث محترمة مرعية ، والخوف
 من السخرية أقل تأثيراً على النفوس ، لم يتأخر الداخلون إلى مذهب
 الاسبريزم من الاعتراف بعقائدهم علناً على رؤوس الأشهاد «

« من بين الشكاكين الجالدين جداً كان الدكتور (جورج
 سكستون) الخطيب الانجليزى الشهير الذى كان شاهراً على الاسبريزم
 حرباً عواناً ولكنه لما أكب على البحث خمسة عشرة سنة رجع إليه
 واعتقده «

« وهناك عالم آخر الدكتور (تشامبرس) الذى عادى المذهب
 الجديد زماناً طويلاً رجع فأقر بصحة الاسبريزم وكتب بذلك لمجلة
 (سبريتوال مجازين) «

« ولنصف إلى هؤلاء الدكتور (جس جللى) مؤلف كتاب
 فى الأمراض العصبية له شهرة فائقة ، ومؤلف كتاب (قانون الصحة
 فى الأمراض المزمنة) الذى يرحل إليه فى انجلترا »
 « مما مرى بك ترى أن الاسبرتزم قد اجتذب من الناس العلماء الكبار .
 وقد أجرى هؤلاء العلماء على خوارق الاسبرتزم قانون العلم
 العمل وأسلوب الفلسفة الحسية فخرجت منه غالبية منصورة رغما عن
 التجارب المتكررة التى أجريت فى ذلك »

من منذ عشر سنين تألفت فى انجلترا جمعية اسمها (سوسيتى فور
 بسيشيكال روتشيرتش) غرضها توسيع دائرة البحث فى الاسبرتزم
 على موضوع ظهور الأشباح . وقد نقلت بالترتيب فى مجموعتها المسماة
 (بروسيدنجز) حكاية مشاهداتها وكتبت كتاباً فى ذلك اسمه (أشباح
 الأحياء) فيه سرد مائتى حادثة ثابتة لا يشك فيها .

وقد نسب هذه الحوادث (ميبروجورنى وپودمور) مؤلفو هذا
 الكتاب إلى (التليياتيا) أى تأثير الروح الانسانية على انسان آخر عن
 بعد ، فالشبح الذى يظهر فى تلك الحالة يسمى خيال صادق . وهذا كما
 لا يخفى محاولة علمية الغرض منها تسرية القوانين الطبيعية المعروفة على
 المشاهدات الاسبريتية .

فاكتسب الاسبرتزم من هنا صبغة جديدة ، وقد رأينا عالماً من كبار
 العلماء مثل (لودج) الملقب بدارون علم الطبيعة يلج على الجمعية العلمية
 الانجليزى لترقية العلوم بضرورة التقدم للأمام والاتفات لهذه

المسائل الاسبريتية الأسيرة الباهرة الجديرة بالدرس والفحص الواجبين. ويمكننا أن ننوه من بين سائر الجرائد الانجليزية والكثيرة باسم مجلة (ذى ليت) التي يديرها المستر (اكسون) ومجلة (ذى مديوم نديبيريك) لنمسك القلم هنا ولننظر فيما حصل في فرنسا.

الاسبريتزم في فرنسا

تابع ما قبله من تعريب مقالة (ج. دولن)

صدى صوت المشاهدات الخارقة للعادة التي كانت تحصل في أمريكا أحدثت في فرنسا ميلا شديداً الى الوقوف على أمرها ولم يمض غير قليل حتى أصبح أمر سؤال المائدة منتشراً بين سائر الطبقات انتشاراً عجيباً. فكنت ترى (المودة الجديدة) في الصالات هي القاء الأسئلة التافهة جداً على الموائد المتحركة، حتى صارت تلك المسألة تسلية في أوقات الفراغ ونشبت بالأذواق نشوباً جنونيا.

« مضت سنتا ١٨٥١ و ١٨٥٢ ولم ير أحد في مسألة الاسبريتزم الا العوبة ظريفة ولم يكن أحد ليسلك بها مسلك الجد والنظر العلمي، ولما كان الناس يجهلون ما بذل فيها العلماء من العناية فيما وراء المحيط الا تلاتيكي زهدوا في استعمالها وهجروها لأنها لم تكن بالنسبة للجماهير الا شيئاً جديداً فقط.

« ومع ذلك فقد كان بعض المنشئين مثل (أوجين نو) وبعض

رجال المظاهر مثل الكونت (دوريس) والبارون (دو جولدستوييه) التفقوا الى أن المائدة في أثناء حررتها انما تتحرك بعقل وروية فكتب الأخير كتابا سنة ١٨٥٧ سماه (صحة ظهور الأرواح) . وفي هذا الكتاب ترى التجارب الأولية التي أجريت في بلادنا على الكتابة بدون واسطة .

« هذا المؤلف لم يحدث أثرا كبيرا في عالم المطبوعات ، فقد قابلته الجرائد على عاداتها الممدوحة (تمكم) بالسخرية ببعض أولئك الرجال الذين ثبتوا في فحوص هذه المسائل المفيدة ، وركد ريح المسألة الاسبريتية بعد ذلك حتى ظهر (كتاب الأرواح) لمؤلفه الشهير (اللان كاردك) فاشتعلت الحرب العوان بين رجال الأقلام ورأى الناس أجمعون وهم في غاية الدهشة والاستغراب أن ما كانوا يعتبرونه قبل قليل من الزمن العوبة مسلية قد انتج أكبر النتائج الفلسفية ، وأنه قد نشأ من تحرك المائدة البرهان المحسوس على خلود الجزء المفكر من الانسان ، وإن النوع الانساني بذلك أصبح امام علم جديد بمستقبل الروح بعد الموت .

» هذه المسائل الكبرى لا يمكن أن يقبلها جمهور الناس بدون جدال ونزاع فقابل الناس هذا المؤلف المجازف بصيحات مزعجة من كل مكان . وواجهته الجرائد والمجامع العلمية بالاعتراض والتبكيث ، ولكن من حسن حظ بلدنا (فرنسا) لم يحصل الاسبريتزم ما حصل له في أمريكا من المشاهد الخشنة والمواقف القاسية .

« لم تسكد تظهر مسألة الموائد المتحركة ثانية في فرنسا حتى انقسم

أصحاب الفكر فيها الى قسمين : قسم حكم بأن تلك المسألة أكلوبة محضة من أصلها ، وأن حركة المائدة نتيجة التدليس والغش ، أو نتيجة حركة غير اختيارية ناشئة من الجربين . وهذا كان رأى جمعية العلوم و (راينيه) و (شفرول) وسندرس بعد قليل ما يحتويه هذا الرأى من صلاح أو فساد . والقسم الثانى قرر بأن حركة المائدة وإجابتها على الأسئلة المختلفة نتيجة فعل مغناطيسى ذى تأثير خاص لا يزال مجهولا . ومن القائلين بهذا الرأى (الكونت ، أجينور دوجا سباران) الذى له الأبحاث الدقيقة فى هذا الشأن وصاحب كتاب : (الموائد المتحركة — ما وراء الطبيعة والأرواح)

« هذا التعليل الأخير قبله وجرى عليه عدد من الكتاب مثل (شفيار) أما الأستاذ (تورى) من جنيف فقد علل هذه الحوادث بعامل خاص بهاسماه (سبيكود) وهو سيال يخرق الأعصاب وكل المواد العضوية وغير العضوية مثله فى تلك الخاصية كمثل الاثير الذى اخترعه العلماء . وعللها المستر (روجرس) وهو كاتب أمريكى بأنها نتيجة الحركة الذاتية للمراكز العصبية الخ .

كل هذه الأبحاث وكل هذه المجادلات أو صلت المشتغلين بهذه المسألة للجزم بأن هذه التعليلات غير كافية وأنه يوجد عامل آخر فى حدوثها . فالتجئوا لقبول الرأى القائل بوجود القوة النفسية وإمكان تأثيرها على المادة فى شروط مخصوصة . ولكن هنا أيضا انقسم الناس الى جزئين : حزب الفلاسفة الروحانيين ، وهؤلاء حكموا بأن تلك

الحوادث منشأها أرواح الموتى؟ وحزب الكتاب الدينيين، وقد قرروا بأن تلك الحوادث لا مصدر لها إلا القوة السفلية قوة الشيطان نفسه. ومن بين القائلين بهذا الرأي الأخير كان المركيز (أودد ومير فيل) الذي سرد في كتابه (الأرواح وظهورها) عدداً عديداً من مشاهدات ونسبها لابلis. وقال بهذا الرأي عينه (الشفاليه جوجنو ديه موسو) وسمى الاسبرترزم السحر الحاضر، وبرهن هو والقس (فتورا) من الكتاب المقدس على أن ظهور الجنة للناس منصوطة في الانجيل نفسه وذكرها كثيرون من قسوس الكنيسة. وهنا يجمل بنا أن نتوه بكتب القس (بوسان دونيس) والقس (مارسوا) اللذين كانا يذهبان هذا المذهب

« كل هذه الاختلافات المذهبية بازاء هذه المسألة ليست بالأمر المستغرب، فإن التخالف والنزاع أمام مسألة مجهولة كمسألة الاسبرترزم وذهاب كل حزب في تعليلها على مقتضى الأسلوب الفاسفي في مذهبه أمر طبيعي، ولكن لا يخطر على فكر عاقل أن يتخيل تعليلاً عجيباً مضحكاً مثل التعليل الذي أتت به جمعية العلماء الفرنسية بشأن تحرك الموائد في جلستها المنعقدة في سنة ١٨٥٩. فقد اكتشفت جمعية العلوم الطبية وترا في الفخذ يتحرك بصوت مرتفع في بعض الأحيان ونسبت إليه ما يظنه الروحانيون في جلسات التحضير حوادث روحية آتية من العلم الآخر.

« وجد هذا التعليل الغريب (جوير دولبال) فلم يسع الجمعية

العلمية الاتحييده والاطراء به لوجدانه في شحم ساق الانسان هذه الخاصة غير المنتظرة . ولكن جمهور الناس لم يعلق أدنى أهمية على هذا التعليل التافه ، وليس علينا من حرج في إشهار اسماء كثير من العطاء الذين قبلوا الاسبرتزم في فرنسا قبولاً تاماً .

« كتب (اوجست فاكرى) في كتابه (فذلك من التاريخ) بلهجة الحادة الشجية التجارب التي جربها هو و (مدام جيراردان) في بيت الشاعر الكبير الفيلسوف (فيكتور هوجو) وسترى بعد قليل حكاية تلك التجارب مكتوبة بقلم ذلك المنشئ الطائر الصيت الذي تؤثر عنه هذه الكلمة الجميلة : « أنا أصدق بوجود الأرواح التي ظهرت في أمريكا وأسمنت الناس قرعاتها لشهادة خمسة عشر ألفاً من الناس في صحة ظهورها »

« أما أكبر شعرائنا العصريين (فيكتور هوجو) فقد قال في موضع آخر « لقد استهزأ الناس كثيراً بالموائد التي تحركها الأرواح ، ولكن مما لا شبهة فيه ان هذا الاستهزاء لا طائل تحته . — فاننا نعرف أن من واجب العلم سبر غور كل الحوادث الطبيعية من أى نوع كانت . وارى أن تجريد الاسبرتزم من مزية استلفات الأنظار التي هو أهل لها ، يعادل في نظارنا تجريد الحقيقة من حقوقها . » انتهى كلام هوجو .

« الميسيو (فيكتور يان ساردو) (١) قد اعتقد بالاسبرتزم وصار

(١) فيكتور يان سارد وهذا من أشهر مشاهير كتاب الفرساويين في القرن العشرين

هو نفسه واسطة تستعمل الأرواح يده في الرسم والتصوير على غير إرادة منه . وقد نشرت المجلة الروحية سلسلة رسوم جميلة رستها الأرواح بواسطته وهو مستسلم لها تمام الاستسلام ومعطّل إرادته تمام التعطيل . وتلك الرسوم والتصاویر جاءت قطعاً باهرة أنصنع من حيث الرقة والاتقان الروحاني الحقيقي . »

« وقد كتب المؤرخ (اوجين بونير) :

« لقد استهزأت بالاسبرتزم كما استهزأ به الناس أجمعون من قبلي ولكن الأمر الغريب أن الاستهزاء الذي كنت أعده استهزاء (فولتريا) لم يكن في الحقيقة الا استهزاء المغفل الأبله ، وهذا الاستهزاء الأخير أكثر شيوعاً بين الناس »

الحركة الاسبريتية اليوم هي أحياء وأنشط مما كانت عليه قبلاً في فرنسا . وقد تكونت في باريس جمعية المباحث النفسية التي تكونت في لوندرا ، تدعى جمعية المباحث (البسيكولوجية الفزيولوجية) أي النفسية التشريحية ، الغرض منها درس حوادث (التليياتيا) أي ظهور الأشباح . وعينت هذه الجمعية لجنة منها لا تتقاد الحوادث التي تقدم اليها من هذا القبيل . اليك أسماء أعضاء تلك اللجنة : »

(١) سلى برودوم (من الجمعية العلمية الفرنسية) وهو

رئيس اللجنة

(٢) ج باليه (أستاذ منتخب من جمعية العلوم الطبية)

(٣) بوميه (أستاذ في الكلية الطبية بمدينة (ناسي)

(٤) شارل ريشيه (أستاذ بالكلية الطبية)
 (٥) الكولونل دوروشاس (مدير المدرسة الهندسية الفرنسية)
 (٦) ماريليه (أستاذ بمدرسة العلوم العالية) وهو كاتم سر
 اللجنة وللجمعية مجلة شهرية تسمى (أنال بيشيك) يديرها الدكتور
 (داريكس) أسست لنقل مباحث تلك الجمعية ونشرها.
 « تكون هذه الجمعية من هؤلاء الأعضاء بمثابة الاقرار عليها من
 جهة العلم الرسمي، ولكن الاسبريتيون الفرنسيون لم ينتظروا هذه
 التشجيعات فكونوا من عهد بعيد لأنفسهم عددا عديدا من الجمعيات
 في جميع أنحاء المملكة الفرنسية »

« يوجد في باريس عدد عظيم من جمعيات صغيرة يحضرون فيها
 الأرواح، ولكن هناك جمعيتان عموميتان وهما (المجمع الروحي)
 نمرة ٥٥ بشارع (ساتودو) و (جمعية الاسبريتزم العلمي) نمرة ١٨٣
 بشارع (سان دونيس).

أما في اقاليم فرنسا فنستطيع أن ننوه من بينها باسم (المجمع
 الاسبريتي الليوني) ولهذه الجمعية مجلة تدعى (السلم العام) و (المجمع
 الاسبريتي بريمس) و (المجمع الاسبريتي برون) تظهر أعماله كل ثلاثة
 أشهر منشورة في مجلة (فكر الموتى) »

« أما مدائن (مارسيليا) و (افيزيون) و (تولوز) و (بورديو)
 و (نانت) و (تور) و (لومان) و (اورليان) و (لى) و (بارلودوك)
 و (نانسى) و (رين) و (بيرانسون) فلها مجتمعات مؤسسة على

قواعد ثابتة وبواسطتها يزيد عدد الروحانيين وينمو يوماً بعد يوم أما أشهر
المجلات الفرنسية والأجنبية فهي :

(١) المجلة الروحية (٢) المجلة العلمية الأدبية للاسبرتزم (٣) الترقى
الروحي (٤) النور (٥) الديانة بلا كنيسة (٦) مجلة أتباع
سويدانورع (٧) منار نورماندى

« سبب انتشار هذه الحركة الروحية في فرنسا هو المؤتمر الاسبريتي
الذى التئم في باريس سنة ١٨٨٩ . وقد كتب في خلاصة أبحاث هذا
المؤتمر أن عدد أعضائه بلغ أربعين ألف عضو (٤٠٠٠٠) وكان فيه
مندوبون من كافة الجامعات الاسبريتية .

« سنرى بعد قليل أن الحركة الروحية التى نشأت تحت سماء أمريكا
لم تبلغ أوروبا فقط بل تعدتها إلى سائر أرجاء المعمور . »



الاسبرتزم فى ألمانيا

« الدكتور (كيرنير) الذى هو أحد أراكين المعارف فى ألمانيا
الحالية شاهد فى سنة ١٨٤٠ بعض حوادث روحية وهو يعالج (مدام
هوف) التى تعرف (بعلاقة بريفورست) وبريفورست هذه هى
قرية من (ورتامبرج) التى ولدت فيها هذه المرأة فى أوائل هذا
القرن . »

« يقول هذا الدكتور إن هذه المرأة كانت تشكو كثيراً من رؤيا

أشباح بحيث لا يمكن عد حالتها هذه في عداد أحوال الخلل العقلي ، لأن من كان حاضراً معها كان يسمع بغاية الوضوح والصراحة قرعاً يحدث على حواجز الغرف ، أو يرى معها أن بعضاً من أثاثات البيت تنتقل أمامهم بدون فاعل منظور من مكان إلى مكان آخر . »

« أمالقب (عرافه) التي الصق الى اسمها فاني اليها من كونها كانت تنذر أهلها بالأخطار التي تكاد تنزل بهم ، وكانت الحوادث تصدق دائماً ما تنذرهم به تمام التصديق . »

« حوالى سنة ١٨٤٠ ظهرت أيضاً في مونتجن (ورتامبرج) حوادث روحية ، ومن عهد هذا التاريخ أخذ الناس يشاهدون آناً بعد آن حوادث من هذا القليل ، كظهور أشباح أو سماع أصوات ، أو مكالمات تدل بلاشك أنها آتية من عالم الأرواح . هذه المشاهدات على ما بها من الوضوح والبيان لم يكن لها أهمية حتى ظهرت تلك الحادث الاميريكية فأحدثت في ألمانيا مثل تلك الحركة التي أحدثتها في فرنسا وكونت لها تياراً خاصاً من الأفكار العمومية . نحن لا يمكننا أن ندرس هذه المشاهدات بالتفصيل ، فلنكتف بسرد أسماء رجال العلم الذين اعتقدوا بها وأعلنوا أبحاثهم فيها »

« في مقدمة أولئك الأسماء نضع الفلكي الشهير (زولنر) الأستاذ بكلية (لينزيج) هذا العالم ألف كتاباً سماه (أوراق علمية) سرد فيه التجارب التي أجراها مع الواسطة (سلا د) وأقرباً أنه واجه ذلك البحث وهو يأس من حقيقته غير مجوز إمكان حصوله ولكنه أرغم على

الاعتقاد فى صدقه بالتجارب الصادقة والحوادث الغالبة . وسنرى فيما يلى من هذا الكتاب انه اكتشف على أمور جديدة فى الروحيات كامكان دخول الماده من خلال ماده أخرى بدون أن يستطيع الانسان أن يرى أثر انحلال الماده التى حصل فيها التداخل . كتداخل حلقة ممتلئة فى ساق مائدة بدون أن تشاهد أثراً من أى كسر كان »

« هذا الأستاذ من الذين يعتقدون أن هذه الأعمال منسوبة لتأثير أرواح الموتى على الماده ولاجل أن يعال تأثيرهم هذا تخيل أن للماده بعداً رابعاً .

شهادة هذا العالم على التجارب الروحية مستندة بشهادة (ويير) وهو الأستاذ التشريحى الكبير . والأستاذ (فيشمر) الذى أصبحت أبحاثه على القوانين الحسية الانسانية عماداً يعتمد عليها فى العالم العلمى ، وبشهادة الأستاذ (اولتريسى) أيضاً »

هذه ثلة من رجال مشاهير وأساتذة أعظم تثبت للناس علناً صحة هذه الخوارق »

« هنا يجب علينا أن ننبه على أمر جدير بالتنبيه عليه وهو أن هذه الحوادث الروحية خاضعة من أول ظهورها لأسلوب البحث النقدى القاسى جداً وبأشكال مختلفة وبواسطة مجربين متنورين وغاية فى المهارة ، ومع ذلك فرغما عن أن هؤلاء المجربين من الذين لا يعتقدون بشيء فى مبدأ أمرهم فقد استحال أمرهم الى الاعتقاد بالاسبر تزم وصاروا حماة لبيضته ، وأنصار الحقائقه . أليس هذا أعظم البراهين على الاسبر تزم

حقيقة ثابتة في ذاته وأن المشاهدات التي يرتكز عليها غير قابلة للنقض ؟ »

« أما مجلات المانيا في مقدمتها جرنال (الاسفنكس) ومجلة (سيشيش ستوديان) »

SALES

الاسبر تزم في أرجاء أوروبا

« يجدر بنا أن نضع في مقدمة اسماء انصار الاسبر تزم في روسيا ، الأستاذ (بوتليرو) الذي كرر وأعاد تجارب الأستاذ (كروكس) الانجليزى بواسطة الواسطة (هوم) ونضيف اليه اسم المستشار (الكسندرا كرا كوف) وهو من العلماء الذين برعوا في فحص مسألة تجسد الأرواح . وسيكون لنا مجال واسع لا يراود ابجائه التي تؤيد وتؤكد أبحاث الطبيعى الشير الانجليزى (كروكس) بالنسبة لحقيقة تلك الأرواح المتجسدة »

« ولقد حدث في الأيام الأخيرة مظاهرة كبرى في صالح التجارب الروحية فان الأستاذ (اركول كيايا) من نابلى كرر بواسطة الواسطة الشهيرة (اوزايا بلادينو) كل المشاهدات العالية للاسبر تزم مثل جلب الأشياء من أماكنها وتجسد الأرواح وارتفاع الأجسام الى مسافات في الهواء الخ ونشر ابجائه فانتقدتها عليه العلامة البحات في الجرائم (لومبر وزو) »

فلم يسع الأستاذ كيايا أمام هذا الانتقاد الا أن أعاد تجاربه كلها أمام الأستاذ (لومبروزو) نفسه ليكون برهانه أشد إخمالة . ثم توالى جلسات تحضيرية كثيرة في أواخر سنة ١٨٩١ كانت تبيحها كما كانت في أمريكا وانجلترا وفرنسا (اثبات حقيقة المشاهدات الروحية) ولقد استطاع الأستاذ (لومبروزو) أن يرى بالحس في جملة مرار هو والأستاذة (تامبوريني) و (فيرجيليو) و (بيانسكي) و (فيزيولي) ان مشاهدات الاسبرتزم حقة لا غبار عليها . ولكنه لا يذهب في تعليلها مذهب الروحانيين بنسبتها الى أرواح الموتى ، بل عللها بتعليل آخر لا يفسر كل تلك الحوادث كما استراه في هذا الكتاب «

« لاشك أن لومبروزو متى تعمق في هذه المسائل في مدة توازى المدة التي درسها فيها الأستاذة (ولاس) و (كروكس) أو (فارلى) يلتجئ لتغيير فكره عليها . فان هؤلاء العلماء الأعلام الذين تقدموه كانوا في مبدأ امرهم مثله يعتقدون حقيقة المشاهدات وصدقها ولكنهم لا يعزونها للأرواح بل الى تأثير روح الواسطة ذاتها ، ولكنهم بعد شدة البحث والتحرى رجعوا فاعتقدوا نسبتها الى أرواح الموتى «

« في مقدمة الصحافة الايطالية توجد مجلة (لوكس) وهى شهرية تنقل أبحاث المجمع العلمى الاسبريتى المغناطيسى فى روما . ومجلة (لاسفنج) يديرها المسيو (انجر) و (فيسيو سبيريتيستا) التى يديرها المسيو (فولبي) «

« أما فى هولانده فالمجلة التى تدافع عن الاسبرتزم هى (أوب

(م — ٢٧ — أول)

جرين) وتنشر في مدينة (لايهيه) «

« أمافي بلجيكا فالحركة الاسبريتية في نشاط وحياة كبتلك الحركة في فرنسا . فان مدينتي (لييج) و (بروكسل) هما مركزان نشيطان لنشر المبادئ الاسبريتية . ويوجد بها جمعيات مركزية تتركز فيها أعمال سائر الجمعيات الفرعية ، ولها مجلتان (لوميساجيه) و (لومونيتور سبريت) تنقل وتنشر الابحاث والمشاهدات التي يتحصل عليها الباحثون . ويحدث في بلجيكا خطب كثيرة في صالح الاسبرتزم ، وتظهر كتب ورسائل توزع مجانا كان من نتائجها أن بلغت آثارها أحواض مناجم الفحم الحجري وأصبح المعتقدون بها من العملة يعدون بالألوف »

« أما في السويد (فلا اسبرتزم) مجلة اسمها (مور جندو مرنجن) تنشر في (كرستيانيا)

« أمافي اسبانيا فالحركة الاسبريتية أنشط فيها مما هي في أي بلد من بلاد العالم وعدد الاسبريتين أكثر اذا نسبوا لعدد السكان مما هم عليه في أي مملكة أخرى ففي كل مدينة من مدنها تجد جرائد ومجلات تابعة لجمعيات في غاية النظام . من بين تلك المجلات الشهيرة (مجلة الأبحاث النفسية) في برسلونه وعمرها الآن ٢٣ سنة . يديرها الآن (الفيكونت توريسولانو) وهو باحث وعالم نزيه . ومجلة (الكريتيديو أسبيريتيستا) تطبع في مدريد . ومجلة (لوز ديل بروفير) في ليريدا . ومجلة (رفيلاسيون) اليكانت الخ »

« أمافي (أستريا) فقد كان الاسبرتزم قبل بضع سنوات ليس له

أهمية فيها ، ولكن التجارب التي تمت على يد (الارشيدوق رودولف) مع (باستيان) وهو واسطة للتجسيد وجهت أنظار الناس أجمعين الى تلك الحوادث ، وان كان قد اكتشف في اثناء تلك التجارب على شىء من الغش والتزوير ، أما الآن فان عدد الروحانيين في استريا قد ازداد ا زيادة عظيمة ويمكننا أن نذكر من بين مجلاتها الاسبريتية مجلة (ريفورميدن يلاتير) التي تطبع في بودابست أما في (البورتغال) فيشخص المذهب الاسبريتي فيها مجلة (أوسبيزمو) التي تطبع في (ليسبون)

الاسبريزم في العالم كله

« يمكننا أن نقول بلا أدنى خشية من التكذيب أن للاسبريزم اليوم أنصاراً وأعضاءاً في كل صقع من أصقاع الكرة الأرضية . ولأجل أن لا نطيل الكلام في هذا الموضوع لكيلا نخرج عن حد الاعتدال نكتفي بذكر الممالك التي يطبع فيها جرائد إسبريتية ، إذ لا يخفى أنه ان لولا وجود ناس يعتقدون وجود الأرواح ويصدقون بمذهبها لم تكن لتوجد تلك المجلات . فيمكن للبطلع أن يدرك كنه خطارة الحركة الاسبريتية في العالم بعدد المجلات التي تدافع عنها وأنشئت من أجلها منذ ٤٠ سنة (١) »

في جمهورية (ارجنتين) يطبع في عاصمتها (ريودوجانيرو) مجلة

(١) ان لن تنوه هنا إلا عن أشهر المجلات في كل مملكة لانه من الممل اعطاء جدول بأسماء سائر الجرائد التي تطبع في العالم فانها كثيرة جداً .
(المؤلف)

(لوروفورمادور) وفي مملكة (پارانا) يطبع ثلاث مجلات . ففي (لوز)
تطبع (أوريچينيرادور) و (ريفيستا اسبيريتستا) وفي مدينة (سان
بولص دولواندا) تطبع مجلتا (فيردال) و (لوز)

وفي مملكة (شيلي) يطبع في مدينة (سانتياجو) مجلة (الپان
ديل اسبريتو) وفي مملكة (بيرو) تطبع في (ليما) مجلة (ال سول)
وفي جمهورية (سان سلفادور) تطبع مجلة (الاسبريتيزمو)
في مدينة (شالشوابة) . وفي مملكة (فينزويلا) تطبع مجلة (الاريفيستا
اسبريتيستا)

وفي مملكة (المكسيك) يطبع في مدينة (مكسيكو) مجلة (لا
ايللو ستراسيون اسبيرتيا) وفي مدينة (سيزيولا) ومملكة (مازالتان)
تطبع مجلة (ال پريكورسور)

وتطبع في جزيرة (كوبا) أربع مجلات (لالبورادا) في كوبا
ومجلة (لايونانويفا) في مدينة (پورتوريكو) ومجلة (لاريفيستا
اسبريتيستا) في مدينة (هافانا) ومجلة (لانويفالانزا) في مدينة
(سينفويچوس)

وفي جزائر (كناريا) تطبع مجلة (لا كريداد) في مدينة (سانتا
كروزدوتيرلف) وفي (استراليا) يطبع في مدينة (مليونر) مجلة
(ذي هارينجراوف لايت) .

» لنصف إلى ذيل هذا الفصل أن جريدة (المجلة العلمية الأدبية
للأسبريتزم) التي نديرها نحن لها مراسلون من رؤساء جمعيات إسبريتية

في (كندا) و (السويس) و (القاهرة) و (جزيرة موريس) و (بورنيو)

✽ موجز ماسبق ✽

« لقد تقرر مما سردناه آنفاً أن ملايين من الناس يعتقدون الآن في صحة المذهب الروحي . وأن الحركة التي تولدت في أمريكا قدسرت إلى سواها من الممالك بسرعة لم يعهد لها شبيهه . وأنه ليوجد اليوم نحو من مائة وخمسين جريدة أو مجلة تنشر للجمهور أخبار هذه النظريات الجديدة وأن أعمال وتجارب العلماء الذين ذكرنا أسماءهم قد ترجمت إلى كل لغات العالم على سطح البسيطة ، وقد كانت نتائجها أن نشرت في أرجاء العالم الأرضي هذا الخبر السار خبر خلود الجزء المفكر من الانسان وعدم فنائه بالموت »

« لقد أحقق مسعى العلم الرسمي وبجامع العلم في تأمرها على الصمت المطلق بازاء هذه الحوادث ، فان الحقيقة أقوى من كل المؤامرات . ولقد تغلغت هذه الحوادث في الدنيا بأسرها واكتسبت أعضادا وأنصارا من كل قبيل ولا تزال تكتسب للآن . فلا الجرائد بسخريتها واستهزائها ، ولا الكهان بجلبيتها وتذمرها ، ولا الماديون بتبكيتهما وسبها لا يستطيعون صد هذه الدفعة الانسانية التي تدفع الانسان لاكتشاف معلومات حقة يؤكد بها عقيدته في حياته المستقبلية . »

« رغماً عن سوء نوايا العلماء الرسميين ، وامراء العلم الذين يهدم لهم الاسبرترزم نظرياتهم الظلمانية العدمية ، لا يرد على فكر عاقل بأن هذه الحوادث الاسبريتية الخارقة للعادة ليس فيها ما يستلفت النظر أو

يوجه اليها العناية ، بل ان موضوعها الذى تبحث عنه هو من الخطارة والجلالة بحيث استلفت نظر الناس أجمعين فى جميع أذوار التاريخ الانسانى .

« لقد صيغت النظريات ، وبنيت المذاهب قديماً وحديثاً ولم تكسب نظرية خلود النفس الدليل القاطع ، أما الآن فقد فتح علينا بالوسيلة لدرس مسألة بقاء الروح بعد الموت درساً علمياً ؟ ولم نكن لنحصل على هذا الفتح لولا تدخل الأرواح فى شؤون هذا العالم ، وسترى أن الحوادث والمشاهدات التى يركز عليها المذهب الاسبريتى هى أوضح وأقوى الأدلة لاثبات خلود الروح الانسانية بعد الموت »

« قبل أن نختتم الكلام نقول من المستحيل أن تكون هذه الحوادث الاسبريتية نتيجة الغش والتزوير أو الضلال الفاحش »

(أولاً) لأن هذه المشاهدات درسها وفحصها أعظم رجال العلم (كما رأيت) وان هؤلاء الكماويين والطبيعيين هم أجدر الناس وأولاهم بمعرفة سلامة الدليل أو فسادة فيما يتعلق بسببية الحوادث

(ثانياً) لأن هذه المشاهدات قد روقت مراراً عديدة جداً بواسطة مجربين ومراقبين مستقلين وكانوا لا يصدقون بشئ فى مبدأ أمرهم ، ولم يكن بينهم وبين المجربين أمثالهم أدنى علاقة من تعارف وقد جاءت نتيجة كل تلك الابحاث متشابهة متحدة فى كل بلد من بلاد العالم

(ثالثاً) لأن كل هذه الحوادث فى مظاهرها الرئيسية واحدة فى جميع بلاد العالم الأمر الذى يدل على أن سببها كلها واحد

(رابعاً) أخيراً أنا نعتقد أن مجموع كل هذه الشهادات ومقامها وصحتها هي من الخطارة بحيث يستحيل دحضها مجانا بدون بحث دقيق « هذا ما سنحاوله في هذا الكتاب ، وذلك أننا سنستعرض حوادث الأسبرترزم أمام القارئ ، وسنوجه إليها مسبار البحث والتمحيص من كل جهاتها ، وسنورد كل التعليقات التي عللت بها بغاية الحرية والصراحة ، ومع ذلك كله فأملنا وطيد في أن القارئ سيرى أن التعليل الروحاني هو التعليل الشافي لرئيس الصدر الناقع لغلة النفس ، المفسر لكل تلك العجائب الخارقة للعادة . »

نقول : هذه مقالة طويلة الذيل افتتح بها الكاتب الاسبريتي الطائر الصيت (جبريل دولن) كتابه المسمى (الحادثة الاسبريتية) الذي طبع خمس مرات لغاية سنة ١٨٩٧ ، وغرضنا من نقل هذه المقالة اقامة الأدلة الساطعة على أن قادة الاسبرترزم اليوم هم قادة العلوم العصرية في أوروبا ، وان من الجسارة التي لا تخطر بالبال أن يتهم هؤلاء الرجال العظام الذين لهم أكبر الآثار في نهضة النوع الانساني ، بالجنون والهوس وعدم الروية والطيش ، ولئن صح ذلك على فرد أو فردين أو عشرين فرداً في بلد أو بلدين أو عشرين بلداً وراحت خزعبلاتهم على عقل أو عقليْن أو ألفي عقل وضرب على وترهم مجلة أو مجلستان أو عشرون مجلة مثلاً فكيف يعقل أن يبلغ عدد أولئك العلماء الألوف المؤلفة في جميع انحاء الكرة الأرضية كما أريناك ذلك في هذه المقالة ، وكيف تروج خزعبلاتهم على نحو العشرين

مليوناً من الرجال ما بين سياسيين وكتاب ومحامين وأطباء ومهندسين ومنهم غلادستون الانجليزى وبالפור رئيس وزارة الانجليز الحالية وغيرهم من أهل الفطن والذكاء، وإذا أمكن أن يدعى الانسان (وهو لم يقرأ فى ذلك الموضوع كتاباً ولم يجرب فيها تجربة بسيطة) ان ضلة من الضلات تنطلى على كل هذه العقول القوية، وتلين من تلك الشكائم الحديدية، وترغم هاتيك المعاطس العتية، فلا يبعد أن يدعى أنه لا عاقل فى الوجود غيره وكفى بهذا الادعاء مسقطاً لقوله

نحن نقول على رؤوس الأشهاد اننا لا نعتقد بان الذى يظهر فى أوروبا فى جلسات التحضير من الأشباح المتجسدة وغيرها أرواح الموتى كما يقوله السواد الأعظم من الروحيين، ولكننا نعتقد تمام الاعتقاد بظهور تلك الأشباح وبأنها حقيقة لا يمكن انكارها لتوالى الشهادات على صحتها من كل بلد ومن كل عقل وبكل لغة، ونظن انه لا يليق الاستهانة بشهادة العلماء فى مثل هذا القرن على صحة وجود شيء يقولون انهم رأوه ولمسوه بأيديهم وشاهدوه على اشكال متعددة وعقيدتنا فى وجود ذلك الشيء وحقيقته لا تقضى علينا بالتسليم بكونه روح الميت، فلا يبعد أن يكون من عالم غير عالم الانسان والعوالم لا يحصيها الا خالقها ومبدعها.

هذه الأشباح التى تظهر لعلماء أوربا وما يسبقها ويلىها من المشاهدات الخارقة لكل نوااميس الطبيعة تثبت بطريقة لا تقبل التأويل ان الانسان عاجز عن الامام بجميع المعلومات، وانه فى وسط بحر كله مساتير ومعجائب، وان

العالم الحسى ليس هو وحده كل ما فى هذا الكون البديع ، بل وراءه عالم أبديع وأعظم ، مأهول بأرواح تسبح فيه سباحاً ولها فيه شؤون خاصة لا نحلم بها ولا نتخيلها .

لهذا ترى الماديين فى كل أمة وفى كل بلد يعارضون هذه الحقائق ويسعون فى هدمها ، لأنها تقصدهم مباشرة وتخط من كرامة مذاهبهم الظلمانية المؤيسة . ذلك لأنهم قالوا الوجود الا المحسوس وليس وراء ما تدركه مشاعرنا مرمى ، فجاء الاسبرتزم يريهم قصور مداركهم وضلال أفكارهم ، ويفتح لهم عالماً لا يحيط به الفكر القوى ، ولا التصور البشرى .

وقالوا ان الانسان حيوان من الحيوانات وانما هو أرقى منها رتبة فى سلم الوجود وانه عبارة عن جسم مادى ليس غير ، وان روحه هذه ليست الا خاصة ذلك التركيب المتناسب الأجزاء المتناسق الأعضاء ، فجاء الاسبرتزم ينعى عليهم ضيق تصورهم ، وخرج صدورهم وسوء نظرهم ويريه ان الانسان ليس بمادة مجردة وانما تلك المادة فيه غلاف لسر مكنون وجوهر هى الروح التى تحركه ، وان هذه الروح من عالم عال كله جمال وجلال ، وضياء ولاً لا الخ الخ

لهذا غرى الماديون بمقارعة الاسبرتزم هذا بكل حيلة وبكل سلاح ولا ندري ما حظهم من ذلك ؟ وأى شئ ينالهم لو أثبتوا للعالم أن الانسان حيوان وأنه متى مات تحلل جسمه وفنى وذهب كالهباء فى الغبراء ، وإن العالم محدود على ما يدركه الحس وان الاجمال فيه

الا ما تدركه المشاعر ؟ ماذا ينالهم من بث هذه التعاليم وأنى فائدة منها للنوع الانساني ، وهى طاعونه الفتاك وميكروب سرطانته المستأصل ، وجرثومة بلائه المحتاح ،

لقد أضرت العلوم المادية بالعالم الأوروبى ضررا بليغا وأصبح الالحاد فى طبقات العامة جرحا دائما فى فؤاد هذه المدنية المادية وبثرة غصنه فى وجهها الواضح ، ولقد كادت تلك القرحة الفؤادية تهوى بحياة تلك الأمم الغربية وتنزل بها أسفل سافلين لولا أن أرسل الله اليهم هذا البصيص من النور وما فى الغيب أكثر فقاموا سراعا ، واحتفوا حوله يتزاحمون بالمناكب شوقا الى النور ولهفا على الخلاص فنالوا منه ما نالوا ، وهاهم لليوم شخوص اليه ينتظرون ما يأتى به الغد من آثار الرحمة الالهية ، وقد نقلنا عنهم فى ذلك أشياء كثيرة وسنقل إن شاء الله أكثر مما مر ، فلماذا لا ننوه بتلك الحركة للعالم الشرقى الذى بلى فى هذه الأيام بمتابعة الغربى فى كل شأن من الشؤون ، ليطلع فىرى أن زمن الالحاد وقد فات وأن أوروبا وإن لم تتوصل الى إثبات وجود الروح بطريق الحس فقد توصلت الى إثبات وجود عالم وراء هذا العالم وإن الانسان ليس بمادة محضة وكفى بها تين العقيدتين مريحين للضمائر ، ومهدئين لجيشات السرائر .

نحن نتابع البحث فى تلك الحركة الأوروبية لنثبت للناس أجمعين معنى قوله تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوى عزيز » كيف لا وقد قام علماء أوربا فى القرون الأخيرة بواسطة العلم الطبيعى

مقاوم الجبابة العتاة واتخذوا الفوائد المادية التى تنتج من أبحاثهم فى عالم الصنائع والفنون أسلحة لهدم تعاليم الأديان ، وآلات لتيئيس الانسان من حياة بعده هذه الحياة ، فكتبوا وخطبوا وأرغوا وأزبدوا ، وهدموا وبنوا ، وهزءوا وسخروا ، وتظاهروا بالعنوة والجبروت كأنهم أصبحوا قادرين عليها . فينماهم كذلك واذا بهذه الآية المدهشة فاسقط فى أيديهم وكتب كثيرا منهم مقرا بذنبه فى كتبه كما نقلنا عنهم ذلك ، فحنن نورد عنهم أخبار خضوعهم للاسبرترزم اظهارا لقهر الله على العاتين ، وارغاما لمعاطس المعاندين المقلدين من الشرقيين ، والله مع الصابرين ، وهو ولى المؤمنين .

تاريخ استحضار الأرواح

(حادثة من منس الجن فى صيدا)

خوارق العادات على يد غير المسلم

كتب لنا حضرة الوجيه حسن أفندى نحولى من (صيدا) بسوريا خطابا تلخصه لحضرات القراء ثم نجيب عليه إن شاء الله . قال حضرته : عثرت فى اثناء اشتغالى ببعض كتب الجدل الدينى على قصة صموئيل الأول تشبه مسألة استحضار الأرواح ، نأتى عليها ادلا لا على أن مسألة استحضار الأرواح معروفة قديماً لدى الأمم . وفوى

تلك القصة أنه اجتمع على شاول ملك بني اسرائيل الفلسطينيين فجزع واشتد خوفه ولم يكن معه نبي من الأنبياء ليسأله عما يجب عليه عمله كما كانت عوائدهم في الأمور الجسام ، فلما أعمته الحيل أخذ يسأله عن السحرة والعرافين فذله بعضهم على (عرافة) يقال لها (عين دور) فذهب اليها متسكراً لأنه كان مشهوراً بمطاردة أصحاب هذه الصناعة ، فلما انتهى اليها هو وخادمان معه سأها أن تجيبه عن مطلوبه فامتنعت خوفاً من الملك ، فلم يزل بها حتى أقنعها بأن تصعد له روح صموئيل فجاءت بهاله فأخذ شاول يكلمها وهي تجيبه عن كل ما سأها عنه . وهذه القصة موجودة في (سفر صموئيل الأول — الأصحاح الثامن والعشرون من أوله الى آخره) ويظهر منها أن مسألة استحضار الأرواح كانت معروفة قبل التاريخ المسيحي بقرون عديدة . فاعل القائلين بأن مسألة استحضار الأرواح شعوزة ذهبوا هذا المذهب لاستبعادهم استحضار أرواح الأنبياء . واذا كانت مسألة استحضار الأرواح معلومة كما قررنا من منذ ألفي سنة فكيف يدعى علماء أوروبا أن تاريخها يبتدىء من سنة ١٨٤٦ كما قررت ذلك في مجلة الحياة ؟ فزجواكم اجابتنا عما اذا كان من الممكن استحضار أرواح الأنبياء الكرام صلوات الله عليهم والأصفياء والأولياء رضوان الله عليهم أيضاً ، وما قول الروحانيين في ذلك مع علمنا بأن هذا لدينا ممتنع شرعاً ثم قالى حضرته أيضاً ماملخصه :

وقعت بصيدا حادثة بحضور بعض من أثق بهم من السيدات

أثناء زيارتهن لبعض العائلات ان ابنة لصواحيبات البيت دخلت في دور عصبي شديد اصفر لها لونها وانتفخت أوداجها ثم انصرعت الى الأرض ثم تكلم من فيها متكلم قائلاً بلغة يهود صيداً (مسيكم بالخير) فرد عليه بعض النسوة لاعتيادهم على رؤية تلك الحالة في تلك الفتاة، واعتقادهن بأن ذلك جنى يهودى اعتاد أن يتقمص بجسمها في بعض الأحيان، فاحتطن به وأخذن يلقين عليه بعض الأسئلة وهو يجيبهن عنها، حتى سأله من حدثتني ذلك الحديث عن بعض أقربائهن في الاستانة العلية فأجاب عن كل مسألة بما يقتضيه المقام طوراً بالسلب وآخر بالإيجاب. ولما اخبرت بتلك الحادثة نسبتها للأمراض العصبية ورميتهم بسهولة الاعتقاد بدون توقف رغماً عن تحققى من وقوع بعض ما أخبر به تماماً مع شدة انكارى لتلك المسألة وعددها في عداد الأقايص.

ثم حدث بعد ذلك ان اجتمع أولئك النسوة من أقارب المصابة وصرن يتلون عليها ورد أبي الحسن الشاذلى رضى الله عنه المتضمن كثيراً من صيغ الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. عند ذاك اضطربت المريضة اضطراباً شديداً وصرخ الجنى مستغيثاً ليسكتوا عن التلاوة متوعداً اياهم باضرارها لو أصرروا عليها. فلم يصغوا لتهديده بل مضوا في التلاوة فلم تمض برهة حتى هدا اضطرابها وذهب الجنى ولم يعد، وأخذت تلك الفتاة تقوى شيئاً فشيئاً حتى استردت صحتها الأولى.

هذا ما حصل على مرآى ومسمع من أثق بهن من السيدات فهل يستطيع الجن على التقمص بأرواح الناس مع وجود الروح . وهل صدق الجنى فى أخباره بالمغيبات تعد من سلطة الروح على الجسم ؟ هل جميع ما تقدم من الرحانيات وما ينسب للقوة المغناطيسية وسلطة الروح على الجسم يستوى فى احداثها المسلم وغيره ممن ليسوا على دين حق . وهل يوجد فى مصر كم حوادث من هذا القبيل نرجوكم الجواب ولكم الشكر .

تاريخ مذهب استحضار الارواح ^(١)

أتينا فى بعض كتاباتنا على موجز من تاريخ فن الاسبرتزم فى أمريكا وأوروبا وقلنا إنه حدثت أول حادثة منه فى أمريكا سنة ١٨٤٧ وسرت منها الى أوروبا بعد ذلك التاريخ فأوهم ذلك بعض حضرات قرائنا ان ذلك التاريخ هو مبدأ ظهوره فى العالم وتنبج من ذلك ان فاضلا من أولئك الأفاضل جاء يسألنا بكتاب عن رأينا فيما رآه مكتوبا فى سفر صموئيل من قصة الملك شاول مع العرافة (عين دور) قال ان تلك القصة تدل على أن فن استحضار الأرواح كان معروفاً عند الأقدمين ، فكيف يتفق ذلك مع ما قلناه من أنه ابتداء فى أمريكا سنة ١٨٤٧ ؟

(١) هذه المقالة جواب سؤال حضرة الوجيه المحترم حسن أفندى نحول من صيدا وقدرأى

حضرات قرائنا السؤال فى الجزء العاشر المتقدم .

نقول ان ذلك التاريخ هو تاريخ ظهوره في العالم الغربي ولم يكن معروفاً قبلها بتلك الصفة التي هو عليها الآن . نعم كان يوجد في أطراف البلاد أفراد من الرجال والنساء لهم علم بذلك الموضوع وقدم في مجالاته ولكنهم كانوا مجهولين لدى السواد الأعظم من الناس وكانوا يتحرون أن يبقوا كذلك طول حياتهم لأن الأحزاب الدينية في تلك العصور كانت في غاية حماسها ، ومعمعان قساوتها وصرامتها ، فكانت اذا شامت في شخص بارقة من تلك البوارق التي تتخيل وراءها ضرراً على مركزها أسرع الى بالقبض عليه وزجته في أعماق السجون وتحقيق جنايته تحقيقاً ناقصاً كله تحامل وصرامة ، ثم ينتهي الأمر بالحكم عليه بالحرق بالنار حياً ؛ كما حصل لمئات الألوف من الناس . لا جرم أن كل من كانت لديه أثارة من علم ما وراء الطبيعة كان يبالغ في كتمانها ، ويغرق في إنكاره خشية من الهلاك على أقبح صورة . هذا كان شأن أوروبا قبل هذه القرون الأخيرة التي تمت فيها الغلبة لرجال العلم على رجال المذاهب الاعتقادية ، ودخل بذلك النوع الانساني في دور التنور والبحث بعد تلك العماية الحماسية ، والغيابة التعصية . ولا غرو بعد هذا ان ظهر تحت ذلك الجو الصاحي مذهب استخضار الأرواح وأصبح له من الاشباع الملايين الكثيرة ، فلا شيء هناك اليوم يمنع بحث الباحثين ، ولا أثر لتعصبات المتعصبين ، وسيرى النوع الانساني من وراء هذه المسألة ان شاء الله العجب العجائب في قسم ظهور الملحددين ، وقسم عرى خزعات الماديين والله غالب

على أمره ، ولا معقب لحكمه .

لكن قرب عهد ظهور فن استحضر الأرواح في أوروبا لا يدل على عدم وجوده في العالم الشرقي قبل تلك المدة بمدد طويلة بل بألوف من السنين . نعم ان مسألة خلود النفس بعد الموت ، وبروزها في عالم غير هذا العالم لتحيا فيه حياة أبدية كاملة عقيدة شائعة بين جميع أصناف النوع الانساني كله شرقاً وغرباً . ومن العجيب أن مسألة استحضر الأرواح ومكالمتهم كانت ولم تزل ملازمة لهذه العقيدة في بلاد الشرق كله ، وقد أصبح الغرب شريكه في ذلك أيضاً في هذا العصر . وإنما هناك فارق جسيم بين مظهرى هذه المسألة المدهشة لدى الأمم الغربية والشرقية فانها لدى الأمم الشرقية قديماً كانت وفقاً على رؤساء الدين ، ومستورة على غيرهم من الناس ، ولم يكن قصد أولئك الرؤساء من ذلك الحجر الكسب المادى أو ابقاء الناس في ظلمات العمية عما سينالهم بعد الموت ، وإنما كان ذلك منهم لحفظ مراكزهم العالية ، وصبغتهم الدينية محفوفة من الازدراء والابتذال ليستطيعوا أن يقودوا العامة بزمام الطاعة والانقياد هذا ما ينتج من أول وهلة لمن يعتنى بدراس أساطير الأمم الماضية ، فلا يكاد يرى أمة منها إلا وفيها طائفة من الناس جعلوا ديدنهم هذه الوساطة بين عالم الأحياء وعالم الأموات وكان لهم بذلك في نظر عامة الأمم شأن لا يقاس به غيره من سائر الشؤون العادية .

أقدم الكتب المقدسة الدينية التي تعرف الآن هي (الفيدا) كتب الهنود التي وجدت قبل ميلاد عيسى عليه السلام بعدة آلاف

من السنين. ذكرت فيها مسألة استحضار الأرواح بنص صريح لا يلتبس على أحد في مغزاه. فقد قال المشرع الهندي الكبير (مانو) في تلك الكتب بالحرف الواحد مامعناه :

« ان أرواح آبائنا الأقدمين يصحبون على حالة لا تراها أعين »
 « الناس بعض البراهمة الذين يدعون (للاحتفال بعيد الأموات وأن »
 « هذه الأرواح لتتبعهم أينما ذهبوا وهم على حالة هوائية وتجلس بجانبهم »
 إذا جلسوا . »

وقال مؤلف هندي آخر وهو من الأقدمين أيضاً : « ان الأرواح »
 « التي لم تأت من الأعمال إلا الخير والبر مثل أرواح العباد الأطهار »
 « والزهاد الأخيار تكتسب خاصية مكاملة الأرواح التي سبقها »
 « إلى العالم الآخر : وهذا دليل لتلك الأرواح على أن دورهم في التناسخ »
 « قد تم وانقضى . »

اعتاد كهنة الأديان الهندية على اعداد أشخاص يسمونهم (فاكير) ليستحضروا بواسطتهم أرواح الموتى ، ويحدثون بهم أكبر المشاهدات في التنويم المغناطيسى .

نقل (لويز جاكويو) في كتابه (الاسبرترزم في العالم كله) نظرية الهنود على الأرواح السابحة في الفضاء بعد موت أجسادها . وينتج من مطالعة أبحاث ذلك المؤلف ان أسرار مسألة استحضار الأرواح ما كانت تودع الا لمن يقضى أربعين سنة في بيوت الدين تحت النظم الشديدة والاختبارات الدقيقة .

تلك الأسرار كانت موزعة على ثلاث فرق من أولئك الرجال كما يأتي :

(الفرقة الاولى) كلهم من البراهمة أصحاب العبادات العامة ، وكنهة الهياكل المكلفين بقيادة العامة . وتعليم هذه الفرقة قاصر على شرح الثلاث كتب الاولى (للفيدا) ، وكيفية رئاسة الطقوس الدينية ، وأداء القرايين . وبراهمة هذه الفرقة يخاطبون الامة ويعاشرونها ، فهم قادتهم الأقربون ، ورؤساؤهم الأدنون

(الفرقة الثانية) تحتوى على طردة الشياطين من الاجسام ، والعرافين للمستقبل وأصحاب النبوات ، ومستحضرى الأرواح ؟ وهؤلاء عليهم فى بعض الظروف الحرجة أن يؤثروا على أذهان العامة باحداث بعض خوارق الطبيعة . ويسمح لهم بقراءة وشرح (الأتارفا فيدا) وهو مجموعة رقيات سحرية

(الفرقة الثالثة) من البراهمة ليس لهم اختلاط ما بهذا العالم الانسانى ، وليس لهم من شغل فى هذه الحياة الا درس قوى هذا العالم المادى كله ، وإظهاروا للناس فلا يكون ذلك إلا لأمر جلال ، وخطب فادح ، ولا يتراءون لهم الا عن بعد .

أما فى بلاد الصين فلا يعلم بالضبط تاريخ فن استحضار الأرواح ، والذي ينتج من الاطلاع على حالهم فى تلك المسألة يتحقق أنها قديمة لديهم جداً .

نقل القس الداعى للدين هناك (هوك) أن الصينيين مولعين بمسائل

الأرواح واستحضارها وسرد عنهم جملة تجارب في ذلك الشأن لم
تزل مستعملة لديهم في كل صقع من أصقاع بلادهم الشاسعة الأكناف ،
وفي كل طبقة من طبقات هيئتهم الاجتماعية .

وقد امتدت هذه المسألة في جميع ممالك آسيا على طول الزمن
وبواسطة هجرة بعض الهنديين للاستعمار في بعض البلاد الأجنبية ،
حتى وصلت إلى مصر وإلى العبرانيين كما ثبت ذلك من استقراء أساطير
كل من هاتين الأمتين القديمتين .

أحد المؤرخون جميعهم على أنه كان لدى المصريين الأقدمين
اعتقاد في كثير من المسائل التي تعلم عن هذه الطبيعة المحسوسة كأعمال
السحر والطلاسم وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة وقد ذكر كثير
منها في التوراة ، وثبت أيضا أنهم كانوا يعرفون مسألة استحضار
الأرواح ومكالمتها في الشؤون الهامة ، ووجه ثبوت ذلك آت من نهى
موسى عليه السلام لقومه في التوراة عن عمل السحر وعن تحضير
الأرواح وسؤالها عن المستقبل . وقد علم قراؤنا مما أورده حضرة
الوجيه الذي عرض علينا هذا السؤال أن الملك شاول ذهب إلى
(عين دور) العراقة واستحضر بواسطتها روح صموئيل وفي هذا
دليل قاطع على أن بني إسرائيل كانوا يعرفون مسألة استحضار
الأرواح

لم يقف بعض الناس عند الحد الذي رسمه موسى عليه السلام
لقومه من النهي عن تحضير الأرواح بل تألبت بعض النفوس الشقية

إلى الإشراف على عجائب عالم ما وراء الطبيعة فألفوا فيما بينهم حزبا سريا ومذهباً خصوصياً سموه (كبال) ولكن ما كانوا يشونه لأحد حتى يأخذون عليه المواثيق والأقسام بأن لا يذيعه ولو لحقه مالهقه من الأضرار

وقد جاء في التلمود وهو من كتب اليهود ما معناه : ان الذى يحفظ هذا السر سر استحضار الارواح فى فؤاد نقي طاهر له من الله الكرامة وحسن الزلفى ولدى الناس الفضيلة وحسن السمعة ، ويكون اسمه مقرونا بالاجلال وعلمه غير قابل للزوال ، ويرث بعد ذلك الحياتين وينال السعادتين فى هذه الدار وما بعدها

أما فى بلاد اليونانيين فكانت مسألة استحضار أرواح الموتى معروفة وشائعة جدا . فقد كان فى كل هيكل من هياكلهم نساء يقال لهم (العرفات) أى اللاتى يعرفن المستقبل ، مكلفات بمكالمة أرواح الآلهة ، وكثيرا ما كان يود المستحضر أن يكلم الروح بنفسه فكان يحاج طلبه ويكلم الروح المطلوبة بنفسه .

وقد ذكر الشاعر الكبير اليونانى هوميروس الذى عاش قبل الميلاد العيسوى بأكثر من ستة قرون قصة استحضار البطل اليونانى الشهير (اوليس) روح (تيريزياس) العراف الشهير ، ومكالمته له ، وقد وصف هذا الشاعر المطبوع الصفة التى حضره بها والاحتفال الذى جرى لذلك وصفاً دقيقاً . وليست هذه الحادثة منفردة فى بابها فقد كان من الشائع المعروف لدى اليونانيين أجمعين ان من يريد استحضار روح أحد

أقربائه أو ذوى خاصته أمكنه ذلك بغاية السهولة بواسطة الأشخاص
المتمرنين على الاستحضار .

وقد نقل عن (أبولونيوس دوتيان) الفيلسوف الفيثاغورى المشهور
انه كان يعتقد كل الاعتقاد بوجود الأرواح وبامكان تحضيرها
والمكالمه معها ، وكان يعمل من الخوارق للطبيعة ما يدهش الألباب
ويحير المدارك ، وكان له اطلاع واسع فى أمور ما وراء المادة

أما عند الرومانيين فقد كانت مسألة استحضار الأرواح معروفة
أيضاً ومنتشرة جداً وكان المكلف باستحضارها نساء يسمونهن (سيديل) .
كان قواد الرومانيين يقصدونهن ويسألونهن عن مستقبل الأمور
العامة ، وكان رجال الحل والعقد لا يبرمون أمراً ولا يشهرون
حرباً ، أو يعقدون سلماً الا بعد استشارة الأرواح بواسطة هاتيك النسوة
أما لدينا معشر أهل الاسلام فمسألة ظهور الأرواح للحياء من
الأمور الشائعة للصالحين والمقربين ، وأظن أنه لا يوجد واحد من
المسلمين لم يقرأ فى كتاب أو لم يسمع من قارى أن روح فلان الصالح
ظهرت لفلان التقى وحصل بينهما كيت وكيت من المحادثات والمحاضرات .
بل كثيراً ما تروى العامة فى أساطيرها أموراً تدل على معرفتها بمسألة
ظهور الأرواح للناس مثل روايتهم عن بعضهم ان فلاناً تاه فى الصحراء
وألمت به الحيرة من كل جانب ولما أوشك ان يقع فى اليأس اذ ابرجل
مرتد بتياب بيضاء ، وعليه جمال وبهاء جاء اليه فذله على الطريق ،
وأزال عنه بوائق التعويق ، ثم يعقب قوله هذا بأن ذلك الشخص

لاشك في أنه روح التقى فلان الخ الخ من أمثال هذه الحكايات التي تعوز النظر ولا يليق بنا أنكارها على عجل .

مسألة من الجن

يحمل بنا الأجابة على هذا السؤال ان ننقل ما كتبناه في (الحياة) ببعض تصرف فقيه الكفاية . وهو :

ان فكرة استيلاء الجن على جسم الانسان والتأثير عليه بالمرض والاذى شائعة من مبدا الخليقة فقد كان الناس عموماً يفسون الأمراض أياً كانت الى الأرواح الشريرة وكان لهم في ذلك طرائق عجيبة وأعمال غريبة لم تزل للآن منتشرة في كل البلاد المتوحشه . وقد كانت هذه الفكرة آخذة في التناقص شيئاً فشيئاً حتى كادت أن تنتهي الى الصفر خصوصاً في العالم العلى ولكنها قد حييت الآن حياة قوية وصار يستطيع المنتصر لها ان يقيم على صدق قوله ألف دليل محسوس وسبعان مغير الشؤون . روت المجلة الروحية في هذا الشهر (قبل ثلاث سنوات تقريباً) عن جريدة (نيويورك ميل اندا كسبرس) ان الاستاذين الشهيرين (ريشار هودسن) و (جيمس هيزلوب) اللذين درسا الاسبرتزم بواسطة (مدام بيبير) مدة ١٢ سنة قد نشرا نتيجة ابجاثهما في كتاب جاء فيه هذه العبارة : « ان عدداً عديداً من المجانين الذين يحبسون

في اليمارستانات ليسوا مصابين بأمراض عقلية بل مملوكين لأرواح قد استولت عليهم واستخدمتهم . »

هذاما ينادى به استاذان عظيمان بعد أن عدت هذه من دلائل التوحش والهمجية وفي أوروبا وأمريكا ألوف من العلماء لا يداخلهم الشك في هذه النظرية . فلننظر كيف حصل لهم البرهان عليها فنقول : ان حل مسألة استبلاء الجن على جسم الانسان تتبع حل مسألتين وهما : هل في الطبيعة قوة عاقلة مجردة عن المادة ؟ وهل لهذه القوة سلطان على المادة وعلى الجسم الانساني ؟ . أما المسألة الاولى فمحمولة ومثبتة بأدلة حسنة لا تدخل تحت حصر فان كل تجارب الروحانيين تثبتها . وقد وقف الاستاذ الشهير (وليم كروكس) أمام مئين من أعضاء الجمعية الملوكية الانجليزية حيث فوض اليه رئاستها في سنة ١٨٩٧ وفاه بخطبة مهمة جاء فيها هذه الجملة : « وليس في تاريخي العلمى ما هو أشهر من اشتغالى بالمباحث النفسية فانى نشرت منذ ثلاثين سنة وصف تجارب جربتها من مقتضاها ان وراء ما ندركه علمياً قوة يتولاها عقل غير عقل الانسان العادى . » (روت هذه الخطبة أكثر جرائد العلم وهذه الجملة ترجمة المقتطف .)

بقى علينا أن نسأل هل لهذه القوة تأثير على المسادة وعلى الجسم الانساني ؟ أما تأثيرها على جسم الانسان فما لا يصح التردد فيه لأن حالة الوسطاء الذين يستعملهم علماء الروح فى الاستحضار يثبت ذلك إثباتاً محسوساً . فانا نرى الواسطة يدخل فى دور تشنج هائل وربما

لطم صدغه وخمش وجهه ثم تتخشب أعضاؤه ويصير في حالة مؤلمة . فتارة تستولى الروح على يده فيكتب ما لا يراه ولا يعلمه وتارة تستولى على لسانه فيتكلم في شؤون لم تمر على مخيلته . لاشك أن كل هذا يكفي للدلالة على سلطة تلك القوة على جسم الانسان في بعض الأحوال ولدينا أدلة محسوسة على هذه القضية نستنتجها مما تحدثه الأرواح عند تجسمها (عذرا على هذا التعبير) من الآثار السيئة على جسم الواسطة . روى الاستاذ (اكرا كوف) الروسى في كتابه (المذهب الحيوى والاسبيرتزم) أنه شاهد هو وعدة دكاترة معه أن الجزء الأسفل من جسم الواسطة وهى (مدام ديسبرنس) قد تلاشى بالمرّة بينما كانت الروح قد تجسمت من نصفها الأعلى . قال وقد فحصنا ذلك باللمس والنظر فلم نزد الا اقتناعا ولما ذهبت الروح عاد ثانياً . أما فى سائر أحوال التجسيم فان وزن جسم الوسيط يستحيل الى النصف ولا شك أن نقصان وزن الجسم أو تلاشى قطعة منه يدل على أن تلك القوة تستطيع أن تؤثر على الانسان آثارا سيئة . ومن أحسن الشواهد وأغربها على امكان استيلاء تلك القوة على الجسم ما رواه الدكتور الالماني (سيرياكس) عن نفسه كما رواه عنه الكاتب الشير (جبريل دولن) فى كتابه (الظاهرة الروحانية) . هذا الدكتور كان مراده درس الاسبرتزم بنفسه بدون واسطة ليكون اقتناعه ذاتياً ، وذلك لشدة تشككه وجلس لتلك الغاية هو وامراته وبعض اخوانه ١٩ مجلساً فى غاية الخشوع ينتظر روحاً تطرق المائدة أو تظهر بأثر آخر كما يحصل

بحضور الواسطة فلم ير شيئا واسكن لم تحر عزمته . قال : « في الجلسة العشرين شعرت باحساس خاص من برودة وحرارة متعاقبتين . ثم أحسست بمرور تيار هوائي بارد على وجهي ويدي . ثم شعرت بأن ذراعي الأيسر قد تخدر تماما وصار مشلولا . ثم شعرت بمن يحركها تحريكا شديدا بحيث لم أستطع إيقافه . ولما كانت تلك الحركة تشبه حركة يد الكاتب أتت امرأتي بقلم وورقة فاستولت عليهما يدي اليسرى وأخذت تتحرك في الهواء بسرعة عجيبة حتى خاف الجلوس أن تصيبهم في حركاتها . ثم لطمت هي المائدة فجأة وكسرت القلم . عند ذلك هدأت يدي فعملت علما يقينا بأن لا دخل لارادتي في حركة يدي كما لا دخل لها في سكونها . ثم لما برى القلم امسكته يدي اليسرى وأخذت ترسم في الورقة خطوطا غير منتظمة ثم أخذت ترسم أحرفا أولية كما يفعله الأطفال ثم شعرت بتيار هوائي كالمقدم فزائل يدي كل ألم وكل تشنج . فرفعنا الجلسة وأنا مسرور لتحقيق ان في الطبيعة قوة مستقلة عن ارادتي . الى أن قال . ومن ذلك الحين أخذت خاصية الواسطة تنمو معي بنصائح اخواني الأمريكيين فابتدأت بالكتابة ثم حدث انها رسمت (سبتا) مملوءا زهرا . هنا يجب على أن أقول اني لا أستطيع عمل شيء بيدي اليسرى حتى ولا يمكنني أن آكل بها . أما الرسم فلست احسنه قط ولا بيدي اليمنى . فانا الآن مقتنع تماما بأن القوة التي ترسم أو تكتب بواسطتي مستقلة عني ولها عقل غير عقلي لأنني في أثناء ظهورها أراني متمتعا بكل

قواى العقلية ولا أحسن بأدنى حادث غير ما يحصل فى يدى اليسرى
التي تظهر كأنها ليست بيدي طول مدة الجلسة وكأنها تحت تصرف
غيرى . وانى أستطيع فى أثناء هذا الأمر أن اكلم الذين حولى
بكل حرية . فأراد أحد زملائي الدكاترة أن يوقف حركة يدي
فضغط عليها بيده بطريقة جعل ثقل جسمه كله عليها ، ولكنه
لم ينجح ، واستمرت يدي تحت ضغطه تعمل بقوة ونظام ، مع انى
أستقل بطبعي ضغط اليدين مجردتين . انتهى
أليس فى كل هذا ما يدل على أن فى الوجود قوة عاقلة لها على
جسم الانسان سلطان فى بعض الأحوال ؟

(تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى)

فهرست

﴿ الجزء الاول من كتاب الاسلام في عصر العلم ﴾

صحيفة	
٣	(١) مقدمة
٣٧	(٢) معرفة الانسان نفسه - الفصل الاول
٤٩	(٣) الفصل الثاني - العوامل الذاتية
٦١	(٤) العوامل العمومية - أرواح الجيل العمومية
٦٢	(٥) مناقشات في التعليقات المصطلح عليها
٧٥	(٦) داؤنا روح الجيل
٨٤	(٧) أصل الروح العمومية السائدة في هذا الجيل
٨٥	(٨) الدين قبل ظهور العلم
٨٦	(٩) يقظة العقل
٨٩	(١٠) مبدأ النظر في السكون
٩٠	(١١) الادوار التي تتناوب العقائد الباطلة
٩٣	(١٢) نظرة على ماسبق
٩٧	(١٣) نشأة الروح العلمية التي يسيطر بها الغرب على الشرق
٩٩	(١٤) سبب توق اليونانيين إلى فتح فارس
١٠٠	(١٥) نتيجة هذا الفتح على اليونانيين وتأثير المدنية على العقائد الباطلة

صحيفة

- (١٦) لماذا تؤثر المدنية على العقائد ١٠٣
- (١٧) تأثير فتح بلاد الفرس على اليونانيين من جهة العلم والفلسفة ١٠٩
- (١٨) وفاة الاسكندر وتجزؤ ملكه ١١٣
- (١٩) دار آثار الاسكندرية وكتبتها العلمية ١١٤
- (٢٠) دستور العلوم الطبيعية في هذه المدرسة الكلية ١١٧
- (٢١) دستور العلوم الادبية في كلية الاسكندرية ١١٨
- (٢٢) نظرة على ماسبق ١٢٢
- (٢٣) تاريخ الفلسفة ١٢٤
- (٢٤) مذهب فيثاغورس ١٢٦
- (٢٥) افلاطون ١٣٢
- (٢٦) ارسطو ١٤٢
- (٢٧) مذهب ارسطو ١٤٨
- (٢٨) مذهب ابيقور ١٥٤
- (٢٩) فلسفة بيرون ١٦٤
- (٣٠) نظرة على ماتقدم ١٧٦
- (٣١) مبلغ حظ الفلاسفة الاقدمين من ادراك الحقائق الاولية ١٧٨
- (٣٢) مبلغ مدارك فلاسفة اليونانيين بالمسألة اللاهوتية ١٧٩
- (٣٣) مدارك سقراط في المسألة اللاهوتية ١٨١
- (٣٤) مدارك أفلاطون في المسألة اللاهوتية ١٨٩

صحيفة

- ٢٠١ (٣٥) براهين ارسطو
٢٠٤ (٣٦) نظرة على ماتقدم

كتاب

- ٢٠٨ حياة خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم
٢٠٨ (١) تمهيد
٢١٩ (٢) وجه لزوم السيرة المحمدية لكل إنسان
٢٣١ (٣) كيف كان العالم قبيل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام
٢٤٣ (٤) الاسلام حيال الادوار التي تنتاب العقائد
٢٤٤ (٥) هل يمكن أن يعيش الانسان بلا دين
٢٤٧ (٦) ماهو الدين
٢٥٣ (٧) الاسلام وهو الدين الفطري
٢٦٣ (٨) نظرة على الأدوار التي تنتاب العقائد
٢٧٣ (٩) سحر المدنية المادية
٢٨٥ (١٠) الشبه العلمية والعقائد
٢٨٨ (١١) دستور الكائنات ودستور الانسان
٢٩٤ (١٢) الناس أمام العقيدة بالعالم الروحاني
٢٩٥ (١٣) حال المعتقد بالعالم الروحاني
٣٠٠ (١٤) أثره في الوجود
٣٠٣ (١٥) حال الذي لا يعتقد بالعالم الروحاني

صحيفة

- ٣٠٦ (١٦) أثره في الحياة
- ٣٠٨ (١٧) المعتقد بالوراثة
- ٣١٠ (١٨) الفضائل والذائل
- ٣١٢ (١٩) بيان طبيعة مبدأ طلب الكمال ومبدأ تنازع البقاء
- ٣١٦ (٢٠) المدنية الاسلامية والمدنية الحديثة ✓
- ٣٢١ (٢١) رجوع للمقصد الاصلی
- ٣٢٤ (٢٢) محاكمة مدارك الفلاسفة الاقدمين في المسألة اللاهوتية
- ٣٢٧ (٢٣) النفس المستعدة للايمان بالفطرة
- ٣٣٠ (٢٤) النفس الكافرة بالفطرة
- ٣٣٣ (٢٥) النفس الجامدة بالفطرة
- ٣٣٦ (٢٦) نظرة على ماسبق

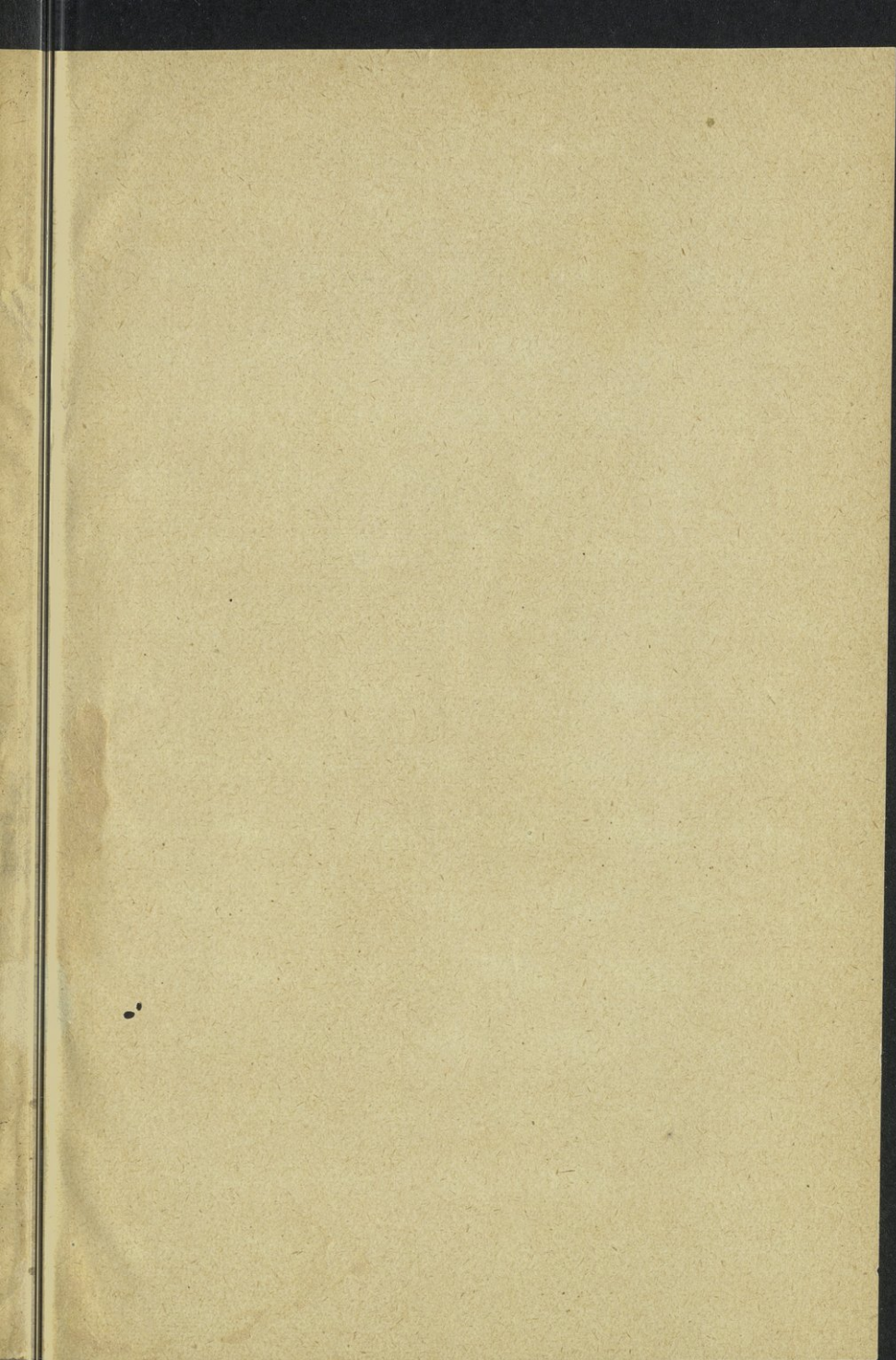
کتاب

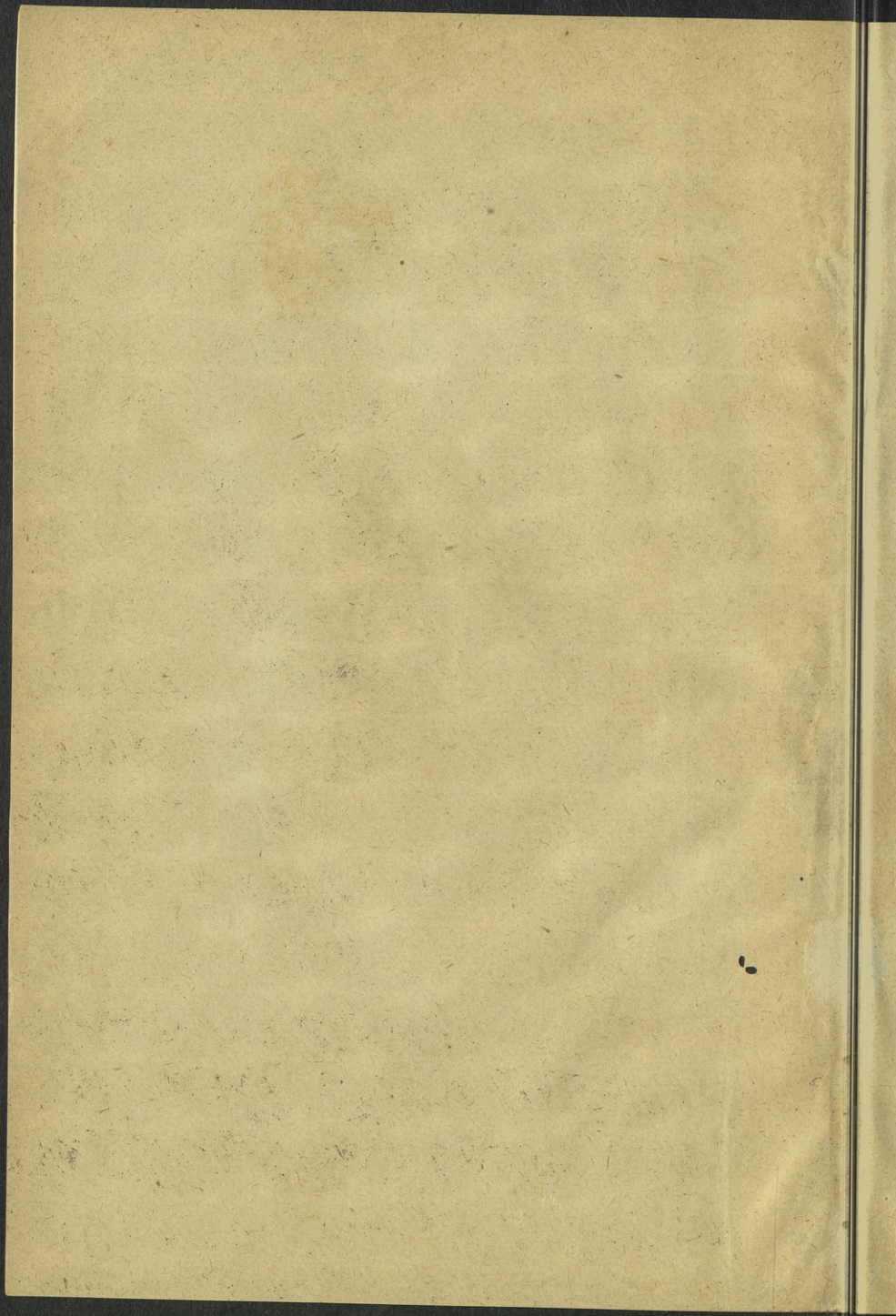
- ٣٤٠ ﴿ ماوراء المادة ﴾
- ٣٤٠ (١) ماوراء المادة على حسب الاسلوب العملي
- ٣٥٢ (٢) أهمية ماوراء المادة عند علماء أوروبا
- ٣٦٤ (٣) مذهب استحضار الارواح عامل كبير لنشر الاسلام في أوروبا
- ٣٦٥ (٤) اعتقاد الشاعر الفيلسوف الشهير (فيكتور هوجو)
- رسالة نينيا عليه الصلاة والسلام
- ٣٧٣ (٥) كيف كان اسراء النبي صلى الله عليه وسلم

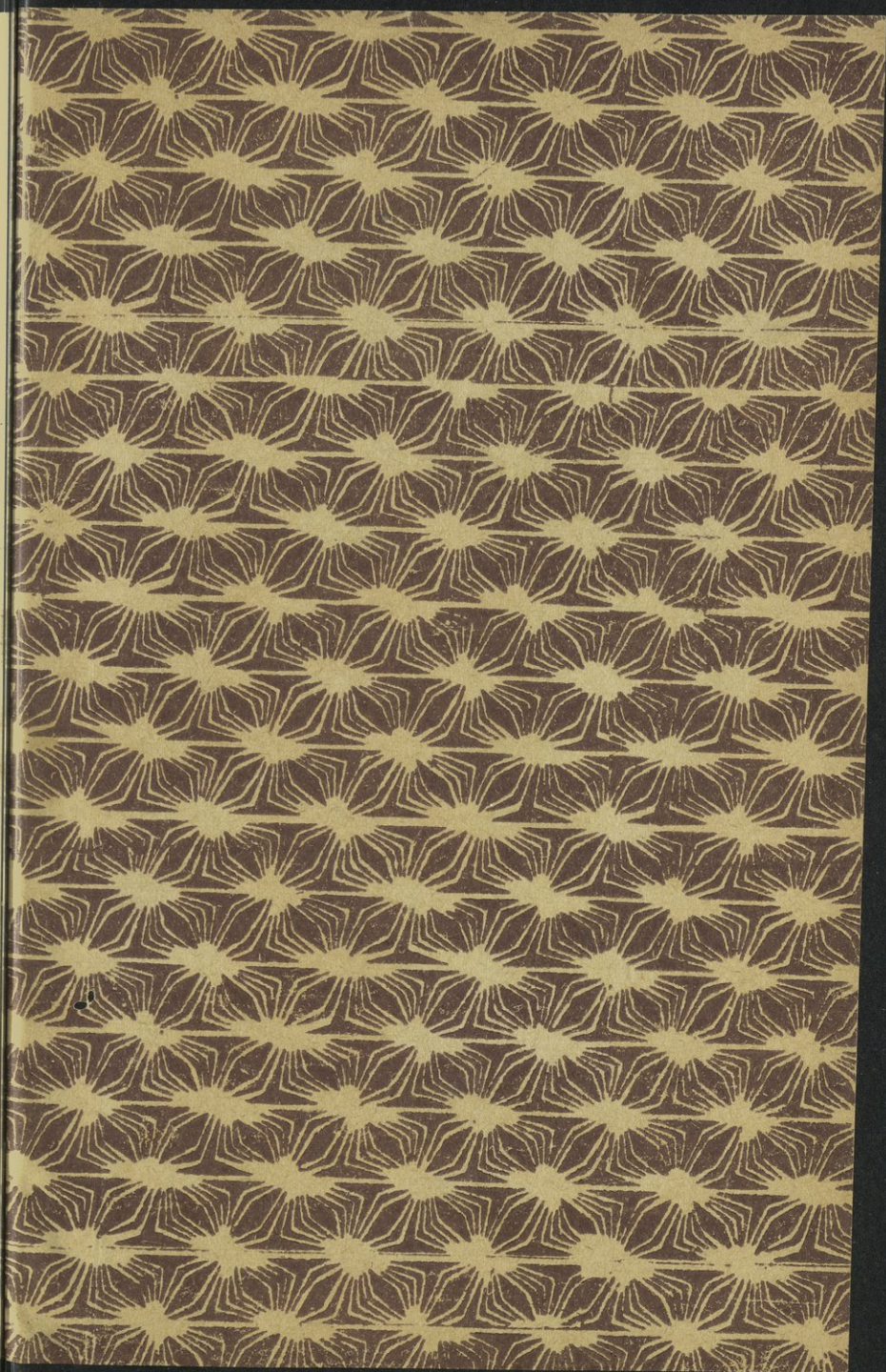
صحيفة

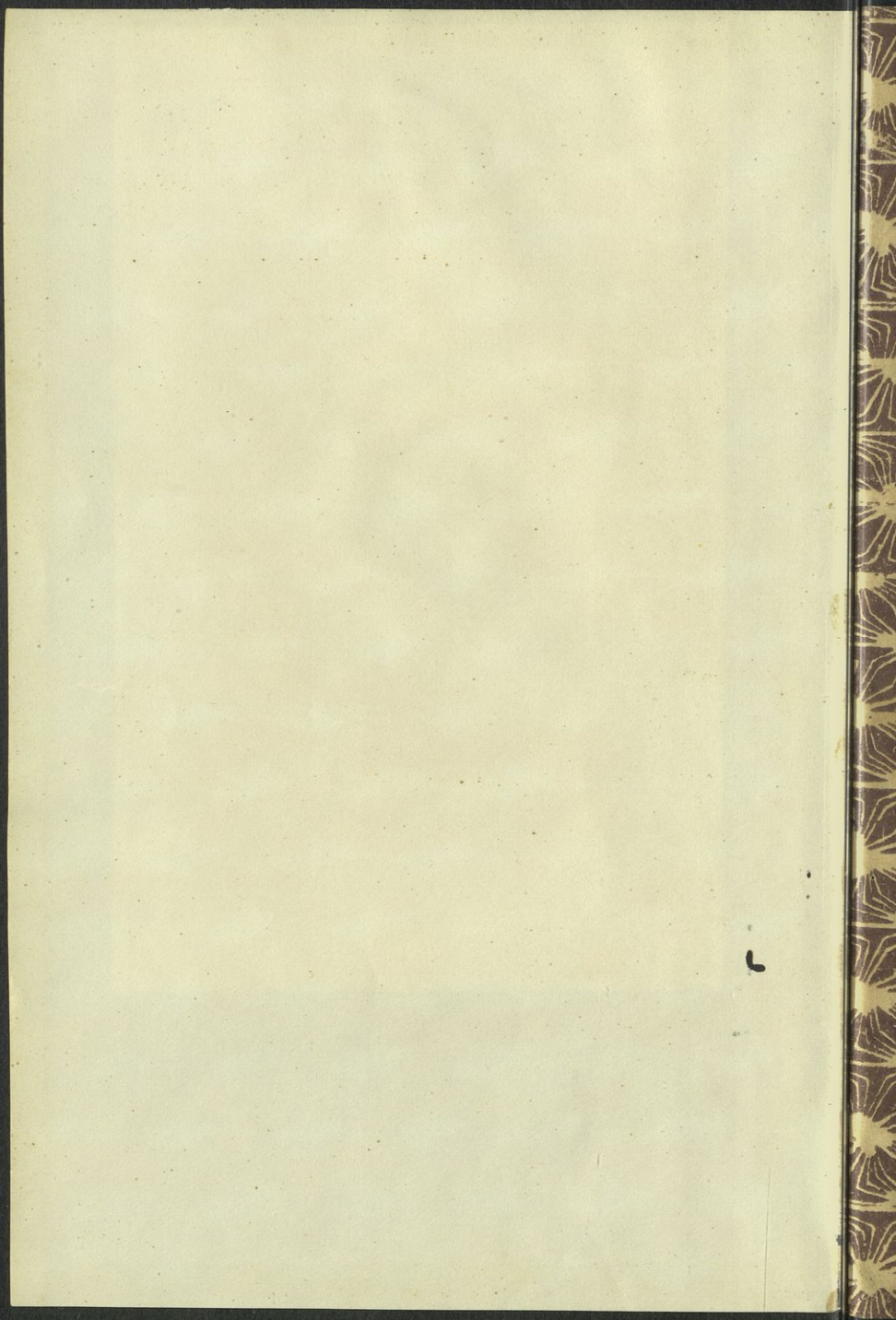
- (٦) رد على مجلة المقتطف في مسألة وراء المادة وسرد أسماء ٣٨٢
العلماء المعتقدين بها
- (٧) الاسبرتزم في انجلترا ٣٩٩
- (٨) الاسبرتزم في فرنسا ٤٠٦
- (٩) الاسبرتزم في المانيا ٤١٣
- (١٠) الاسبرتزم في أرجاء أوربا ٤١٦
- (١١) الاسبرتزم في العالم كله ٤١٩
- (١٢) موجز ماسبق ٤٢١
- (١٣) تاريخ استحضر الأرواح ٤٢٧
- (١٤) مسألة مس الجن للإنسان ٤٣٨

﴿ تم الفهرست ﴾









An oval-shaped library stamp with a serrated border. The text "JAFET LIB." is at the top, "12 DEC 2014" is in the center, and "Circulation Dept. 2" is at the bottom. Two asterisks are on either side of the date. A diagonal line crosses the stamp.

297.15:W141A:v.1:c.1

وجدى، محمد فريد
الاسلام في عصر العلم

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01000105



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

